بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الحجر

[١] ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾.

تقدّم[١] معناه. و «الكتاب» قيل فيه: إنه اسم لجنس الكتب المتقدّمة من التوراة والإنجيل، ثم قرنهما بالكتاب المبين. وقيل: الكتاب هو القرآن، جمع له بين الاسمين.

[٢] ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾.

«رُبَّ» لا تدخل على الفعل، فإذا لحقتها «ما» هيأتها للدخول على الفعل تقول: ربما قام زيد، وربما يقوم زيد. ويجوز أن تكون «ما» نكرة بمعنى شيء، و «يودّ» صفة له؛ أي ربّ شيء يودّ الكافر. وقرأ نافع وعاصم «رُبَمَا» مخفف الباء. الباقون مشدّدة، وهما لغتان. قال أبو حاتم: أهل الحجاز يخففون ربما؛ قال الشاعر:

رُبَمَا ضـربةٍ بسيـف صقيـلٍ بيـن بُصْـرَى وطعنـةٍ نجـلاء[٢]

وتميم وقيس وربيعة يثقلونها. وحكى فيها: رُبَّمَا ورُبَمَا، ورُبَّتَمَا ورُبَتَمَا، بتخفيف الباء وتشديدها أيضاً[٣]. وأصلها أن تستعمل في القليل وقد تستعمل في الكثير؛ أي يودّ الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين؛ قاله الكوفيون. ومنه قول الشاعر:

---

(١) راجع ٨/ ٣٠٤.

(٢) البيت لعدي بن الرعلاء الغساني. وبصرى: بلدة قرب الشام، هي كرسي حوران، كان يقوم فيها سوق للجاهلية. قال صاحب خزانة الأدب: «. . . وإنما صح إضافة بين إلى بصرى لاشتمالها على متعدّد من الأمكنة؛ أي بين أماكن بصرى ونواحيها. وروى الشريف الحسيني في حماسته: «دون بصرى» ودون هنا بمعنى قبل أو بمعنى خلف. وقال العيني: بمعنى عند». راجع الخزانة في الشاهد التاسع والتسعين بعد السبعمائة.

(٣) قال ابن هشام في المغني: «وفي رب ست عشرة لغة: ضم الراء وفتحها، وكلاهما مع التشديد والتخفيف. والأوجه الأربعة مع تاء التأنيث، ساكنة أو محركة، ومع التجرد منها؛ فهذه اثنتا عشرة. والضم والفتح مع إسكان الباء وضم الحرفين مع التشديد ومع التخفيف».

ألا ربّما أهدتْ لك العينُ نظرةً قُصاراك منها أنها عنك لا تُجدي(١)

وقال بعضهم: هي للتقليل في هذا الموضع؛ لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها؛ لشغلهم بالعذاب، والله أعلم. وقال: «رُبَمَا يَوَدُّ» وهي إنما تكون لما وقع؛ لأنه لصدق الوعد كأنه عِيان قد كان. وخرّج الطبرانيّ أبو القاسم من حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «إن ناسا من أمتي يدخلون النار بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم تخالفونا فيه من تصديقكم وإيمانكم نفعكم فلا يبقى موحد إلا أخرجه الله من النار ـ ثم قرأ رسول الله ﷺ - ﴿رُبَمَا يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلِمين﴾. قال الحسن: إذا رأى المشركون المسلمين وقد دخلوا الجنة وما رأوهم في النار تمنوا أنهم كانوا مسلمين. وقال الضحاك: هذا التمني إنما هو عند المعاينة في الدنيا حين تبين لهم الهدى من الضلالة. وقيل: في القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذلّ الكافرين.

[٣] ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ تهديدٌ لهم. ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي يشغلهم عن الطاعة. يقال: ألهاه عن كذا أي شغله. ولهِيَ هو عن الشيء يَلْهَى. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا. وهذه الآية منسوخة بالسيف.

الثانية - في مسند البزّار عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «أربعة من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا». وطول الأمل داء

(١) أي لا تغني؛ يقال: ما يجدي عنك هذا؛ أي ما يغني. وفي بعض نسخ الأصل: لا تجزي؛ بالزاي، وهي بمعنى لا تغني.

عضال ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتدّ علاجه، ولم يفارقه داء ولا نجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من برئه الحكماء والعلماء. وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحب لها والإعراض عن الآخرة. وروي(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نجا أوّل هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخرها بالبخل والأمل». ويروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال: يا أهل دمشق، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح؟ إنّ من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً ويبنون مشيداً ويأملون بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً وبنيانهم قبوراً وأملهم غروراً. هذه عاد قد ملأت البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً، فمن يشتري مني اليوم تركتهم بدرهمين! وأنشد:

يا ذا المؤمل آمالاً وإن بَعُدتْ ... منه ويزعم أن يَحْظَى بأقصاها
أنّى تفوزُ بما ترجوه وَيْكَ وما ... أصبحتَ في ثقة من نَيْل أدناها

وقال الحسن: ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل. وصدق رضي الله عنه! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخي والتواني، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى. وهذا أمر قد شوهد بالعِيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يُطْلَبُ صاحبه ببرهان؛ كما أن قِصر الأمل يبعث على العمل، ويحيل على المبادرة، ويحث على المسابقة.

[٤] ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾.

أي أجل مؤقت كتب لهم في اللوح المحفوظ.

[٥] ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

« من » صلة؛ كقولك: ما جاءني من أحد. أي لا تتجاوز أجلها فتزيد عليه، ولا تتقدّم قبله. ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٢).

---

(١) في ي: يروى. (٢) راجع ٧/٢٠١.

[٦] ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾.

[٧] ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾.

قاله كفار قريش لمحمد ﷺ على جهة الاستهزاء، ثم طلبوا منه إتيان الملائكة دلالة على صدقه. و ﴿لَوْمَا﴾ تَحْضيض على الفعل كلولا وهلا. وقال الفراء: الميم في «لوما» بدل من اللام في لولا. ومثله استولى على الشيء واستومى عليه، ومثله خالمته وخاللته، فهو خِلمي وخِلي؛ أي صديقي. وعلى هذا يجوز «لوما» بمعنى الخبر، تقول: لوما زيد لضرب عمرو. قال الكسائي: لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام. قال ابن مقبِل:

لوما الحياءُ ولوْمَا الدِّين عبتُكما ... ببعض ما فيكما إذ عبتما عَوَرِي

يريد لولا الحياء. وحكى النحاس لوما ولولا وهلا واحد. وأنشد أهل اللغة على ذلك:

تعدّون عَقْر النِّيب أفضلَ مجْدِكم ... بَنِي ضَوْطَرَى لولا الكَمِيُّ المقنَّعا[١]

أي هلا تعدون الكمِيّ المقنعا.

[٨] ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾.

قرأ حفص وحمزة والكسائي ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ واختاره أبو عبيد. وقرأ أبو بكر والمفضل «ما تُنَزَّلُ الملائِكةُ». الباقون «ما تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ» وتقديره: ما تتنزل بتاءين حذفت إحداهما تخفيفاً، وقد شدّد التاء البَزِّي، واختاره أبو حاتم اعتباراً بقوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ والرُّوحُ﴾[٢]. ومعنى «إلاَّ بِالْحَقّ» إلا بالقرآن. وقيل: بالرسالة؛ عن مجاهد. وقال الحسن: إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا. ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ أي لو تنزلت الملائكة بإهلاكهم لما أمهلوا ولا قبلت لهم توبة. وقيل: المعنى لو تنزلت الملائكة تشهد لك فكفروا

---

(١) البيت لجرير يهجو الفرزدق. والعقر: ضرب قوائم الناقة بالسيف. والنيب (بكسر النون): جمع ناب، وهي الناقة المسنة. وضوطرى: هو الرجل الضخم اللئيم الذي لا غناء عنده؛ وهي كلمة ذمّ وسب. والكمي: الشجاع المتكمي في سلاحه؛ لأنه كميّ نفسه أى شدّها بالدرع والبيضة. والمقنع الذي على رأسه البيضة والمغفر. (٢) راجع ٢٠/١٣٣.

بعد ذلك لم ينظروا. وأصل «إذاً» إذ أن ـ ومعناه حينئذ ـ فضم إليها أن، واستثقلوا الهمزة فحذفوها.

[٩] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ يعني القرآن. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يزاد فيه أو ينقص منه. قال قتادة وثابت البُنَانيّ: حفِظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلاً أو تنقص منه حقاً؛ فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظاً، وقال في غيره: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾[١]، فوكل حفظه إليهم فبدّلوا وغيروا. أنبأنا الشيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله عن أبيه الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبي الحسن علي بن خلف بن معزوز الكومي التلِمساني قال: قرىء على الشيخة العالمة[٢] فخر النساء شهدة بنت أبي نصر[٣] أحمد بن الفرج الدينورِيّ وذلك بمنزلها بدار السلام في آخر جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وخمسمائة، قيل لها: أخبركم الشيخ الأجل العامل نقيب النقباء أبو الفوارس طرّاد بن محمد الزينبِي قراءة عليه وأنت تسمعين سنة تسعين وأربعمائة، أخبرنا علي بن عبد الله بن إبراهيم حدّثنا أبو علي عيسى بن محمد بن أحمد بن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المعروف بالطومارِيّ حدّثنا الحسين بن فهم قال: سمعت يحيى بن أكثم يقول: كان للمأمون ـ وهو أمير إذ ذاك ـ مجلس نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة، قال: فتكلم فأحسن الكلام والعبارة، قال: فلما أن تقوّض المجلس دعاه المأمون فقال له: إسرائيلي؟ قال نعم. قال له: أسلِم حتى أفعل بك وأصنع، ووعده. فقال، ديني ودين آبائي! وانصرف. قال: فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً، قال: فتكلم على الفقه فأحسن الكلام؛ فلما تقوّض المجلس دعاه المأمون وقال: ألست صاحبنا بالأمس؟ قال له: بلى. قال: فما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت [مع ما][٤] تراني حسن

---

(١) راجع ٦/١٨٨.

(٢) في ي: الصالحة.

(٣) في و: أبي بكر.

(٤) من ي.

الخط، فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسة فاشترِيت مني، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها البيعة فاشترِيت مني وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الورّاقين فتصفحوها، فلما أن أوجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها؛ فعلمت أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي. قال يحيى بن أكثم: فحججت تلك السنة فلقِيت سفيان بن عيينة فذكرت له الخبر فقال لي: مصداق هذا في كتاب الله عز وجل. قال قلت: في أي موضع؟ قال: في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾، فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضِع. وقيل: «وإنا له لحافظون» أي لمحمد ﷺ من أن يتقوّل علينا أو نتقول عليه. أو «وإنا له لحافظون» من أن يكاد أو يقتل. نظيره ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(١). و «نَحْنُ» يجوز أن يكون موضعه رفعا بالابتداء و «نزلنا» الخبر. والجملة خبر «إنّ» ويجوز أن يكون «نحن» تأكيداً لاسم «إن» في موضع نصب، ولا تكون فاصلة لأن الذي بعدها ليس بمعرفة وإنما هو جملة، والجمل تكون نعوتاً للنكرات فحكمها حكم النكرات.

[١٠] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

المعنى: ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً، فحذف. والشيع جمع شيعة وهي الأمّة، أي في أممهم؛ قاله ٱبن عباس وقتادة. الحسن: في فرقهم. والشيعة: الفرقة والطائفة من الناس المتآلفة المتفقة الكلمة. فكأن الشِّيَع الفِرَق؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾(٢). وأصله مأخوذ من الشياع وهو الحطب الصغار يوقد به الكبار ـ كما تقدم في «الأنعام». وقال الكلبي: إن الشِّيع هنا القرى.

(١) راجع ٦/٢٤٢.

(٢) راجع ٧/٩.

[١١] ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ١١﴾.

تسلية للنبيّ ﷺ؛ أي كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك فعِل بمن قبلك من الرسل.

[١٢] ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ١٢﴾.

[١٣] ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ أي الضلال والكفر والاستهزاء والشرك. ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ من قومك؛ عن الحسن وقتادة وغيرِهما. أي كما سلكناه في قلوب من تقدم من شِيع الأولين كذلك نسلكه في قلوب مشركي قومك حتى لا يؤمنوا بك، كما لم يؤمن من قبلهم برسلهم. وروى ابن جُريج عن مجاهد قال: نسلك التكذيب. والسَّلْك: إدخال الشيء في الشيء كإدخال الخيط في المِخْيَط. يقال: سلكه يسْلُكه سَلْكاً وسُلوكاً، وأسلكه إسلاكاً. وسلك الطريق سُلُوكاً وسَلْكاً وأسلكه دخله، والشيءُ في غيره مثله، والشيء كَذلك والرُّمْحَ، والخيط في الجوهر؛ كله فَعَلَ وأفْعَلَ. وقال عدِيّ بن زيد:

وقد سلكوك في يوم عَصيب[١]

والسِّلك (بالكسر) الخيط. وفي الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة. وقيل: المعنى نسلك القرآن في قلوبهم فيكذبون به. وقال[٢] الحسن ومجاهد وقتادة القول الذي عليه أكثر أهل التفسير، وهو ألزم حجة على المعتزلة. وعن الحسن أيضاً: نسلك الذكر إلزاماً للحجة؛ ذكره الغَزْنَوِيّ. ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي مضت سنة الله بإهلاك الكفار، فما أقرب هؤلاء من الهلاك. وقيل: «خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ» بمثل ما فعل هؤلاء من التكذيب والكفر، فهم يقتدون بأولئك.

(١) هذا عجز البيت، وصدره كما في اللسان وشعراء النصرانية:

وكنت لزاز خصمك لم أعرد

(٢) في الأصول: «وقرأ».

[١٤] ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤﴾.

[١٥] ﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾.

يقال: ظلّ يفعل كذا، أي يفعله بالنهار. والمصدر الظُّلول. أي لو أجيبوا إلى ما اقترحوا من الآيات لأصروا على الكفر وتعللوا بالخيالات؛ كما قالوا للقرآن المعجز: إنه سحر. ﴿يَعْرُجُونَ﴾ من عَرَج يَعْرُج أي صعِد. والمعارج المصاعد. أي لو صعِدوا إلى السماء وشاهدوا الملكوت والملائكة لأصروا على الكفر؛ عن الحسن وغيره. وقيل: الضمير في «عَلَيْهِم» للمشركين، وفي «فَظَلُّوا» للملائكة، تذهب وتجيء. أي لو كشف لهؤلاء حتى يعاينوا أبواباً في السماء تصعد فيها الملائكة وتنزل لقالوا: رأينا بأبصارنا ما لا حقيقة له؛ عن ابن عباس وقتادة. ومعنى ﴿سُكِّرَتْ﴾ سدّت بالسحر؛ قاله ابن عباس والضحاك. وقال الحسن: سُحرت. الكلبي: أُغشيت أبصارنا؛ وعنه أيضاً عَمِيت. قتادة: أُخذت. وقال المُؤرِّج: دِيرَ بنا، من الدوران؛ أي صارت أبصارنا سكرى. جُوَيْبِر: خُدعت. وقال أبو عمرو بن العلاء: «سكرت» غُشِّيت وغُطّيت. ومنه قول الشاعر:

وطلعـت شمـس عليهـا مِغْفَـر ... وجعلـت عيـن الحَـرور تَسْكُـر

وقال مجاهد: «سُكِّرت» حبست. ومنه قول أوس بن حَجَر:

فصـرت[١] علـى ليلـة سـاهـرهْ ... فليســت بطَلْـقٍ ولا سَـاكِـرَهْ

قلت: وهذه أقوال متقاربة يجمعها قولكِ: منِعت. قال ابن عُزَيز: «سُكِّرتْ أبصارنا» سدّت أبصارنا؛ هو من قولك: سكرت النهر إذا سددته. ويقال: وهو من سُكْر الشراب، كأن العين يلحقها ما يلحق الشارب إذا سكِر. وقرأ ابن كثير «سَكِرتْ» بالتخفيف. والباقون بالتشديد. قال ابن الأعرابي: سُكِرت ملئت[٢]. قال المهدَوِيّ: والتخفيف والتشديد

(١) في اللسان مادة سكر: «جذلت» بالجيم والذال المفتوحتين، ومعنى «جذل» انتصب وثبت لا يبرح. وليلة طلق: مشرق لا برد فيها ولا حرّ، ولا مطر ولا قرّ.

(٢) عبارة ابن الأعرابي كما في نسخ الأصل: «سكرت مثلت، وسكرت ملكت» ولم نر ما يؤيد هذا، ولعله تكرير من النساخ مع تحريف.

في «سكرت» ظاهران، التشديد للتكثير والتخفيف يؤدّي عن معناه. والمعروف أن «سكر» لا يتعدى. قال أبو علي: يجوز أن يكون سُمع متعدياً في البصر. ومن قرأ «سَكِرت» فإنه شبه ما عرض لأبصارهم بحال السكران، كأنها جرت مجرى السكران لعدم تحصيله. وقد قيل: إنه بالتخفيف [من] سكر الشراب، وبالتشديد أُخِذت، ذكرهما الماوردي. وقال النحاس: والمعروف من قراءة مجاهد والحسن «سكِرت» بالتخفيف. قال الحسن: أي سُحِرت. وحكى أبو عبيد عن أبي عبيدة أنه يقال: سُكّرت أبصارهم إذا غَشِيها سَمادِير[1] حتى لا يبصروا. وقال الفراء: من قرأ «سَكَرت» أخذه من سكور الريح[2]. قال النحاس. وهذه الأقوال متقاربة. والأصل فيها ما قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله تعالى، قال: هو من السكر في الشراب. وهذا قول حسن؛ أي غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشي السكران ما غطى عقله. وسُكور الريح سكونها وفتورها: فهو يرجع إلى معنى التحيير.

[١٦] ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾.

لما ذكر كفر الكافرين وعجز أصنامهم ذكر كمال قدرته ليُستدلّ بها على وحدانيته. والبروج: القصور والمنازل. قال ابن عباس: أي جعلنا في السماء بروج الشمس والقمر؛ أي منازلهما. وأسماء هذه البروج: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأَسَد، والسُّنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدْي، والدّلو، والحوت. والعرب تَعُدّ المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجلِّ العلوم ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخِصب والجَدْب. وقالوا: الفلك اثنا عشر برجاً، كلّ برج مِيلان ونصف. وأصل البروج الظهور؛ ومنه تبرّج المرأة بإظهار زينتها. وقد تقدّم هذا المعنى في النساء[3]. وقال الحسن وقتادة: البروج النجوم، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها. وقيل: الكواكب العظام؛ قاله أبو صالح،

(١) السمادير: ضعف البصر. وقيل: هو الذي يتراءى للإنسان من ضعف بصره عند السكر من الشراب.

(٢) سكونها بعد الهبوب.

(٣) راجع ٥/ ٢٨٤.

يعني السبعة السيارة[1]. وقال قوم: «بُرُوجاً»؛ أي قصوراً وبيوتاً فيها الحرَس، خلقها الله في السماء. فالله أعلم. ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ يعني السماء؛ كما قال في سورة الملك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[2]. ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ للمعتبرين والمتفكرين.

[١٧] ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾.

أي مرجوم. والرجم الرمي بالحجارة. وقيل: الرجم اللعن والطرد. وقد تقدّم[3]. وقال الكسائي: كل رجيم في القرآن فهو بمعنى الشتم. وزعم الكلبي أن السموات كلها لم تحفظ من الشياطين إلى زمن عيسى، فلما بعث الله تعالى عيسى حفظ منها ثلاث سموات إلى مبعث رسول الله ﷺ، فحفظ جميعها بعد بعثه وحُرست منهم بالشُّهُب. وقاله ابن عباس رضي الله عنه. قال ابن عباس: وقد كانت الشياطين لا يحجبون عن السماء، فكانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنة، فيزيدون عليها تسعاً فيحدّثون بها أهل الأرض؛ الكلمة حق والتسع باطل؛ فإذا رأوا شيئاً مما قالوه صدّقوهم فيما جاءوا به، فلما ولد عيسى ابن مريم عليهما السلام منعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد ﷺ منعوا من السموات كلها، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمِيَ بشِهاب؛ على ما يأتي[4].

[١٨] ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

أي لكن من استرق السمع، أي الخطفة اليسيرة، فهو استثناء منقطع. وقيل: هو متصل، أي إلا ممن استرق السمع. أي حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره، إلا من استرق السمع فإنا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحي، فأما الوحي فلا تسمع منه شيئاً؛ لقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[5]. وإذا استمع الشياطين

(١) وهي ـ حسب ترتيبها التصاعدي ـ: القمر، عطارد، الزهرة، الشمس، المريخ، المشتري، زحل.

(٢) راجع ١٨/ ٢١٠. (٣) راجع ٩/ ٩١.

(٤) راجع ١٥/ ٦٤، ١٩/ ١٠. (٥) راجع ١٣/ ١٤٢.

الى شيء ليس بوحي فإنهم يقذفونه إلى الكهنة في أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم[١]؛ ذكره الحسن وابن عباس.

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ أتبعه: أدركه ولحقه. وشِهاب: كوكب مضيء. وكذلك شِهاب ثاقب. وقوله: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾[٢] بشعلة نار في رأس عود؛ قاله ابن عُزيز. وقال ذو الرمة:

كأنه كوكب في إثْر عِفرِية[٣] مسوَّمٌ في سواد الليل مُنْقَضِب

وسمي الكوكب شهاباً لبريقه، بشبه النار. وقيل: شهاب لشعلة من نار، قبس لأهل الأرض فتحرقهم ولا تعود إذا أحرقت كما إذا أحرقت النار لم تعد، بخلاف الكوكب فإنه إذا أحرق عاد إلى مكانه. قال ابن عباس: تصعد الشياطين أفواجاً تسترق السمع فينفرد المارد منها فيعلو، فَيُرْمى بالشهاب فيصيب جبهته أو أنفه أو ما شاء الله فيلتهب، فيأتي أصحابه وهو يلتهب فيقول: إنه كان من الأمر كذا وكذا، فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليها تسعاً، فيحدّثون بها أهل الأرض؛ الكلمة حق والتسع باطل. فإذا رأوا شيئاً مما قالوا قد كان، صدقوهم بكل ما جاءوا به من كذبهم. وسيأتي هذا المعنى مرفوعاً في سورة «سبأ»[٤] إن شاء الله تعالى.

واختلف في الشهاب هل يقتل أم لا. فقال ابن عباس: الشهاب يجرح ويُحرق ويخبِل ولا يقتل. وقال الحسن وطائفة: يَقتل؛ فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان: أحدهما ـ أنهم يُقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم؛ فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكَهانة. والثاني ـ أنهم يُقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن؛ ولذلك ما يعودون إلى استراقه، ولو لم يصل لانقطع الاستراق وانقطع الإحراق؛ ذكره الماورديّ.

---

(١) الخبل (بسكون الباء): فساد الأعضاء.

(٢) راجع ١٣/١٥٦.

(٣) أي إثر شيطان، ومسوّم: معلم. ومنقضب: منقض من مكانه.

(٤) راجع ١٤/٢٩٥.

قلت : والقول الأوّل أصح على ما يأتي بيانه في « الصافات » واختلف هل كان رميٌ بالشهب قبل المبعث ؟ فقال الأكثرون نعم . وقيل : لا ، وإنما ذلك بعد المبعث . وسيأتي بيان هذه المسألة في سورة «الجن»(١) إن شاء الله تعالى. وفي «الصافات» أيضاً. قال الزجاج: والرمي بالشهب من آيات النبيّ ﷺ مما حدث بعد مولده؛ لأن الشعراء في القديم لم يذكروه في أشعارهم، ولم يشبهوا الشيء السريع به كما شبهوا بالبرق وبالسيل . ولا يبعد أن يقال : انقضاض الكواكب كان في قديم الزمان ولكنه لم يكن رجوماً للشياطين، ثم صار رجوماً حين ولد النبيّ ﷺ. وقال العلماء : نحن نرى انقضاض الكواكب ، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ثم يصير ناراً إذا أدرك الشيطان . ويجوز أن يقال : يرمون بشعلة من نار من الهوى فيخيل إلينا أنه نجم سري . والشِّهاب في اللغة النار الساطعة . وذكر أبو داود عن عامر الشعبي قال: لما بعث النبيّ ﷺ رجمت الشياطين بنجوم لم تكن ترجم بها قبل ، فأتوا عبد ياليل بن عمرو الثقفي فقالوا : إن الناس قد فزعوا وقد أعتقوا رقيقهم وسيّبوا أنعامهم لما رأوا في النجوم. فقال لهم ـ وكان رجلاً أعمى ـ: لا تعجلوا وانظروا فإن كانت النجوم التي تُعرف فهي عند فناء الناس ، وإن كانت لا تعرف فهي من حدث. فنظروا فإذا هي نجوم لا تعرف، فقالوا: هذا من حدث. فلم يلبثوا حتى سمعوا بالنبيّ ﷺ.

[١٩] ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ .

[٢٠] ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ هذا من نعمه أيضاً، ومما يدلّ على كمال قدرته. قال ابن عباس: بسطناها على وجه الماء؛ كما قال: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾(١) أي

(١) راجع ١٩/ ١٠، و ٢٠١.

بسطها. وقال: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾[(١)]. وهو يرد على من زعم أنها كالكرة. وقد تقدّم[(٢)]. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثابتة لئلا تتحرّك بأهلها. ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أي مقدّر معلوم؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبير. وإنما قال: «مَوْزُونٍ» لأن الوزن يعرف به مقدار الشيء. قال الشاعر:

قد كنتُ قبلَ لقائكم ذا مِرّة عندي لِكُلِّ مخاصِم مِيزانه

وقال قتادة: موزون يعني مقسوم. وقال مجاهد: موزون معدود. ويقال: هذا كلام موزون؛ أي منظوم غير منتثر. فعلى هذا أي أنبتنا في الأرض ما يوزن من الجواهر والحيوانات والمعادن. وقد قال الله عز وجل في الحيوان: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾[(٣)]. والمقصود من الإنبات الإنشاء والإيجاد. وقيل: ﴿أَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ أي في الجبال ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقزدير، حتى الزّرنيخ والكحل، كل ذلك يوزن وزنا. روي معناه عن الحسن وابن زيد. وقيل: أنبتنا في الأرض الثمار مما يكال ويوزن. وقيل: ما يوزن فيه الأثمان لأنه أجلّ قدراً وأعم نفعاً مما لا ثمن له. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ يعني المطاعم والمشارب التي يعيشون بها؛ واحدها معيشة (بسكون الياء). ومنه قول جرير:

تكلفني مَعِيشةَ آلِ زيدٍ وَمَنْ لي بالمرقّق والصِّناب[(٤)]

والأصل مَعْيِشة على مَفْعِلة (بتحريك الياء). وقد تقدّم في الأعراف[(٥)]. وقيل: إنها الملابِس؛ قاله الحسن. وقيَل: إنها التصرف في أسباب الرزق مدّة الحياة. قال الماورديّ: وهو الظاهر. ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ يريد الدواب والأنعام؛ قاله مجاهد. وعنده أيضاً هم العبيد والأولاد الذين قال الله فيهم: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[(٦)] ولفظ «من» يجوز أن يتناول العبيد والدواب إذا اجتمعوا؛ لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل، غلب من يعقل. أي

(١) راجع ١٧/ ٥٢.
(٢) راجع ٩/ ٢٨٠.
(٣) راجع ٤/ ٦٩.
(٤) الرقاق الأرغفة الرقيقة الواسعة والخردل المضروب بالزبيب يؤتدم به.
(٥) راجع ٧/ ١٦٧.
(٦) راجع ١٠/ ٢٥٢.

جعلنا لكم فيها معايشَ وعبيداً وإماء ودوابّ وأولاداً نرزقهم ولا ترزقونهم. فـ «ـمن» على هذا التأويل في موضع نصب؛ قال معناه مجاهد وغيره. وقيل: أراد به الوحش. قال سعيد: قرأ علينا منصور ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ قال: الوحش. فـ «ـمن» على هذا تكون لما لا يعقل، مثل ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾[(١)] الآية. وهي في محل خفض عطفاً على الكاف والميم في قوله: «لَكُمْ». وفيه قبح عند البصريين؛ فإنه لا يجوز عندهم عطف الظاهر على المضمر إلا بإعادة حرف الجر؛ مثل مررت به وبزيد. ولا يجوز مررت به وزيد إلا في الشعر. كما قال:

فاليومَ قرّبت تهجونا وتَشْتِمنا ... فاذهبْ فما بك والأيامِ مِن عَجَب

وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[(١)] وسورة «النساء»[(٢)].

[٢١] ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي وإن من شيء من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا عندنا خزائنه؛ يعني المطر المنزل من السماء، لأن به نبات كل شيء. قال الحسن: المطر خزائن كل شيء. وقيل: الخزائن المفاتيح، أي في السماء مفاتيح الأرزاق؛ قاله الكلبي. والمعنى واحد. ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أي ولكن لا ننزله إلا على حسب مشيئتنا وعلى حسب حاجة الخلق إليه؛ كما قال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾[(٤)]. وروي عن ابن مسعود والحكم بن عتيبة وغيرهما أنه ليس عام أكثر مطراً من عام، ولكن الله يقسمه كيف شاء، فيمطر قوم ويحرم آخرون، وربما كان المطر في البحار والقِفار. والخزائن جمع الخزانة، وهو الموضع الذي يستر فيه الإنسان ماله. والخِزانة أيضاً مصدر خَزَنَ يَخْزُن. وما كان في خِزانة الإنسان كان مُعَدًّا له. فكذلك ما يقدر عليه الرب

(١) راجع ٢٩١/١٢.
(٢) راجع ٣٠٠/١.
(٣) راجع ٣/٥ فما بعد.
(٤) راجع ٢٧/١٦.

فكأنه مُعَدٌّ عنده؛ قاله القشيري. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه أنه قال: في العرش مثال كل شيء خلقه الله في البر والبحر. وهو تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾. والإنزال بمعنى الإنشاء والإيجاد؛ كقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾[(١)] وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[(٢)]. وقيل: الإنزال بمعنى الإعطاء، وسماه إنزالاً لأن أحكام الله إنما تنزل من السماء.

[٢٢] ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ﴾ قراءة العامة «الرِّيَاحَ» بالجمع. وقرأ حمزة بالتوحيد؛ لأن معنى الريح الجمع أيضاً وإن كان لفظها لفظ الواحد. كما يقال: جاءت الريح من كل جانب. كما يقال: أرض سَباسِب[(٣)] وثوب أخلاقٌ. وكذلك تفعل العرب في كل شيء اتسع. وأما وجه قراءة العامة فلأن الله تعالى نعتها بـ ﴿لَوَاقِحَ﴾ وهي جمع. ومعنى «لَوَاقِحَ» حوامل؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسَّحاب والخير والنفع. قال الأزهري: وجعل الريح لاقحاً لأنها تحمل السحاب؛ أي تُقِلّه وتصرّفه ثم تَمْرِيه[(٤)] فتستَدِرّه، أي تنزله؛ قال الله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً ﴾[(٥)] أي حملت. وناقة لاقح ونُوق لواقح إذا حملت الأجنة في بطونها. وقيل: لواقح بمعنى مُلْقِحة وهو الأصل، ولكنها لا تلقح إلا وهي في نفسها لاقح، كأن الرياح لَقِحت بخير. وقيل: ذوات لقح، وكل ذلك صحيح؛ أي منها ما يُلقح الشجر؛ كقولهم: عيشة راضية؛ أي فيها رضاً، وليل نائم؛ أي فيه نوم. ومنها ما تأتي بالسحاب. يقال: لَقِحت الناقة (بالكسر) لَقَحا ولَقاحاً (بالفتح) فهي لاقح. وألقحها الفحل أي ألقى إليها

---

(١) راجع ١٥/ ٢٣٤.

(٢) راجع ١٧/ ٢٦٠.

(٣) السبسب: الأرض المستوية البعيدة.

(٤) مرت الريح السحاب: إذا أنزلت منه المطر.

(٥) راجع ٧/ ٢٢٨.

الماء فحملته؛ فالرياح كالفحل للسحاب. قال الجوهري: ورياح لواقح ولا يقال مَلاقح، وهو من النوادر. وحكى المهدوي عن أبي عبيدة: لواقح بمعنى ملاقح، ذهب إلى أنه جمع مُلْقِحة ومُلْقِح، ثم حذفت زوائده. وقيل: هو جمع لاقحة ولاقح، على معنى ذات اللّقاح على النسب. ويجوز أن يكون معنى لاقح حاملاً. والعرب تقول للجنوب: لاقح وحامل، وللشّمال حائل وعقيم. وقال عبيد بن عُمير: يرسل الله المبشِّرة فتَقِمّ(١) الأرض قمّا، ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب، ثم يرسل المؤلفة فتؤلفه، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر. وقيل: الريح الملاقح التي تحمل الندى فتمجّه في السحاب، فإذا اجتمع فيه صار مطراً. وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح الجنوب من الجنة وهي الريح اللواقح التي ذكرها الله في كتابه وفيها منافع للناس». وروي عنه عليه السلام أنه قال: «ما هبّت جنوب إلا أنبع الله بها عيناً غَدقة». وقال أبو بكر بن عياش: لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيها؛ فالصَّبا تهيّجه، والدَّبُور تُلقحه، والجنوب تُدِرّه، والشمال تفرّقه.

الثانية ـ روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم عن مالك ـ واللفظ لأشهب ـ قال مالك: قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ فلقاح القمح عندي أن يحبب ويُسَنْبِل، ولا أدري ما ييبس في أكمامه، ولكن يُحبّب حتى يكون لو يبس حينئذ لم يكن فساداً لا خير فيه. ولقاح الشجر كلها أن تثمر ثم يسقط منها ما يسقط ويثبت ما يثبت، وليس ذلك بأن تورّد. قال ابن العربي: إنما عوّل مالك في هذا التفسير على تشبيه لقاح الشجر بلقاح الحمل، وأن الولد إذا عقد وخلق ونفخ فيه الروح كان بمنزلة تحبب الثمر وتسنبله؛ لأنه سُمي باسم تشترك فيه كل حاملة وهو اللقاح، وعليه جاء الحديث «نهى النبيّ ﷺ عن بيع الحَبّ حتى يشتد». قال ابن عبد البر: الإبَّار عند أهل العلم في النخل التلقيح، وهو أن يؤخذ شيء من طلع [ذكور] النخل فيُدْخَل بين ظهراني طلع الإناث.

(١) قم البيت: كنسه.

ومعنى ذلك في سائر الثمار طلوع الثمرة من التين وغيره حتى تكون الثمرة مرئية منظوراً إليها والمعتبر عند مالك وأصحابه فيما يذكر من الثمار التذكير، وفيما لا يذكّر أن يثبت من نوّاره ما يثبت ويسقط ما يسقط. وحدّ ذلك في الزرع ظهوره من الأرض؛ قاله مالك. وقد روي عنه أن إباره أن يحبّب، ولم يختلف العلماء أن الحائط إذا انشق طلع إناثه فأُخّر إباره وقد أبر غيره ممن حاله مثل حاله، أن حكمه حكم ما أبر؛ لأنه قد جاء عليه وقت الأبار وثمرته ظاهرة بعد تغيبها في الحب. فإن أبر بعض الحائط كان ما لم يؤبر تبعاً له. كما أن الحائط إذا بدا صلاحه كان سائراً لحائط تبعاً لذلك الصلاح في جواز بيعه.

الثالثة ـ روى الأئمة كلّهم عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ابتاع نخلاً بعد أن تؤبّر فثمرتها للذي باعها إلا أن يشترط المبتاع، ومن ابتاع عبداً فماله للذي باعه إلا أن يشترط المبتاع». قال علماؤنا: إنما لم يدخل الثمر المؤبّر مع الأصول في البيع إلا بالشرط؛ لأنه عين موجودة يحاط بها أمن سقوطها غالباً. بخلاف التي لم تؤبر؛ إذ ليس سقوطها مأموناً فلم يتحقق لها وجود، فلم يجز للبائع اشتراطها ولا استثناؤها؛ لأنها كالجنين. وهذا هو المشهور من مذهب مالك. وقيل: يجوز استثناؤها؛ وهو قول الشافعي.

الرابعة ـ لو اشتُرِي النخل وبقي الثمر للبائع جاز لمشتري الأصل شراء الثمرة قبل طِيبها على مشهور قول مالك، ويرى لها حكم التبعية وإن أفردت بالعقد، وعنه في رواية: لا يجوز. وبذلك قال الشافعي وأبو حنيفة والثوري وأهل الظاهر وفقهاء الحديث. وهو الأظهر من أحاديث النهي عن بيع الثمرة قبل بدوّ صلاحها.

الخامسة ـ ومما يتعلق بهذا الباب النهي عن بيع الملاقح؛ والملاقح الفحول من الإبل، الواحد مُلقِح. والملاقح أيضاً الإناث التي في بطونها أولادُها، الواحدة ملقَحة (بفتح القاف) والملاقيح ما في بطون النوق من الأجنة، الواحدة ملقوحة، ومن قولهم: لُقِحت؛ كالمحموم من حم، والمجنون من جُنّ، وفي هذا جاء النهي. وقد جاء عن النبيّ ﷺ:

أنه نهى عن المَجْر وهو بيع ما في بطون الإناث. ونهى عن المضامين والملاقيح. قال أبو عبيد: المضامين ما في البطون، وهي الأجنة. والملاقيح ما في أصلاب الفحول. وهو قول سعيد بن المسيّب وغيره. وقيل بالعكس: إن المضامين ما في بطون الجمال، والملاقيح ما في بطون الإناث. وهو قول ابن حبيب وغيره. وأيّ الأمرين كان، فعلماء المسلمين مجمعون على أن ذلك لا يجوز. وذكر المزني عن ابن هشام شاهداً بأن الملاقيح ما في البطون لبعض الأعراب:

مَنِيّتي مَلاقِحاً في الأبْطُنِ ... تُنْتَج ما تَلْقَحُ بعدَ أزمُنِ[(١)]

وذكر الجوهري على ذلك شاهداً قول الراجز:

إنّا وَجدْنا طَرَدَ الهَوَامِل ... خيراً من التأنان والمسائِل[(٢)]

وعِدَةِ العامِ وعامٍ قابلِ ... مَلْقوحةً في بطن نابٍ حائلِ

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من السحاب. وكل ما علاك فأظلّك يسمى سماء. وقيل: من جهة السماء. ﴿مَاءً﴾ أي قطراً. ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي جعلنا ذلك المطر لسقياكم وشرب مواشيكم وأرضكم. وقيل: سقى وأسقى بمعنى. وقيل: بالفرق، وقد تقدم[(٣)]. ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي ليست خزائنه عندكم؛ أي نحن الخازنون لهذا الماء ننزله إذا شئنا ونمسكه إذا شئنا. ومثله ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاءً طَهُوراً﴾[(٤)]، ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾[(٥)]. وقال سفيان: لستم بمانعين المطر.

[٢٣] ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝٢٣﴾.

أي الأرض ومن عليها، ولا يبقى شيء سوانا. نظيره ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلينا يرْجَعُونَ﴾[(٦)]. فملك كل شيء لله تعالى. ولكن ملك عباده أملاكاً فإذا ماتوا انقطعت

(١) كذا في الأصول واللسان. وفي ي: منيتني.
(٢) الهوامل: الإبل المهملة. والتأنان: الأنين. والناب: الناقة المسنة. والحائل: التي لم تحبل.
(٣) راجع ١/ ٤١٧.
(٤) راجع ١٣/ ٣٩ فما بعده.
(٥) راجع ١٢/ ١١٢.
(٦) راجع ١١/ ١٠٩.

الدّعاوى، فكان الله وارثاً من هذا الوجه. وقيل: الإحياء في هذه الآية إحياء النطفة في الأرحام. فأما البعث فقد ذكره بعد هذا في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾.

[٢٤] ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ فيه ثمان تأويلات: الأوّل ـ «الْمُسْتَقْدِمِينَ» في الخلق إلى اليوم، و «الْمُسْتَأْخِرِينَ» الذين لم يخلقوا بعد؛ قاله قتادة وعكرمة وغيرهما. الثاني ـ «المستقدمين» الأموات، و «المستأخرين» الأحياء؛ قاله ابن عباس والضحاك. الثالث ـ «المستقدمين» من تقدّم أمة محمد، و «المستأخرين» أمة محمد ﷺ؛ قاله مجاهد. الرابع ـ «المستقدمين» في الطاعة والخير، و «المستأخرين» في المعصية والشر؛ قاله الحسن وقتادة أيضاً. الخامس ـ «المستقدمين» في صفوف الحرب، و «المستأخرين» فيها؛ قاله سعيد بن المسيب. السادس ـ «المستقدمين» من قتل في الجهاد، و «المستأخرين» من لم يقتل؛ قاله القرظي. السابع ـ «المستقدمين» أوّل الخلق، و «المستأخرين» آخر الخلق؛ قاله الشعبي. الثامن ـ «المستقدمين» في صفوف الصلاة و «المستأخرين» فيها بسبب النساء. وكل هذا معلوم لله تعالى؛ فإنه عالم بكل موجود ومعدوم، وعالم بمن خلق وما هو خالقه إلى يوم القيامة. إلا أن القول الثامن هو سبب نزول الآية؛ لما رواه النسائي والترمذيّ عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس؛ فكان بعض القوم يتقدّم حتى يكون في الصف الأوّل لئلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾. وروي عن أبي الجوزاء ولم يذكر ابن عباس، وهو أصح[١].

---

(١) في ي: الصحيح.

الثانية ـ هذا يدل على فضل أوّل الوقت في الصلاة وعلى فضل الصف الأوّل؛ قال النبيّ ﷺ: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأوّل ثم لم يجدوا إلا أن يستهِموا[١] عليه لاستهموا». فإذا جاء الرجل عند الزوال فنزل في الصف الأوّل مجاور الإمام، حاز ثلاث مراتب في الفضل: أوّل الوقت والصف الأوّل، ومجاورة الإمام. فإن جاء عند الزوال فنزل في الصف الآخر أو فيما نزل عن الصف الأوّل، فقد حاز فضل أوّل الوقت وفاته فضل الصف الأوّل والمجاورة. فإن جاء وقت الزوال ونزل في الصف الأوّل دون ما يلي الإمام فقد حاز فضل أوّل الوقت وفضل الصف الأول، وفاته مجاورة الإمام. فإن جاء بعد الزوال ونزل في الصف الأوّل فقد فاته فضيلة أوّل الوقت؛ وحاز فضيلة الصف الأوّل ومجاورة الإمام. وهكذا. ومجاورة الإمام لا تكون لكل أحد، وإنما هي كما قال ﷺ: «لِيَلِيَنِي منكم أولو الأحلام والنهى» الحديثَ. فما يلي الإمام ينبغي أن يكون لمن كانت هذه صفته. فإن نزلها غيره أخر وتقدّم هو إلى الموضع؛ لأنه حقه بأمر صاحب الشرع، كالمحراب هو موضع الإمام تقدّم أو تأخر. قاله ابن العربي.

قلت: وعليه يحمل قول عمر رضي الله عنه: تأخر يا فلان، تقدّم يا فلان؛ ثم يتقدّم فيكبر. وقد روي عن كعب أن الرجل من هذه الأمة ليخرّ ساجداً فيغفر لمن خلفه. وكان كعب يتوخى الصف المؤخر من المسجد رجاء ذلك، ويذكر أنه وجده كذلك في التوراة. ذكره الترمذيّ الحكيم في نوادر الأصول. وسيأتي في سورة «الصافات»[٢] زيادة بيان لهذا الباب إن شاء الله تعالى.

الثالثة ـ وكما تدل هذه الآية على فضل الصف الأوّل في الصلاة، فكذلك تدل على فضل الصف الأوّل في القتال؛ فإن القيام في نحر العدوّ، وبيع العبد نفسه من الله تعالى لا يوازيه عمل؛ فالتقدّم إليه أفضل، ولا خلاف فيه ولا خفاء به. ولم يكن أحد يتقدّم الحرب بين يدي رسول الله ﷺ؛ لأنه كان أشجع الناس. قال البراء: كنا والله إذا أحمرّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذِي به، يعني النبي ﷺ.

---

(١) أي إلا أن يقترعوا.

(٢) راجع ١٥/ ١٣٧ فما بعده.

[٢٥] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي للحساب والجزاء. ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ تقدّم[١].

[٢٦] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يعني آدم عليه السلام. ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ أي من طين يابس؛ عن ابن عباس وغيره. والصّلْصَال: الطين الحرّ خلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جف، فإذا طبخ بالنار فهو الفخّار؛ عن أبي عبيدة. وهو قول أكثر المفسرين. وأنشد أهل اللغة:

كعَدْوِ المصَلْصِل الجَوّال[٢]

وقال مجاهد: هو الطين المنتِن؛ واختاره الكسائيّ. قال: وهو من قول العرب: صلّ اللحمُ وأصلّ إذا أنتن ـ مطبوخاً كان أو نيئاً ـ يَصل صلولاً؛ قال الحُطَيئة:

ذاك فتًى يبذُل ذا قِدْرِه لا يُفسِد اللحمَ لدَيْه الصُّلولْ

وطين صَلّال ومِصْلال؛ أي يصوّت إذا نقرته كما يصوّت الحديد. فكان أوّلَ تراباً، أي متفرّق الأجزاء ثم بُلّ فصار طيناً، ثم تُرك حتى أنتن فصار حمأً مسنوناً؛ أي متغيراً، ثم يَبِس فصار صلصالاً؛ على قول الجمهور. وقد مضى في «البقرة» بيان[١] هذا. والحمأ: الطين الأسود، وكذلك الحمأة بالتسكين؛ تقول منه: حمِئت البئر حمأ (بالتسكين) إذا نزعت حمأتها. وحَمِئت البئر حمأ (بالتحريك) كثرت حمأتُها. وأحمأتها إحماء ألقيت فيها الحمأة؛ عن ابن السكيت. وقال أبو عبيدة: الحمأة (بسكون الميم) مثل الكمأة. والجمع حَمْءٌ، مثل تمْرة وتمْر. والحَمَأُ المصدر مثل الهلَع والجزَع، ثم سُمي به. والمسنون المتغيِّر. قال ابن عباس: هو التراب المبتل المنتن،

---

(١) راجع ١/ ٢٨٧، و ٢٧٩.

(٢) هذا عجز البيت. وتمامه كما في اللسان:

عنتريس تعدو إذا مسها الصو ت كعدو المصلصل الجوّال

فجعل صلصالاً كالفخار. ومثله قوله مجاهد وقتادة، قالا: المنتن المتغير؛ من قولهم: قد أَسِن الماء إذا تغيّر؛ ومنه ﴿يَتَسَنَّهْ﴾[(١)] و ﴿مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾[(٢)]. ومنه قول أبي قيس بن الأسلت:

سقت صداي رُضابا غير ذي أسن كالمسك فُتّ على ماء العناقيد

وقال الفراء: هو المتغير، وأصله من قولهم: سننت الحجر على الحجر إذا حككته به. وما يخرج من الحجرين يقال له: السنانة والسَّنِين؛ ومنه المسن. قال الشاعر:

ثم خاصرتُها إلى القبة الحمـ ـراء[(٣)] تمشي في مَرْمَر مَسنون

أي محكوك مُمَلَّس. حُكي أن يزيد بن معاوية قال لأبيه: ألا ترى عبد الرحمن بن حسّان يشبب بابنتك. فقال معاوية: وما قال؟ فقال قال:

هي زَهْرَاءُ مثل لؤلؤة الغوّ اص مِيزَت من جَوْهرٍ مَكْنُونِ

فقال معاوية: صدق! فقال يزيد [إنه يقول][(٤)]:

وإذا ما نَسَبْتَها لم تجدها في سَناء من المكارم دونِ

فقال: صدق! فقال: أين قوله: ثم خاصرتها... البيت. فقال معاوية: كذب. وقال أبو عبيدة: المسنون المصبوب، وهو من قول العرب: سننت الماء وغيره على الوجه إذا صببته. والسَّن الصب. وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: المسنون الرَّطب؛ وهذا بمعنى المصبوب؛ لأنه لا يكون مصبوباً إلا وهو رطب. النحاس: وهذا قول حسن؛ لأنه يقال: سن معاوية: كذب. وقال أبو عبيدة: المسنون المصبوب، وهو من قول العرب: سننت الماء وغيره على الوجه إذا صببته. والسَّن الصب. وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: المسنون الرَّطب؛ وهذا بمعنى المصبوب؛ لأنه لا يكون مصبوباً إلا وهو رطب. النحاس: وهذا قول حسن؛ لأنه يقال: سننت الشيء أي صببته. قال أبو عمرو بن العلاء: ومنه الأثر المروي عن عمر[(٥)] أنه كان يَسُنّ الماء على وجهه ولا يَشُنّه. والشنّ (بالشين) تفريق الماء: وبالسين المهملة صبّه من غير تفريق. وقال سيبويه: المسنون المصوّر. أخِذ من سُنّة الوجه وهو صورته. وقال ذو الرمة:

تُريك سُنَّة وجهٍ غيرَ مُقْرِفَة مَلْساء ليس بها خال ولا نَدَبُ[(٦)]

---

(١) راجع ٣/٢٨٨. (٢) راجع ١٦/٢٣٦. (٣) في اللسان: الخضراء. (٤) الزيادة عن اللسان.

(٥) في نهاية ابن الأثير: «ابن عمر». (٦) السنة: الصورة. والمقرفة: التي دنت من الهجينة. والندب: الأثر من الجراح والقراح. وقوله: غير مقرفة؛ أي غير هجينة، عفيفة كريمة. خال: شامة، وندب: أثر الجرح.

وقال الأخفش: المسنون المنصوب القائم؛ من قولهم: وجه مسنون إذا كان فيه طول. وقد قيل: إن الصلصال التراب المدقق؛ حكاه المهدويّ. ومن قال: إن الصلصال هو المنتن فأصله صلاّل، فأبدل من إحدى اللامين الصاد. و «مِنْ حَمَإٍ» مفسر لجنس الصلصال؛ كقولك: أخذت هذا من رجل من العرب.

[٢٧] ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل خلق آدم. وقال الحسن: يعني إبليس، خلقه الله تعالى قبل آدم عليه السلام. وسُمِّي جَانّاً لتواريه عن الأعين. وفي صحيح مسلم من حديث ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لما صوّر الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به وينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك»[١]. ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ قال ابن مسعود: نار السموم التي خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم. وقال ابن عباس: السموم الريح الحارة التي تقتل. وعنه: أنها نار لا دخان لها، والصواعق تكون منها، وهي نار تكون بين السماء والحجاب. فإذا أحدث الله أمراً اخترقت الحجاب فهوت الصاعقة إلى ما أمِرت. فالهدّة[٢] التي تسمعون خرق ذلك الحجاب. وقال الحسن: نار السموم نار دونها حجاب، والذي تسمعون من انغطاط السخاب صوتها. وعن ابن عباس أيضاً قال: كان إبليس من حيّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة ـ قال ـ وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار.

قلت: هذا فيه نظر؛ فإنه يحتاج إلى سند يقطع العذر؛ إذ مثله لا يقال من جهة الرأي. وقد خرّج مسلم من حديث عروة عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارِج من نار وخلق آدم مما وُصف لكم».

---

(١) أي لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات. وقيل: لا يملك نفسه عند الغضب. وقيل: لا يملك دفع الوسواس عنه.

(٢) الهدة: صوت وقع الحائط ونحوه، والهدة: صوت ما يقع من السحاب.

فقوله: «خلقت الملائكة من نور» يقتضي العموم. والله أعلم. وقال الجوهريّ: مارج من نار نارٌ لا دخان لها خلق منها الجان، والسموم الريح الحارّة تؤنث؛ يقال منه: سمّ يومُنا فهو يوم مسموم، والجمع سمائم. قال أبو عبيدة: السَّموم بالنهار وقد تكون بالليل، والحَرُور بالليل وقد تكون بالنهار. القشيريّ: وسُمِّيت الريح الحارة سموما لدخولها [بلطفها][1] في مَسامّ البدن.

[٢٨] ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾.

[٢٩] ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ﴾ تقدم في «البقرة»[2]. ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ﴾ من طين ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي سوّيت خلقه وصورته. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ النفخ إجراء الريح في الشيء. والروح جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم. وحقيقته إضافة خلق إلى خالق؛ فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً؛ كقوله: «أرضي وسمائي وبيتي وناقة الله وشهر الله». ومثله «وَرُوحٌ مِنْهُ» وقد تقدّم في «النساء»[3] مبيّناً. وذكرنا في كتاب (التذكرة) الأحاديث الواردة التي تدلّ على أن الروح جسم لطيف، وأن النفس والروح اسمان لمسمًّى واحد. وسيأتي ذلك إن شاء الله. ومن قال إن الروح هو الحياة قال أراد: فإذا ركّبت فيه الحياة. ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي خرّوا له ساجدين. وهو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة. ولِلَّه أن يفضل من يريد؛ ففضل الأنبياء على الملائكة. وقد تقدم في «البقرة»[2] هذا المعنى. وقال القَفّال: كانوا أفضل من آدم، وأمتحنهم [الله][1] بالسجود له تعريضاً لهم للثواب الجزيل. وهو مذهب المعتزلة. وقيل: أمروا بالسجود لِلَّه عند آدم، وكان آدم قِبلة لهم.

(١) من ي.
(٢) راجع ١/ ٢٦١، و ٢٩١ فما بعد.
(٣) راجع ٦/ ٢٢.

[٣٠] ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠﴾.

[٣١] ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾.

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إلاَّ إبْلِيسَ﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ لا شك أن إبليس كان مأموراً بالسجود؛ لقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾(١) وإنما منعه من ذلك الاستكبارُ والاستعظام؛ كما تقدّم في «البقرة»(٢) بيانه. ثم قيل: كان من الملائكة؛ فهو استثناء من الجنس. وقال قوم: لم يكن من الملائكة؛ فهو استثناء منقطع. وقد مضى في «البقرة»(٢) هذا كله مستوفى. وقال آبن عباس: الجان أبو الجن وليسوا شياطين. والشياطين ولد إبليس، لا يموتون إلا مع إبليس. والجن يموتون، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر. فآدم أبو الإنس. والجان أبو الجن. وإبليس أبو الشياطين؛ ذكره الماورديّ. والذي تقدّم في «البقرة» خلاف هذا، فتأمله هناك.

الثانية ـ الاستثناء من الجنس غير الجنس صحيح عند الشافعيّ، حتى لو قال: لفلان عليّ دينار إلا ثوباً، أو عشرة أثواب إلا قفيز حنطة، وما جانس ذلك كان مقبولاً، ويسقط عنه من المبلغ قيمة الثوب والحنطة. ويستوي في ذلك المكيلات والموزونات والمقدّرات. وقال مالك وأبو حنيفة رضي الله عنهما: استثناء المكيل من الموزون والموزون من المكيل جائز، حتى لو استثنى الدراهم من الحنطة والحنطة من الدراهم قُبل. فأما إذا استثنى المقوّمات من المكيلات أو الموزونات، والمكيلات من المقوّمات، مثل أن يقول: عليّ عشرة دنانير إلا ثوباً، أو عشرة أثواب إلا ديناراً لا يصح الاستثناء، ويلزم المقرّ جميع المبلغ. وقال محمد بن الحسن: الاستثناء من غير الجنس لا يصح، ويلزم المقرّ جملة(٣) ما أقرّ به. والدليل

(١) راجع ٧/١٦٩.
(٢) راجع ١/٢٩٦ و ٢٩٤.
(٣) في ي: جميع.

لقول الشافعيّ أن لفظ الاستثناء يستعمل في الجنس وغير الجنس؛ قال الله تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيماً إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً﴾(١) فٱستثنى السلام من جملة اللَّغو. ومثله ﴿فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ وإبليس ليس من جملة الملائكة؛ قال الله تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾(٢). وقال الشاعر:

وبلــدةٍ ليــس بهــا أنيــس إلا اليعــافيــرُ وإلا العِيــسُ

فاستثنى اليعافير وهي ذكور الظباء، والعِيس وهي الجمال البيض من الأنيس؛ ومثله قول النابغة(٣):

. . . .

[٣٢] ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ .

[٣٣] ﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴾ .

[٣٤] ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ .

[٣٥] ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالكَ﴾ أي ما المانع لك. ﴿أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي في ألا تكون. ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ﴾ بين تكبّره وحسده، وأنه خير منه، إذ هو من نار والنار تأكل الطين؛ كما تقدّم في «الأعراف»(٤) بيانه. ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من السموات، أو من جنة عدن، أو من جملة الملائكة. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي مرجوم بالشهب. وقيل: ملعون مشئوم. وقد تقدّم هذا كلّه مستوفى في البقرة والأعراف. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ أي لعنتي؛ كما في سورة «ص»(٥).

---

(١) راجع ١٧/٢٠٦. (٢) راجع ص ٤١٩ من هذا الجزء. (٣) لم يذكر المؤلف رحمة الله عليه قول النابغة، أو لعله سقط من الناسخ. وكأنه يشير إلى قوله:

حلفــت يمينــاً غيــر ذي مثنــوية ولا علــم إلا حســن ظــن بصــاحــب

وهذا البيت أورده سيبويه في كتابه شاهداً على نصب ما بعد إلا على الاستثناء المنقطع؛ لأن حسن الظن ليس من العلم. والمثنوية: الاستثناء في اليمين. والمعنى: حلفت غير مستثن في يميني حسن ظن مني بصاحبي قام عندي مقام العلم الذي يوجب اليمين. (راجع كتاب سيبويه).

(٤) راجع ٧/١٧٠. (٥) راجع ١٥/٢٢٨.

[٣٦] ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦﴾.

[٣٧] ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧﴾.

[٣٨] ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ هذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمنزلته عند الله تعالى، وأنه أهل أن يجاب له دعاء، ولكن سأل تأخير عذابه زيادة في بلائه، كفعل الآيس من السلامة. وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يبعثون: ألا يموت، لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ يعني من المؤجلين. ﴿إِلَى يَوْمِ الوقْتِ المعْلُومِ﴾ قال ابن عباس: أراد به النفخة الأولى، أي حين تموت الخلائق. وقيل: الوقت المعلوم الذي استأثر الله بعلمه، ويجهله إبليس. فيموت إبليس ثم يبعث؛ قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[١]. وفي كلام الله تعالى له قولان: أحدهما ـ كلمه على لسان رسوله. الثاني ـ كلمه تغليظاً في الوعيد لا على وجه التكرمة والتقريب.

[٣٩] ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ تقدّم معنى الإغواء والزينة في الأعراف[٢]. وتزيينه هنا يكون بوجهين: إما بفعل المعاصي، وإما بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعة. ومعنى: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لأضلنهم عن طريق الهدى. وروى ابن لَهيعة عبدُ الله عن دُرّاج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدريّ قال قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس قال يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسامهم فقال الرب وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

---

(١) راجع ١٧/ ١٦٤.

(٢) راجع ٧/ ١٧٤ و ١٩٥.

[٤٠] ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام؛ أي الذين استخلصتهم وأخلصتهم. وقرأ الباقون بكسر اللام؛ أي الذين أخلصوا لك العبادة من فساد أو رياء. حكى أبو ثمامة أن الحواريين سألوا عيسى عليه السلام عن المخلِصين لله فقال: «الذي يعمل ولا يحب أن يحمده الناس».

[٤١] ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

قال عمر بن الخطاب: معناه هذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجُم به على الجنة. الحسن: «عليّ» بمعنى إليّ. مجاهد والكسائيّ: هذا على الوعيد والتهديد؛ كقولك لمن تهدّده: طريقك عليّ ومصيرك إليّ. وكقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ﴾[1]. فكان معنى الكلام: هذا طريق مرجعه إليّ فأجازي كُلاًّ بعمله، يعني طريق العبودية. وقيل: المعنى عليّ أن أدلّ على الصراط المستقيم بالبيان والبرهان. وقيل: بالتوفيق والهداية. وقرأ ٱبن سِيرين وقتادة والحسن وقيس بن عُبَاد وأبو رجاء وحُميد ويعقوب «هذا صِراط عليٌّ مستقِيم» برفع «عليّ» وتنوينه؛ ومعناه رفيع مستقيم، أي رفيع في الدين والحق. وقيل: رفيع أن يُنال، مستقيم أن يمال.

[٤٢] ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ قال العلماء: يعني على قلوبهم. وقال ٱبن عيينة: أي في أن يلقيهم في ذنب يمنعهم عفوي ويضيّقه عليهم. وهؤلاء الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم.

---

(١) راجع ٢٠/ ٥٠.

قلت : لعل قائلاً يقول: قد أخبر الله عن صفة آدم وحوّاء عليهما السلام بقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾[١]، وعن جملة من أصحاب نبيه بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾[٢] فالجواب ما ذكر ، وهو أنه ليس له سلطان على قلوبهم، ولا موضع إيمانهم ، ولا يلقيهم في ذنب يـؤول إلى عدم القبول[٣] ، بل تزيله التوبـة وتمحوه الأوْبة . ولم يكن خروج آدم عقوبة لما تناول؛ على ما تقدّم في «البقرة»[١] بيانه. وأما أصحاب النبيّ ﷺ فقد مضى عنهم القول في آل عمران[٢]. ثم إن قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ يحتمل أن يكون خاصاً فيمن حفظه الله، ويحتمل أن يكون في أكثر الأوقات والأحوال ، وقد يكون في تسلطه تفريج كربة وإزالة غمة ؛ كما فعل ببِلال، إذ أتاه يهدّيه كما يهدّي الصبيّ حتى نام، ونام النبيّ ﷺ وأصحابه فلم يستيقظوا حتى طلعت الشمس، وفزعوا وقالوا: ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا؟ فقال لهم النبيّ ﷺ : «ليس في النوم تفريط» ففرّج عنهم. ﴿إِلاَّ مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي الضالين المشركين. أي سلطانه على هؤلاء؛ دليله ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[٤].

الثانية ـ وهذه الآية والتي قبلها دليل على جواز ٱستثناء القليل من الكثير والكثير من القليل؛ مثل أن يقول: عشرة إلا درهماً. أو يقول: عشرة إلا تسعة. وقال أحمد بن حنبل: لا يجوز أن يستثنى إلا قدر النصف فما دونه. وأما ٱستثناء الأكثر من الجملة فلا يصح. ودليلنا هذه الآية، فإن فيها ٱستثناء «الْغَاوِينَ» من العباد والعباد من الغاوين، وذلك يدلّ على ٱستثناء الأقل من الجملة وٱستثناء الأكثر من الجملة جائز.

[٤٣] ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

[٤٤] ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

---

(١) راجع ١/ ١١ و ٣٢١، و ٤/ ٢٤٣.
(٢) راجع ٤/ ٢٤٣.
(٣) في ي: العفو.
(٤) راجع ص ١٧٥ من هذا الجزء.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني إبليس ومن اتبعه. ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أي أطباق، طبق فوق طبق ﴿لِكُلِّ بَابٍ﴾ أي لكل طبقة ﴿مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ أي حظ معلوم. ذكر ابن المبارك قال: أخبرنا إبراهيم أبو هارون الغنوِيّ قال: سمعت حِطان ابن عبد الله الرقاشي يقول سمعت علياً رضي الله عنه يقول: هل تدرون كيف أبواب جهنم؟ قلنا: هي مثل أبوابنا. قال لا، هي هكذا بعضها فوق بعض ـ زاد الثعلبيّ: ووضع إحدى يديه على الأخرى ـ وأن الله وضع الجنان على الأرض، والنيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنم، وفوقها الحُطَمة، وفوقها سَقَر، وفوقها الجحيم؛ وفوقها لَظَى، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية، وكل باب أشدّ حراً من الذي يليه سبعين مرة.

قلت: كذا وقع هذا التفسير. والذي عليه الأكثر من العلماء أن جهنم أعلى الدركات، وهي مختصة بالعصاة من أمّة محمدﷺ، وهي التي تخلى من أهلها فتصفق الرياح أبوابها، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. قال الضحاك: في الدّرك الأعلى المحمديون، وفي الثاني النصارى، وفي الثالث اليهود، وفي الرابع الصابئون، وفي الخامس المجوس، وفي السادس مشركو العرب، وفي السابع المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المائدة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ ـ وقد تقدّم في النساء[(١)] ـ، وقال: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[(٢)]، وقال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[(٣)]. وقسم معاذ بن جبل رضي الله عنه العلماء السوء من هذه الأمة تقسيماً على تلك الأبواب؛ ذكرناه في كتاب (التذكرة). وروى الترمذيّ من حديث ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل سيفه على أمتي» قال: حديث غريب. وقال أبيّ بن كعب: لجهنم سبعة أبواب باب منها للحرورِية[(٤)]. وقال وهب بن منبه: بين كل بابين مسيرة سبعين

(١) راجع ٤/ ٤٢٤. (٢) راجع ١٥/ ٣١٨. (٣) راجع ٦/ ٣٦٨.

(٤) في كتاب الدر المنثور للسيوطي: «قال كعب رضي الله عنه: للشهيد نور، ولمن قاتل الحرورية عشرة أنوار». وكان يقول: لجهنم سبعة أبواب: باب منها للحرورية. قال: «ولقد خرجوا في زمان داود عليه السلام».

سنة، كل باب أشد حرًا من الذي فوقه بسبعين ضعفاً. وقد ذكرنا هذا كلَّه في كتاب التذكرة. وروى سلاَم الطويل عن أبي سفيان عن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ في قول الله تعالى: ﴿لها سبعة أبوابٍ لِكل بابٍ مِنهم جزء مقسوم﴾ «جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا في الله، وجزء غفلوا عن الله، وجزء آثروا شهواتهم على الله، وجزء شفوْا غيظهم بغضب الله، وجزء صيّروا رغبتهم بحظهم من الله، وجزء عَتَوا على الله». ذكره الحلِيمي أبو عبد الله الحسين بن الحسن في كتاب (منهاج الدين) له، وقال: فإن كان ثابتاً فالمشركون بالله هم الثنوية[1]. والشاكون هم الذين لا يدرون أن لهم إلهاً أو لا إله لهم، ويشكون في شريعته أنها من عنده أم لا. والغافلون عن الله هم الذين يجحدونه أصلاً ولا يثبتونه، وهم الدهرية. والمؤثرون شهواتهم على الله هم المنهمكون في المعاصي، لتكذيبهم رسل الله وأمره ونهيه. والشافون غيظهم بغضب الله هم القاتلون أنبياء الله وسائر الداعين إليه، المعذِّبون من ينصح لهم أو يذهب غير مذهبهم، والمصيّرون رغبتهم بحظهم من الله هم المنكرون بالبعث والحساب؛ فهم يعبدون ما يرغبون فيه، لهم جميع حظهم من الله تعالى، والعاتون على الله الذين لا يبالون، بأن يكون ما هم فيه حقاً أو باطلاً، فلا يتفكرون ولا يعتبرون ولا يستدلون. والله أعلم بما أراد رسوله ﷺ إن ثبت الحديث. ويروى أن سلمان الفارسي رضي الله عنه لما سمع هذه الآية: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فرّ ثلاثة أيام من الخوف لا يعقل، فجيء به إلى رسول الله ﷺ فسأله فقال: يا رسول الله، أنزلت هذه الآية ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُم أجمعِين﴾؟ فوالذي بعثك بالحق لقد قطعت قلبي؛ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنّ الْمتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ﴾. وقال بِلال: كان النبيّ ﷺ يصلي في مسجد المدينة وحده، فمرّت به أمرأة أعرابية فصلت خلفه ولم يعلم بها، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿لَها سَبْعَةُ أبْوابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ فخرّت الأعرابيّة مغشِياً عليها، وسمع النبيّ ﷺ وجبتها[2] فانصرف ودعا بماء فصب على وجهها

---

(١) في ي: الوثنية.

(٢) الوجبة: صوت الشيء يسقط فيسمع له كالهدّة.

حتى أفاقت وجلست، فقال النبيّ ﷺ: «يا هذه مالك»؟ فقالت: أهذا شيء من كتاب الله المنزل، أو تقوله من تلقاء نفسك؟ فقال: «يا أعرابية، بل هو من كتاب الله تعالى المنزل» فقالت: كل عضو من أعضائي يعذّب على كل باب منها؟ قال: «يا أعرابية، بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذب أهل كل منها على قدر أعمالهم» فقالت: والله إني امرأة مسكينة، مالي مال، ومالي إلا سبعة أعبد، أشهدك يا رسول الله، أن كل عبد منهم عن كل باب من أبواب جهنم حر لوجه الله تعالى. فأتاه جبريل فقال: «يا رسول الله، بشر الأعرابية أن الله قد حرم عليها أبواب جهنم كلها وفتح لها أبواب الجنة كلها».

[٤٥] ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾.

[٤٦] ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي الذين اتقوا الفواحش والشرك. «فِي جَنَّاتٍ» أي بساتين. «وعُيُونٍ» هي الأنهار الأربعة: ماء وخمر ولبن وعسل. وأما العيون المذكورة في سورة «الإنسان»[١]: الكافور والزنجبيل والسلسبيل، وفي «المطففين»[١]: التسنيم، فيأتي ذكرها وأهلها إن شاء الله. وضم العين من «عُيُونٍ» على الأصل، والكسر مراعاة للياء. وقرىء بهما. ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ قراءة العامة «ادْخُلُوهَا» بوصل الألف وضم الخاء، من دخل يدخل، على الأمر. تقديره: قيل ادخلوها. وقرأ الحسن وأبو العالية ورويس عن يعقوب «أُدْخِلُوها» بضم التنوين ووصل الألف وكسر الخاء على الفعل المجهول؛ من أدخل. أي أدخلهم الله إياها. ومذهبهم كسر التنوين في مثل «بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الجَنَّةَ»[٢] وشبهه؛ إلا أنهم هاهنا ألقوا حركة الهمزة على التنوين؛ إذ هي ألف قطع، ولكن فيه انتقال من كسر إلى ضم ثم من ضم إلى كسر فيثقل على اللسان. ﴿بِسَلَامٍ﴾ أي بسلامة من كل داء وآفة. وقيل: بتحية من الله لهم. ﴿آمِنِينَ﴾ أي من الموت والعذاب والعزل والزوال.

---

(١) راجع ١٩/ ١٢٣، ١٣٩ ـ ١٤٠ ـ ٢٦٢. (٢) راجع ٧/ ٢٧٤.

[٤٧] ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ .

[٤٨] ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ .

قال ابن عباس: أوّل ما يدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينان، فيشربون من إحدى العينين فيذهب الله ما في قلوبهم من غل، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم، وتجري عليهم نضرة النعيم؛ ونحوه عن عليّ رضي الله عنه. وقال عليّ بن الحسين: نزلت في أبي بكر وعمر وعليّ والصحابة، يعني ما كان بينهم في الجاهلية من الغل. والقول الأوّل أظهر، يدل عليه سياق الآية. وقال عليّ رضي الله عنه: أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من هؤلاء. والغل: الحقد والعداوة؛ يقال منه: غلّ يغِلّ. ويقال: من الغلول وهو السرقة من المغنم: غَلّ يَغُلّ. ويقال من الخيانة: أغل يُغِل. كما قال[١]:

جَزَى اللَّه عنا حَمْزَةَ ٱبنةَ نَوفلٍ   جـزاء مُغِـلّ بـالأمـانـة كـاذِبِ

وقد مضى هذا في آل عمران[٢]. ﴿إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قَفَا بعض تواصلاً وتَحابُباً؛ عن مجاهد وغيره. وقيل: الأسِرة تدور كيفما شاءوا، فلا يرى أحد قفا أحد. وقيل: «متقابلين» قد أقبلت عليهم الأزواج وأقبلوا عليهن بالودّ. وسرر جمع سرير؛ مثل جديد وجُدد. وقيل: هو من السرور؛ فكأنه مكان رفيع ممهد للسرور. والأوّل أظهر. قال ابن عباس: على سرر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر، السرير ما بين صَنْعَاءَ[٣] إلى الجَابية وما بين عَدَن إلى أيْلَة. و «إخواناً» نصب على الحال من «الْمُتَّقِينَ»

---

(١) البيت للنمر بن تولب من أبيات في أم أولاده. وكان من حديثها أن أخاه الحارث بن تولب سيد قومه أغار على بني أسد فسبى منهم أمرأة منهم يقال لها: «حمزة بنت نوفل» فوهبها لأخيه النمر ففركته فحبسها حتى استقرت وولدت له أولاداً، ثم قالت له في بعض أيامها: إني قد اشتقت إلى أهلي، فقال لها: إني أخاف إن صرت إلى أهلك أن تغلبيني على نفسك فواثقته لترجعن إليه، ثم خانت عهده. (راجع الأغاني ١٥٨/١٩ طبع بولاق). وفي التاج: جمرة. بجيم. فركته: أبغضته.

(٢) راجع ٢٥٥/٤.

(٣) صنعاء: موضعان، أحدهما باليمن وهي العظمى، وأخرى قرية بالغوطة. والجابية: قرية من أعمال دمشق. وعدن: مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. وأيلة: مدينة على ساحل البحر الأحمر. (عن معجم البلدان).

أو من المضمر في «أَدْخُلُوهَا»، أو من المضمر في «آمِنِينَ»، أو يكون حالاً مقدرة من الهاء والميم في «صُدُورِهِمْ». ﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي إعياء وتعب. ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا يزول، وأن أهلها فيها باقون. ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾[١]. ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَالَه مِنْ نَفَادٍ﴾[٢].

[٤٩] ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)﴾.

[٥٠] ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾.

هذه الآية وزان قوله عليه السلام: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنِط من رحمته أحد» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. وقد تقدّم في الفاتحة[٣]. وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكر نفسه وغيره فيخوّف ويرجّي، ويكون الخوف في الصحة أغلب عليه منه في المرض. وجاء في الحديث أن النبيّ ﷺ خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال: «أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنار» فشق ذلك عليهم فنزلت الآية. ذكره الماورديّ والمهدويّ. ولفظ الثعلبيّ عن ابن عمر قال: اطلّع علينا النبي ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة ونحن نضحك فقال: «ما لكم تضحكون لا أراكم تضحكون» ثم أدبر حتى إذا كان عند الحِجر رجع القهقرى فقال لنا: «إني لما خرجت جاءني جبريل فقال يا محمد لم تُقنِّط عبادي من رحمتي ﴿نَبِّىءْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيم. وأنَّ عَذابِي هُوَ العذَابُ الأَلِيم﴾. فالقنوط إياس، والرجاء إهمال، وخير الأمور أوساطها.

[٥١] ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١)﴾.

[٥٢] ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢)﴾.

[٥٣] ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣)﴾.

[٥٤] ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤)﴾.

(١) راجع ٩/٣٢٤. (٢) راجع ١٥/٢١٨. (٣) راجع ١/١٣٩.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ضيف إبراهيم: الملائكة الذين بشروه بالولد وبهلاك قوم لوط. وقد تقدّم ذكرهم[1]. وكان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان، وكان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد. وسُمِّيَ الضيف ضيفاً لإضافته إليك ونزوله عليك. وقد مضى من حكم الضيف في «هود»[1] ما يكفي والحمد لله. ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ جمع الخبر لأن الضيف اسم يصلح للواحد والجمع والتثنية والمذكر والمؤنث كالمصدر. ضافه وأضافه أماله؛ ومنه الحديث «حين تضيف الشمس للغروب»، وضيفوفة[2] السهم، والإضافة النحوية. ﴿فَقَالُوا سَلاَماً﴾ أي سلموا سلاماً. ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي فزعون خائفون، وإنما قال هذا بعد أن قرّب العجل ورآهم لا يأكلون، على ما تقدّم في هود[1]. وقيل: أنكر السلام ولم يكن في بلادهم رسم السلام. ﴿قَالُوا لاَ تَوْجَلْ﴾ أي قالت الملائكة لا تخف. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي حليم[3]؛ قاله مقاتل. وقال الجمهور: عالم. وهو إسحاق. ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ «أنْ» مصدرية؛ أي على مس الكبر إياي وزوجتي، وقد تقدّم في هود وإبراهيم[1]؛ حيث يقول: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ استفهام تعجب. وقيل: استفهام حقيقي. وقرأ الحسن «تُوجَلْ» بضم التاء، والأعمش «بشرتموني» بغير ألف، ونافع وشيبة «تُبَشِّرُونِ» بكسر النون والتخفيف؛ مثل «أتُحَاجُونِي» وقد تقدّم تعليله[4]. وقرأ ابن كثير وابن محيصن «تبشرونِّ» بكسر النون مشدّدة، تقديره تبشرونني، فأدغم النون في النون. الباقون «تبشرونَ» بنصب النون بغير إضافة.

[٥٥] ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بما لا خلف فيه، وأن الولد لا بدّ منه. ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ أي من الآيسين من الولد، وكان قد أيس من الولد لفرط

(١) راجع ٩/ ٦٢، ٦٤ فما بعد، ص ٣٧٥.

(٢) ضاف السهم: عدل عن الهدف أو الرمية.

(٣) في ي: حكيم.

(٤) راجع ٧/ ٢٨.

الكبر. وقراءة العامة «مِنَ الْقَانِطِينَ» بالألف. وقرأ الأعمش ويحيى بن وَثّاب «منَ الْقنِطين» بلا ألف. وروي عن أبي عمرو. وهو مقصور من «الْقَانِطِينَ». ويجوز أن يكون من لغة من قال: قنِط يقنط؛ مثل حذِر يحذر. وفتح النون وكسرها من «يَقْنِطُ» لغتان قرىء بهما. وحكي فيه «يقنُط» بالضم. ولم يأت فيه «قنَط يقنَط» [و] من فتح النون في الماضي والمستقبل فإنه جمع بين اللغتين، فأخذ في الماضي بلغة من قال: قنَط يقنِط، وفي المستقبل بلغة من قال: قنِط يقنَط؛ ذكره المهدويّ.

[٥٦] ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾.

أي المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب. يعني أنه ٱستبعد الولد لكِبر سنه لا أنه قنط من رحمة الله تعالى.

[٥٧] ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

[٥٨] ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

[٥٩] ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

[٦٠] ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ لما علم أنهم ملائكة ـ إذ أخبروه بأمر خارق للعادة وهو بشراهم بالولد ـ قال: فما خطبكم؟ والخطب الأمر الخطير. أي فما أمركم وشأنكم وما الذي جئتم به. ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ أي مشركين ضالين. وفي الكلام إضمار؛ أي أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم. ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ﴾ أتباعه وأهل دينه. ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ وقرأ حمزة والكسائي «لَمُنْجُوهُمْ» بالتخفيف من أَنْجَى. الباقون: بالتشديد من نَجَّى، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. والتنجية والإنجاء التخليص. ﴿إِلاَّ ٱمْرَأَتَهُ﴾ استثنى من آل لوط ٱمرأته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين في الهلاك. وقد تقدّمت قصة قوم لوط

في «الأعراف»[١] وسورة «هود»[٢] بما فيه كفاية. ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي قضينا وكتبنا إنها لمن الباقين في العذاب. والغابر: الباقي.

قال[٣]:

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بأغبارها إنك لا تدري مَن النّاتِجُ

الأغبار بقايا اللبن. وقرأ أبو بكر والمفضل «قَدَرْنَا» بالتخفيف هنا وفي النمل[٤]، وشدد الباقون. الهرويّ: يقال قدّر وقَدَر، بمعنًى.

الثانية ـ لا خلاف بين أهل اللسان وغيرهم أن الاستثناء من النفي إثبات ومن الإثبات نفي؛ فإذا قال رجل: له عليّ عشرة دراهم إلا أربعة إلا درهماً؛ ثبت الإقرار بسبعة؛ لأن الدرهم مستثنى من الأربعة، وهو مثبت لأنه مستثنى من منفي، وكانت الأربعة منفية لأنها مستثناة من موجب وهو العشرة، فعاد الدرهم إلى الستة فصارت سبعة. وكذلك لو قال: عليّ خمسة دراهم إلا درهماً إلا ثلثيه؛ كان عليه أربعة دراهم وثلث. وكذلك إذا قال: لفلان عليّ عشرة إلا تسعة إلا ثمانية إلا سبعة؛ كان الاستثناء الثاني راجعاً إلى ما قبله، والثالث إلى الثاني فيكون عليه درهمان؛ لأن العشرة إثبات والثمانية إثبات فيكون مجموعها ثمانية عشر: والتسعة نفي والسبعة نفي فيكون ستة عشر تسقط من ثمانية عشر ويبقى درهمان، وهو القدر الواجب بالإقرار لا غير. فقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ. إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ ٱمْرَأَتَهُ﴾ فاستثنى آل لوط من القوم المجرمين، ثم قال: ﴿إِلاَّ ٱمْرَأَتَهُ﴾ فاستثناها من آل لوط، فرجعت في التأويل إلى القوم المجرمين كما بيّنا. وهكذا الحكم في الطلاق، لو قال لزوجته: أنت طالق ثلاثاً إلا ٱثنتين إلا واحدة طلقت ٱثنتين؛ لأن الواحدة رجعت إلى الباقي من المستثنى منه وهي الثلاث. وكذا كل ما جاء من هذا فتفهمه.

---

(١) راجع ٧/ ٢٤٣.

(٢) راجع ٩/ ٦٢.

(٣) القائل هو الحارث بن حلزة. والكسع: ضرب ضرع الناقة بالماء البارد ليجف لبنها ويترادّ في ظهرها فيكون أقوى لها على الجدب في العام القابل. والشول: جمع شائلة وهي من الإبل التي أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فخف لبنها. والأغبار: جمع الغبر، وهي بقية اللبن في الضرع.

(٤) راجع ١٣/ ٢١٩.

[٦١] ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

[٦٢] ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

[٦٣] ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

[٦٤] ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

[٦٥] ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آل لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ. قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي لا أعرفكم وقيل: كانوا شباباً ورأى جمالاً فخاف عليهم من فتنة قومه، فهذا هو الإنكار. ﴿قَالُوا بَل جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي يشكون أنه نازل بهم، وهو العذاب. ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق. وقيل: بالعذاب. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي في هلاكهم. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ تقدّم في هود[(١)]. ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ أي كن من ورائهم لئلا يتخلف منهم أحد فيناله العذاب. ﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ نهوا عن الالتفات ليجدّوا في السير ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح. وقيل: المعنى لا يتخلف. ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني الشام. مقاتل: يعني صَفَد، قرية من قرى لوط. وقد تقدّم. وقيل: إنه مضى إلى أرض الخليل بمكان يقال له اليقين، وإنما سمي اليقين لأن إبراهيم لما خرجت الرسل شيعهم، فقال لجبريل: من أين يخسف بهم؟ قال: «من ها هنا» وحدّ له حدّاً، وذهب جبريل؛ فلما جاء لوط جلس عند إبراهيم وارتقبا ذلك العذاب، فلما اهتزت الأرض قال إبراهيم: «أيقنت بالله» فسمّي اليقين.

[٦٦] ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

[٦٧] ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

[٦٨] ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾﴾.

[٦٩] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾.

[٧٠] ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

[٧١] ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾.

---

(١) راجع ٧٩/٩.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي أوحينا إلى لوط. ﴿ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ نظيره ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[1]. ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي عند طلوع الصبح. وقد تقدّم[2]. ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ أي أهل مدينة لوط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ مستبشرين بالأضياف طمعاً منهم في ركوب الفاحشة. ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ أي أضيافي. ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ أي تخجلون. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ يجوز أن يكون من الخزي وهو الذل والهوان، ويجوز أن يكون من الخزاية وهو الحياء والخجل. وقد تقدّم في هود[2]. ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي عن أن تضيف أحداً لأنا نريد منهم الفاحشة. وكانوا يقصدون بفعلهم الغرباء؛ عن الحسن. وقد تقدّم في الأعراف[3]. وقيل: أو لم ننهك عن أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة. ﴿قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي فتزوّجوهنّ ولا تركنوا إلى الحرام. وقد تقدّم بيان هذا في هود[2].

[٧٢] ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قال القاضي أبو بكر بن العربيّ: قال المفسرون بأجمعهم أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمد ﷺ تشريفاً له، أن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون وفي حيرتهم يتردّدون.

قلت: وهكذا قال القاضي عِياض: أجمع أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ﷺ. وأصله ضم العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال. ومعناه وبقائك يا محمد. وقيل: وحياتك. وهذا نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف. قال أبو الجوزاء: ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد ﷺ؛ لأنه أكرم البرية عنده. قال ابن العربي: «ما الذي يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط ويبلغ به من التشريف

(١) راجع ٦/٤٢٧.
(٢) راجع ٩/٤١ و ٧٧ فما بعدَ.
(٣) راجع ٧/٢٤٥.

ما شاء، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتى ضعفيه من شرفٍ لمحمد ﷺ؛ لأنه أكرم على الله منه؛ أو لا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيم الخلة وموسى التكليم وأعطى ذلك لمحمد، فإذا أقسم بحياة لوط فحياة محمد أرفع. ولا يخرج من كلام إلى كلام لم يَجْرِ له ذكر لغير ضرورة».

قلت: ما قاله حسن؛ فإنه كان يكون قسمه سبحانه بحياة محمد ﷺ كلاماً معترضاً في قصة لوط. قال القشيريّ أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم في تفسيره: ويحتمل أن يقال: يرجع ذلك إلى قوم لوط، أي كانوا في سكرتهم يعمهون. وقيل: لما وعظ لوط قومه وقال هؤلاء بناتي قالت الملائكة: يا لوط، «لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون» ولا يدرون ما يحل بهم صباحاً. فإن قيل: فقد أقسم تعالى بالتين والزيتون وطور سينين؛ فما في هذا؟ قيل له: ما من شيء أقسم الله به إلا وذلك دلالة على فضله على ما يدخل في عداده، فكذلك نبينا ﷺ يجب أن يكون أفضل ممن هو في عداده. والعمر والعمر (بضم العين وفتحها) لغتان ومعناهما واحد؛ إلا أنه لا يستعمل في القسم إلا بالفتح لكثرة الاستعمال. وتقول: عَمْرك الله، أي أسأل الله تعميرك. و «لَعَمْرُكَ» رفع بالابتداء وخبره محذوف، المعنى لعمرك مما أقسم به.

الثانية ـ كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان لعمري؛ لأن معناه وحياتي. قال إبراهيم النخعِيّ: يكره للرجل أن يقول لعمري؛ لأنه حلِف بحياة نفسه، وذلك من كلام ضعفة الرجال. ونحو هذا قال مالك: إن المستضعفين من الرجال والمؤنّثين يقسمون بحياتك وعيشك، وليس من كلام أهل الذُّكْران، وإن كان الله سبحانه أقسم به في هذه القصة، فذلك بيان لشرف المنزلة والرفعة لمكانه، فلا يحمل عليه سواه ولا يستعمل في غيره. وقال ابن حبيب: ينبغي أن يصرف «لعمرك» في الكلام لهذه الآية. وقال قتادة: هو من كلام العرب. قال ابن العربيّ: وبه أقول، لكن الشرع قد قطعه في الاستعمال وردّ القسم إليه.

قلت: القسم بـ «لعمرك ولعمري» ونحوه في أشعار العرب وفصيح كلامها كثير.

قال النابغة:

لعَمْرِي وما عمرِي عليّ بهيّنٍ لقد نَطقتْ بُطْلا عليّ الأقارع(١)

آخر:

لعَمْرُك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطِّوَل المَرْخَى وثِنْياه باليَدِ(٢)

آخر:

أيّهـا المنكـح الثُّـرَيّـا سُهيـلاً عَمْـرَكَ اللّـه كيـف يلتقـان

آخر:

إذا رَضيـتْ علـيّ بنـو قُشيـر لعَمْـرُ اللّـهِ أعجبنـي رضـاهـا

وقال بعض أهل المعاني: لا يجوز هذا؛ لأنه لا يقال لله عمر، وإنما هو تعالى أزليّ. ذكره الزهراوي.

الثالثة ـ قد مضى الكلام فيما يحلف به وما لا يجوز الحلف به في «المائدة»(٣)، وذكرنا هناك قول أحمد بن حنبل فيمن أقسم بالنبيّ ﷺ لزمته الكفارة. قال ابن خويزِ منداد: من جوّز الحلف بغير الله تعالى مما يجوز تعظيمه بحق من الحقوق فليس يقول إنها يمين تتعلق بها كفارة؛ إلا أنه من قصد الكذب كان ملوماً؛ لأنه في الباطن مستخِف بما وجب عليه تعظيمه. قالوا: وقوله تعالى «لعمرك» أي وحياتك. وإذا أقسم الله تعالى بحياة نبيه فإنما أراد بيان التصريح لنا أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته. وعلى مذهب مالك معنى قوله: «لعمرك» و ﴿والتينِ والزيتونِ﴾(٤) ﴿والطورِ. وكِتابٍ مسطورٍ﴾(٥) ﴿والنجم إذا هوى﴾ ﴿والشمسِ وضحاها﴾(٤) ﴿لا أقسِم بِهذا البلدِ. وأنت حِل بِهذا البلدِ. ووالِدٍ وما ولد﴾(٤). كل هذا معناه: وخالق التين والزيتون، وبرب الكتاب المسطور، وبرب البلد الذي حللت به، وخالق عيشك وحياتك، وحق محمد؛ فاليمين والقسم حاصل به سبحانه لا بالمخلوق. قال ابن خويزِ منداد: ومن جوّز اليمين بغير الله تعالى تأوّل قوله ﷺ: «لا تحلفوا

---

(١) أراد بالأقارع بني قريع بن عوف، وكانوا قد وشوا به إلى النعمان.

(٢) البيت لطرفة بن العبد. والطول: الحبل. وثنياه: ما ثني منه. (٣) راجع ٦/ ٢٦٩ وما بعدها.

(٤) راجع ٢٠/ ١١٠ و ٧٢ و ٥٩. (٥) راجع ١٧/ ٥٨ و ٨١.

بآبائكم» وقال: إنما نهى الحلف بالآباء الكفارِ، ألا ترى أنه قال لما حلفوا بآبائهم: «للجبل عند الله أكرم من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية». ومالك حمل الحديث على ظاهره. قال ٱبن خويزِ منداد: واستدل أيضاً من جوّز ذلك بأن إيمان المسلمين جرت منذ عهد النبيّ ﷺ إلى يومنا هذا أن يحلفوا بالنبيّ ﷺ، حتى أن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا حاكم أحدهم صاحبه قال: احلف لي بحق ما حواه هذا القبر، وبحق ساكن هذا القبر، يعني النبيّ ﷺ، وكذلك بالحرم والمشاعر العظام، والركن والمقام والمحراب وما يتلى فيه(١).

[٧٣] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

[٧٤] ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ نصب على الحال، أي وقت شروق الشمس. يقال: أشرقت الشمس أي أضاءت، وشَرقت إذا طلعت. وقيل: هما لغتان بمعنًى. وأشرق القوم أي دخلوا في وقت شروق الشمس. مثل أصبحوا وأمسوا، وهو المراد في الآية. وقيل: أراد شروق الفجر. وقيل: أوّل العذاب كان عند الصبح وامتدّ إلى شروق الشمس، فكان تمام الهلاك عند ذلك. والله أعلم. و «الصَّيْحَةُ» العذاب. وتقدّم ذكر «سجِيّل»(٢).

[٧٥] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ روى الترمذيّ الحكيم في (نوادر الأصول) من حديث أبي سعيد الخدرِيّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «للمتفرسين» وهو قول مجاهد. وروى أبو عيسى الترمذيّ عن أبي سعيد الخدرِيّ قال قال رسول الله ﷺ:

(١) تأمل هذا مع قوله عليه الصلاة والسلام: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت».

(٢) راجع ٩/٨١.

«اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ـ ثم قرأ ـ ﴿إِنّ فِي ذِلك لآياتٍ لِلمتوَسِّمِينِ﴾. قال: هذا حديث غريب. وقال مقاتل وابن زيد: للمتوسمين للمتفكرين. الضحاك: للناظرين. قال الشاعر[١]:

أو كلما وردتْ عُكَاظَ قبيلةٌ بعثوا إليّ عريفَهم يتَوَسَّمُ

وقال قتادة: للمعتبرين؛ قال زهير:

وفيهنّ مَلْهًى للصديق ومنظَرٌ أنيقٌ لعينِ الناظر المتوسِّمِ

وقال أبو عبيدة: للمتبصرين، والمعنى متقارب. وروى الترمذِي الحكيم من حديث ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «إن لِلَّه عز وجل عباداً يعرفون الناس بالتوسُّم». قال العلماء: التوسم تفعل من الوسم، وهي العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها. يقال: توسّمت فيه الخيرَ إذا رأيت مِيسم ذلك فيه؛ ومنه قول عبد الله بن رواحة للنبي ﷺ:

إني توسّمت فيك الخير أعرفه والله يعلم أني ثابت البصر

آخر:

توسَّمتُه لما رأيتُ مَهابةً عليه وقلتُ المرءُ من آل هاشم

واتسم الرجل إذا جعل لنفسه علامة يعرف بها. وتوسم الرجل طلب كلأ الوَسْمِيّ. وأنشد:

وأصبحن كالدوم النواعِم غدوة على وِجْهَةٍ من ظاعنٍ مُتَوَسِّم

وقال ثعلب: الواسم الناظر إليك من فَرْقك إلى قدمك. وأصل التوسم التثبت والتفكر؛ مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة في جلد البعير وغيره، وذلك يكون بجودة القريحة وحِدة الخاطر وصفاء الفكر. زاد غيره: وتفريغ القلب من حشو الدنيا، وتطهيره من أدناس المعاصي وكُدُورة الأخلاق وفُضول الدنيا. روى نَهْشَل عن ابن عباس «لِلمتوسمِين» قال: لأهل الصلاح والخير. وزعمت الصوفية أنها كرامة. وقيل: بل هي استدلال بالعلامات،

---

(١) هو طريف بن تميم العنبري (عن شواهد سيبويه).

ومن العلامات ما يبدو ظاهراً لكل أحد وبأوّل نظرة، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكل أحد ولا يدرك ببادىء النظر. قال الحسن: المتوسِّمون هم الذين يتوسَّمون الأمور فيعلمون أن الذي أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار؛ فهذا من الدلائل الظاهرة. ومثله قول ابن عباس: ما سألني أحد عن شيء إلا عرفت أفقِيهٌ هو أو غير فَقيهٍ. وروي عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما كانا بفِناء الكعبة ورجل على باب المسجد فقال أحدهما: أراه نجاراً[١]، وقال الآخر: بل حداداً، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال: كنت نجاراً[١] وأنا اليوم حدّاد. وروي عن جُنْدُب بن عبد الله البجلِيّ أنه أتى على رجل يقرأ القرآن فوقف فقال: من سمّع سمّع الله به، ومن راءى راءى الله به. فقلنا له: كأنك عرضت بهذا الرجل، فقال: إن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم ويخرج غداً حَرورِياً؛ فكان رأس الحَرُورِية، واسمه مِرْداس. وروي عن الحسن البصري أنه دخل عليه عمرو بن عبيد فقال: هذا سيد فتيان البَصرة إن لم يحدِث، فكان من أمره من القدر ما كان، حتى هجره عامة إخوانه. وقال لأيوب: هذا سيد فتيان أهل البصرة، ولم يستثن. وروي عن الشعبِيّ أنه قال لداود الأزدي وهو يُماريه: إنك لا تموت حتى تُكْوَى في رأسك، وكان كذلك. وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل عليه قوم من مَذْحِج فيهم الأشْتَر، فصعّد فيه النظر وصوّبه وقال: أيهم هذا؟ قالوا: مالك بن الحارث. فقال: ما له قاتله الله! إني لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً؛ فكان منه في الفتنة ما كان. وروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: أن أنس بن مالك دخل عليه، وكان قد مَرّ بالسوق فنظر إلى امرأة، فلما نظر إليه قال عثمان: يدخل أحدكم عليّ وفي عينيه أثر الزنى! فقال له أنس: أوَحْياً بعد رسول الله ﷺ؟ فقال لا! ولكن برهان وفراسة وصدق. ومثله كثير عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين.

الثانية - قال [القاضي][٢] أبو بكر بن العربي: «إذا ثبت أن التوسم والتفرّس من مدارك المعاني فإن ذلك لا يترتب عليه حكم ولا يؤخذ به موسوم ولا متفرّس. وقد كان قاضي القضاة الشامي المالكي ببغداد أيام كوني بالشام يحكم بالفراسة في الأحكام، جَرْياً على طريق إياس

---

(١) في ي: تاجراً.

(٢) من ي.

ابن معاوية أيام كان قاضياً، وكان شيخنا فخر الإسلام أبو بكر الشاشي صنف جزءاً في الردّ عليه، كتبه لي بخطه وأعطانيه، وذلك صحيح؛ فإن مدارك الأحكام معلومة شرعاً مدركة قطعاً وليست الفِراسة منها.

[٧٦] ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

[٧٧] ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

[٧٨] ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

[٧٩] ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا﴾ يعني قرى قوم لوط. ﴿لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ أي على طريق قومك يا محمد إلى الشام. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لعبرة للمصدّقين. ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ يريد قوم شعيب، كانوا أصحاب غِياض ورياض وشجر مثمر. والأَيْكَةُ: الغَيْضة، وهي جماعة الشجر، والجمع الأَيْك. ويروى أن شجرهم كان دَوْماً وهو المُقْل. قال النابغة:

تَجْلُو بقادِمَتَيْ حمامة أَيْكَةٍ بَرَداً أُسِفَّ لِثَاتُه بالإثْمِدِ

وقيل: الأيكة اسم القرية. وقيل: اسم البلدة. وقال أبو عبيدة: الأيكة ولَيْكة مدينتهم، بمنزلة بَكّة من مكة. وتقدّم خبر شعيب وقومه[١]. ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أي بطريق واضح في نفسه، يعني مدينة قوم لوط وبقعة أصحاب الأيكة يعتبر بهما من يمرّ عليهما.

[٨٠] ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

الحِجْر ينطلق على معان: منها حجر الكعبة. ومنها الحرام؛ قال الله تعالى: ﴿وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾[٢] أي حراماً محرماً. والحجر العقل؛ قال الله تعالى: ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾[٣] والحِجر حِجر القميص؛ والفتح أفصح. والحجر الفرس الأنثى. والحجر ديار ثمود، وهو المراد هنا،

---

(١) راجع ٧/٢٤٧. (٢) راجع ١٣/٥٨.
(٣) راجع ٢٠/٤٢.

أي المدينة ؛ قاله الأزهريّ. قتادة: وهي ما بين مكة وتَبُوكَ، وهو الوادي الذي فيه ثمود. الطبريّ: هي أرض بين الحجاز والشام، وهم قوم صالح. وقال: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ وهو صالح وحده، ولكن من كذب نبياً فقد كذب الأنبياء كلهم؛ لأنهم على دين واحد في الأصول فلا يجوز التفريق بينهم. وقيل: كذبوا صالحاً ومن تبعه ومن تقدّمه من النبيين أيضاً. والله أعلم. روى البخاريّ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تَبُوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها. فقالوا: قد عجنّا واستقينا. فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهرِيقُوا الماء وأن يطرحوا ذلك العجين. وفي الصحيح عن ابن عمر أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهرِيقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي تَرِدها الناقة. وروي أيضاً عن ابن عمر قال: مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر فقال لنا رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حَذَراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم» ثم زجر[(١)] فأسرع.

قلت: ففي هذه الآية التي بيَّن الشارع حكمها وأوضح أمرها ثمان مسائل، استنبطها العلماء واختلف في بعضها الفقهاء، فأوّلها ـ كراهة دخول تلك المواضع، وعليها حمل بعض العلماء دخول مقابر الكفار؛ فإن دخل الإنسان شيئاً من تلك المواضع والمقابر فعلى الصفة التي أرشد إليها النبيّ ﷺ من الاعتبار والخوف والإسراع. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا أرض بابل فإنها ملعونة».

مسألة: أمر النبيّ ﷺ بهرق ما استقوا من بئر ثمود وإلقاء ما عجن وخبز به لأجل أنه ماء سخط، فلم يجز الانتفاع به فراراً من سخط الله. وقال «اعلفوه الإبل».

---

(١) أي زجر ﷺ ناقته.

قلت: وهكذا حكم الماء النجس وما يعجن به. **وثانيها** ـ قال مالك: إن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلفه الإبل والبهائم؛ إذ لا تكليف عليها؛ وكذلك قال في العسل النجس: إنه يعلفه النحل. **وثالثها** ـ أمر رسول الله ﷺ بعلف ما عجن بهذا الماء الإبل، ولم يأمر بطرحه كما أمر في لحوم الحُمُر الإنسية يوم خَيْبَر؛ فدل على أن لحم الحُمر أشد في التحريم وأغلظ في التنجيس. وقد أمر رسول الله ﷺ بكسب الحجام أن يُعلف الناضحَ والرقيق، ولم يكن ذلك لتحريم ولا تنجيس. قال الشافعيّ: ولو كان حراماً لم يأمره أن يطعِمه رقيقه؛ لأنه متعبّد فيه كما تعبّد في نفسه. **ورابعها** ـ في أمره ﷺ بعلف الإبل العجين دليلٌ على جواز حمل الرجل النجاسة إلى كلابه ليأكلوها؛ خلافاً لمن منع ذلك من أصحابنا وقال: تطلق الكلاب عليها ولا يحملها إليها. **وخامسها** ـ أمره ﷺ أن يستقوا من بئر الناقة دليل على التبرك بآثار الأنبياء والصالحين، وإن تقادمت أعصارهم وخفيت آثارهم؛ كما أن في الأوّل دليلاً على بغض أهل الفساد وذم ديارهم وآثارهم. هذا، وإن كان التحقيق أن الجمادات غير مؤاخذات، لكن المقرون بالمحبوب محبوب، والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض؛ كما قال كثير:

أحـبّ لحبهـا السـودانَ حتـى ... أحـبّ لحبهـا سُـودَ الكـلاب

وكما قال آخر:

أمـر علـى الـدّيـار ديـارِ ليلَـى ... أقبّـل ذا الجـدارَ وذا الجـدارا
وما تلك[٢] الديارُ شغَفْنَ قلبِي ... ولكن حُبُّ من سكن الديارا

وسادسها ـ منع بعض العلماء الصلاة بهذا الموضع وقال: لا تجوز الصلاة فيها لأنها دار سخط وبقعة غضب. قال ابن العربيّ: فصارت هذه البقعة مستثناة من قوله ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» فلا يجوز التيمم بترابها ولا الوضوء من مائها ولا الصلاة

(١) الناضح: البعير يستقي عليه.

(٢) الرواية المشهورة: «وما حب الديار». والبيتان لمجنون ليلى. (راجع خزانة الأدب في الشاهد التسعين بعد المائتين).

فيها. وقد روى الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يصلى في سبع مواطن: في المزبلة والمجزرة والمقبرة وقارعة الطريق، وفي الحمام وفي معاطن الإبل وفوق بيت الله. وفي الباب عن أبي مَرْثَد وجابر وأنس: حديث ابن عمر إسناده ليس بذاك القوِي، وقد تُكُلِّم في زيد بن جبيرة من قِبل حفظه. وقد زاد علماؤنا: الدار المغصوبة والكنيسة والبِيعة والبيت الذي فيه تماثيل، والأرض المغصوبة أو موضعاً تستقبل فيه نائماً أو وجه رجل أو جداراً عليه نجاسة. قال ابن العربيّ: ومن هذه المواضع ما منع لحق الغير، ومنه ما منع لحق الله تعالى، ومنه ما منع لأجل النجاسة المحققة أو لغلبتها؛ فما منع لأجل النجاسة إن فرش فيه ثوب طاهر كالحمام والمقبرة فيها أو إليها فإن ذلك جائز في المدوّنة. وذكر أبو مصعب عنه الكراهة. وفرق علماؤنا بين المقبرة القديمة والجديدة لأجل النجاسة، وبين مقبرة المسلمين والمشركين؛ لأنها دار عذاب وبقعة سخط كالحِجر. وقال مالك في المجموعة: لا يصلِّي في أعطان الإبل وإن فرش ثوباً؛ كأنه رأى لها علتين: الاستتار[١] بها ونفارها فتفسد على المصلي صلاته، فإن كانت واحدة[٢] فلا بأس؛ كما كان النبيّ ﷺ يفعل؛ في الحديث الصحيح. وقال مالك: لا يصلي على بساط فيه تماثيل إلا من ضرورة. وكره ابن القاسم الصلاة إلى القبلة فيها تماثيل، وفي الدار المغصوبة، فإن فعل أجزأه. وذكر بعضهم عن مالك أن الصلاة في الدار المغصوبة لا تجزي. قال ابن العربيّ: وذلك عندي بخلاف الأرض فإن الدار لا تدخل إلا بإذن، والأرض وإن كانت ملكاً فإن المسجدية فيها قائمة لا يبطلها الملك.

قلت: الصحيح ـ إن شاء الله ـ الذي يدل عليه النظر والخبر أن الصلاة بكل موضع طاهر جائزة صحيحة. وما روي من قوله ﷺ: «إن هذا وادٍ به شيطان» وقد رواه مَعْمَر عن الزهريّ فقال: وأخرجوا عن الموضع الذي أصابتكم فيه الغفلة. وقول عليّ: نهاني رسول الله ﷺ أن أصلي بأرض بَابِل فإنها ملعونة. وقوله عليه

---

(١) في الموطأ: «لأنها يستتر بها للبول والغائط؛ فلا تكاد تسلم مباركها من النجاسة».

(٢) أي ناقة واحدة.

السلام حين مرّ بالحِجر من ثمود: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ونهيِهِ عن الصلاة في معاطن الإبل إلى غير ذلك مما في هذا الباب، فإنه مردود إلى الأصول المجتمع عليها والدلائل الصحيح مجيئها. قال الإمام الحافظ أبو عمر: المختار عندنا في هذا الباب أن ذلك الوادي وغيره من بقاع الأرض جائز أن يصلّى فيها كلها ما لم تكن فيها نجاسة متيقنة تمنع من ذلك، ولا معنى لاعتلال من أعتل بأن موضع النوم عن الصلاة موضع شيطان، وموضع ملعون لا يجب أن تقام فيه الصلاة، وكل ما روي في هذا الباب من النهي عن الصلاة في المقبرة وبأرض بابل وأعطان الإبل وغير ذلك مما في هذا المعنى، كل ذلك عندنا منسوخ ومدفوع لعموم قوله ﷺ: «جعلت لي الأرض كلها مسجداً وطهوراً»، وقوله ﷺ مخبراً أن ذلك من فضائله ومما خص به، وفضائله عند أهل العلم لا يجوز عليها النسخ ولا التبديل ولا النقص. قال ﷺ: «أوتيت خمساً» ـ وقد روي ستا، وقد روي ثلاثاً وأربعاً، وهي تنتهي إلى أزيد من تسع[1]، قال فيهن ـ «لم يؤتهن أحد قبلي بعثت إلى الأحمر والأسود ونصرت بالرعب وجعلت أمتي خير الأمم وأحِلت لي الغنائم وجعلت لِي الأرض مسجداً وطهوراً وأوتيت الشفاعة وبعثت بجوامع الكلِم وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح الأرض فوضعت في يدي وأعطيت الكوثر وختم بي النبيون» رواها جماعة من الصحابة. وبعضهم يذكر بعضها، ويذكر بعضهم ما لم يذكر غيره، وهي صحاح كلها. وجائز على فضائله الزيادة وغير جائز فيها النقصان؛ ألا ترى أنه كان عبداً قبل أن يكون نبياً ثم كان نبياً قبل أن يكون رسولاً؛ وكذلك روي عنه. وقال: «ما أدري ما يفعل بي ولا بكم» ثم نزلت: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[2]. وسمع رجلاً يقول: يا خير البرية؛ فقال: «ذاك إبراهيم» وقال: «لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متّا» وقال: «السيد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام» ثم قال بعد ذلك كله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر». ففضائله ﷺ لم تزل

---

(١) في و و ي: سبع.

(٢) راجع ١٦/٢٦١.

تزداد إلى أن قبضه الله؛ فمن ها هنا قلنا: إنه لا يجوز عليها النسخ ولا الاستثناء ولا النقصان، وجائز فيها الزيادة. وبقوله ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» أجزنا الصلاة في المقبرة والحمام وفي كل موضع من الأرض إذا كان طاهراً من الأنجاس. وقال ﷺ لأبي ذرّ: «حيثما أدركتك الصلاة فصلِّ فإن الأرض كلها مسجد» ذكره البخاريّ ولم يخص موضعاً من موضع. وأما من احتج بحديث ابن وهب قال: أخبرني يحيى بن أيوب عن زيد بن جبيرة عن داود بن حصين عن نافع عن ابن عمر، حديث الترمذيّ الذي ذكرناه فهو حديث انفرد به زيد بن جبِيرة وأنكروه عليه، ولا يعرف هذا الحديث مسنداً إلا برواية يحيى بن أيوب عن زيد بن جبيرة. وقد كتب الليث بن سعد إلى عبد الله بن نافع مولى ابن عمر يسأله عن هذا الحديث، وكتب إليه عبد الله بن نافع لا أعلم من حدّث بهذا عن نافع إلا قد قال عليه الباطل. ذكره الحلواني عن سعيد بن أبي مريم عن الليث، وليس فيه تخصيص مقبرة المشركين من غيرها. وقد روي عن عليّ بن أبي طالب قال: نهاني حبيبي ﷺ أن أصلي في المقبرة، ونهاني أن أصلي في أرض بابل فإنها ملعونة. وإسناده ضعيف مجتمع على ضعفه، وأبو صالح الذي رواه عن عليّ هو سعيد بن عبد الرحمن الغِفاريّ، بصريّ ليس بمشهور ولا يصح له سماع عن عليّ، ومَن دونه مجهولون لا يُعرفون. قال أبو عمر: وفي الباب عن عليّ من قوله غيرَ مرفوع حديثٌ حسن الإسناد، رواه الفضل بن دُكين قال: حدثنا المغيرة بن أبي الحرّ الكِنديّ قال حدّثني أبو العَنْبس حُجر بن عنبس قال: خرجنا مع عليّ إلى الحرورية، فلما جاوزنا سوريا وقع بأرض بابل، قلنا: يا أمير المؤمنين أمسيتَ، الصلاةَ الصلاةَ؛ فأبى أن يكلم أحداً. قالوا: يا أمير المؤمنين، قد أمسيتَ. قال بلى، ولكن لا أصلي في أرض خسف الله بها. والمغيرة بن أبي الحرّ كوفي ثقة؛ قاله يحيى بن معين وغيره. وحُجر بن عنبس من كبار أصحاب عليّ. وروى الترمذيّ عن أبي سعيد الخدرِيّ قال قال رسول الله ﷺ: «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام». قال الترمذيّ؛ رواه سفيان الثوريّ عن عمرو بن

يحيى عن أبيه عن النبيّ ﷺ مرسلاً، وكأنه أثبت وأصح. قال أبو عمر: فسقط الاحتجاج به عند من لا يرى المرسل حجة، ولو ثبت كان الوجه ما ذكرناه. ولسنا نقول كما قال بعض المنتحلين لمذهب المدنيين: إن المقبرة في هذا الحديث وغيره أريد بها مقبرة المشركين خاصة؛ فإن قال: المقبرة والحمام بالألف واللام؛ فغير جائز أن يرد ذلك إلى المقبرة دون مقبرة أو حمام دون حمام بغير توقيف عليه، فهو قول لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا خبر صحيح، ولا مدخل له في القياس ولا في المعقول، ولا دل عليه فحوى الخطاب ولا خرج عليه الخبر. ولا يخلو تخصيص من خص مقبرة المشركين من أحد وجهين: إما أن يكون من أجل ٱختلاف الكفار إليها بأقدامهم فلا معنى لخصوص المقبرة بالذكر؛ لأن كل موضع هم فيه بأجسامهم وأقدامهم فهو كذلك، وقد جلّ رسول الله ﷺ أن يتكلم بما لا معنى له. أو يكون من أجل أنها بقعة سخط، فلو كان كذلك ما كان رسول الله ﷺ ليبني مسجده في مقبرة المشركين وينبِشها ويسوّيها ويبني عليها، ولو جاز لقائل أن يخص من المقابر مقبرة للصلاة فيها لكانت مقبرة المشركين أولى بالخصوص والاستثناء من أجل هذا الحديث. وكل من كره الصلاة في المقبرة لم يخص مقبرة من مقبرة؛ لأن الألف واللام إشارة إلى الجنس لا إلى معهود، ولو كان بين مقبرة المسلمين والمشركين فرق لبينه ﷺ ولم يهمله؛ لأنه بعث مبيناً. ولو ساغ لجاهل أن يقول: مقبرة كذا لجاز لآخر أن يقول: حمام كذا؛ لأن في الحديث المقبرة والحمام. وكذلك قوله: المزبلة والمجزرة؛ غير جائز أن يقال: مزبلة كذا ولا مجزرة كذا ولا طريق كذا؛ لأن التحكم في دين الله غير جائز.

وأجمع العلماء على أن التيمم على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طيباً طاهراً نظيفاً جائز. وكذلك أجمعوا على أن من صلى في كنيسة أو بِيعة على موضع طاهر، أن صلاته ماضية جائزة. وقد تقدّم هذا في سورة «براءة»[1]. ومعلوم أن الكنيسة أقرب إلى أن تكون بقعة سخط من المقبرة؛

(١) راجع ٨/ ٢٥٥.

لأنها بقعة يعصى الله ويكفر به فيها، وليس كذلك المقبرة. وقد وردت السنة باتخاذ البِيع والكنائس مساجد. روى النسائي عن طَلْق بن عليّ قال: خرجنا وفداً إلى النبيّ ﷺ فبايعناه وصلينا معه، وأخبرناه أن بأرضنا بيعة لنا، وذكر الحديث. وفيه: «فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بيعتكم واتخذوها مسجداً». وذكر أبو داود عن عثمان بن أبي العاص أن النبيّ ﷺ أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم. وقد تقدّم في «براءة»[1]. وحسبك بمسجد النبي ﷺ الذي أُسِّس على التقوى مبنياً في مقبرة المشركين؛ وهو حجة على كل من كره الصلاة فيها. وممن كره الصلاة في المقبرة سواء كانت لمسلمين أو مشركين الثوري وأبو حنيفة والأوزاعيّ والشافعيّ وأصحابهم. وعند الثوريّ لا يعيد. وعند الشافعي أجزأه إذا صلى في المقبرة في موضع ليس فيه نجاسة؛ للأحاديث المعلومة في ذلك، ولحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً»، ولحديث أبي مُرثد الغنويّ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها». وهذان حديثان ثابتان من جهة الإسناد، ولا حجة فيهما؛ لأنهما محتملان للتأويل، ولا يجب أن يمتنع من الصلاة في كل موضع طاهر إلا بدليل لا يحتمل تأويلاً. ولم يفرق أحد من فقهاء المسلمين بين مقبرة المسلمين والمشركين إلا ما حكيناه من خطل القول الذي لا يشتغل بمثله، ولا وجه له في نظر ولا في صحيح أثر.

وثامنها[2] ـ الحائط يلقى فيه النتن والعذِرة ليكرم فلا يصلى فيه حتى يسقى ثلاث مرات، لما رواه الدارقطني عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الحائط يلقى فيه العِذرة والنتن قال: «إذا سقي ثلاث مرات فصل فيه». وخرجه أيضاً من حديث نافع عن ابن عمر أنه سئل عن هذه الحيطان التي تلقى فيها العِذرات وهذا الزبل، أيصلى فيها؟ فقال: إذا سقيت ثلاث مرات فصل فيها. رفع ذلك إلى النبي ﷺ. اختلفا في الإسناد، والله أعلم.

---

(١) راجع ٨/ ٢٥٤ فما بعد.

(٢) أراد ثامن المسائل التي استنبطها الفقهاء. والحائط الحديقة.

[٨١] ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾ أي بآياتنا. كقوله: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾[1] أي بغدائنا. والمراد الناقة، وكان فيها آيات جمة: خروجها من الصخرة، ودُنُوُّ نتاجها عند خروجها، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جميعاً. ويحتمل أنه كان لصالح آيات أُخَر سوى الناقة، كالبئر وغيره. ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي لم يعتبروا.

[٨٢] ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢﴾.

[٨٣] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣﴾.

[٨٤] ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾.

النحت في كلام العرب: البري والنجر. نحته ينحته (بالكسر)[2] نحتاً أي براه. والنحاتة البراية. والمِنحت ما ينحت به. وفي التنزيل ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾[3] أي تنجرون وتصنعون. فكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً لأنفسهم بشدة قوّتهم. ﴿آمِنِينَ﴾ أي من أن تسقط عليهم أو تخرب. وقيل: آمنين من الموت. وقيل: من العذاب. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي في وقت الصبح، وهو نصب على الحال. وقد تقدّم ذكر الصيحة في هود والأعراف[4]. ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الأموال والحصون في الجبال، ولا ما أعطوه من القوّة.

[٨٥] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥﴾.

[٨٦] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾.

---

(١) راجع ١١/١٢.

(٢) وبالفتح وبه قرأ الحسن وذكر في المثلثات أن المتواتر هو الصحيح.

(٣) راجع ١٥/٩٦.

(٤) ٩/٦١ و ٧/٢٤٢.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي للزوال والفناء. وقيل: أي لأجازي المحسن والمسيء؛ كما قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا[1] بِالْحُسْنَى﴾. ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ﴾ أي لكائنة فيجزى كل بعمله. ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ مثل ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾[2] أي تجاوز عنهم يا محمد، واعف عفواً حسناً؛ ثم نسخ بالسيف. قال قتادة: نسخه قوله: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[3]. وأن النبيّ ﷺ قال لهم: «لقد جئتكم بالذبح وبعثت بالحصاد[4] ولم أبعث بالزراعة»؛ قاله عكرمة ومجاهد. وقيل: ليس بمنسوخ، وأنه أمر بالصفح في حق نفسه فيما بينه وبينهم. والصفح: الإعراض؛ عن الحسن وغيره. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ﴾ أي المقدّر للخلق والأخلاق[5]. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأهل الوفاق والنفاق.

[٨٧] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾.

اختلف العلماء في السبع المثاني؛ فقيل: الفاتحة؛ قاله عليّ بن أبي طالب وأبو هريرة والربيع بن أنس وأبو العالية والحسن وغيرهم، وروي عن النبيّ ﷺ من وجوه ثابتة، من حديث أبيّ بن كعب وأبي سعيد بن المعلى. وقد تقدّم في تفسير الفاتحة[6]. وخرّج الترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني». قال: هذا حديث حسن صحيح. وهذا نص، وقد تقدّم في الفاتحة. وقال الشاعر:

نشدتكم بمنزِل القرآن ... أمِّ الكتاب السبعِ من مثاني

وقال ابن عباس: هي السبع الطُّوَل: البقرة، وآل عمران، والنساء؛ والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال والتوبة معاً؛ إذ ليس بينهما التسمية. روى النسائيّ:

---

(١) راجع ١٧/ ١٠٥.

(٢) راجع ١٩/ ٤٤. (٣) راجع ٥/ ٣١٠.

(٤) كذا في الأصول وتفسير الطبري. وفي كتاب الجامع الصغير: «بالجهاد».

(٥) كذا في الأصول. (٦) راجع ١/ ١٠٨.

حدّثنا علي بن حجر أخبرنا شريك عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي﴾ قال: السبع الطول: وسميت مثاني لأن العبر والأحكام والحدود ثنيت فيها. وأنكر قوم هذا وقالوا: أنزلت هذه الآية بمكة، ولم ينزل من الطول شيء إذ ذاك. وأجيب بأن الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ثم أنزله منها نجوماً: فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنما آتاه محمداً ﷺ وإن لم ينزل عليه بعد. وممن قال إنها السبع الطول: عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وسعيد بن جبير ومجاهد. وقال جرير:

جزى الله الفرزدق حين يُمْسِي مُضِيعاً للمفصَّل والمثاني

وقيل: المثاني القرآن كله؛ قال الله تعالى: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ﴾[(١)]. هذا قول الضحاك وطاوس وأبو مالك، وقاله ابن عباس. وقيل له: مثاني؛ لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه. وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثي رسول الله ﷺ:

فقد كان نوراً ساطعاً يُهتدى به يُخَصّ بتنزيل المثاني المعظَّم

أي القرآن. وقيل: المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن من الأمر والنهي والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعديد نِعَم وأنباء قرون؛ قاله زياد بن أبي مريم. والصحيح الأوّل لأنه نص. وقد قدمنا في الفاتحة أنه ليس في تسميتها بالمثانى ما يمنع من تسمية غيرها بذلك؛ إلا أنه إذا ورد عن النبيّ ﷺ وثبت عنه نص في شيء لا يحتمل التأويل كان الوقوف عنده.

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ فيه إضمار تقديره: وهو أن الفاتحة القرآن العظيم لاشتمالها على ما يتعلق بأصول الإسلام. وقد تقدّم[(٢)] في الفاتحة. وقيل: الواو مقحمة، التقدير: ولقد آتيناك سبعاً من المثاني القرآن العظيم. ومنه قول الشاعر:

إلى الملِك القَرْمِ وابْنِ الهُمام وليثِ الكَتِيبَةِ في المُزْدَحَم

وقد تقدّم عند قوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾[(٣)].

---

(١) راجع ١٥/٢٤٨. (٢) راجع ١/١١٢. (٣) راجع ٣/٢١٣.

[٨٨] ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ المعنى: قد أغنيتك بالقرآن عما في أيدي الناس؛ فإنه ليس مِنا من لم يتغنّ بالقرآن؛ أي ليس مِنا من رأى أنه ليس يَغْنَى بما عنده من القرآن حتى يطمح بصره إلى زخارف الدنيا وعنده معارف الموْلَى. يقال: إنه وافى سبع قوافل من بُصْرَى وأذْرِعَات ليهود قُريظة والنضِير في يوم واحد، فيها البُرّ والطِّيب والجوْهَر وأمتعة البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي﴾ أي فهي خير لكم من القوافل السبع، فلا تمدّن أعينكم إليها. وإلى هذا صار ابن عيينة، وأورد قوله عليه السلام: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن» أي من لم يستغن به. وقد تقدّم هذا المعنى في أوّل[١] الكتاب. ومعنى ﴿أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ أي أمثالاً في النعم، أي الأغنياء بعضهم أمثال بعض في الغنى، فهم أزواج.

الثانية ـ هذه الآية تقتضي الزجر عن التشوّف إلى متاع الدنيا على الدوام، وإقبال العبد على عبادة مولاه. ومثله ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فيه﴾[٢] الآية. وليس كذلك؛ فإنه روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «حبب إليّ من دنياكم[٣] النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة». وكان عليه الصلاة والسلام يتشاغل بالنساء، جِبِلة الآدمية وتشوّف الخِلقة الإنسانية، ويحافظ على الطِّيب، ولا تقرّ له عين إلا في الصلاة لدى مناجاة المولى، ويرى أن مناجاته أحرى من ذلك وأولى، ولم يكن في دين محمد الرهبانية والإقبال على الأعمال الصالحة بالكلية[٤] كما كان في دين عيسى،

---

(١) راجع ١/١٢.

(٢) راجع ١١/٢٦١.

(٣) كذا في سنن النسائي ومسند الإمام أحمد. والذي في الأصول: «حبب إلي من دنياكم ثلاث... الخ» وبكلمة «ثلاث» لا يستقيم الكلام. راجع كشف الخفا ١/٣٣٨ ففيه بحث شيق واف.

(٤) أي الانقطاع الكلي عن الدنيا فإنه من معاني الرهبانية.

وإنما شرع الله سبحانه حنيفية سمحة خالصة عن الحرج خفيفة على الآدميّ، يأخذ من الآدمية بشهواتها ويرجع إلى الله بقلب سليم. ورأى القراء والمخلصون من الفضلاء الانكفاف عن اللذات والخلوصَ لرب الأرض والسموات اليوم أولى؛ لما غلب على الدنيا من الحرام، وأضطرّ العبد في المعاش إلى مخالطة من لا تجوز مخالطته ومصانعةِ من تحرم مصانعته، فكانت القراءة أفضل، والفرار عن الدنيا أصوب للعبد وأعدل؛ قال ﷺ: «يأتي على الناس زمان يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف[1] الجبال ومواقع القطر يفِرّ بدينه من الفتن».

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي ولا تحزن على المشركين إن لم يؤمنوا. وقيل: المعنى لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا فلك في الآخرة أفضل منه. وقيل: لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل العذاب. ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ألِنِ جانبك لمن آمن بك وتواضع لهم. وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرخ، فجعل ذلك وصفا لتقريب الإنسان أتباعه. ويقال: فلان خافض الجناح، أي وقور ساكن. والجناحان من ابن آدم جانباه؛ ومنه ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾[2] وجناح الطائر يده. وقال الشاعر:

وحَسْبُكَ فِتيَةٌ لزعيم قوم ... يمدّ على أخِي سُقْمٍ جناحاً

أي تواضعاً وليناً.

[٨٩] ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾.

[٩٠] ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

في الكلام حذف؛ أي إني أنا النذير المبين عذاباً، فحذف المفعول، إذ كان الإنذار يدل عليه، كما قال في موضع آخر: ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[3]. وقيل: الكاف زائدة، أي أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين؛ كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[4]. وقيل: أنذرتكم

---

(١) أي رؤوسها. (٢) راجع ١١/ ١٩٠.

(٣) راجع ١٥/ ٣٤٦. (٤) راجع ١٦/ ٧.

مثل ما أنزلنا بالمقتسمين. وقيل: المعنى كما أنزلنا على المقتسمين، أي من العذاب وكفيناك المستهزئين، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين الذين بغوا، فإنا كفيناك أولئك الرؤساء الذين كنت تلقى منهم ما تلقى.

وٱختلف في «المقْتَسِمِين» على أقوال سبعة: **الأوّل** ـ قال مقاتل والفراء: هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فٱقتسموا أعقاب[1] مكة وأنقابها وفجاجها يقولون لمن سلكها: لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدّعي النبوّة؛ فإنه مجنون، وربما قالوا ساحر، وربما قالوا شاعر، وربما قالوا كاهن. وسُمّوا المقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق، فأماتهم الله شرّ مِيتة، وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حَكَماً على باب المسجد، فإذا سألوه عن النبيّ ﷺ قال: صدق أولئك. **الثاني** ـ قال قتادة: هم قوم من كفار قريش اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعراً، وبعضه سحراً، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأوّلين. **الثالث** ـ قال ابن عباس: هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه. وكذلك قال عكرمة: هم أهل الكتاب، وسُمّوا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين، فيقول بعضهم: هذه السورة لي وهذه السورة لك. وهو القول الرابع. **الخامس** ـ قال قتادة: قسموا كتابهم ففرّقوه وبدّدوه وحرّفوه. **السادس** ـ قال زيد بن أسلم: المراد قوم صالح، تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين؛ كما قال تعالى: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾[2]. **السابع** ـ قال الأخفش: هم قوم اقتسموا أيماناً تحالفوا عليها. وقيل: إنهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البَخْتَرِيّ بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ومنبّه بن الحجاج؛ ذكره الماورديّ.

[٩١] ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾.

هذه صفة المقتسمين. وقيل: هو مبتدأ وخبره ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ﴾. وواحد العِضِين عِضَة من عضّيت الشيء تعضية أي فرّقته؛ وكل فرقة عِضَة. وقال بعضهم: كانت في الأصل

---

(١) الأعقاب ما بعد مكة من الطرق يفد منها الناس، والأنقاب: منافذ الجبال، والفجاج: الطرق الواسعة.

(٢) راجع ٢١٦/١٣.

عِضْوَة فنقصت الواو، ولذلك جمعت عضين؛ كما قالوا: عِزِين في جميع عِزة، والأصل عِزوة، وكذلك ثُبة وثبين. ويرجع المعنى إلى ما ذكرناه في المقتسمين. قال ابن عباس: آمنوا ببعض وكفروا ببعض. وقيل: فرّقوا أقاويلهم فيه فجعلوه كذباً وسحراً وكهانة وشعراً. عضوته أي فرقته. قال الشاعر ـ هو رؤبة ـ:

وليس دين الله بالمُعَضَّى

أي بالمفرّق. ويقال: نقصانه الهاء وأصله عضْهة؛ لأن العِضَه والعِضين في لغة قريش السحر. وهم يقولون للساحر: عاضِه وللساحرة عاضِهة. قال الشاعر:

أعــوذ بــربــي مــن النــافِثــا ... تِ فــي عُقَــد العــاضِــه المُعْضِــه

وفي الحديث: لعن رسول الله ﷺ العاضِهة والمُسْتَعْضِهَة، وفسر: الساحِرة والمستسحِرة. والمعنى: أكثروا البُهْت على القرآن ونوّعوا الكذب فيه، فقالوا: سحر وأساطير الأولين، وأنه مفترى، إلى غير ذلك. ونظير عِضة في النقصان شَفة، والأصل شَفْهة. كما قالوا: سنَة، والأصل سنْهة، فنقصوا الهاء الأصلية وأثبتت هاء العلامة وهي للتأنيث. وقيل: هو من العَضْه وهي النميمة. والعَضِيهة البهتان، وهو أن يعضَه الإنسان ويقول فيه ما ليس فيه. يقال عَضَهه عضْها رماه بالبهتان. وقد أعْضَهْت أي جئت بالبهتان. قال الكسائيّ: العِضة الكذب والبهتان، وجمعها عِضون، مثل عِزة وعزون، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾. ويقال: عضّوه أي آمنوا بما أحبوا منه وكفروا بالباقي، فأحبط كفرهم إيمانهم. وكان الفراء يذهب إلى أنه مأخوذ من العِضاة، وهي شجر الوادي ويخرج كالشوك.

[٩٢] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

[٩٣] ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لَنَسْأَلَنّ هؤلاء الذين جرى ذكرهم عما عملوا في الدنيا. وفي البخاريّ: وقال عِدة من أهل العلم في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عن لا إله إلا الله.

قلت: وهذا قد روي مرفوعاً، روى الترمذيّ الحكيم قال: حدثنا الجارود بن معاذ قال حدثنا الفضل بن موسى عن شريك عن ليث عن بشير بن نَهِيك عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُم أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال: عن قول لا إله إلا الله» قال أبو عبد الله: معناه عندنا عن صدق لا إله إلا الله ووفائها؛ وذلك أن الله تعالى ذكر في تنزيله العمل فقال ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل عما كانوا يقولون، وإن كان قد يجوز أن يكون القول أيضاً عمل اللسان، فإنما المعنيّ به ما يعرفه أهل اللغة أن القول قولٌ والعملَ عملٌ. وإنما قال رسول الله ﷺ: «عن لا إله إلا الله» أي عن الوفاء بها والصدق لمقالها. كما قال الحسن البصريّ: ليس الإيمان بالتحلّي ولا الدين بالتمني ولكن ما وَقَرَ في القلوب وصدقته الأعمال. ولهذا ما قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة» قيل: يا رسول الله، وما إخلاصها؟ قال: «أن تحجُزه عن محارم الله». رواه زيد بن أرقم. وعنه أيضاً قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله عهد إليّ ألا يأتيني أحد من أمتي بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئاً إلا وَجَبت له الجنة» قالوا: يا رسول الله وما الذي يخلط بلا إله إلا الله؟ قال: «حرصاً على الدنيا وجَمْعاً لها ومنعاً لها، يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة». وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله ما لم يؤثروا صفَقَة دنياهم على دينهم فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا لا إله إلا الله ردّت عليهم وقال الله كذبتم». أسانيدها في نوادر الأصول.

قلت والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كافِرهم ومؤمِنهم، إلا من دخل الجنة بغير حساب على ما بيناه في كتاب (التذكرة). فإن قيل: وهل يسأل الكافر ويحاسب؟ قلنا: فيه خلاف، وذكرناه في التذكرة. والذي يظهر سؤاله؛ للآية وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[١] وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[٢]. فإن قيل: فقد قال تعالى:

(١) راجع ١٥/ ٧٢.
(٢) راجع ٢٠/ ٣٨.

﴿وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[١] وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾[٢]، وقال: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾[٣]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾[٤]. قلنا: القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك فيه. قال عكرمة: القيامة مواطن، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها. وقال ابن عباس: لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا؛ لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ فيقول لهم: لِم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه؟ واعتمد قُطْرُب هذا القول. وقيل: ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني المؤمنين المكلّفين؛ بيانُه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[٥]. والقول بالعموم أولى كما ذكر. والله أعلم.

[٩٤] ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

[٩٥] ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي بالذي تؤمر به، أي بلغ رسالة الله جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم، فقد أمرك الله بذلك. والصدع: الشق. وتصدّع القوم أي تفرّقوا؛ ومنه ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[٦] أي يتفرّقون. وصدعته فانصدع أي انشق. وأصل الصدع الفرق والشّق. قال أبو ذؤيب يصف الحمار وأُتُنَه:

وكأنهنّ رِبَابة وكأنّه يَسَرٌ يُفيض على القِداح ويَصْدَعُ[٧]

أي يفرق ويشق. فقوله: ﴿اصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ قال الفرّاء: أراد فاْصدع بالأمر، أي أظهر دينك، فـ «ما» مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر. وقال ابن الأعرابي: معنى اصدع بما تؤمر، أي اقصد. وقيل: «فاْصدع بما تؤمر» أي فرّق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرّقون بأن يجيب البعض؛ فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفار.

---

(١) راجع ١٣/٣١٥. (٢) راجع ١٧/١٧٣. (٣) راجع ٢/٢٣٤.
(٤) راجع ١٩/٢٥٧. (٥) راجع ٢٠/١٧٤. (٦) راجع ١٤/٢١.
(٧) الربابة: الجلدة التي تجمع فيها السهام. واليسر: صاحب الميسر الذي يضرب بالقداح.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبالاة بقولهم، فقد برأك الله عما يقولون. وقال ابن عباس: هو منسوخ بقوله ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾(١). وقال عبد الله بن عبيد: ما زال النبيّ ﷺ مستخفياً حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه. وقال مجاهد: أراد الجهر بالقرآن في الصلاة. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا تبال بهم. وقال ابن إسحاق: لما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. والمعنى اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله؛ فإن الله كافيك من أذاك كما كفاك المستهزئين، وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة، وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زَمْعَة. والأسود بن عبد يَغُوث، والحارث بن الطُّلاطِلَة، أهلكهم الله جميعاً، قيل: يوم بَدر في يوم واحد؛ لاستهزائهم برسول الله ﷺ. وسبب هلاكهم فيما ذكر ابن إسحاق: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهم يطوفون بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ فمرّ به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعَمِي ووجِعت عينه، فجعل يضرب برأسه الجدار. ومرّ به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنُه فمات منه حَبَناً. (يقال: حبِن (بالكسر) حبَنا وحُبِن للمفعول عظم بطنه بالماء الأصفر، فهو أحْبَن، والمرأة حَبْناء؛ قاله في الصحاح). ومرّ به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله، وكان أصابه قبل ذلك بسنين، وهو يجُرّ سَبَله(٢)؛ وذلك أنه مرّ برجل من خزاعة يَرِيش نَبْلاً له فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش في رجله ذلك الخدش وليس بشيء، فانتقض به فقتله. ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أَخْمَص رجله، فخرج على حمار له يريد الطائف، فرَبَض به على شِبْرِقَة(٣) فدخلت في أخمص قدمه شوكة فقتلته. ومرّ به الحارث بن الطُّلاطِلَة، فأشار إلى رأسه

(١) راجع ٨/ ٧٢.
(٢) السبل (بالتحريك): الثياب المسبلة؛ يفعل ذلك كبراً واختيالاً.
(٣) الشبرق: نبت حجازي يؤكل، وله شوك.

فامتخط(١) قيحاً فقتله. وقد ذُكر في سبب موتهم اختلاف قريب من هذا. وقيل: إنهم المراد بقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾(٢). شبه ما أصابهم في موتهم بالسقف الواقع عليهم؛ على ما يأتي.

[٩٦] ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

هذه صفة المستهزئين. وقيل: هو ابتداء وخبره ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

[٩٧] ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ أي قلبك؛ لأن الصدر محل القلب. ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي بما تسمعه من تكذيبك وردّ قولك، وتناله وينال أصحابك من أعدائك.

[٩٨] ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي فافزع إلى الصلاة، فهي غاية التسبيح ونهاية التقديس؛ وذلك تفسير لقوله: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ولا خفاء أن غاية القرب في الصلاة حال السجود، كما قال عليه السلام: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأخلصوا الدعاء»(٣). ولذلك خص السجود بالذكر.

الثانية ـ قال ابن العربي: ظن بعض الناس أن المراد بالأمر هنا السجود نفسه، فرأى هذا الموضع محل سجود في القرآن، وقد شاهدت الإمام بمحراب زكريا من البيت المقدس طهّره الله، يسجد في هذا الموضع وسجدت معه فيها، ولم يره جماهير العلماء.

قلت: قد ذكر أبو بكر النقاش أن ها هنا سجدةً عند أبي حذيفة ويَمَان بن رِئاب، ورأى أنها واجبة.

---

(١) المخط: السيلان والخروج. (٢) راجع ص ٩٧ من هذا الجزء.

(٣) الرواية «فأكثروا» كما في الجامع الصغير.

[٩٩] ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

فيه مسألة واحدة ـ وهو أن اليقين الموت. أمره بعبادته إذ[١] قصر عباده في خدمته ، وأن ذلك يجب عليه . فإن قيل : فما فائدة قوله : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾؟ وكان قوله : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ كافياً في الأمر بالعبادة ، قيل له : الفائدة في هذا أنه لو قال: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ مطلقاً ثم عبده مرة واحدة كان مطيعاً؛ وإذا قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ كان معناه لا تفارق هذا حتى تموت . فإن قيل : كيف قال سبحانه ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾؟ ولم يقل أبداً؛ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله: أبداً؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد. وقد تقدّم هذا المعنى[٢] . والمراد استمرار العبادة مدّة حياته ؛ كما قال العبد الصالح : ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ . ويتركب على هذا أن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق أبداً ، وقال : نويت يوماً أو شهراً كانت عليه الرجعة. ولو قال: طلقتها حياتها لم يراجعها. والدليل على أن اليقين الموت حديث أمّ العلاء الأنصارية، وكانت من المبايِعات، وفيه: فقال رسول الله ﷺ : «أما عثمان ـ أعني عثمان بن مظعون ـ فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير واللّهِ ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به» وذكر الحديث[٣] . انفرد بإخراجه البخاريّ رحمه الله ! وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت ثم لا يستعدّون له؛ يعني كأنهم فيه شاكون. وقد قيل: إن اليقين هنا الحق الذي لا ريب فيه من نصرك على أعدائك؛ قاله ابن شجرة؛ والأول أصح، وهو قول مجاهد وقتادة والحسن. والله أعلم. وقد روى جبير بن نُفير عن أبي مسلم الخَوْلانِيّ أنه سمعه يقول إن النبيّ ﷺ قال: «ما أوحيَ إليّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحي إليّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين».

---

(١) في ي: وقد.

(٢) راجع ٢/ ٣٣.

(٣) راجع صحيح البخاري ٣/ ١٥١ طبعة بولاق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة النحل

وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وتسمّى سورة النِّعم بسبب ما عدّد الله فيها من نعمه على عباده. وقيل: هي مكية غير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾[1] الآية؛ نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أُحُد. وغيرَ قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾[1]. وغير قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾[1] الآية. وأما قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾[1] فمكيّ في شأن هجرة الحبشة. وقال ابن عباس: هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة، وهي قوله: ﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

[١] ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ①﴾.

قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قيل: «أَتَى» بمعنى يأتي؛ فهو كقولك: إن أكرمتني أكرمتك. وقد تقدّم أن أخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء؛ لأنه آتٍ لا محالة، كقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾[2]. و «أمر اللَّهِ» عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله. قال الحسن وابن جُريج والضّحاك: إنه ما جاء به القرآن من فرائضه وأحكامه. وفيه بعد؛ لأنه لم يُنقل أن أحداً من الصحابة ٱستعجل فرائض الله من قبل أن تفرض عليهم، وأما مستعجلو العذاب والعقاب فذلك منقول عن كثير من كفار قريش

---

(١) راجع ص ٢٠٠ من هذا الجزء، و ٢٠٢ و١٩٢، و ١٠٦، و ١٧٣.
(٢) راجع ٧/٢٠٩.

وغيرهم، حتى قال النَّضر بن الحارث: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية، فاستعجلَ العذاب.

قلت: قد يستدل الضحاك بقول عمر رضي الله عنه: وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر؛ خرّجه مسلم والبخاري. وقد تقدم في سورة البقرة[1]. وقال الزجاج: هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم، وهو كقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾[2]. وقيل: هو يوم القيامة أو ما يدلّ على قربها من أشراطها. قال ابن عباس: لما نزلت ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[3] قال الكفار: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون، فأمسكوا وانتظروا فلم يروا شيئاً، فقالوا ما نرى شيئاً! فنزلت ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾[4] الآية. فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة، فامتدت الأيام فقالوا: ما نرى شيئاً! فنزلت: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ فوثب رسول الله ﷺ والمسلمون وخافوا؛ فنزلت: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فاطمأنوا، فقال النبيّ ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بأصبعيه: السبَّابة والتي تليها يقول: أن كادت لتسبقني فسبقتها. وقال ابن عباس: كان بعث النبي ﷺ من أشراط الساعة، وأن جبريل لما مرّ بأهل السموات مبعوثاً إلى محمد ﷺ قالوا: الله أكبر، قد قامت الساعة.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزيهاً له عما يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة، وذلك أنهم يقولون: لا يقدر أحد على بعث الأموات، فوصفوه بالعجز الذي لا يوصف به إلا المخلوق، وذلك شرك. وقيل: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراكهم. وقيل: «ما» بمعنى الذي، أي ارتفع عن الذين أشركوا به.

---

(١) راجع ٢/١١٢.
(٢) راجع ٩/٣٠.
(٣) راجع ١٧/١٢٥.
(٤) راجع ١١/٢٦٦.

[٢] ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۝٢﴾.

قرأ المفضّل عن عاصم «تَنَزَّل الملائكةُ» والأصل تتنزل، فالفعل مسند إلى الملائكة. وقرأ الكسائي عن أبي بكر عن عاصم باختلاف عنه، والأعمش «تُنَزَّل الملائكةُ» غير مسمى الفاعل. وقرأ الجُعْفيّ عن أبي بكر عن عاصم «نُنَزِّلُ الملائكةَ» بالنون مسمّى الفاعل، الباقون «يُنَزِّلُ» بالياء مسمى الفاعل، والضمير فيه لاسم الله عز وجل. وروي عن قتادة «نُنْزِل الملائكة» بالنون والتخفيف. وقرأ الأعمش «تَنْزِلُ» بفتح التاء وكسر الزاي، من النزول. «الملائكةُ» رفعاً مثل «تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ»[١]. ﴿بِالرُّوحِ﴾ أي بالوحي وهو النبوّة؛ قاله ابن عباس. نظيره ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[٢]. الربيع بن أنس: بكلام الله وهو القرآن. وقيل: هو بيان الحق الذي يجب اتباعه. وقيل: أرواح الخلق؛ قاله مجاهد، لا ينزل ملك إلا ومعه روح. وكذا روي عن ابن عباس أن الروح خلق من خلق الله عز وجل كصور ابن آدم، لا ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد منهم. وقيل: بالرحمة؛ قاله الحسن وقتادة. وقيل: بالهداية؛ لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان، وهو معنى قول الزجاج: قال الزجاج: الروح ما كان فيه من أمر الله حياةٌ بالإرشاد إلى أمره. وقال أبو عبيدة: الروح هنا جبريل. والباء في قوله: «بِالرُّوحِ» بمعنى مع، كقولك: خرج بثيابه، أي مع ثيابه. ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي بأمره. ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي على الذين اختارهم الله للنبوّة. وهذا ردّ لقولهم: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٣]. ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَه إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ تحذير من عبادة الأوثان، ولذلك جاء الإنذار؛ لأن أصله التحذير مما يخاف منه. ودلّ على ذلك قوله: «فَاتَّقُونِ». و «أن» في موضع نصب بنزع الخافض، أي بأن أنذروا أهل الكفر بأنه لا إله إلا الله، فـ «أن» في محل نصب بسقوط الخافض أو بوقوع الإنذار عليه.

---

(١) راجع ٢٠/١٣٣.
(٢) راجع ١٥/٢٩٩.
(٣) راجع ١٦/٨٢.

[٣] ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحَقِّ﴾ أي للزوال والفناء. وقيل: «بالحق» أي للدلالة على قدرته، وأن له أن يتعبّد العباد بالطاعة وأن يحيي الخلق بعد الموت. ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي من هذه الأصنام التي لا تقدر على خلق شيء.

[٤] ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ لما ذكر الدليل على توحيده ذكر بعده الإنسان ومناكدته وتعدّي طوره. «والإنسان» اسم للجنس. وروي أن المراد به أُبَيّ بن خلف الجُمَحي، جاء إلى النبي ﷺ بعظم رميم فقال: أترى يحيي الله هذا بعد ما قد رَمّ. وفي هذا أيضاً نزل: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي خلق الإنسان من ماء يخرج من بين الصلب والترائب، فنقله أطواراً إلى أن ولد ونشأ بحيث يخاصِم في الأمور. فمعنى الكلام التعجيب من الإنسان ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾[١] وقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أي مخاصِم، كالنسيب بمعنى المناسب. أي يخاصم اللَّهَ عز وجل في قدرته. و ﴿مُبِينٌ﴾ أي ظاهر الخصومة. وقيل: يُبيِّن عن نفسه الخصومة بالباطل. والمُبِينُ: هو المفصح عما في ضميره بمنطقه.

[٥] ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَام خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ لما ذكر الإنسان ذكر ما منّ به عليه. والأنعام: الإبل والبقر والغنم. وأكثر ما يقال: نعم وأنعام للإبل، ويقال للمجموع ولا يقال للغنم مفردة. قال حسان:

---

(١) راجع ١٥/٥٧، ٥٨.

عَفَت ذاتُ الأصابع فالجِوَاءُ ... إلى عَذْراءَ منزِلُها خَلاءُ[1]
دِيارٌ من بَنِي الحَسْحاس قَفْرٌ ... تُعَفِّيها الروامِسُ والسماءُ[2]
وكانت لا يزال بها أنيس ... خِلال مُرُوجها نَعَمٌ وشَاءُ

فالنَّعم هنا الإبل خاصّةً. وقال الجوهري: والنَّعَم واحد الأنعام وهي المال الراعية، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل. قال الفرّاء: وهو ذكر لا يؤنث، يقولون: هذا نَعَم وارد، ويجمع على نُعْمان مثل حَمَل وحُمْلان. والأنعام تذكر وتؤنث؛ قال الله تعالى: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾[3]. وفي موضع ﴿مِمَّا فِي بُطونِهَا﴾[4]. وانتصب الأنعام عطفاً على الإنسان، أو بفعل مقدّر؛ وهو أوجه.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿دِفْءٌ﴾ الدفء: السخانة، وهو ما استدفىء به من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ملابسُ ولحُفُ وقُطُف[5]: وروي عن ابن عباس: دفؤها نسلها؛ والله أعلم. قال الجوهري في الصحاح: الدفء نِتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها؛ قال الله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾. وفي الحديث: «لنا من دِفئهم ما سلّموا بالميثاق». والدفء أيضاً: السخونة، تقول منه: دَفِيء الرجل دفَاءة مثلُ كَرِه كراهة. وكذلك دَفِيء دَفأ مثل ظمِيء ظمأ. والاسم الدِّفْء (بالكسر) وهو الشيء الذي يدفئك، والجمع الأدفاء. تقول: ما عليه دفء؛ لأنه اسم. ولا تقول: ما عليك دَفاءة؛ لأنه مصدر. وتقول: اقعد في دِفء هذا الحائط أي كِنّه. ورجل دفِيء على فَعِلٍ إذا لبس ما يدفِئه. وكذلك رجل دفآن وامرأة دفأى. وقد أدفأه الثوب وتدفأ هو بالثوب واستدفأ به، وادّفأ به وهو افتعل؛ أي لبس ما يدفئه. ودَفُؤت ليلتنا، وهو يوم دفيء على فعيل وليلة دفِيئة، وكذلك الثوب والبيت. والمدفِئة الإبل الكثيرة؛ لأن بعضها يدفِيء بعضاً بأنفاسها، وقد يشدّد. والمُدْفَأة الإبل الكثيرة الأوبار والشحوم؛ عن الأصمعي. وأنشد الشماخ:

وكيف يَضِيع صاحبُ مُدْفآتٍ ... على أثْباجِهن مِن الصَّقِيع[6]

---

(١) ذات الأصابع والجواء: موضعان بالشام. وعذراء: قرية بغوطة دمشق.
(٢) الحسحاس: اسم رجل. والروامس: الرياح التي تثير التراب وتدفن الآثار.
(٣) راجع ص ١٢٢ من هذا الجزء. (٤) راجع ١٢/ ١١٧. (٥) القطف (جمع قطيفة) كساء له خمل؛ أي وبر. (٦) أثباج: جمع ثبج، وهو وسطها. وقيل: ظهرها. وقيل: ما بين كاهلها وظهرها.

قوله تعالى: ﴿وَمَنَافِعُ﴾ قال ابن عباس: المنافع نسل كل دابّة. مجاهد: الركوب والحمل والألبان واللحوم والسمن. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أفرد منفعة الأكل بالذكر لأنها معظم المنافع. وقيل: المعنى ومن لحومها تأكلون عند الذبح.

الثالثة: دلت هذه الآية على لباس الصوف؛ وقد لبسه رسول الله ﷺ والأنبياء قبله كموسى وغيره. وفي حديث المغيرة: فغسل وجهه وعليه جبة من صوف شامية ضيقة الكمين... الحديث، خرجه مسلم وغيره. قال ابن العربي: وهو شعار المتقين ولباس الصالحين وشارة الصحابة والتابعين، واختيار الزهاد والعارفين، وهو يلبس ليناً وخشناً وجيداً ومُقَارِباً(١) ورديئاً، وإليه نسب جماعة من الناس الصوفية؛ لأنه لباسهم في الغالب، فالياء للنسب والهاء للتأنيث. وقد أنشدني بعض أشياخهم بالبيت المقدس طهره الله:

تشاجر الناسُ في الصوفيّ واختلفوا فيه وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنحَلُ هذا الاسمَ غير فتًى صَافَى فصُوفِيَ حتى سُمِّيَ الصوفي

[٦] ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝﴾.

الجمال ما يتجمل به ويتزين. والجمال: الحسن. وقد جُمل الرجل (بالضم) جمالاً فهو جميل، والمرأة جميلة، وجملاء أيضاً؛ عن الكسائي. وأنشد:

فهي جَمْلاء كبدرٍ طالع بَذّت الخلقَ جميعاً بالجمال

وقول أبي ذؤيب:

جَمالَكَ أيّها القلبُ القريح(٢)

يريد: الزم تجمّلك وحياءك ولا تجزع جزعاً قبيحاً. قال علماؤنا: فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخِلقة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال. فأما جمال الخِلْقة فهو

(١) شيء مقارب (بكسر الراء): وسط بين الجيد والرديء.
(٢) هذا صدر البيت، وعجزه كما في اللسان:

ستلقى من تحب فتستريح

أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائماً، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته لأحد من البشر. وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعدل والعِفة، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد. وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية لجلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم. وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة، وهو مرئيّ بالأبصار موافق للبصائر. ومن جمالها كثرتها وقول الناس إذا رأوها هذه نَعَم فلان؛ قاله السدّيّ. ولأنها إذا راحت توفّر حسنها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها؛ لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنمة وضروعاً؛ قاله قتادة. ولهذا المعنى قدّم الرّواح على السراح لتكامل درّها وسرور النفس بها إذ ذاك. والله أعلم. وروى أشهب عن مالك قال: يقول الله عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ وذلك في المواشي حين تروح إلى المرعى وتسرح عليه. والرّواح رجوعها بالعشي من المرعى، والسراح بالغداة؛ تقول: سرحت الإبل أسرحها سرحاً وسروحاً إذا غدوت بها إلى المرعى فخليتها، وسرحت هي. المتعدّي واللازم واحد.

[٧] ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ الأثقال أثقال الناس من متاع وطعام وغيره، وهو ما يثقل الإنسانَ حمله. وقيل: المراد أبدانهم؛ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(١). والبلد مكة، في قول عكرمة. وقيل: هو محمول على العموم في كل بلد مسلكه على الظهر. وشق الأنفس: مشقتها وغاية جهدها. وقراءة العامة بكسر الشين. قال الجوهري: والشق المشقة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾

(١) راجع ٢٠/١٤٧، ولعل الأثقال في الزلزلة: الكنوز.

وهذا قد يفتح، حكاه أبو عبيدة. قال المهدوي: وكسر الشين وفتحها في «شِقّ» متقاربان، وهما بمعنى المشقة؛ وهو من الشق في العصا ونحوها؛ لأنه ينال منها كالمشقة من الإنسان. وقال الثعلبي: وقرأ أبو جعفر «إلاَّ بِشَقِّ الأَنْفُسِ» وهما لغتان، مثل رِق ورَقّ وجِص وجَصّ ورِطل ورَطل. وينشد قول الشاعر بكسر الشين وفتحها:

وذي إبل يَسْعَى[1] ويحسِبها له ... أخِي نَصَب مِن شِقّها ودُؤوبِ

ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، من شققت عليه أشُقّ شَقًّا. والشق أيضاً بالكسر النصف، يقال: أخذت شِق الشاة وشِقّة الشاة. وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى؛ أي لم تكونوا بالغيه إلا بنقص من القوة وذهاب شِق منها، أي لم تكونوا تبلغوه إلا بنصف قوى أنفسكم وذهاب النصف الآخر. والشِّق أيضاً الناحية من الجبل. وفي حديث أمّ زَرْع: وجدني في أهل غُنيمة بشِق. قال أبو عبيد: هو اسم موضع. والشق أيضاً: الشقيق، يقال: هو أخي وشِق نفسي. وشِقّ اسم كاهن من كهّان العرب. والشق أيضاً: الجانب؛ ومنه قول امرىء القيس:

إذا ما بَكى مِن خَلْفها انصرفَتْ له ... بشِقّ وتحتي شِقُّها لم يحوّلِ

فهو مشترك.

الثانية ـ منّ الله سبحانه بالأنعام عموماً، وخص الإبل هنا بالذكر في حمل الأثقال على سائر الأنعام؛ فإنّ الغنم للسرح والذبح، والبقر للحرث، والإبل للحمل. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها التفتت إليه البقرة فقالت إني لم أخلق لهذا ولكني إنما خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله تعجباً وفزعاً أبقرةٌ تَكَلّم»؟ فقال رسول الله ﷺ: «وإني أومِن به وأبو بكر وعمر». فدل هذا الحديث على أن البقرة لا يحمل عليها ولا تركب، وإنما هي للحرث وللأكل والنسل والرِّسْل[2].

---

(١) هو النمر بن تولب، كما في اللسان مادة شقق: وفي جـ و ي: يقنى.

(٢) الرسل (بالكسر): اللبن.

الثالثة ـ في هذه الآية دليل على جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها، ولكن على قدر ما تحتمله من غير إسراف في الحمل مع الرفق في السير. وقد أمر النبيّ ﷺ بالرفق بها والإراحة لها ومراعاة التفقد لعلفها وسقيها. وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «إذا سافرتم في الخِصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض وإذا سافرتم في السنة فبادروا بها نِقْيَها»[1] رواه مالك في الموطأ عن أبي عبيد عن خالد بن معدان . وروى معاوية بن قُرّة قال : كان لأبي الدّرداء جمل يقال له دَمُّون ، فكان يقول : يا دمون ، لا تخاصمني عند ربك. فالدواب عُجم لا تقدر أن تحتال لنفسها ما تحتاج إليه، ولا تقدر أن تفصح بحوائجها، فمن ارتفق بمرافقها ثم ضيعها من حوائجها فقد ضيع الشكر وتعرّض للخصومة بين يدي الله تعالى. وروى مطر بن محمد قال: حدّثنا أبو داود قال حدّثنا ابن خالد قال حدّثنا المسيّب بن آدم قال. رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرب جَمّالاً وقال: تحمل على بعيرك ما لا يطيق؟.

[٨] ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ .

فيه ثمان مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ﴾ بالنصب معطوف، أي وخلق الخيل. وقرأ ابن أبي عَبْلة «والخيلُ والبِغالُ والحمِيرُ» بالرفع فيها كلها. وسميت الخيل خيلاً لاختيالها في المِشية. وواحد الخيل خائل، كضائن واحد ضَأن. وقيل: لا واحد له. وقد تقدم هذا في «آل عمران»[2]، وذكرنا الأحاديث هناك. ولما أفرد سبحانه الخيل والبغال والحمير بالذكر

---

(١) قوله «في السنة» أي في القحط وانعدام نبات الأرض في يبسها. والنقي (بكسر النون وسكون القاف) هو المخ. ومعناه: أسرعوا في السير بالإبل لتصلوا إلى المقصد وفيها بقية من قوتها؛ إذ ليس في الأرض ما يقويها على السير.

(٢) راجع ٤/ ٣٢.

دل على أنها لم تدخل تحت لفظ الأنعام. وقيل: دخلت ولكن أفردها بالذكر لما يتعلق بها من الركوب؛ فإنه يكثر في الخيل والبغال والحمير.

الثانية ـ قال العلماء: ملّكنا الله تعالى الأنعام والدواب وذللها لنا، وأباح لنا تسخيرها والانتفاع بها رحمة منه تعالى لنا، وما مَلكه الإنسانُ وجاز له تسخيره من الحيوان فكراؤه له جائز بإجماع أهل العلم، لاٱختلاف بينهم في ذلك. وحكم كراء الرواحل والدواب مذكور في كتب الفقه.

الثالثة ـ لا خلاف بين العلماء في اكتراء الدواب والرواحل للحمل عليها والسفر بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ الآية. وأجازوا أن يُكرِي الرجلُ الدابة والراحلة إلى مدينة بعينها وإن لم يُسَمِّ أين ينزل منها، وكم من مَنْهل[1] ينزل فيه، وكيف صفة سيره، وكم ينزل في طريقه، وٱجتزوا بالمتعارف بين الناس في ذلك. قال علماؤنا: والكراء يجري مجرى البيوع فيما يحل منه ويحرم. قال ابن القاسم: فيمن اكترى دابة إلى موضع كذا بثوب مَرَوِيّ ولم يصف رقعته وذرعه، لم يجز؛ لأن مالكاً لا يجيز هذا في البيع، ولا يجيز في ثمن الكراء إلا ما يجوز في ثمن البيع.

قلت: ولا يُختلف في هذا إن شاء الله؛ لأن ذلك إجارة. قال ابن المنذر: وأجمع كل مَن يُحفظ عنه من أهل العلم على أن من اكترى دابة ليحمل عليها عشرة أقفزة قمح فحمل عليها ما ٱشترط فتلِفت أن لا شيء عليه. وهكذا إن حمل عليها عشرة أقفزة شعيراً. واختلفوا فيمن اكترى دابة ليحمل عليها عشرة أقفزة فحمل عليها أحد عشر قفيزاً، فكان الشافعيّ وأبو ثَوْر يقولان: هو ضامن لقيمة الدابة وعليه الكراء. وقال ابن أبي لَيْلَى: عليه قيمتها ولا أجر عليه. وفيه قول ثالث ـ وهو أن عليه الكراء وعليه جزء من أجر وجزء من قيمة الدابة بقدر ما زاد من الحمل؛ وهذا قول النعمان ويعقوب ومحمد. وقال ابن القاسم صاحب مالك: لا ضمان عليه في قول مالك إذا كان القفيز الزائد لا يفدح الدابة، ويُعلم أن مثله

---

(١) المنهل: المشرب، ثم كثر ذلك حتى سميت منازل السفارة على المياه مناهل.

لا تعطَب فيه الدابة، ولرَبّ الدابة أجر القفيز الزائد مع الكراء الأول؛ لأن عطبها ليس من أجل الزيادة. وذلك بخلاف مجاوزة المسافة؛ لأن مجاوزة المسافة تَعَدٍّ كله فيضمن إذا هلكت في قليله وكثيره. والزيادة على الحمل المشترط اجتمع فيه إذنٌ وتعدّ، فإذا كانت الزيادة لا تعطب في مثلها عُلم أن هلاكها مما أذن له فيه.

الرابعة ـ واختلف أهل العلم في الرجل يكتري الدابة بأجر معلوم إلى موضع مسمى، فيتعدّى فيتجاوز ذلك المكان ثم يرجع إلى المكان المأذون له في المصير إليه. فقالت طائفة: إذا جاوز ذلك المكان ضمن وليس عليه في التعدي كراء؛ هكذا قال الثوري. وقال أبو حنيفة: الأجل له فيما سمًّى، ولا أجر له فيما لم يسم؛ لأنه خالف فهو ضامن، وبه قال يعقوب. وقال الشافعي: عليه الكراء الذي سمى، وكراء المثل فيما جاوز ذلك، ولو عطبت لزمه قيمتها. ونحوه قال الفقهاء السبعة، مشيخة أهل المدينة قالوا: إذا بلغ المسافة ثم زاد فعليه كراء الزيادة إن سلمت وإن هلكت ضمن. وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور: عليه الكراء والضمان. قال ابن المنذر: وبه نقول. وقال ابن القاسم: إذا بلغ المكتري الغاية التي اكترى إليها ثم زاد ميلاً ونحوه أو أميالاً أو زيادة كثيرة فعطِبت الدابة، فلربّها كراؤه الأول والخيار في أخذه كراء الزائد بالغاً ما بلغ، أو قيمة الدابة يوم التعدّي. ابن الموّاز: وقد روي أنه ضامن ولو زاد خطوة. وقال ابن القاسم عن مالك في زيادة المِيل ونحو: وأما ما يعدل الناس إليه في المرحلة فلا يضمن. وقال ابن حبيب عن ابن الماجِشون وأصبغ: إذا كانت الزيادة يسيرة أو جاوز الأمد الذي تكاراها إليه بيسير، ثم رجع بها سالمة إلى موضِع تكاراها إليه فماتت، أو ماتت في الطريق إلى الموضع الذي تكاراها إليه، فليس له إلا كراء الزيادة، كردّه لما تسلّف من الوديعة. ولو زاد كثيراً مما فيه مقام الأيام الكثيرة التي يتغير في مثلها سوقها فهو ضامن، كما لو ماتت في مجاوزة الأمد أو المسافة؛ لأنه إذا كانت زيادة يسيرة مما يعلم أن ذلك مما لم يعِن على قتلها فهلاكها بعد ردّها إلى الموضع المأذون له فيه كهلاك ما تسلّف من الوديعة بعد ردّه لا محالة. وإن كانت الزيادة كثيرة فتلك الزيادة قد أعانت على قتلها.

الخامسة ـ قال ابن القاسم وابن وهب قال مالك قال الله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ فجعلها للركوب والزينة ولم يجعلها للأكل؛ ونحوه عن أشهب. ولهذا قال أصحابنا: لا يجوز أكل لحوم الخيل والبغال والحمير؛ لأن الله تعالى لما نص على الركوب والزينة دلّ على أن ما عداه بخلافه. وقال في الأنعام: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ مع ما امتنّ الله منها من الدّفء والمنافع، فأباح لنا أكلها بالذكاة المشروعة فيها. وبهذه الآية ٱحتج ابن عباس والحَكَم بن عُتَيبة، قال الحكم: لحوم الخيل حرام في كتاب الله، وقرأ هذه الآية والتي قبلها وقال: هذه للأكل وهذه للركوب. وسئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرهها، وتلا هذه الآية وقال: هذه للركوب، وقرأ الآية التي قبلها ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ ثم قال: هذه للأكل. وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعي ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم، وٱحتجوا بما خرجه أبو داود والنّسائي والدَّارَقُطْنِيّ وغيرهم عن صالح بن يحيى بن المِقدام بن مَعْدِيكَرب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد، أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، وكل ذي ناب من السباع أو مِخلب من الطير. لفظ الدَّارَقُطْنِيّ. وعند النّسائي أيضاً عن خالد بن الوليد أنه سمع النبيّ ﷺ يقول: «لا يحل أكل لحوم الخيل والبغال والحمير». وقال الجمهور من الفقهاء والمحدّثين: هي مباحة. وروي عن أبي حنيفة. وشَذَّت طائفة فقالت بالتحريم؛ منهم الحَكَم كما ذكرنا، وروي عن أبي حنيفة. حكى الثلاث روايات عنه الرُّوياني في بحر المذهب على مذهب الشافعي.

قلت: الصحيح الذي يدلّ عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل، وأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة؛ أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل؛ إذ لو دلّت عليه لدلّت على تحريم لحوم الحُمُر، والسورة مكية، وأيّ حاجة كانت إلى تجديد تحريم لحوم الحُمُر عَامَ خَيْبَر وقد ثبت في الأخبار تحليلُ الخيل على ما يأتي. وأيضاً لما ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من منافعها وأهم ما فيها، وهو حمل الأثقال والأكل، ولم يذكر الركوب ولا الحرث بها ولا غير ذلك مصرّحاً به، وقد تُركب ويحرث بها؛ قال الله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا

مِنهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[(١)]. وقال في الخيل: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ فذكر أيضاً أغلب منافعها والمقصود منها، ولم يذكر حمل الأثقال عليها، وقد تحمل كما هو مشاهد فلذلك لم يذكر الأكل. وقد بيّنه نبيّه عليه السلام الذي جعل إليه بيان ما أنزل عليه على ما يأتي، ولا يلزم من كونها خلقت للركوب والزينة ألاّ تؤكل، فهذه البقرة قد أنطقها خالقها الذي أنطق كلّ شيء فقالت: إنما خلقت للحرث. فيلزم مَن عَلّل أن الخيل لا تؤكل لأنها خلقت للركوب ألا تؤكل البقر لأنها خُلقت للحرث. وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها؛ فكذلك الخيل بالسُّنّة الثابتة فيها. روى مسلم من حديث جابر قال: نهى رسول الله ﷺ يوم خَيْبَر عن لحوم الحُمُر الأهلية وأذِن في لحوم الخيل. وقال النَّسائي عن جابر: أطعمنا رسول الله ﷺ يوم خَيْبَر لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحُمُر. وفي رواية عن جابر قال: كنا نأكل لحوم الخيل على عهد رسول الله ﷺ. فإن قيل: الرواية عن جابر بأنهم أكلوها في خَيْبَر حكايةُ حال وقضيَّةٌ في عَيْن، فيحتمل أن يكونوا ذبحوا لضرورةٍ، ولا يحتج بقضايا الأحوال. قلنا: الرواية عن جابر وإخباره بأنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله ﷺ يزيل ذلك الاحتمال، ولئن سلمناه فمعنَا حديث أسْمَاء قالت: نَحَرْنا فرساً على عهد رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة فأكلناه؛ رواه مسلم. وكل تأويل من غير ترجيح في مقابلة النص فإنما هو دعوى، لا يلتفت إليه ولا يعرّج عليه. وقد روى الدَّارَقُطْنِيّ زيادة حسنة ترفع كل تأويل في حديث أسْمَاء، قالت أسْمَاء: كان لنا فرس على عهد رسول الله ﷺ أرادت أن تموت فذبحناها فأكلناها. فذَبْحُها إنما كان لخوف الموت عليها لا لغير ذلك من الأحوال. وبالله التوفيق. فإن قيل: حيوان من ذوات الحوافر فلا يؤكل كالحمار؟ قلنا: هذا قياس الشبه وقد اختلف أرباب الأصول في القول به، ولئن سلمناه فهو منتقض بالخنزير؛ فإنه ذو ظِلْف وقد بَايَنَ ذوات الأظلاف، وعلى أن القياس إذا كان في مقابلة النص فهو فاسد الوضع لا التفات إليه. قال الطبريّ: وفي إجماعهم على جواز ركوب ما ذكر للأكل دليل على جواز أكل ما ذكر للركوب.

---

(١) راجع ١٥/ ٣٣٤.

السادسة ـ وأما البغال فإنها تلحق بالحمير، إن قلنا إن الخيل لا تؤكل؛ فإنها تكون متولدة من عينين لا يؤكلان. وإن قلنا إن الخيل تؤكل، فإنها عين متولدة من مأكول وغير مأكول فغلب التحريم على ما يلزم في الأصول. وكذلك ذبح المولود بين كافرين أحدهما من أهل الذكاة والآخر ليس من أهلها، لا تكون ذكاة ولا تحلّ به الذبيحة. وقد مضى في «الأنعام»[1] الكلام في تحريم الحُمُر فلا معنى للإعادة. وقد عَلّل تحريم أكل الحمار بأنه أبْدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلوّط؛ فسمّي رجساً.

السابعة ـ في الآية دليل على أن الخيل لا زكاة فيها؛ لأن الله سبحانه منّ علينا بما أباحنا منها وكرمنا به من منافعها، فغير جائز أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل . وقد روى مالك عن عبد الله بن دينار عن سليمان بن يَسَار عن عِراك بن مالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة». وروى أبو داود عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ليس في الخيل والرقيق زكاة إلا زكاة الفطر في الرقيق». وبه قال مالك والشافعيّ والأوزاعيّ والليث وأبو يوسف ومحمد. وقال أبو حنيفة : إن كانت إناثاً كلها أو ذكوراً وإناثاً، ففي كل فرس دينار إذا كانت سائمة، وإن شاء قوّمها فأخرج عن كل مائتي درهم خمسة دراهم . واحتج بأثر عن النبيّ ﷺ أنه قال : « في الخيل السائمة في كل فرس دينار » وبقوله ﷺ : « الخيل ثلاثة. . . » الحديث. وفيه: «ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها». والجواب عن الأوّل أنه حديث لم يروه إلا غورك[2] السعدي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر. قال الدَّارَقُطْنِيّ؛ تفرّد به غورك عن جعفر وهو ضعيف جداً، ومن دونه ضعفاء. وأما الحديث فالحق المذكور فيه هو الخروج عليها إذا وقع النفير وتعين بها لقتال العدو إذا تعيّن ذلك عليه، ويحمل المنقطعين عليها إذا احتاجوا لذلك، وهذا واجب عليه إذا تعين ذلك، كما يتعيّن عليه أن يطعمهم عند الضرورة، فهذه حقوق الله في رقابها. فإن قيل؛ هذا هو

---

(١) راجع ٧/ ١١٥ فما بعد.

(٢) هو غورك بن الحضرمي أبو عبد الله. (عن الدارقطني).

الحق الذي في ظهورها وبقي الحق الذي في رقابها؛ قيل: قد روي «لا ينسى حقّ الله فيها» ولا فرق بين قوله: «حق الله فيها» أو «في رقابها وظهورها» فإن المعنى يرجع إلى شيء واحد؛ لأن الحق يتعلق بجملتها. وقد قال جماعة من العلماء: إن الحق هنا حُسْن ملكها وتعهّد شبعها والإحسان إليها وركوبها غير مشقوق عليها؛ كما جاء في الحديث «لا تتخذوا ظهورها كراسي». وإنما خص رقابها بالذكر لأن الرقاب والأعناق تستعار كثيراً في مواضع الحقوق اللازمة والفروض الواجبة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾[(١)] وكثر عندهم استعمال ذلك واستعارته حتى جعلوه في الرِّباع والأموال؛ ألا ترى قول كثير:

غَمْـر الـرداء إذا تبسّـم ضـاحكـاً غَلِقتْ لِضَحْكَته رِقابُ المال[(٢)]

وأيضاً فإن الحيوان الذي تجب فيه الزكاة له نصاب من جنسه، ولما خرجت الخيل عن ذلك علمنا سقوط الزكاة فيها. وأيضاً فإيجابه الزكاة في إناثها منفردة دون الذكور تناقض منه، وليس في الحديث فصل بينهما. ونقيس الإناث على الذكور في نفي الصدقة بأنه حيوان مُقْتَنًى لنسله لا لدرّه، ولا تجب الزكاة في ذكوره فلم تجب في إناثه كالبغال والحمير. وقد روي عنه أنه لا زكاة في إناثها وإن انفردت كذكورها منفردة: وهذا الذي عليه الجمهور. قال ابن عبد البر: الخبر في صدقة الخيل عن عمر صحيح من حديث الزهري وغيره. وقد روي من حديث مالك، رواه عنه جُوَيرية عن الزُّهْري أن السائب بن يزيد قال: لقد رأيت أبي يقوّم الخيل ثم يدفع صدقتها إلى عمر. وهذا حجة لأبي حنيفة وشيخه حماد بن أبي سليمان، لا أعلم أحداً من فقهاء الأمصار أوجب الزكاة في الخيل غيرهما. تفرد به جويرية عن مالك وهو ثقة.

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿وَزِينَةً﴾ منصوب بإضمار فعل، المعنى: وجعلها زينة. وقيل: هو مفعول من أجله. والزينة: ما يُتزيّن به، وهذا الجمال والتزيين وإن كان من متاع الدنيا فقد أذن الله سبحانه لعباده فيه؛ قال النبيّ ﷺ: «الإبل عِزٌّ

---

(١) راجع ٥/ ٣١١.

(٢) الغمر: الماء الكثير. ورجل غمر الرداء، وغمر الخلق، أي واسع الخلق، كثير المعروف سخيّ.

لأهلها والغنم بركةٌ والخيل في نواصيها الخير». خرجه البرقاني وابن ماجه في السنن. وقد تقدّم في الأنعام. وإنما جمع النبيّ ﷺ العز في الإبل؛ لأن فيها اللباس والأكل واللبن والحمل والغزو وإن نقصها الكر والفرّ. وجعل البركة في الغنم لما فيها من اللباس والطعام والشراب وكثرة الأولاد؛ فإنها تلد في العام ثلاث مرات إلى ما يتبعها من السكينة، وتحمل صاحبها عليه من خفض الجناح ولين الجانب؛ بخلاف الفدّادين[١] أهل الوبر. وقرن النبيّ ﷺ الخير بنواصي الخيل بقية الدهر لما فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعائش، وما يوصل إليه من قهر الأعداء وغلب الكفار وإعلاء كلمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ قال الجمهور: من الخلق. وقيل: من أنواع الحشرات والهوام في أسافل الأرض والبر والبحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به. وقيل: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ مما أعد الله في الجنة لأهلها وفي النار لأهلها، مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر. وقال قتادة والسدّي: هو خلق السوس في الثياب والدود في الفواكه. ابن عباس: عين تحت العرش؛ حكاه الماورديّ. الثعلبي: وقال ابن عباس عن يمين العرش نهر من النور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبع سبعين مرة، يدخله جبريل كل سحر فيغتسل فيزداد نوراً إلى نوره وجمالاً إلى جماله وعِظماً إلى عظمه، ثم ينتفض فيخرج الله من كل ريشة سبعين ألف قطرة، ويخرج من كل قطرة سبعة آلاف ملك، يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك إلى البيت المعمور، وفي الكعبة سبعون ألفاً لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. وقول خامس[٢] ـ وهو ما روي عن النبيّ ﷺ أنها «أرض بيضاء، مسيرة الشمس ثلاثين يوماً مشحونة خلقاً لا يعلمون أن الله تعالى يعصى في الأرض» قالوا: يا رسول الله، مِن ولد آدم؟ قال: «لا يعلمون أن الله خلق آدم». قالوا: يا رسول الله، فأين إبليس منهم؟ قال: «لا يعلمون أن الله خلق إبليس» ـ ثم تلا ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ذكره الماوردي.

---

(١) الفدّادون: أصحاب الإبل الكثيرة الذين يملك أحدهم المائتين من الإبل إلى الألف. في ي: أهل الإبل.

(٢) كذا في الأصول. والمتبادر سادس.

قلت: ومن هذا المعنى ما ذكر البيهقي عن الشعبي قال: إن لله عباداً من وراء الأندلس كما بيننا وبين الأندلس، ما يرون أن الله عصاه مخلوق، رضراضهم[1] الدرّ والياقوت وجبالهم الذهب والفضة، لا يحرثون[2] ولا يزرعون ولا يعملون عملاً، لهم شجر على أبوابهم لها ثمر هي طعامهم وشجر لها أوراق عراض هي لباسهم؛ ذكره في بدء الخلق من (كتاب الأسماء والصفات). وخرج من حديث موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدِر عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام».

[٩] ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي على الله بيان قصد السبيل، فحذف المضاف وهو البيان. والسبيل: الإسلام، أي على الله بيانه بالرسل والحجج والبراهين. وقصد السبيل: ٱستقامة الطريق؛ يقال: طريق قاصد أي يؤدّي إلى المطلوب. ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي ومن السبيل جائر؛ أي عادل عن الحق فلا يهتدى به؛ ومنه قول ٱمرىء القيس:

ومن الطريقة جائر وهُدًى قَصْد السبيل ومنه ذو دَخْل

وقال طَرَفة:

عَدَوْلِيّةٌ أو من سَفِين ٱبن يَامِنٍ يَجُور بها المَلاّح طَوْراً ويَهتدِي

العدولية سفينة منسوبة إلى عَدَوْلَى قرية بالبحرين. والعدولِيّ: الملاح؛ قاله في الصحاح. وفي التنزيل ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ وقد تقدّم[3]. وقيل: المعنى ومنهم جائر عن السبيل الحق، أي عادل عنه فلا يهتدى إليه. وفيهم قولان، أحدهما ـ أنهم أهل الأهواء المختلفة؛ قاله ابن عباس. الثاني ـ مِلل الكفر من اليهودية والمجوسية

(١) الرضراض: الحصى أو ما دق من الحصى.
(٢) في ي: يحترثون. (٣) راجع ٧/ ١٣٧.

والنصرانية. وفي مصحف عبد الله «ومِنكم جائر» وكذا قرأ عليّ «ومنكم» بالكاف. وقيـل : المعنى وعنهاجائر ؛ أي عن السبيل . فـ « ـمِن » بمعنى عن . وقال ابن عبـاس : أي من أراد الله أن يهديه سهل له طريق الإيمان، ومن أراد أن يضله ثقل عليه الإيمان وفروعه. وقيل: معنى «قَصْدُ السَّبِيلِ» مسيركم ورجوعكم. والسبيل واحدة بمعنى الجمع ، ولذلك أنث الكناية فقال : « وَمِنْهَا » والسبيل مؤنثة في لغة أهل الحجاز.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بين أن المشيئة لله تعالى، وهو يصحح ما ذهب إليه ابن عباس في تأويل الآية، ويردّ على القدرية ومن وافقها كما تقدّم.

[١٠] ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

الشراب ما يُشرب، والشجر معروف. أي ينبت من الأمطار أشجاراً وعروشاً ونباتاً. وَ ﴿تُسِيمُونَ﴾ ترعون إبلكم؛ يقال: سامت السائمة تسوم سَوْماً أي رعت، فهي سائمة. والسَّوَام والسائم بمعنًى، وهو المال الراعي. وجمع السائم والسائمة سوائم. وأسمتها أنا أي أخرجتها إلى الرَّعْيِ، فأنا مُسِيم وهي مُسامة وسائمة. قال:

أوْلَى لك ٱبنَ مُسِيمة الأجمال[١]

وأصل السوْم الإبعاد في المرعى. وقال الزجاج: أخِذ من السّومة وهي العلامة؛ أي أنها تؤثر في الأرض علامات برعيها، أو لأنها تُعلَّم للإرسال في المرعى.

قلت: والخيل المسومة تكون المرعِيّة. وتكون المعَلَّمة. وقوله: «مُسَوَّمِينَ» قال الأخفش تكون مُعَلَّمين وتكون مُرْسَلين؛ من قولك: سوّم فيها الخيل أي أرسلها، ومنه السائمة، وإنما جاء بالياء والنون لأن الخيل سُوِّمت وعليها ركبانها.

---

(١) هذا عجز بيت، وصدره كما في تفسير الطبري:

مثل ابن بزعة أو كآخر مثله

[١١] ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم «ننبت» بالنون على التعظيم. العامة بالياء على معنى ينبت الله لكم؛ يقال: نبتت الأرض وأنبتت بمعنًى، ونبت البقل وأنبت بمعنى. وأنشد الفراء:

رأيتُ ذوِي الحاجاتِ حول بيوتهم قَطِيناً بها حتى إذا أنبت البقلُ

أي نبت. وأنبته الله فهو منبوت، على غير قياس. وأنبت الغلام نبتت عانته. ونَبَتَ الشجرَ غرْسُه[١]؛ يقال: نبّت أجلَك بين عينيك. ونَبَّتُّ الصبيّ تنبيتاً ربّيته. والمنبِتَ موضع النبات؛ يقال: ما أحسن نابِتة بني فلان؛ أي ما يَنْبُت عليه أموالهم وأولادهم. ونَبَتَتْ لهم نابتة إذا نشأ لهم نشء صغار. وإن بني فلان لنابتةُ شر. والنوابت من الأحداث الأغمار. والنبيت حيّ[٢] من اليمن. واليَنْبوت[٣] شجر؛ كله عن الجوهريّ. ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ جمع زيتونة. ويقال للشجرة نفسها: زيتونة، وللثمرة زيتونة. وقد مضى في سورة «الأنعام»[٤] حكم زكاة هذه الثمار فلا معنى للإعادة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإنزال والإنبات. ﴿لآيَةً﴾ أي دلالة. ﴿لِقَوْمٍ يَتفكَّرُونَ﴾.

[١٢] ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي للسكون والأعمال؛ كما قال: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[٥]. ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي مذللات لمعرفة الأوقات ونضج الثمار والزرع والاهتداء بالنجوم في الظلمات. وقرأ [ابن عباس و][٦] ابن عامر وأهل الشام «والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ»

---

(١) في جـ: بنت الشجر غرسته.

(٢) أبو حي من اليمن واسمه عمرو بن مالك.

(٣) الذي في القاموس: الينبوت شجر الخشخاش وشجر آخر عظام أو شجر الخروب.

(٤) راجع ٩٩/٧ فما بعدها. (٥) راجع ٣٠٨/١٣. (٦) في جـ.

بالرفع على الابتداء والخبر. الباقون بالنصب عطفاً على ما قبله. وقرأ حفص عن عاصم برفع «والنُّجُومُ مسخراتٌ» خبره. وقرىء «وَالشمسَ والقمرَ والنجومَ» بالنصب [عطفاً على الليل والنهار، ورفع والنجوم على الابتداء][(١)]. «مسخراتٌ» بالرفع، وهو خبر ابتداء محذوف أي هي مسخرات، وهي في قراءة من نصبها حال مؤكدة؛ كقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً﴾[(٢)]. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي عن الله ما نبههم عليه ووفقهم له.

[١٣] ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ أي وسخر ما ذرأ في الأرض لكم. «ذَرَأَ» أي خلق؛ ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذَرْءاً خلقهم، فهو ذارىء؛ ومنه الذُّرِّية وهي نسْل الثقلين، إلا أن العرب تركت همزها؛ والجمع الذراري. يقال: أنْمَى الله ذَرْأَك وذروَك، أي ذرّيتك. وأصل الذَّرْو والذَّرْءِ التفريق عن جمع. وفي الحديث[(٣)] «ذرء النار» أي أنهم خلقوا لها.

الثانية ـ ما ذرأه الله سبحانه منه مسخرٌ مذلّل كالدوابّ والأنعام والأشجار وغيرها، ومنه غير ذلك. والدليل عليه ما رواه مالك في الموطأ عن كعب الأحبار قال: لولا كلمات أقولهن لجعلتني يهودُ حماراً. فقيل له: وما هن؟ فقال: أعوذ بوجه الله العظيم الذي ليس شيء أعظم منه، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم، من شر ما خلق وبَرَأ وذَرَأ. وفيه عن يحيى بن سعيد أنه قال: أُسْرِي برسول الله ﷺ فرأى عفريتاً من الجن يطلبه بشعلة من نار، الحديث. وفيه: وشر ما ذَرَأ في الأرض. وقد ذكرناه وما في معناه في غير هذا الموضع.

---

(١) من جـ.
(٢) راجع ٢/٢٩.
(٣) أي في حديث عمر رضي الله عنه وقد كتب إلى خالد: وإني لأظنكم آل المغيرة ذرء النار.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾ «مختلِفا» نصب على الحال. و «ألوانُه» هيئاته ومناظره، يعني الدواب والشجر وغيرها. ﴿إنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في اختلاف ألوانها. ﴿لآيَةً﴾ أي لعبرة. ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يتعظون ويعلمون أن في تسخير هذه المكونات لعلامات على وحدانية الله تعالى، وأنه لا يقدر على ذلك أحد غيره.

[١٤] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

فيه تسع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ تسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله بالركوب والإرفاء وغيره، وهذه نعمة من نعم الله علينا، فلو شاء سلطه علينا وأغرقنا. وقد مضى الكلام في البحر[(١)] وفي صيده. وسماه هنا لحماً واللحوم عند مالك ثلاثة أجناس: فلحم ذوات الأربع جنس، ولحم ذوات الريش جنس، ولحم ذوات الماء جنس. فلا يجوز بيع الجنس من جنسه متفاضلاً، ويجوز بيع لحم البقر والوحش بلحم الطير والسمك متفاضلاً، وكذلك لحم الطير بلحم البقر والوحش والسمك يجوز متفاضلاً. وقال أبو حنيفة: اللحوم كلها أصناف مختلفة كأصولها؛ فلحم البقر صنف، ولحم الغنم صنف، ولحم الإبل صنف، وكذلك الوحش مختلف، وكذلك الطير، وكذلك السمك، وهو أحد قولي الشافعيّ. والقول الآخر أن الكل من النَّعَم والصيد والطير والسمك جنس واحد لا يجوز التفاضل فيه. والقول الأوّل هو المشهور من مذهبه عند أصحابه. ودليلنا هو أن الله تعالى فرّق بين أسماء الأنعام في حياتها فقال: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ومِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ﴾[(٢)]

(١) راجع ١/٢٨٨ و ٦/٣١٨.

(٢) راجع ٧/١١٣.

ثم قال: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ فلما أن أمّ بالجميع[١] إلى اللحم قال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ فجمعها بِلحم واحد لتقارب منافعها كتقارب لحم الضأن والمعز. وقال في موضع آخر: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾[٢] وهذا جمع طائر الذي هو الواحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[٣] فجمع لحم الطير كله باسم واحد. وقال هنا: ﴿لَحْماً طَرِيًّا﴾ فجمع أصناف السمك بذكر واحد، فكان صغاره ككباره في الجمع بينهما. وقد روي عن ابن عمر أنه سئل عن لحم المعز بلحم الكباش أشيء واحد؟ فقال لا؛ ولا مخالف له فصار كالإجماع، والله أعلم. ولا حجة للمخالف في نهيه ﷺ عن بيع الطعام إلا مِثلا بمثل؛ فإن الطعام في الإطلاق يتناول الحنطة وغيرها من المأكولات ولا يتناول اللحم؛ ألا ترى أن القائل إذا قال: أكلت اليوم طعاماً لم يسبق الفهم منه إلى أكل اللحم، وأيضاً فإنه معارض بقوله ﷺ: «إذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم» وهذان جنسان، وأيضاً فقد اتفقنا على جواز بيع اللحم بلحم[٤] الطير متفاضلاً لعلة أنه بَيْع طعام لا زكاة له بِيعَ بلحم ليس فيه الزكاة، كذلك بيع السمك بلحم الطير متفاضلاً.

الثانية ـ وأما الجراد فالمشهور عندنا جواز بيع بعضه ببعض متفاضلاً. وذكر عن سُحْنون أنه يمنع من ذلك، وإليه مال بعض المتأخرين ورآه مما يدّخر.

الثالثة ـ اختلف العلماء فيمن حلف ألا يأكل لحماً؛ فقال ابن القاسم: يحنث بكل نوع من هذه الأنواع الأربعة. وقال أشهب في المجموعة: لا يحنث إلا بأكل لحوم الأنعام دون الوحش وغيره، مراعاة للعرف والعادة، وتقديماً لها على إطلاق اللفظ اللغويّ، وهو أحسن[٥].

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني به اللؤلؤ والمرجان؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[٢]. وإخراج الحِلية إنما هي فيما عرف من المِلح فقط. ويقال: إن في الزَّمُرَّذ بحرياً. وقد خُطِّىء الهُذَلِي في قوله في وصف الدرّة:

---

(١) في الأصول: «فلما أن أم الجميع». يريد: فلما أن قصد بالجميع إلى اللحم.
(٢) راجع ١٧/ ٢٠٢ فما بعد وص ١٦١ فما بعد.
(٣) راجع ٦/٤١٩ فما بعد.
(٤) في جـ وى: اللبن. (٥) في ي: وهذا حسن.

فجـــاء بهـــا مـــن دُرّة لَطَمِيّـــة على وجهها ماء الفرات يَدوم[١]

فجعلها من الماء الحلو. فالحلية حق وهي نِحلة الله تعالى لآدم وولده. خلق آدم وتُوّج وكُلِّل بإكليل الجنة، وختم بالخاتم الذي ورثه عنه سليمان بن داود صلوات الله عليهم، وكان يقال له: خاتم العِزّ فيما روي.

الخامسة ـ امتنّ الله سبحانه على الرجال والنساء امتناناً عاماً بما يخرج من البحر، فلا يحرم عليهم شيء منه، وإنما حرم الله تعالى على الرجال الذهب والحرير: روى الصحيح عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ: «لا تلبسوا الحرير فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة». وسيأتي في سورة «الحج» الكلام فيه إن شاء الله[٢]. وروى البخاريّ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتماً من ذهب، وجعل فصه مما يلي باطن كفه، ونقش فيه محمد رسول الله؛ فاتخذ الناس مثله، فلما رآهم قد اتخذوها رمى به وقال: «لا ألبسه أبداً» ثم اتخذ خاتماً من فضة فاتخذ الناس خواتيم الفضة. قال ابن عمر: فلبس الخاتم بعد النبي ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، حتى وقع من عثمان في بئر أرِيس[٣]. قال أبو داود: لم يختلف الناس على عثمان حتى سقط الخاتم من يده. وأجمع العلماء على جواز التختم بالورِق على الجملة للرجال. قال الخطابيّ: وكره للنساء التختم بالفضة؛ لأنه من زِيّ الرجال، فإن لم يجِدْنَ ذهباً فليصفّرنه بزعفران أو بشبهه. وجمهور العلماء من السلف والخلف على تحريم اتخاذ الرجال خاتم الذهب؛ إلا ما روي عن أبي بكر بن عبد الرحمن وخَبّاب، وهو خلاف شاذّ وكل منهما لم يبلغهما النهي والنسخ. والله أعلم. وأما ما رواه أنس بن مالك أنه رأى في يد رسول الله ﷺ خاتماً من ورِق يوماً واحداً، ثم إن الناس اصطنعوا الخواتم من ورِق ولبِسوها، فطرح رسول الله ﷺ خاتمه فطرح الناس خواتيمهم ـ أخرجه الصحيحان واللفظ للبخاريّ ـ فهو عند العلماء

(١) اللطيمة: الجمال التي تحمل العطر. وقيل: اللطيمة العنبرة التي لطمت بالمسك فتفتقت به حتى نشبت رائحتها، وهي اللطيمة.

(٢) راجع ١٢/٢٨.

(٣) حديقة بالقرب من مسجد قباء.

وهم من ابن شهاب؛ لأن الذي نبذ رسول الله ﷺ إنما هو خاتم الذهب. رواه عبد العزيز بن صهيب وثابت وقتادة عن أنس، وهو خلاف ما روى ابن شهاب عن أنس فوجب القضاء بالجماعة على الواحد إذا خالفها، مع ما يشهد للجماعة من حديث ابن عمر.

السادسة - إذا ثبت جواز التختم للرجال بخاتم الفضة والتحلي به، فقد كره ابنِ سيرين وغيره من العلماء نقشه وأن يكون فيه ذكر الله. وأجاز نقشه جماعة من العلماء. ثم إذا نقش عليه اسم الله أو كلمة حكمة أو كلمات من القرآن وجعله في شماله، فهل يدخل به الخلاء ويستنجي بشماله؟ خففه سعيد بن المسيب ومالك. قيل لمالك: إن كان في الخاتم ذكر الله ويلبسه في الشمال أيستنجي به؟ قال: أرجو أن يكون خفيفاً. وروي عنه الكراهة وهو الأولى. وعلى المنع من ذلك أكثر أصحابه. وقد روى همام عن ابن جريج عن الزهري عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل الخلاء وضع خاتمه. قال أبو داود: هذا حديث منكر، وإنما يعرف عن ابن جريج عن زيادة بن سعد عن الزهري عن أنس أن النبي ﷺ اتخذ خاتماً من ورِق ثم ألقاه. قال أبو داود: لم يحدّث بهذا إلا همام.

السابعة - روى البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه «محمد رسول الله» وقال: «إني اتخذت خاتماً من ورِق ونقشت فيه محمد رسول الله فلا ينقشنّ أحد على نقشه». قال علماؤنا: فهذا دليل على جواز نقش اسم صاحب الخاتم على خاتمه. قال مالك: ومن شأن الخلفاء والقضاة نقش أسمائهم على خواتيمهم، ونهيه عليه السلام: ألا ينقشنّ أحد على نقش خاتمه، من أجل أن ذلك اسمه وصفته برسالة الله له إلى خلقه. وروى أهل الشام أنه لا يجوز اتخاذ الخاتم لغير ذي سلطان. ورووا في ذلك حديثاً. عن أبي ريحانة، وهو حديث لا حجة فيه لضعفه. وقوله عليه السلام: «لا ينقشنّ أحد على نقشه» يردّه، ويدل على جواز اتخاذ الخاتم لجميع الناس، إذا لم ينقش على نقش خاتمه. وكان نقش خاتم الزهريّ «محمد يسأل الله العافية». وكان نقش خاتم مالك «حسبي الله ونعم الوكيل». وذكر الترمذيّ الحكيم في (نوادر الأصول) أن نقش خاتم موسى عليه السلام

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ وقد مضى في الرعد[١]. وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى خاتماً بألف درهم فكتب إليه: إنه بلغني أنك اشتريت خاتماً بألف درهم، فبعه وأطعم منه ألف جائع، واشتر خاتماً من حديث بدرهم، واكتب عليه «رحم الله أمرءا عرف قدر نفسه».

الثامنة - من حلف ألا يلبس حلياً فلبس لؤلؤاً لم يحنث؛ وبه قال أبو حنيفة. قال ابن خويزِ منداد: لأن هذا وإن كان الاسم اللغوي يتناوله فلم يقصده باليمين، والأيمان تُخَصّ بالعرف؛ ألا ترى أنه لو حلف ألا ينام على فراش فنام على الأرض لم يحنث؟ وكذلك لا يستضيء بسراج فجلس في الشمس لا يحنث، وإن كان الله تعالى قد سمى الأرض فراشاً والشمس سراجاً. وقال الشافعيّ وأبو يوسف ومحمد: من حلف ألا يلبس حلياً ولبس اللؤلؤ فإنه يحنث؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ والذي يخرج منه: اللؤلؤ والمرجان.

التاسعة - قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ قد تقدم ذكر الفلك وركوب البحر في «البقرة»[٢] وغيرها. وقوله: «مَوَاخِرَ» قال ابن عباس: جَوارِيَ، من جرت تجري. سعيد بن جبير: معترضة. الحسن: مواقر. قتادة والضحاك: أي تذهب وتجيء، مقبلة ومدبرة بريح واحدة. وقيل: «مَوَاخِرَ» ملججة في داخل البحر؛ وأصل المَخْر شق الماء عن يمين وشمال. مخَرت السفينة تَمْخَر وتَمْخُر مخْراً ومُخُوراً إذا جرت تشق الماء مع صوت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ يعني جَوارِي. قاله الجوهري، ومخَر السابحُ إذا شق الماء بصدره، ومخَر الأرض شقها للزراعة، ومَخرها بالماء إذا حبس الماء فيها حتى تصير أرِيضَة؛ أي خليقةً بجودة نبات الزرع. وقال الطبري: المخر في اللغة صوت هبوب الريح؛ ولم يقيّد كونه في ماء، وقال: إن من ذلك قول واصل مولى أبي عُيَيْنة: إذا أراد أحدكم البول فليتمخر الريح؛ أي لينظر في صوتها في الأجسام من أين تهُب، فيتجنب استقبالها لئلا تردّ عليه بوله. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ولتركبوه للتجارة وطلب الربح. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تقدم جميع هذا في «البقرة» والحمد لله.

(١) راجع ٩/٣٢٩. (٢) راجع ١/٣٨٨و ٢/١٩٤.

[١٥] ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي جبالاً ثابتة. رسا يرسو إذا ثبت وأقام. قال:

فصبـرتُ عـارِفـةً لـذلـك حُـرةً ترسو إذا نفسُ الجَبان تَطَلّعُ[1]

﴿أَنْ تَميدَ بِكُمْ﴾ أي لئلا تميد؛ عند الكوفيين. وكراهية أن تميد؛ على قول البصريين. والمَيْد: الاضطراب يميناً وشمالاً؛ ماد الشيء يَميد مَيْداً إذا تحرك؛ ومادت الأغصان تمايلت، وماد الرجل تبختر. قال وهب بن منبه: خلق الله الأرض فجعلت تميد وتمور، فقالت الملائكة: إن هذه غير مقرّة أحداً على ظهرها فأصبحت وقد أرسِيت بالجبال، ولم تدر الملائكة مِمّ خلقت الجبال. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لما خلق الله الأرض قَمَصَت ومالت وقالت: أي رب! أتجعل عليّ من يعمل بالمعاصي والخطايا، ويلقي عليّ الجِيف والنتن! فأرسى الله تعالى فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون. وروى الترمذي في آخر (كتاب التفسير): حدثنا محمد بن بشار حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا العوّام بن حَوْشَب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فعاد بها عليها فاستقرّت فعجِب الملائكة من شدّة الجبال فقالوا: يا رب فهل مِن خلقك شيء أشدّ من الجبال قال نعم الحديد قالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشدّ من الحديد قال نعم النار فقالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشدّ من النار قال نعم الماء قالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشدّ من الماء قال نعم الريح قالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشدّ من الريح قال نعم ابنُ آدم تصدّق بصدقة بيمينه يخفيها من شماله». قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه.

---

(١) البيت لعنترة العبسي. يقول: حبست نفسا عارفة، أي صابرة. وقبله:

وعلمـت أن منيتـي إن تـأتنـي لا ينجنـي منهـا الفـرار الأسـرع

قلت: وفي هذه الآية أدل دليل على استعمال الأسباب، وقد كان قادراً على سكونها دون الجبال. وقد تقدّم هذا المعنى. ﴿وَأَنْهَاراً﴾ أي وجعل فيها أنهاراً، أو ألقى فيها أنهاراً. ﴿وَسُبُلاً﴾ أي طرقاً ومسالك. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي إلى حيث تقصِدون من البلاد فلا تضلون ولا تتحيرون.

[١٦] ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَلاَمَاتٍ﴾ قال ابن عباس: العلامات معالم الطرق بالنهار؛ أي جعل للطرق علامات يقع الاهتداء بها. ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعني بالليل، والنجم يراد به النجوم. وقرأ ابن وثاب «وبِالنُّجْم». الحسن: بضم النون والجيم جميعاً ومراده النجوم، فقصره؛ كما قال الشاعر:

إنّ الفقيـر بيننـا قـاضٍ حَكَـمْ أن تـرِد المـاءَ إذا غـابَ النُّجُـم

وكذلك القول لمن قرأ «النُّجْم» إلا أنه سكّن استخفافاً. ويجوز أن يكون النُّجُم جمع نَجْم كسَقْف وسُقُف. واختلف في النجوم؛ فقال الفرّاء: الجَدْيُ والفرْقَدان. وقيل: الثريا. قال الشاعر:

حتى إذا ما استَقَلّ النّجْمُ في غَلَس وغُـودر البقْـلُ مَلْـوِيٌّ ومحصـودُ[(١)]

أي منه ملوِيّ ومنه محصود، وذلك عند طلوع الثريا يكون. وقال الكلبي: العلامات الجبال. وقال مجاهد: هي النُجومُ؛ لأن من النجوم ما يهتدى بها، ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها؛ وقاله قتادة والنخعِيّ. وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿وَعَلاَمَاتٍ﴾ ثم ابتدأ وقال: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾. وعلى الأوّل: أي وجعل لكم علامات ونجوماً تهتدون بها. ومن العلامات الرياح يهتدى بها. وفي المراد بالاهتداء قولان: أحدهما ـ في الأسفار،

---

(١) البيت لذي الرمة. ومعنى «استقل» طلع في آخر الليل. وفي ديوانه: «أحصد» بدل «غودر». وأحصد: حان حصاده.

وهذا قول الجمهور. الثاني ـ في القِبلة. وقال ابن عباس: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ قال: «هو الجَدْيُ يا ابن عباس، عليه قبلتكم وبه تهتدون في بركم وبحركم» ذكره الماورديّ.

الثانية ـ قال ابن العربيّ: أما جميع النجوم فلا يهتدِي بها إلا العارف بمطالعها ومغاربها، والفرق بين الجنوبي والشمالي منها، وذلك قليل في الآخرين. وأما الثّريّا فلا يهتدي بها إلا من يهتدي بجميع النجوم. وإنما الهدى لكل أحد بالجَدْي والفرقدين؛ لأنها من النجوم المنحصرة المطالع الظاهرة السَّمْت الثابتة في المكان، فإنها تدور على القطب الثابت دوراناً محصّلاً، فهي أبداً هَدْيُ الخلق في البر إذا عميت الطرق، وفي البحر عند مجرى السفن، وفي القِبلة إذا جُهِل السَّمت، وذلك على الجملة بأن تجعل القطب على ظهر منكبك الأيسر فما استقبلت فهو سَمْت الجهة.

قلت: وسأل ابن عباس رسول الله ﷺ عن النجم فقال: «هو الجدي عليه قبلتكم وبه تهتدون في بركم وبحركم». وذلك أن آخر الجَدْي بناتَ نَعْش الصغرى والقطب الذي تستوي عليه القبلة بينها.

الثالثة ـ قال علماؤنا: وحكم استقبال القبلة على وجهين: أحدهما ـ أن يراها ويعاينها فيلزمه استقبالها وإصابتها وقصد جهتها بجميع بدنه. والآخر ـ أن تكون الكعبة بحيث لا يراها فيلزمه التوجّه نحوها وتلقاءها بالدلائل، وهي الشمس والقمر والنجوم والرياح وكل ما يمكن به معرفة جهتها، ومن غابت عنه وصلّى مجتهداً إلى غير ناحيتها وهو ممن يمكنه الاجتهاد فلا صلاة له؛ فإذا صلّى مجتهدا مستدِلاً ثم انكشف له بعد الفراغ من صلاته أنه صلّى إلى غير القبلة أعاد إن كان في وقتها، وليس ذلك بواجب عليه؛ لأنه قد أدّى فرضه على ما أمِر به. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[1] مستوفى والحمد لله.

---

(١) راجع ٢/ ١٦٠.

[١٧] ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ هو الله تعالى. ﴿كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ﴾ يريد الأصنام. ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أخبر عن الأوثان التي لا تخلق ولا تضر ولا تنفع، كما يخبر عمن يعمل على ما تستعمله العرب في ذلك؛ فإنهم كانوا يعبدونها فذكرت بلفظ «من» كقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ﴾[١]. وقيل: لاقتران الضمير في الذكر بالخالق. قال الفراء: هو كقول العرب: اشتبه عليّ الراكب وجمله فلا أدري مَن ذا ومَن ذا؛ وإن كان أحدهما غير إنسان. قال المهدوِيّ: ويسأل بـ «ـمن» عن الباريء تعالى ولا يسأل عنه بـ «ـما»؛ لأن «ما» إنما يسأل بها عن الأجناس، والله تعالى ليس بذي جنس، ولذلك أجاب موسى عليه السلام حين قال له: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾[٢] ولم يجب حين قال له: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٣] إلا بجواب «مَن» وأضرب عن جواب «ما» حين كان السؤال فاسدا. ومعنى الآية: من كان قادراً على خلق الأشياء المتقدمة الذكر كان بالعبادة أحق ممن هو مخلوق لا يضر ولا ينفع؛ ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[٤] ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾[٥].

[١٨] ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨﴾.

[١٩] ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ تقدم في إبراهيم[٦]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي ما تبطنونه وما تظهرونه. وقد تقدم جميع هذا مستوفى.

[٢٠] ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ٢٠﴾.

[٢١] ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ٢١﴾.

---

(١) راجع ٧/٣٤٢. (٢) راجع ١١/٢٠٣. (٣) راجع ١٣/٩٨.
(٤) راجع ١٤/٥٨ و ٣٥٥. (٥) راجع ١٦/١٧٩. (٦) راجع ٩/٣٦٧.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قراءة العامة «تَدْعُونَ» بالتاء لأن ما قبله خطاب. روى أبو بكر عن عاصم وهبيرةُ عن حفص «يَدْعُونَ» بالياء، وهي قراءة يعقوب. فأما قوله: ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فكلهم بالتاء على الخطاب؛ إلا ما روى هبيرةُ عن حفص عن عاصم أنه قرأ بالياء. ﴿لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ أي لا يقدرون على خلق شيء ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي هم أموات، يعني الأصنام، لا أرواح فيها ولا تسمع ولا تبصر، أي هي جمادات فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها بالحياة. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني الأصنام. ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ وقرأ السلمِيّ «إِيّان» بكسر الهمزة، وهما لغتان، موضعه نصب بـ «يُبْعَثُونَ» وهي في معنى الاستفهام. والمعنى: لا يدرون متى يبعثون. وعبّر عنها كما عبّر عن الآدميين؛ لأنهم زعموا أنها تعقل عنهم وتعلم وتشفع لهم عند الله تعالى، فجرى خطابهم على ذلك. وقد قيل: إن الله يبعث الأصنام يوم القيامة ولها أرواح فتتبرأ من عبادتهم، وهي في الدنيا جماد لا تعلم متى تبعث. قال ابن عباس؛ تبعث الأصنام وتركب فيها الأرواح ومعها شياطينها فيتبرءون من عَبَدَتها، ثم يؤمر بالشياطين والمشركين إلى النار. وقيل: إن الأصنام تطرح في النار مع عبدتها يوم القيامة؛ دليله ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1]. وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات، وهذا الموت موت كفر. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي وما يدري الكفار متى يبعثون، أي وقت البعث؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث حتى يستعدّوا للقاء الله. وقيل: أي وما يدريهم متى الساعة، ولعلها تكون قريباً.

[٢٢] ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) راجع ١١/ ٣٤٣.

قوله تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لما بيّن استحالة الإشراك بالله تعالى بيّن أن المعبود واحد لا رب غيره ولا معبود سواه. ﴿فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ﴾ أي لا تقبل الوعظ ولا ينجع فيها الذكر، وهذا ردّ على القدرية. ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي متكبرون متعظمون عن قبول الحق. وقد تقدم في «البقرة»[١] معنى الاستكبار. ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي من القول والعمل فيجازيهم. قال الخليل: «لاَ جَرَمَ» كلمة تحقيق ولا تكون إلا جواباً؛ يقال: فعلوا ذلك؛ فيقال: لا جرم سيندمون. أي حقاً أن لهم النار. وقد مضى القول في هذا في «هود»[٢] مستوفى. ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أي لا يثيبهم ولا يثني عليهم. وعن الحسين بن علي أنه مر بمساكين قد قدّموا كِسراً بينهم[٣] وهم يأكلون فقالوا: الغذاء يا أبا عبد الله، فنزل وجلس معهم وقال: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ فلما فرغ قال: قد أجبتكم فأجيبوني؛ فقاموا معه إلى منزله فأطعمهم وسقاهم وأعطاهم وانصرفوا. قال العلماء: وكل ذنب يمكن التستّر منه وإخفاؤه إلا الكبر؛ فإنه فسق يلزمه الإعلان، وهو أصل العصيان كله. وفي الحديث الصحيح «إن المتكبرين يحشرون أمثال الذرّ يوم القيامة يطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم». أو كما قال ﷺ: «تَصْغُر لهم أجسامُهم في المحشر حتى يضرهم صِغَرُها وتعظم لهم في النار حتى يضرهم عِظَمُها».

[٢٤] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ يعني وإذا قيل لمن تقدم ذكره ممن لا يؤمن بالآخرة وقلوبهم منكرة بالبعث ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾. قيل: القائل النضْر بن الحارث، وأن الآية نزلت فيه، وكان خرج إلى الحِيرة فاشترى أحاديث (كليلة ودِمنة) فكان يقرأ على قريش ويقول: ما يقرأ محمد على أصحابه إلا أساطير الأوّلين؛ أي ليس هو من تنزيل

---

(١) راجع ١/٢٩٦.

(٢) راجع ٩/٢٠.

(٣) في جـ و ي: لهم.

ربنا . وقيل : إن المؤمنين هم القائلون لهم اختباراً فأجابوا بقولهم : ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ فأقرّوا بإنكار[١] شيء هو أساطير الأوّلين. والأساطير: الأباطيل والتُّرهات. وقد تقدّم في الأنعام[٢]. والقول في ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ كالقول في ﴿مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾[٣] وقوله : ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ خبر ابتداء محذوف ، التقدير : الذي أنزله أساطير الأولين.

[٢٥] ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ قيل: هي لام كي، وهي متعلقة بما قبلها. وقيل: لام العاقبة؛ كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً﴾[٤]. أي قولهم في القرآن والنبيّ أدّاهم إلى أن حملوا أوزارهم؛ أي ذنوبهم. ﴿كَامِلَةً﴾ لم يتركوا منها شيئاً لنكبة أصابتهم في الدنيا بكفرهم. وقيل: هي لام الأمر، والمعنى التهدّد. ﴿وَمِن أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال مجاهد: يحملون وِزْرَ من أضلّوه ولا ينْقُص من إثم المضل شيء. وفي الخبر «أيُّما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتُّبع فإن عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء وأيما داع دعا إلى هدى فاّتبع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء» خرّجه مسلم بمعناه. و «مِن» للجنس لا للتبعيض؛ فدعاة الضلالة عليهم مثل أوزار من اتبعهم. وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي يضلون الخلق جهلاً منهم بما يلزمهم من الآثام؛ إذ لو علموا لما أضلوا. ﴿أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس الوزر الذي يحملونه. ونظير هذه الآية ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ[٤] وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وقد تقدّم في آخر «الأنعام»[٥] بيان قوله: ﴿وَلاَ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرَى﴾.

---

(١) في جـ و ي: إنزال.
(٢) راجع ٦/ ٤٠٥.
(٣) راجع ٣/ ٣٦.
(٤) راجع ١٣/ ٢٥، ٣٣٠.
(٥) راجع ٧/ ١٥٧.

[٢٦] ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي سبقهم بالكفر أقوام مع الرسل المتقدّمين فكانت العاقبة الجميلة للرسل. ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ قال ابن عباس وزيد بن أسلم وغيرهما: إنه النُّمْروذ بن كَنْعَان وقومه، أرادوا صعود السماء وقتال أهله؛ فَبَنُوا الصرح ليصعَدوا منه بعد أن صنع بالنسور ما صنع، فخرّ. كما تقدّم بيانه في آخر سورة «إبراهيم»[1]. ومعنى ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ﴾ أي أتى أمره البنيان، إما زلزلة أو ريحاً فخرّبته. قال ابن عباس ووهب: كان طول الصَّرْح في السماء خمسة آلاف ذراع، وعرضه ثلاثة آلاف. وقال كعب ومقاتل. كان طوله فرسخين، فهبت ريح فألقت رأسه في البحر وخرّ عليهم الباقي. ولما سقط الصرحُ تبلبلت أَلْسُن الناس من الفزع يومئذ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لساناً، فلذلك سمي بابل، وما كان لسان قبل ذلك إلا السُّرْيانية. وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة»[2]. وقرأ ابن هُرْمُز وابن مُحَيْصِن «السُّقُف» بضم السين والقاف جميعاً. وضم مجاهد السين وأسكن القاف تخفيفاً؛ كما تقدّم في «وبِالنَّجْمِ» في الوجهين. والأشبه أن يكون جمع سقف. والقواعد: أصول البناء، وإذا اختلت القواعد سقط البناء. وقوله: ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ قال ابن الأعرابي: وَكَّدَ ليعلمك أنهم كانوا حالّين تحته. والعرب تقول: خرّ علينا سقف ووقع علينا حائط إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه . فجاء بقوله : «مِنْ فَوْقِهِمْ» ليخرج هذا الشك الذي فـي كلام العرب، فقال : «مِنْ فَوْقِهِمْ» أي عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا . وقيل : إن المراد بالسقف السماء؛ أي إن العذاب أتاهم من السماء التي هي فوقهم؛ قاله ابن عباس. وقيل: إن قوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ

(١) راجع ٩/ ٣٨١.
(٢) راجع ١/ ٢٨٣.

﴿الْقَوَاعِدِ﴾ تمثيل، والمعنى: أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه. وقيل: المعنى أحبط الله أعمالهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه. وقيل: المعنى أبطل مكرهم وتدبيرهم فهلكوا كما هلك من نزل عليه السقف من فوقه. وعلى هذا اختُلف في الذين خرّ عليهم السقف؛ فقال ابن عباس وابن زيد ما تقدّم. وقيل: إنه بُخْتَنَصّر وأصحابه؛ قاله بعض المفسرين. وقيل: المراد المقتسمون الذين ذكرهم الله في سورة الحجر[(١)]؛ قاله الكلبيّ. وعلى هذا التأويل يخرج وجه التمثيل، والله أعلم. ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ أي من حيث ظنوا أنهم في أمان. وقال ابن عباس: يعني البعوضة التي أهلك الله بها نمروذا[(٢)].

[٢٧] ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم. ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ أي بزعمكم وفي دعواكم، أي الآلهة التي عبدتم دوني، وهو سؤال توبيخ. ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي تعادون أنبيائي بسببهم، فليدفعوا عنكم هذا العذاب. وقرأ ابن كثير «شُرَكَايَ» بياء مفتوحة من غير همز، والباقون بالهمز. نافع «تُشَاقُّونِ» بكسر النون على الإضافة، أي تعادونني فيهم. وفتحها الباقون. ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قال ابن عباس: أي الملائكة. وقيل: المؤمنون. ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾ أي الهوان والذل يوم القيامة. ﴿وَالسُّوءَ﴾ أي العذاب. ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

[٢٨] ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

---

(١) راجع ص ٥٧ من هذا الجزء.

(٢) رجح بعض اللغويين بالذال المعجمة وجوّز بعضهم الوجهين.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ هذا من صفة الكافرين. و «ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ» نصب على الحال؛ أي وهم ظالمون أنفسهم إذ أوردوها موارد الهلاك. ﴿فَأَلْقَوا السَّلَمَ﴾ أي الاستسلام. أي أقرّوا لله بالربوبية وانقادوا عند الموت وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ أي من شرك. فقالت لهم الملائكة: ﴿بَلَى﴾ قد كنتم تعملون الأسواء. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقال عكرمة: نزلت هذه الآية بالمدينة في قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا، فأخرجتهم قريش إلى بدر كرهاً فقتِلوا بها؛ فقال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ بقبض أرواحهم. ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ في مقامهم بمكة وتركهم الهجرة. ﴿فَأَلْقَوا السَّلَمَ﴾ يعني في خروجهم معهم. وفيه ثلاثة أوجه: أحدها ـ أنه الصلح؛ قاله الأخفش. الثاني ـ الاستسلام؛ قاله قطرب. الثالث ـ الخضوع؛ قاله مقاتل. ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ يعني من كفر. ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني أن أعمالكم[1] أعمال الكفار. وقيل: إن بعض المسلمين لما رأوا قلة المؤمنين رجعوا إلى المشركين؛ فنزلت فيهم. وعلى القول الأول فلا يخرج كافر ولا منافق من الدنيا حتى ينقاد ويستسلِم، ويخضع ويذل، ولا تنفعهم حينئذ توبة ولا إيمان؛ كما قال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾[2] وقد تقدّم هذا المعنى. وتقدّم في «الأنفال»[3] إن الكفار يتوفون بالضرب والهوان، وكذلك في «الأنعام»[4]. وقد ذكرناه في كتاب التذكرة.

[٢٩] ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي يقال لهم ذلك عند الموت. وقيل: هو بشارة لهم بعذاب القبر؛ إذ هو باب من أبواب جهنم للكافرين. وقيل: لا تصل أهل الدركة الثانية إليها مثلاً إلا بدخول الدركة الأولى ثم الثانية والثالثة هكذا. وقيل: لكل دركة

---

(١) كذا في جـ وي. وفي أ وو: أعمالهم.
(٢) راجع ١٥/ ٣٣٥.
(٣) راجع ٨/ ٢٨.
(٤) راجع ٧/ ١٤٤ وما بعدها.

باب مفرد، فالبعض يدخلون من باب والبعض يدخلون من باب آخر. فالله أعلم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى﴾ أي مقام ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الذين تكبروا عن الإيمان وعن عبادة الله تعالى، وقد بيّنهم بقوله الحق: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إلاّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾(١).

[٣٠] ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

[٣٢] ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً﴾ أي قالوا: أنزل خيراً؛ وتَمّ الكلام. و «مَاذَا» على هذا اسم واحد. وكان يَرِدُ الرجل من العرب مكة في أيام الموسم فيسأل المشركين عن محمد عليه السلام فيقولون: ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون. ويسأل المؤمنين فيقولون: أنزل الله عليه الخير والهدى، والمراد القرآن. وقيل: إن هذا يقال لأهل الإيمان يوم القيامة. قال الثعلبي: فإن قيل: لِم ارتفع الجواب في قوله: «أَسَاطِيرُ الأَوّلِينَ» وانتصبت في قوله: «خَيْراً»؟ فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل، فكأنهم قالوا: الذي يقوله محمد هو أساطير الأوّلين. والمؤمنون آمنوا بالنزول فقالوا: أنزل خيراً. وهذا مفهوم معناه من الإعراب، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ قيل: هو من كلام الله عز وجل. وقيل: هو من جملة كلام الذين اتقوا. والحسنة هنا: الجنة؛ أي من أطاع الله فله الجنة غدا. وقيل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ اليوم حسنة في الدنيا من النصر والفتح والغنيمة: ﴿وَلَدَارُ

(١) راجع ١٥/ ٧٥.

الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي ما ينالون في الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا؛ لفنائها وبقاء الآخرة. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ فيه وجهان ـ قال الحسن: المعنى ولنعم دار المتقين الدنيا؛ لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة ودخول الجنة. وقيل: المعنى ولنعم دار المتقين الآخرة؛ وهذا قول الجمهور. وعلى هذا تكون ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدلاً من الدار فلذلك ارتفع. وقيل: ارتفع على تقدير هي جنات، فهي مبيِّنة لقوله: «دَارُ الْمُتَّقِينَ»، أو تكون مرفوعة بالابتداء، التقدير: جنات عدن نعم دار المتقين. ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ في موضع الصفة، أي مدخولة. وقيل: «جَنَّاتُ» رفع بالابتداء؛ وخبره «يَدْخُلُونَهَا» وعليه يخرّج قول الحسن والله أعلم. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ تقدّم معناه في البقرة[1]. ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي مما تمنوه وأرادوه. ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء يجزي الله المتقين. ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ قرأ الأعمش وحمزة «يَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ» في الموضعين بالياء، واختاره أبو عبيد؛ لما روي عن ابن مسعود أنه قال: إن قريشاً زعموا أن الملائكة إناث فذكِّروهم أنتم. الباقون بالتاء؛ لأن المراد به الجماعة من الملائكة. و ﴿طَيِّبِينَ﴾ فيه ستة أقوال: الأوّل ـ «طَيِّبِينَ» طاهرين من الشرك. الثاني ـ صالحين. الثالث ـ زاكية أفعالهم وأقوالهم. الرابع ـ طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله تعالى. الخامس ـ طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله. السادس ـ «طيبين» أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم؛ بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلط. والله أعلم. ﴿يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما ـ أن يكون السلام إنذار لهم بالوفاة. الثاني ـ أن يكون تبشيراً لهم بالجنة؛ لأن السلام أمان. وذكر ابن المبارك قال: حدثني حيوة قال أخبرني أبو صخر[2] عن محمد بن كعب القُرَظِيّ قال: إذا استنقعت[3] نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال: السلام عليك وليّ الله، الله يقرأ عليك السلام. ثم نزع بهذه الآية ﴿الَّذِينَ

---

(١) راجع ١/٢٣٩.

(٢) في الطبري: أبو صخر أنه سمع.

(٣) استنقع الماء: اجتمع وثبت. أي إذا اجتمعت نفس المؤمن في فيه تريد الخروج، كما يستنقع الماء في قراره؛ وأراد بالنفس الروح.

تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ﴾. وقال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام. وقال مجاهد: إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعده لِتَقَرّ عينه. وقد أتينا على هذا في (كتاب التذكرة) وذكرنا هناك الأخبار الواردة في هذا المعنى، والحمد لله. وقوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما ـ أن يكون معناه أبشروا بدخول الجنة. الثاني ـ أن يقولوا ذلك لهم في الآخرة. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني في الدنيا من الصالحات.

[٣٣] ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ﴾ هذا راجع إلى الكفار، أي ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم. وقرأ الأعمش وابن وَثّاب وحمزة والكسائيّ وخَلَف «يأتيهم الملائكة» بالياء. والباقون بالتاء على ما تقدّم ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي بالعذاب من القتل كيوم بَدْر، أو الزلزلة والخسف في الدنيا. وقيل: المراد يوم القيامة. والقوم لم ينتظروا هذه الأشياء لأنهم ما آمنوا بها، ولكن امتناعهم عن الإيمان أوجب عليهم العذاب، فأضيف ذلك إليهم، أي عاقبتهم العذاب. ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي أصروا على الكفر فأتاهم أمر الله فهلكوا. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ أي بتعذيبهم وإهلاكهم، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك.

[٣٤] ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ قيل: فيه تقديم وتأخير؛ التقدير: كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فأصابهم عقوبات كفرهم وجزاء الخبيث من أعمالهم. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي أحاط بهم ودار. ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي عقاب استهزائهم.

[٣٥] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيئاً، و «مِن» صلة. قال الزجاج: قالوه استهزاء، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين. وقد مضى هذا في سورة «الأنعام» مبيناً معنًى وإعراباً فلا معنى للإعادة(1). ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من كان قبلهم بالرسل فأهلكوا. ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ أي ليس عليهم إلا التبليغ، وأما الهداية فهي إلى الله تعالى.

[٣٦] ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي بأن اعبدوا الله ووحدوه. ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ أي أرشده إلى دينه وعبادته.

---

(1) راجع ١٢٨/٧.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ﴾ أي بالقضاء السابق عليه حتى مات على كفره، وهذا يردّ على القدرية؛ لأنهم زعموا أن الله هدى الناس كلهم ووفقهم للهدى، والله تعالى يقول: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ﴾ وقد تقدم هذا في غير موضع. ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي فسيروا معتبرين في الأرض. ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي كيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والعذاب والهلاك.

[٣٧] ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ﴾ أي إن تطلب يا محمد بجهدك هداهم. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أي لا يرشد من أضله، أي من سبق له من الله الضلالة لم يهده. وهذه قراءة ابن مسعود وأهل الكوفة. فـ «يَهْدِي» فعل مستقبل وماضيه هدى. و «مَنْ» في موضع نصب بـ «يَهْدِي» ويجوز أن يكون هدى يهدي بمعنى اهتدى يهتدي؛ رواه أبو عبيد عن الفراء قال: كما قرىء ﴿أَمَّنْ لاَ يَهْدِي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى﴾[1] بمعنى يهتدي. قال أبو عبيد. ولا نعلم أحداً روى هذا غير الفراء، وليس بمتَّهَم فيما يحكيه. النحاس. حُكي لي عن محمد بن يزيد كأن معنى ﴿لا يَهْدِي مَنْ يُضِلّ﴾ من علم ذلك منه وسبق ذلك له عنده، قال: ولا يكون يَهْدي بمعنى يهتدي إلا أن يكون يُهْدَى أو يُهْدِي. وعلى قول الفراء «يَهْدِي» بمعنى يهتدي، فيكون «مَن» في موضع رفع، والعائد إلى «مَن» الهاء المحذوفة من الصلة، والعائد إلى اسم «إن» الضمير المستكِنّ في «يُضِلّ». وقرأ الباقون «لا يُهْدَى» بضم الياء وفتح الدال، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، على معنى من أضله الله لم يهده هادٍ؛ دليله قوله: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ و «مَن» في موضع رفع على أنه اسم ما لم يُسَمّ فاعله، وهي بمعنى الذي، والعائد عليها من صلتها محذوف، والعائد على اسم إن من «فإنّ اللّه» الضمير المستكِنّ في «يُضِلّ». ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ تقدم معناه.

---

(١) راجع ٨/ ٣٤٢.

[٣٨] ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ هذا تعجيب من صنعهم، إذ أقسموا بالله وبالغوا في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت. ووجه التعجيب أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجّزونه عن بعث الأموات. وقال أبو العالية: كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه، وكان في بعض كلامه: والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا، فأقسم المشرك بالله: لا يبعث الله من يموت؛ فنزلت الآية. وقال قتادة: ذكر لنا أن ابن عباس قال له رجل: يابن عباس، إن ناسا يزعمون أن عليًّا مبعوث بعد الموت قَبْل الساعة، ويتأوّلون هذه الآية. فقال ابن عباس: كذب أولئك! إنما هذه الآية عامة للناس، لو كان عليّ مبعوثاً قبل القيامة ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه. ﴿بَلَى﴾ هذا ردّ عليهم؛ أي بلى ليبعثنهم. ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد؛ لأن قوله: «يبعثنهم»[1] يدل على الوعد، أي وعد البعث وعداً حقاً. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مبعوثون. وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد». وقد تقدّم[2]، ويأتي.

[٣٩] ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي ليظهر لهم. ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي من أمر البعث. ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالبعث وأقسموا عليه ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ وقيل: المعنى

(١) أي يبعثهم المقدر.
(٢) راجع ٢/٥٨.

ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ليبين لهم الذي يختلفون فيه، والذي اختلف فيه المشركون والمسلمون أمور: منها البعث، ومنها عبادة الأصنام، ومنها إقرار قوم بأن محمداً حق ولكن منعهم من اتباعه التقليد؛ كأبي طالب.

[٤٠] ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾.

أعلمهم سهولة الخلق عليه، أي إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائهم، ولا في غير ذلك مما نحدثه؛ لأنا إنما نقول له كن فيكون. قراءة ابن عامر والكسائيّ «فَيَكُونَ» نصباً عطفاً على أن نقول. وقال الزجاج: يجوز أن يكون نصباً على جواب «كن». الباقون بالرفع على معنى فهو يكون. وقد مضى القول فيه في «البقرة» مستوفى[1]. وقال ابن الأنباريّ: أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله قبل الخلق لأنه بمنزلة ما وجد وشوهد. وفي الآية دليل على أن القرآن غير مخلوق؛ لأنه لو كان قوله: «كن» مخلوقاً لاحتاج إلى قول ثان، والثاني إلى ثالث وتسلسل وكان محالاً. وفيها دليل على أن الله سبحانه مريد لجميع الحوادث كلها خيرِها وشرها نفعِها وضرها؛ والدليل على ذلك أن من يرى في سلطانه ما يكرهه ولا يريده فلأحد شيئين: إما لكونه جاهلاً لا يدري، وإما لكونه مغلوباً لا يطيق، ولا يجوز ذلك في وصفه سبحانه، وقد قام الدليل على أنه خالق لاكتساب العباد، ويستحيل أن يكون فاعلاً لشيء وهو غير مريد له؛ لأن أكثر أفعالنا يحصل على خلاف مقصودنا وإرادتنا، فلو لم يكن الحق سبحانه مريداً لها لكانت تلك الأفعال تحصل من غير قصد؛ وهذا قول الطبيعيين، وقد أجمع الموحِّدون على خلافه وفساده.

[٤١] ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾.

---

(١) راجع ٢/ ٩٠.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ قد تقدّم في «النساء» معنى الهجرة[1]، وهي ترك الأوطان والأهل والقرابة في الله أو في دين الله، وترك السيئات. وقيل: «في» بمعنى اللام، أي لِلَّه. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي عذبوا في الله. نزلت في صهيب وبلال وخَبّاب وعَمّار، عذبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا، فلما خلوهم هاجروا إلى المدينة؛ قاله الكلبيّ. وقيل: نزلت في أبي جَنْدل بن سهيل. وقال قتادة: المراد أصحاب محمد ﷺ، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة؛ ثم بوّأهم الله تعالى دار الهجرة وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين. والآية تعم الجميع. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ في الحسنة ستة أقوال: **الأوّل** ـ نزول المدينة؛ قاله ابن عباس والحسن والشعبيّ وقتادة. **الثاني** ـ الرزق الحسن؛ قاله مجاهد. **الثالث** ـ النصر على عدوّهم؛ قاله الضحاك. **الرابع** ـ إنه لسان صدق؛ حكاه ابن جريج. **الخامس** ـ ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات. **السادس** ـ ما بقي لهم في الدنيا من الثناء، وما صار فيها لأولادهم من الشرف. وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله، والحمد لله. ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي ولأجر دار الآخرة أكبر، أي أكبر من أن يعلمه أحد قبل أن يشاهده؛ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾[2]. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان هؤلاء الظالمون يعلمون ذلك. قيل: هو راجع إلى المؤمنين. أي لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا. وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا دفع إلى المهاجرين العطاء قال: هذا ما وعدكم الله في الدنيا وما ادّخر لكم في الآخرة أكثر؛ ثم تلا عليهم هذه الآية.

[٤٢] ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

قيل: ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من «الذين» الأوّل. وقيل: من الضمير في ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ وقيل: هم الذين صبروا على دينهم. ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في كل أمورهم. وقال بعض أهل التحقيق: خيار الخلق من إذا نابه أمر صبر، وإذا عجز عن أمر توكل؛ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

---

(١) راجع ٥/ ٣٤٧ وما بعدها.
(٢) راجع ١٩/ ١٤٢.

[٤٣] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

[٤٤] ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ قراءة العامة «يُوحَى» بالياء وفتح الحاء. وقرأ حفص عن عاصم «نوحِي إليهِم» بنون العظمة وكسر الحاء. نزلت في مشركي مكة حيث أنكروا نبوّة محمد ﷺ وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فهلاّ بعث إلينا ملكاً؛ فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلى الأمم الماضية يا محمد «إلاَّ رِجَالاً» آدميين. ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ قال سفيان: يعني مؤمني أهل الكتاب. ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً. وقيل: المعنى فاسألوا أهل الكتاب فإن لم يؤمنوا فهم معترفون بأن الرسل كانوا من البشر. رُوِيَ معناه عن ابن عباس ومجاهد. وقال ابن عباس: أهل الذكر أهل القرآن. وقيل: أهل العلم، والمعنى متقارب. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ قيل: «بالبينات» متعلق بـ«أرسلنا». وفي الكلام تقديم وتأخير، أي ما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالاً ـ أي غير رجال، فـ«إلاَّ» بمعنى غير؛ كقوله: لا إله إلا الله، وهذا قول الكلبيّ ـ نوحِي إليهم. وقيل: في الكلام حذف دل عليه «أرسلنا» أي أرسلناهم بالبينات والزبر. ولا يتعلق «بِالبيّناتِ» بـ«أرسلنا» الأوّل على هذا القول؛ لأن ما قبل «إلا» لا يعمل فيما بعدها، وإنما يتعلق بأرسلنا المقدّرة، أي أرسلناهم بالبينات. وقيل: مفعول بـ«تعلمون» والباء زائدة، أو نصب بإضمار أعني؛ كما قال الأعشى:

وليس مُجيراً إن أتى الحيَّ خائف ولا قــائــلاً إلا هــو المتعيَّبــا

أي أعني المتعَيَّب. والبينات: الحجج والبراهين. والزُّبُر: الكتُب. وقد تقدّم في آل عمران[1]. ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني القرآن. ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك. فالرسول ﷺ مُبيِّن عن الله عز وجل مراده مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة، وغير ذلك مما لم يفصِّله. وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى في مقدّمة الكتاب، والحمد لله. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيتعظون.

[٤٥] ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

[٤٦] ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

[٤٧] ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي بالسيئات، وهذا وعيد للمشركين الذين احتالوا في إبطال الإسلام. ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ قال ابن عباس: كما خسف بقارون، يقال: خَسَفَ المكانُ يخسِف خسوفاً ذهب في الأرض، وخسف الله به الأرض خسوفاً أي غاب به فيها؛ ومنه قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾[2]. وخَسَفَ هو في الأرض وخُسِف به. والاستفهام بمعنى الإنكار؛ أي يجب ألا يأمنوا عقوبة تلحقهم كما لحقت المكذبين. ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ كما فعل بقوم لوط وغيرهم. وقيل: يريد يوم بَدْرٍ؛ فإنهم أهلكوا ذلك اليوم، ولم يكن شيء منه في حسابهم. ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِم﴾ أي في أسفارهم وتصرفهم؛ قاله قتادة. ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي سابقين الله ولا فائتيه. وقيل: ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ على فراشهم أينما كانوا. وقال الضحاك: بالليل والنهار. ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: أي على تَنَقُّص من أموالهم

(١) راجع ٤/٢٩٦.
(٢) راجع ١٣/٣١٧.

ومواشيهم وزروعهم. وكذا قال ابن الأعرابي: أي على تنقص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم كلّهم. وقال الضحاك: هو من الخوف؛ المعنى: يأخذ طائفة ويدع طائفة، فتخاف الباقية أن ينزل بها ما نزل بصاحبتها. وقال الحسن: «عَلَى تَخَوُّفٍ» أن يأخذ القرية فتخافه القرية الأخرى، وهذا هو معنى القول الذي قبله بعينه، وهما راجعان إلى المعنى الأوّل، وأن التخوّف التنقص، تخوّفه تنقصه، وتخوّفه الدهر وتخوّنه (بالفاء والنون) بمعنًى؛ يقال: تخوّنني فلان حقي إذا تنقصك. قال ذو الرمة:

لا، بل هو الشّوْقُ مِن دارٍ تخوّنها   مَرًّا سحابٌ وَمرًّا بارِحٌ تَرِبُ[1]

وقال لبيد:

تخوّنَها نزولي وارتحالي[2]

أي تنقص لحمها وشحمها. وقال الهَيْثَم بن عَدِيّ: التخوّف (بالفاء) التنقص، لغة لأزدِ شنوءة. وأنشد:

تخوّف غَدْرهم مالي وأهدى   سلاسلَ في الحلوق لها صليل

وقال سعيد بن المسيب: بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال: يا أيّها الناس، ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُم عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ فسكت الناس، فقال شيخ من بني هُذَيْل: هي لغتنا يا أمير المؤمنين، التخوّف التنقص. فخرج رجل فقال: يا فلان، ما فعل دَيْنُك؟ قال: تخوّفته، أي تنقّصته؛ فرجع فأخبر عمر فقال عمر: أتعرف العرب ذلك في أشعارهم؟ قال نعم؛ قال شاعرنا أبو كَبِير[3] الهُذَلِيّ يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد تمْكِه واكْتِنَازه:

تخوّف الرّحْلُ منها تامِكاً قَرِداً   كما تخوّفَ عُودَ النَّبْعَة السَّفَنُ[4]

---

(١) البارح: الريح الحارة في الصيف التي فيها تراب كثير.

(٢) هذا عجز البيت، وصدره كما في اللسان:

عُذافرة تُقَمِّص بالرُّدافَى

(٣) كذا في جميع الأصول، والذي في اللسان أنه لابن مقبل وقيل: لذي الرمة.

(٤) القرد: معناه هنا: المتراكم بعضه فوق بعض من السمن. والنبعة: شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسيّ.

فقال عمر: يا أيّها الناس، عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم. تَمَكَ السنام يَتْمِك تَمْكاً، أي طال وارتفع، فهو تامك. والسَّفَنُ والمسفن ما يُنْجَر به الخشب. وقال الليث بن سعد: «عَلَى تَخَوُّفٍ» على عجل. وقيل: على تقريع بما قدّموه من ذنوبهم، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً. وقال قتادة: «على تخوّف» أن يعاقب أو يتجاوز. ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي لا يعاجل بل يمهل.

[٤٨] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قرأ حمزة والكسائيّ وخلف ويحيى والأعمش ﴿تَرَوْا﴾ بالتاء، على أن الخطاب لجميع الناس. الباقون بالياء خبراً عن الذين يمكرون السيئات؛ وهو الاختيار. ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني من جسم قائم له ظل من شجرة أو جبل؛ قاله ابن عباس. وإن كانت الأشياء كلها سميعة مطيعة لله تعالى. ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وغيرهما بالتاء لتأنيث الظلال. الباقون بالياء، واختاره أبو عبيد. أي يميل من جانب إلى جانب، ويكون أوّل النهار على حال ويتقلّص ثم يعود في آخر النهار على حالة أخرى؛ فدورانها وميلانها من موضع إلى موضع سجودها؛ ومنه قيل للظل بالعشي: فَيْءٌ؛ لأنه فاء من المغرب إلى المشرق، أي رجع. والفيء الرجوع؛ ومنه ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾[١]. روي معنى هذا القول عن الضحاك وقتادة وغيرهما، وقد مضى هذا المعنى في سورة «الرعد»[٢]. وقال الزجاج: يعني سجود الجسم، وسجوده انقياده وما يرى فيه من أثر الصنعة، وهذا عام في كل جسم. ومعنى ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي خاضعون صاغرون. والدخور: الصغار والذل. يقال: دَخَر الرجل (بالفتح) فهو داخر، وأدخره الله. وقال ذو الرمة:

فلم يَبْقَ إلا داخِرٌ في مُخَيَّسٍ ومُنْجَحِرٌ[٣] في غير أرْضِك في جُحرِ

---

(١) راجع ١٦/ ٣١٥. (٢) راجع ٩/ ٣٠٢.

(٣) كذا في كتب اللغة. يقال: انجحر الضب إذا دخل الجحر. والذي في الأصول وديوان ذي الرمة: «متحجر في غير أرضك في حجر» بتقديم الحاء على الجيم في الكلمتين، وكذا في جـ.

كذا نسبه الماوردِيّ لذي الرمّة، ونسبه الجوهري للفرزدق وقال: المُخَيَّسُ اسم سجن كان بالعراق، أي موضع التذلل. وقال[١]:

أمـا تـرانـي كَيِّساً مُكَيِّساً بَنَيْتُ بعـدَ نـافـع مُخَيَّسا

ووحد اليمين في قوله: «عَنِ اليَمِينِ» وجمع الشمال؛ لأن معنى اليمين وإن كان واحداً الجمعُ. ولو قال[٢]: عن الأيمان والشمائل، واليمين والشمائل، أو اليمين والشمال، أو الأيمان والشمال لجاز؛ لأن المعنى للكثرة. وأيضاً فمن شأن العرب إذا اجتمعت علامتان في شيء واحد أن تجمع إحداهما وتفرد الأخرى؛ كقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾[٣] وكقوله: ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٤] ولو قال على أسماعهم وإلى الأنوار لجاز. ويجوز أن يكون ردّ اليمين على لفظ «ما» والشمال على معناها. ومثل هذا في الكلام كثير. قال الشاعر:

الـواردون وتَيْـم فـي ذُرَا سَبَـإ قد عَضّ أعناقَهم جِلْدُ الجواميس[٥]

ولم يقل جلود. وقيل: وحد اليمين لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجه إلى القبلة انبسط الظل عن اليمين ثم في حال يميل إلى جهة الشمال ثم حالات[٦]، فسماها شمائل.

[٤٩] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

[٥٠] ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي من كل ما يدب على الأرض. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يعني الملائكة الذين في الأرض، وإنما أفردهم بالذكر لاختصاصهم

---

(١) القائل هو سيدنا علي رضي الله عنه. ونافع: سجن بالكوفة كان غير مستوثق البناء وكان من قصب، وكان المحبوسون يهربون منه. وقيل: إنه نقب وأفلت منه المحبَّسون؛ فهدمه علي رضي الله عنه وبنى المخيس لهم من مدر.

(٢) أي قائل في غير القرآن. (٣) راجع ١/ ١٨٩. (٤) راجع جـ ٦/ ١١٧.

(٥) البيت لجرير. ورواية ديوانه: تدعوك تيم وتيم في قرى سبأ .... الخ

(٦) هكذا وردت هذه الجملة في الأصول. ولعل صوابها: لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجه إلى القبلة انبسط الظل عن اليمين في حال، ثم يميل إلى جهة الشمال في حالات؛ فسماها شمائل.

والذي في البحر لأبي حيان: «وقيل: وحد اليمين وجمع الشمائل لأن الابتداء عن اليمين، ثم ينقبض شيئاً فشيئاً حالاً بعد حال؛ فهو بمعنى الجمع، فصدق على كل حال لفظة الشمال فتعدّد بتعدّد الحالات».

بشرف المنزلة، فميزهم من صفة الدبيب بالذكر وإن دخلوا فيها؛ كقوله: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[١]. وقيل: لخروجهم من جملة ما يدِبّ لما جعل الله لهم من الأجنحة، فلم يدخلوا في الجملة فلذلك ذكروا. وقيل: أراد ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ وتسجد ملائكة الأرض. ﴿وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادة ربهم. وهذا ردّ على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله. ومعنى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي عقاب ربهم وعذابه؛ لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء. وقيل: المعنى يخافون قدرة ربهم التي هي فوق قدرتهم؛ ففي الكلام حذف. وقيل: معنى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يعني الملائكة، يخافون ربهم وهي من فوق ما في الأرض من دابّة ومع ذلك يخافون؛ فلأن يخافَ مَن دونهم أولى؛ دليل هذا القول قوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يعني الملائكة.

[٥١] ﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ قيل: المعنى لا تتخذوا اثنين إلٰهين. وقيل: جاء قوله: «اثنينِ» توكيداً. ولما كان الإله الحق لا يتعدّد وأن كل من يتعدّد فليس بإله، اقتُصِر على ذكر الاثنين؛ لأنه قُصد نفي التعديد. ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ يعني ذاته المقدّسة. وقد قام الدليل العقلي والشرعي على وحدانيته حسبما تقدم في «البقرة» بيانه[٢] وذكرناه في اسمه الواحد في شرح الأسماء، والحمد لله. ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أي خافون. وقد تقدّم في «البقرة»[٣].

[٥٢] ﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

---

(١) راجع ١٧/ ١٨٥.
(٢) راجع ٢/ ١٩٠ وما بعدها.
(٣) راجع ١/ ٣٣٢.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ الدين: الطاعة والإخلاص. و «وَاصِباً» معناه دائماً؛ قاله الفرّاء، حكاه الجوهريّ. وصَبَ الشيءُ يصِب وصُوباً، أي دام. ووَصَب الرجلُ على الأمر إذا واظب عليه. والمعنى: طاعة الله واجبة أبداً. وممن قال واصباً دائماً: الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾(١) أي دائم. وقال الدُّؤَلي:

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه   بذم يكون الدهرَ أجمع واصباً

أنشد الغزنوي والثعلبي وغيرهما:

ما أبتغي الحمد القليلَ بقاؤه   يوماً بذَمِّ الدهر أجمع واصباً

وقيل: الوصب التعب والإعياء؛ أي تجب طاعة الله وإن تعب العبد فيها. ومنه قول الشاعر:

لا يُمسك السّاقَ من أيْن ولا وَصَب   ولا يَعَضّ على شُرْسُوفِهِ الصفر(٢)

وقال ابن عباس «واصباً» واجباً. الفراء والكلبي: خالصاً. ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي لا ينبغي أن تتقوا غير الله. فـ «ـغير» نصب بـ «ـتتقون».

[٥٣] ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣)﴾.
[٥٤] ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤)﴾.
[٥٥] ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ قال الفراء. «ما» بمعنى الجزاء. والباء في «بكم» متعلقة بفعل مضمر، تقديره: وما يكن بكم. ﴿مِنْ نِعْمَةٍ﴾ أي صحة جسم وسعة رزق وولد ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾. وقيل: المعنى وما بكم من نعمة فمن الله هي: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾

(١) راجع ١٥/ ٦٤.
(٢) الشعر لأعشى باهلة. والشطر الأوّل من بيت، والثاني من بيت آخر. والبيتان:

لا يتأرّى لما في القدر يرقبه   ولا يعض على شرسوفه الصفر
لا يغمز الساق من أين ولا نصب   ولا يزال أمام القوم يقتفر

تأرّى بالمكان: أقام به. والشرسوف: غضروف ـ كل عظم رخص يؤكل ـ معلق بكل ضلع مثل غضروف الكتف. والصفر (بالتحريك): داء في البطن يصفر منه الوجه. وقيل: الصفر هنا الجوع. واقتفر الأثر: تتبعه.

أي السقم والبلاء والقحط. ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أي تضجون بالدعاء. يقال: جأر يجأر جؤاراً. والجُؤار مثل الخُوار؛ يقال: جأر الثور يجأر، أي صاح. وقرأ بعضهم «عِجلا جسداً له جؤار»[1]؛ حكاه الأخفش. وجأر الرجل إلى الله، أي تضرع بالدعاء. وقال الأعشى[2] يصف بقرة:

فطافت ثلاثاً بين يوم وليلة ... وكان النكير أن تضِيف[3] وتجأرا

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ﴾ أي البلاء والسقم. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ بعد إزالة البلاء وبعد الجؤار. فمعنى الكلام التعجيب من الإشراك بعد النجاة من الهلاك، وهذا المعنى مكرر في القرآن، وقد تقدّم في «الأنعام[1] ويونس»[4]، ويأتي في «سبحان» وغيرها. وقال الزجاج: هذا خاص بمن كفر. ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي ليجحدوا نعمة الله التي أنعم بها عليهم من كشف الضر والبلاء. أي أشركوا ليجحدوا، فاللام لام كي. وقيل: لام العاقبة. وقيل: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي ليجعلوا النعمة سبباً للكفر، وكل هذا فعل خبيث؛ كما قال:

والكفر مخبثة لنفس المنعم[5]

﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أمر تهديد. وقرأ عبد الله «قل تمتعوا». ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة أمركم.

[٥٦] ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ذكر نوعاً آخر من جهالتهم، وأنهم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضر وينفع ـ وهي الأصنام ـ شيئاً من أموالهم يتقرّبون به إليه؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما. فـ «يعلمون» على هذا للمشركين. وقيل: هي

(١) راجع ٧/ ٢٨٤ و ٨ و ١١/ ٢٣٥.
(٢) كذا في الأصول. والذي في اللسان مادة «ضيف» وكتاب سيبويه ٢/ ١٧٤ أنه للنابغة الجعدي.
(٣) في الأصول: «تطيف» بالطاء. والتصويب عن اللسان وكتاب سيبويه. وتضيف: تشفق وتحذر والنكير: الإنكار. والجؤار: الصياح. والمعنى: أن هذه البقرة فقدت ولدها فطافت تطلبه ثلاث ليال وأيامها، ولا إنكار عندها ولا انتصار مما عدا على ولدها إلا أن تشفق وتحذر وتصيح.
(٤) راجع ٨/ ٣١٧.
(٥) هذا عجز بيت من معلقة عنترة، وصدره:

نبئت عمرا غير شاكر نعمتي

للأوثان، وجرى بالواو والنون مجرى من يعقل، فهو رد على «ما» ومفعول يعلم محذوف، والتقدير: ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعلم شيئاً نصيباً. وقد مضى في «الأنعام» تفسير هذا المعنى في قوله: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾(١) ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ﴾ وهذا سؤال توبيخ. ﴿عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أي تختلقونه من الكذب على الله أنه أمركم بهذا.

[٥٧] ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ نزلت في خُزاعة وكِنانة؛ فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله، فكانوا يقولون ألحقوا البنات بالبنات. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزّه نفسه وعظمها عما نسبوه إليه من اتخاذ الأولاد. ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي يجعلون لأنفسهم البنين ويأنفون من البنات. وموضع «ما» رفع بالابتداء، والخبر «لهم» وتمّ الكلام عند قوله: «سبحانه». وأجاز الفراء كونها نصباً، على تقدير: ويجعلون لهم ما يشتهون. وأنكره الزجاج وقال: العرب تستعمل في مثل هذا ويجعلون لأنفسهم.

[٥٨] ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى﴾ أي أخبر أحدهم بولادة بنت. ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي متغيراً، وليس يريد السواد الذي هو ضد البياض، وإنما هو كناية عن غمه بالبنت. والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً: قد اسود وجهه غماً وحزناً؛ قاله الزجاج. وحكى الماوردي: أن المراد سواد اللون قال: وهو قول الجمهور. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي ممتلىء من الغمّ. وقال ابن عباس: حَزِين. وقال الأخفش: هو الذي يكظم غيظه فلا يظهره. وقيل: إنه المغموم الذي يطبق فاه فلا يتكلم من الغم؛ مأخوذ من الكِظامة وهو شدّ فمِ القِربة؛ قاله علي بن عيسى. وقد تقدّم هذا المعنى في سورة «يوسف»(٢).

---

(١) راجع ٧/ ٨٩.

(٢) راجع ٩/ ٢٤٩.

[٥٩] ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي يختفي ويتغيب. ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أي من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب البنت. ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ ذكّر الكناية لأنه مردود على «ما». ﴿عَلَى هُونٍ﴾ أي هوان. وكذا قرأ عيسى الثقفيّ «على هوان» والهون الهوان بلغة قريش؛ قاله اليزيدي، وحكاه أبو عبيد عن الكسائيّ. وقال الفراء: هو القليل بلغة تميم. وقال الكسائيّ: هو البلاء والمشقة. وقالت الخنساء:

نُهِينُ النفوسَ وهُونُ النفو س يوم الكريهة أبقَى لها

وقرأ الأعمش «أيمسِكه على سُوءٍ» ذكره النحاس، قال: وقرأ الجُحْدَرِيّ «أم يدُسُّها فِي التراب» يردّه على قوله: «بِالأنثى» ويلزمه أن يقرأ «أيمسِكها»[١]. وقيل: يرجع الهوان إلى البنت؛ أي أيمسكها وهي مهانة عنده. وقيل: يرجع إلى المولود له؛ أيمسكه على رغم أنفه أم يدسه في التراب، وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حية. قال قتادة: كان مُضَرُ وخُزاعة يدفنون البنات أحياء؛ وأشدهم في هذا تميم. زعموا خوف القهر عليهم وطمع غير الأكفاء فيهنّ. وكان صَعْصَعَة بن ناجية عم الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجه إلى والد البنت إبلا يستحييها بذلك. فقال الفرزدق يفتخر:

وعمي[٢] الذي منعَ الوائداتِ وأحيا الوَئيد فلم يُوأَدِ

وقيل: دَسُّها إخفاؤها عن الناس حتى لا تعرف، كالمدسوس في التراب لإخفائه عن الأبصار؛ وهذا محتمل.

مسألة ـ ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتني امرأة ومعها ابنتان لها، فسألتني فلم تجد عندي غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئاً، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل عليّ النبيّ ﷺ فحدّثته[٣]

(١) قاله محققه: في الشواذ أن الجحدري يقرأ كذلك. كأن المصنف لم يقف عليها.
(٢) الرواية: وجدّي، وأن صعصعة بن ناجية جد الفرزدق كما في الاستيعاب.
(٣) في جـ: فخبرته.

حديثها، فقال النبيّ ﷺ: «من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار». ففي هذا الحديث ما يدل على أن البنات بلية، ثم أخبر أن في الصبر عليهن والإحسان إليهن ما يقي من النار. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما؛ فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار». وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلُغا جاء يوم القيامة أنا وهو» وضم أصابعه، خرّجهما أيضاً مسلم رحمه الله! وخرج أبو نعيم الحافظ من حديث الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «من كانت له بنت فأدّبها فأحسن أدبها وعلمها فأحسن تعليمها وأسبغ عليها من نعم الله التي أسبغ عليه كانت له ستراً أو حجاباً من النار». وخُطب إلى عقيل بن عُلَّفَة ابنته الجرباء فقال:

إنـــي وإن سِيــق إلَــيَّ المهــر ... ألْـفٌ وعُبـدان وخُـورٌ[1] عشـرُ

أحَبّ أصهاري إليّ القبر

وقال عبد الله بن طاهر:

لكل أبِي بنت يراعي شؤونها ... ثـلاثـةُ أصهـار إذا حُمـد الصِّهْـرُ

فبَعْـلٌ يـراعِيهـا وخِـدْرٌ يُكِنّهـا ... وقبـرٌ يـوارِيهـا وخيـرهـم القبْـرُ

﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي في إضافة البنـات إلى خالقهم وإضافـة البنيـن إليهـم. نظيـره ﴿ أَلَكُـمُ الـذَّكَـرُ وَلَـهُ الْأُنثَـى . تِلْـكَ إِذاً قِسْمَـةٌ ضِيـزَى ﴾ أي جـائـرة، وسيـأتـي[2].

(١) الخور: جمع خوّارة على غير قياس، وهي الناقة الغزيرة اللبن.

(٢) راجع ١٧/ ١٠٢.

[٦٠] ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ أي لهؤلاء الواصفين[١] لله البنات ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي صفة السوء من الجهل والكفر. وقيل: هو وصفهم الله تعالى بالصاحبة والولد. وقيل: أي العذاب والنار. ﴿وِللَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ أي الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد؛ قاله قتادة. وقيل: أي الصفة العليا بأنه خالق رازق قادر ومجاز. وقال ابن عباس: ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ النار، و ﴿الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٢]. وقيل: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ كقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾[٣]. فإن قيل: كيف أضاف المثل هنا إلى نفسه وقد قال: ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾[٤] فالجواب أن قوله: ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ أي الأمثال التي توجب الأشباه والنقائص؛ أي لا تضربوا لله مثلاً يقتضي نقصاً وتشبيهاً بالخلق. والمثل الأعلى وصفه بما لا شبيه له ولا نظير، جل وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدّم معناه[٥].

[٦١] ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي بكفرهم وافترائهم، وعاجلهم. ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي على الأرض، فهو كناية عن غير مذكور، لكن دلّ عليه قوله: ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ فإن الدابة لا تدِبّ إلا على الأرض. والمعنى المراد من دابة كافرة، فهو خاص. وقيل: المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء. وقيل: المراد بالآية العموم؛ أي لو آخذ الله الخلق بما كسبوا ما ترك على

(١) في جـ وو: الواضعين.
(٢) راجع ١٦/٧.
(٣) راجع ١٢/٢٢٥.
(٤) راجع ص ١٤٦ من هذا الجزء.
(٥) راجع ١/٢٨٧ و ٢/١٣١.

ظهر هذه الأرض من دابّة من نبيّ ولا غيره؛ وهذا قول الحسن. وقال ابن مسعود وقرأ هذه الآية: لو آخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العذاب جميع الخلق حتى الجِعلان[١] في جحرها، ولأمسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض فمات الدواب، ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل؛ كما قال: ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[٢]. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي أجل موتهم ومنتهى أعمارهم. ﴿لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وقد تقدم[٣]. فإن قيل: فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمناً ليس بظالم؟ قيل: يجعل هلاك الظالم انتقاماً وجزاء، وهلاك المؤمن معوَّضاً بثواب الآخرة. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم»[٤]. وعن أم سلمة وسئلت عن الجيش الذي يُخسَف به وكان ذلك في أيام ابن الزبير، فقالت قال رسول الله ﷺ: «يعوذ بالبيت عائذ فيبعث إليه بعث فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسِف بهم» فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارهاً؟ قال: «يخسف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته». وقد أتينا على هذا المعنى مجوّداً في (كتاب التذكرة) وتقدم في «المائدة» وآخر «الأنعام»[٥] ما فيه كفاية، والحمد لله. وقيل: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي فإذا جاء يوم القيامة. والله أعلم.

[٦٢] ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي من البنات. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ أي وتقول ألسنتهم الكذب. ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ قال مجاهد: هو قولهم أن لهم البنين ولِلَّهِ البنات. «الكذِبَ» مفعول «تصِفُ» و «أنّ» في محل نصب بدل من الكذب؛ لأنه

---

(١) الجعلان (بكسر الجيم جمع جعل، كصرد): دابة سوداء من دواب الأرض.

(٢) راجع ١٦/ ٣٠.

(٣) راجع ٧/ ٢٠٢.

(٤) في صحيح مسلم. «على أعمالهم».

(٥) راجع ٦/ ٣٥٢ و ٧/ ١٥٧.

بيان له. وقيل: «الْحُسْنَى» الجزاء الحسن؛ قاله الزجاج. وقرأ ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وابن مُحَيْصِن «الكُذُبُ» برفع الكاف والذال والباء نعتاً للألسنة؛ وكذا «وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذُبُ»[١]. والكُذُبُ جمع كَذوب؛ مثل رَسُول ورُسُل وصَبور وصُبُر وشكور وشكر. ﴿لاَ﴾ رد لقولهم، وتَمَّ الكلامُ، أي ليس كما تزعمون. ﴿جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي حقاً أن لهم النار. وقد تقدّم مستوفًى[٢]. ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ مُتْرَكون منسيّون في النار؛ قاله ابن الأعرابيّ وأبو عبيدة والكسائيّ والفراء، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير أيضاً: مبعَدون. قتادة والحسن: معجَّلون إلى النار مقدَّمون إليها. والفارط: الذي يتقدّم إلى الماء؛ ومنه قول النبيّ ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض» أي متقدّمكم. وقال القطاميّ:

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا ... كما تعجّل فُرّاطٌ لورّاد

والفُرّاط: المتقدّمون في طلب الماء. والورّاد: المتأخرون. وقرأ نافع في رواية وَرْش «مُفْرِطُونَ» بكسر الراء وتخفيفها، وهي قراءة عبد الله بن مسعود وابن عباس، ومعناه مسرفون في الذنوب والمعصية، أي أفرطوا فيها. يقال: أفرط فلان على فلان إذا أَرْبَى عليه، وقال له أكثر مما قال من الشر. وقرأ أبو جعفر القارىء «مفرِّطون» بكسر الراء وتشديدها، أي مضيعون أمر الله؛ فهو من التفريط في الواجب.

[٦٣] ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أعمالهم الخبيثة. هذا تسلية للنبيّ ﷺ بأن من تقدّمه من الأنبياء قد كفر بهم قومهم. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي ناصرهم في الدنيا على زعمهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) راجع ص ١٩٥ من هذا الجزء.
(٢) راجع ٩/ ٢٠.

في الآخرة. وقيل: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ أي قرينهم في النار. ﴿الْيَوْمَ﴾ يعني يوم القيامة، وأطلق عليه اسم اليوم لشهرته. وقيل: يقال لهم يوم القيامة: هذا وليكم فاستنصروا به لينجيكم من العذاب، على جهة التوبيخ لهم.

[٦٤] ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن ﴿إلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من الدين والأحكام فتقوم الحجة عليهم ببيانك. وعُطف «هُدًى وَرَحْمَةً» على موضع قوله: «لِتبين» لأن محله نصب. ومجاز الكلام: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا تبياناً للناس. ﴿وهُدًى﴾ أي رشداً ﴿ورَحْمَةً﴾ للمؤمنين.

[٦٥] ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿واللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي السحاب. ﴿مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ عاد الكلام إلى تعداد النعم وبيان كمال القدرة. ﴿إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي دلالة على البعث وعلى وحدانيته؛ إذ علموا أن معبودهم لا يستطيع شيئاً، فتكون هذه الدلالة ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ عن الله تعالى بالقلوب لا بالآذان؛ ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(١).

[٦٦] ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

(١) راجع ١٢/٧٦.

فيه عشر مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ قد تقدّم القول في الأنعام[1]، وهي هنا الأصناف الأربعة: الإبل والبقر والضأن والمعز. «لِعبرة» أي دلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته. والعِبرة أصلها تمثيل الشيء بالشي لتعرف حقيقته من طريق المشاكلة، ومنه «فٱعْتَبِرُوا»[2]. وقال أبو بكر الورّاق: العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، وتمرّدك على ربك وخلافك له في كل شيء. ومن أعظم العِبَر بريء يحمل مذنباً.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿نُسْقِيكُمْ﴾ قراءة أهل المدينة وٱبن عامر وعاصم في رواية أبي بكر (بفتح النون) من سقى يسقى. وقرأ الباقون وحفص عن عاصم (بضم النون) من أسقى يسقي، وهي قراءة الكوفيين وأهل مكة. قيل: هما لغتان. وقال لبِيد:

سَقَى قَومِي بني مَجْدٍ وأسقى ... نُمَيْـراً والقبـائـلَ مـن هِـلالِ

وقيل: يقال لما كان من يدك إلى فيه سقيته، فإذا جعلت له شِرْباً أو عرضته لأن يشرب بفيه أو يزرعه قلت أسقيته؛ قاله ٱبن عُزَيْز، وقد تقدّم[3]. وقرأت فرقة «تَسقِيكم» بالتاء؛ وهي ضعيفة، يعني الأنعام. وقرىء بالياء، أي يسقيكم الله عز وجل. والقراء على القراءتين المتقدّمتين؛ ففتح النون لغة قريش وضمها لغة حِمير.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ اختلف الناس في الضمير من قوله: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ على ماذا يعود. فقيل: هو عائد إلى ما قبله وهو جمع المؤنث. قال سيبويه: العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد. قال ٱبن العربيّ: وما أراه عوّل عليه إلا من هذه الآية، وهذا لا يشبه منصبه ولا يليق بإدراكه. وقيل: لما كان لفظ الجمع وهو اسم الجنس يذكر ويؤنث فيقال: هو الأنعام وهي الأنعام، جاز عود الضمير بالتذكير؛

---

(١) راجع ٧/١١١.

(٢) راجع ١٨/٥.

(٣) راجع ١/٤١٨.

وقاله الزجاج. وقال الكسائيّ: معناه مما في بطون ما ذكرناه، فهو عائد على المذكور؛ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[(١)] وقال الشاعر:

مثل الفِراخ نُتِفَتْ حواصلُه

ومثله كثير. وقال الكسائيّ: «مما فِي بطونِهِ» أي مما في بطون بعضه؛ إذ الذكور لا ألبان لها، وهو الذي عوّل عليه أبو عبيدة. وقال الفرّاء: الأنعام والنَّعَم واحد، والنعم يذكر، ولهذا تقول العرب: هذا نَعَم وارد، فرجع الضمير إلى لفظ النعم الذي هو بمعنى الأنعام. قال ابن العربيّ: إنما رجع التذكير إلى معنى الجمع، والتأنيث إلى معنى الجماعة. فذكّره هنا باعتبار لفظ الجمع، وأنثه في سورة المؤمنون باعتبار لفظ الجماعة فقال: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها﴾[(٢)] وبهذا التأويل ينتظم المعنى انتظاماً حسناً. والتأنيث باعتبار لفظ الجماعة والتذكير باعتبار لفظ الجمع أكثر من رمل[(٣)] يَبْرِين وتَيْهَاء فِلسطِين.

الرابعة ـ استنبط بعض العلماء الجِلة وهو القاضي إسماعيل من عود هذا الضمير، أن لبن الفحل يفيد التحريم، وقال: إنما جيء به مذكّراً لأنه راجع إلى ذكَر النعم؛ لأن اللبن للذكر محسوب، ولذلك قضى النبيّ ﷺ بأن لبن الفحل يحرّم حين أنكرته عائشة [رضي الله عنها][(٤)] في حديث أفْلح أخي أبي القُعَيْس «فللمرأة السقي وللرجل اللقاح» فجرى الاشتراك فيه بينهما. وقد مضى القول في تحريم لبن الفحل في «النساء»[(٥)] والحمد لله.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً﴾ نبه سبحانه على عظيم قدرته بخروج اللبن خالصاً بين الفرث والدم. والفَرْثُ: الزبل الذي ينزل إلى الكَرِش، فإذا خرج لم يُسَمَّ فرْثا. يقال: أفرَثْتُ الكَرِش إذا أخرجت ما فيها. والمعنى: أن الطعام يكون منه ما في الكرِش ويكون منه الدّم، ثم يخلص اللبن من الدم، فأعلم الله سبحانه أن هذا اللبن يخرج من بين ذلك وبين الدّم في العروق. وقال ابن عباس: إن الدابة تأكل العلف

(١) راجع ١٩/٢١٣.   (٢) راجع ١٢/١١٨.
(٣) رمل لا تدرك أطرافه عن يمين مطلع الشمس من حجر اليمامة. (ياقوت).
(٤) من جـ.   (٥) راجع ٥/١١١.

فإذا استقرّ في كرشها طبخته فكان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً، والكبد مسلّط على هذه الأصناف فتقسم الدم وتميزه وتجريه في العروق، وتجري اللبن في الضرع ويبقى الفرث كما هو في الكرش؛ ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾[١]. ﴿خَالِصاً﴾ يريد من حمرة الدم وقذارة الفرث وقد جمعهما وعاء واحد. وقال ابن بحر: خالصاً بياضه. قال النابغة:

بخَالصة الأرْدان[٢] خُضرِ المناكب

أي بيض الأكمام. وهذه قدرة لا تنبغي إلا للقائم على كل شيء بالمصلحة.

السادسة - قال النقاش: في هذا دليل على أن المنيّ ليس بنجس. وقاله أيضاً غيره واحتج بأن قال: كما يخرج اللبن من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً كذلك يجوز أن يخرج المنيّ على مخرج البول طاهراً. قال ابن العربي: إن هذا لجهل عظيم وأخذ شنيع، اللبن جاء الخبر عنه مجيء النعمة والمنة الصادرة عن القدرة ليكون عبرة، فاقتضى ذلك كله وصف الخلوص واللذة، وليس المنيّ من هذه الحالة حتى يكون ملحقاً به أو مقيساً عليه.

قلت: قد يعارض هذا بأن يقال: وأيّ مِنة أعظم وأرفع من خروج المنيّ الذي يكون عنه الإنسان المكرم؛ وقد قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾[٣]، وقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾[٤] وهذا غاية في الامتنان. فإن قيل: إنه يتنجس بخروجه في مجرى البول، قلنا: هو ما أردناه، فالنجاسة عارضة وأصله طاهر؛ وقد قيل: إن مخرجه غير مخرج البول وخاصة المرأة؛ فإن مدخل الذكر منها ومخرج الولد غير مخرج البول على ما قاله العلماء. وقد تقدّم في البقرة. فإن قيل: أصله دم فهو نجس، قلنا ينتقض بالمسك، فإن أصله دم وهو طاهر. وممن قال بطهارته الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وغيرهم؛ لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أفركه من ثوب رسول الله ﷺ يابساً بظفري. قال الشافعيّ: فإن لم يُفرَك فلا بأس به. وكان سعد

---

(١) راجع ١٢٨/١٧. (٢) الأردان: جمع ردن (بضم الراء وسكون الدال) وهو أصل الكم.

(٣) راجع ٤/٢٠. (٤) راجع ص ١٤٢ من هذا الجزء.

ابن أبي وَقّاص يفرك المنيّ من ثوبه. وقال ابن عباس: هو كالنُّخامة أمِطْه عنك بإذْخِرَة وامسحه بخرقة. فإن قيل: فقد ثبت عن عائشة أنها قالت: كنت أغسل المنيّ من ثوب رسول الله ﷺ ثم يخرج إلى الصلاة في ذلك الثوب وأنا أنظر إلى أثر الغسل فيه. قلنا: يحتمل أن تكون غسلته استقذاراً كالأشياء التي تزال من الثوب لا لنجاسة، ويكون هذا جمعاً بين الأحاديث. والله أعلم. وقال مالك وأصحابه والأوزاعيّ: هو نجس. قال مالك: غسل الاحتلام من الثوب أمر واجب مجتمع عليه عندنا، وهو قول الكوفيين. ويروى عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وجابر بن سَمُرة أنهم غسلوه من ثيابهم. واختلف فيه عن ابن عمر وعائشة. وعلى هذين القولين في نجاسة المني وطهارته التابعون.

السابعة ـ في هذه الآية دليل على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وغيره، فأما لبن الميتة فلا يجوز الانتفاع به؛ لأنه مائع طاهر حصل في وعاء نجس، وذلك أن ضرع الميتة نجس واللبن طاهر فإذا حُلب صار مأخوذاً من وعاء نجس. فأما لبن المرأة الميتة فاختلف أصحابنا فيه، فمن قال: إن الإنسان[1] طاهر حياً وميتاً فهو طاهر. ومن قال: يَنْجَسُ بالموت فهو نَجِس. وعلى القولين جميعاً تثبت الحرمة؛ لأن الصبي قد يغتذي به كما يغتذي من الحية؛ وذلك أن رسول الله ﷺ قال: «الرضاع ما أنبت اللحم وأنشر العظم». ولم يخصّ؛ وقد مضى في «النساء»[2].

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ أي لذيذاً هيّناً لا يَغُصّ به من شربه. يقال: ساغ الشراب يسوغ سوغاً أي سهل مدخله في الحلق، وأساغه شاربه، وسغته أنا أسيغه وأسوغه، يتعدّى ولا يتعدّى، والأجود أسغته إساغة. يقال: أسِغ لي غُصّتي أي أمهلني ولا تعجلني؛ وقال تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾[3]. والسِّواغ (بكسر السين) ما أسغت به غصتك. يقال: الماء سِواغ الغُصَص؛ ومنه قول الكميت:

فكانت سِوَاغاً أن جَئِزْت بغُصّة

وروي: أن اللبن لم يشرق به أحد قطّ، وروي ذلك عن النبيّ ﷺ.

---

(١) أي المسلم.
(٢) راجع ٥/١١١. (٣) راجع ٩/٣٤٩.

التاسعة ـ في هذه الآية دليل على استعمال الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها، ولا يقال: إن ذلك يناقض الزهد أو يباعده، لكن إذا كان من وجهه ومن غير سَرَف ولا إكثار. وقد تقدّم هذا المعنى في «المائدة»[١] وغيرها. وفي الصحيح عن أنس قال: لقد سقيت رسول الله ﷺ بقدحي هذا الشراب كله: العسل والنبيذ واللبن والماء. وقد كره بعض القرّاء أكل الفالوذَج[٢] واللبن من الطعام، وأباحه عامة العلماء. وروي عن الحسن أنه كان على مائدة ومعه مالك بن دينار، فأُتي بفالوذج فامتنع عن أكله، فقال له الحسن: كُلْ! فإنّ عليك في الماء البارد أكثر من هذا.

العاشرة ـ روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال: أتي رسول الله ﷺ بلبن فشرب، فقال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه، وإذا سُقِي لبناً فليقل اللهُمّ بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شيء يُجزي عن الطعام والشراب إلا اللبن». قال علماؤنا: فكيف لا يكون ذلك وهو أوّل ما يغتذي به الإنسان وتَنْمِي به الجثث والأبدان، فهو قوت خليّ عن المفاسد به قِوام الأجسام، وقد جعله الله تعالى علامة لجبريل على هداية هذه الأمة التي هي خير الأمم أمة؛ فقال في الصحيح: «فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال لي جبريل اخترت الفِطرة أما إنك لو اخترت الخمر غوت أمتك»[٣]. ثم إن في الدعاء بالزيادة منه علامة الخِصب وظهور الخيرات [وكثرة][٤] البركات؛ فهو مبارك كله.

[٦٧] ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ﴾ قال الطبري: التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون؛ فحذف «ما» ودلّ على حذفه قوله: «مِنْهُ». وقيل:

(١) راجع ٦/ ٢٦٠ وما بعدها. و ٧/ ١٩١.

(٢) الفالوذج: حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل. (عن الألفاظ الفارسية المعربة).

(٣) غوت: ضلت وفسدت. (٤) من جـ.

المحذوف شيء، والأمر قريب. وقيل: معنى «منه» أي من المذكور، فلا يكون في الكلام حذف وهو أولى. ويجوز أن يكون قوله: «وَمِنْ ثَمَرَاتِ» عطفاً على «الأنْعَامِ» أي ولكم من ثمرات النخيل والأعناب عبرة. ويجوز أن يكون معطوفاً على «مما» أي ونسقيكم أيضاً مشروبات من ثمرات.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿سَكَراً﴾ السكَر ما يُسكِر؛ هذا هو المشهور في اللغة. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر. وأراد بالسكر الخمر، وبالرّزق الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالاً من هاتين الشجرتين. وقال بهذا القول ابن جُبير والنخعِيّ والشعبيّ وأبو ثور. وقد قيل: إن السكر الخَلّ بلغة الحبشة، والرزق الحسن الطعام. وقيل: السكر العصير الحلو الحلال، وسمي سكراً لأنه قد يصير مسكراً إذا بقي، فإذا بلغ الإسكار حرم. قال ابن العربي: أسدّ هذه الأقوال قول ابن عباس، ويخرج ذلك على أحد معنيين، إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر، وإما أن يكون المعنى: أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرّم الله عليكم اعتداء منكم، وما أحل لكم اتفاقاً أو قصداً إلى منفعة أنفسكم. والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة؛ فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء، وتحريم الخمر مدنيّ.

قلت: فعلى أن السّكَر الخَلّ أو العصير الحلو لا نسخ، وتكون الآية محكمة وهو حسن. قال ابن عباس: الحبشة يسمون الخل السكر، إلا أن الجمهور على أن السكر الخمر، منهم ابن مسعود وابن عمر وأبو رُزَيْن والحسن ومجاهد وابن أبي لَيْلَى والكلبِيّ وغيرهم ممن تقدّم ذكرهم، كلهم قالوا: السكر ما حرمه الله من ثمرتيهما. وكذا قال أهل اللغة: السكر اسم للخمر وما يسكر، وأنشدوا:

بئس الصُّحاة وبئس الشَّرْبُ شَربُهم ... إذا جرى فيهم المُزّاء والسَّكر

والرزق الحسن: ما أحله الله من ثمرتيهما. وقيل: إن قوله ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً﴾ خبر معناه الاستفهام بمعنى الإنكار؛ أي أتتخذون منه سكراً وتَدَعون رزقاً حسناً الخَلَّ والزبيبَ

والتمر؛ كقوله: ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾[١] أي أفهم الخالدون. والله أعلم. وقال أبو عبيدة: السكر الطّعمُ، يقال: هذا سَكَر لك أي طُعم. وأنشد:

جَعلتَ عيْبَ الأكرمين سَكَرا

أي جعلت ذمّهم طعماً. وهذا اختيار الطبري أن السكر ما يُطعم من الطعام وحَلَّ شربه من ثمار النخيل والأعناب: وهو الرزق الحسن، فاللفظ مختلف والمعنى واحد؛ مثل ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[٢] وهذا حسن ولا نسخ، إلا أن الزجاج قال: قول أبي عبيدة هذا لا يعرف، وأهل التفسير على خلافه، ولا حجة له في البيت الذي أنشده؛ لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمّر بعيوب الناس. وقال الحنفيون: المراد بقوله: «سكراً» ما لا يسكر من الأنبذة؛ والدليل عليه أن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده بما خلق لهم من ذلك، ولا يقع الامتنان إلا بمحلَّل لا بمحرَّم، فيكون ذلك دليلاً على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ، فإذا انتهى إلى السكر لم يجز، وعضدوا هذا من السنة بما روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «حرم الله الخمر بعينها والسكر من غيرها». وبما رواه عبد الملك بن نافع عن ابن عمر قال: رأيت رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ وهو عند الركن، ودفع إليه القدح فرفعه إلى فيه فوجده شديداً فردّه إلى صاحبه؛ فقال له حينئذ رجل من القوم: يا رسول الله، أحرامٌ هو؟ فقال: «عليّ بالرجل» فأتِي به فأخذ منه القدح، ثم دعا بماء فصبه فيه ثم رفعه إلى فيه فقطّب، ثم دعا بماء أيضاً فصبه فيه ثم قال: «إذا اغتلمت[٣] عليكم هذه الأوعية فاكسروا متونها بالماء». وروي أنه عليه السلام كان ينبذ له فيشربه ذلك اليوم، فإذا كان من اليوم الثاني أو الثالث سقاه الخادم إذا تغير، ولو كان حراماً ما سقاه إياه. قال الطحاوي: وقد روى أبو عون الثقفي عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس قال: حرمت الخمر بعينها القليل منها والكثير والسكر من كل شراب؛ خرجه الدارقطنيّ أيضاً.

---

(١) راجع ١١/ ٢٨٧.

(٢) راجع ٩/ ٢٥١.

(٣) الاغتلام مجاوزة الحد؛ أي إذا جاوزت حدها الذي لا يسكر إلى حدها الذي يسكر.

ففي هذا الحديث وما كان مثله، أن غير الخمر لم تحرم عينه كما حرمت الخمر بعينها. قالوا: والخمر شراب العنب لا خلاف فيها، ومن حجتهم أيضاً ما رواه شُريك بن عبد الله، حدثنا أبو إسحاق الهَمْدَاني عن عمرو بن ميمون قال قال عمر بن الخطاب: إنا نأكل لحوم هذه الإبل وليس يقطعه في بطوننا إلا النبيذ. قال شريك: ورأيت الثورِي يشرب النبيذ في بيت حبر أهل زمانه مالك بن مِغْوَل. والجواب أن قولهم: إن الله سبحانه وتعالى أمتن على عباده ولا يكون امتنانه إلا بما أحل فصحيح؛ بيد أنه يحتمل أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر كما بيناه فيكون منسوخاً كما قدمناه. قال ابن العربيّ: إن قيل كيف ينسخ هذا وهو خبر والخبر لا يدخله النسخ، قلنا: هذا كلام من لم يتحقق الشريعة، وقد بينا أن الخبر إذا كان عن الوجود الحقيقيّ أو عن إعطاء ثواب فضلاً من الله فهو الذي لا يدخله النسخ، فأما إذا تضمن الخبر حكماً شرعياً فالأحكام تتبدّل وتنسخ، جاءت بخبر أو أمر، ولا يرجع النسخ إلى نفس اللفظ وإنما يرجع إلى ما تضمنه، فإذا فهمتم هذا خرجتم عن الصّنف الغبيّ الذي أخبر الله عن الكفار فيه بقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1]. المعنى أنهم جهلوا أن الرب يأمر بما يشاء ويكلف ما يشاء ويرفع من ذلك بعدله ما يشاء ويثبت ما يشاء وعنده أمّ الكتاب.

قلت: هذا تشنيع شنيع حتى يلحق فيه العلماء الأخيار في قصور الفهم بالكفار، والمسألة أصولية، وهي أن الأخبار عن الأحكام الشرعية هل يجوز نسخها أم لا؟ اختلف في ذلك، والصحيح جوازه لهذه الآية وما كان مثلها، ولأن الخبر عن مشروعية حكم ما يتضمن طلب ذلك المشروع، وذلك الطلب هو الحكم الشرعيّ الذي يستدل على نسخه. والله أعلم. وأما ما ذكروا من الأحاديث فالأوّل والثاني ضعيفان؛ لأنه عليه السلام قد روي عنه بالنقل الثابت أنه قال: «كل شراب أسكر فهو حرام» وقال: «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام» وقال: «ما أسكر كثيره فقليله حرام». قال النسائيّ: وهؤلاء أهل الثبت والعدالة مشهورون

---

(١) راجع ص ١٧٦ من هذا الجزء.

بصحة النقل، وعبد الملك لا يقوم مقام واحد منهم ولو عاضده من أشكاله جماعة، وبالله التوفيق. وأما الثالث وإن كان صحيحاً فإنه ما كان يسقيه للخادم على أنه مسكر، وإنما كان يسقيه لأنه متغير الرائحة. وكان ﷺ يكره أن توجد منه الرائحة، فلذلك لم يشربه، ولذلك تحيّل عليه أزواجه في عسل زينب بأن قيل له: إنا نجد منك ريح مغافِير، يعني ريحاً منكرة، فلم يشربه بعد. وسيأتي في التحريم[1]. وأما حديث ابن عباس فقد روي عنه خلاف ذلك من رواية عطاء وطاوس ومجاهد أنه قال: «ما أسكر كثيره فقليله حرام» ورواه عنه قيس بن دينار. وكذلك فتياه في المسكر؛ قاله الدّارَقُطنِي. والحديث الأول رواه عنه عبد الله بن شدّاد وقد خالفه الجماعة، فسقط القول به مع ما ثبت عن النبيّ ﷺ. وأما ما روي عن عمر من قوله: ليس يقطعه في بطوننا إلا النبيذ، فإنه يريد غير المسكر بدليل ما ذكرنا. وقد روى النَّسائيّ عن عتبة بن فَرْقَد قال: كان النبيذ الذي شربه عمر بن الخطاب قد خُلِّل. قال النسائيّ: ومما يدل على صحة هذا حديث السائب، قال الحارث بن مِسكين قراءة عليه وأنا أسمع عن ابن القاسم: حدثني مالك عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد، أنه أخبره أن عمر بن الخطاب خرج عليهم فقال: إني وجدت من فلان ريح شراب؛ فزعم أنه شراب الطِّلاء، وأنا سائل عما شرب، فإن كان مسكراً جلدته، فجلده عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحدّ تاماً. وقد قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ: أمّا بعد، أيها الناس فإنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب والعسل والتمر والحنطة والشعير. والخمر ما خامر العقل. وقد تقدم في «المائدة»[2]. فإن قيل: فقد أحل شربه إبراهيم النَّخعي وأبو جعفر الطحاويّ وكان إمام أهل زمانه، وكان سفيان الثوري يشربه. قلنا: ذكر النسائيّ في كتابه أن أول من أحلّ المسكر من الأنبذة إبراهيم النخعيّ، وهذه زلة من عالم وقد حُذِّرنا من زلّة العالم، ولا حجة في قول أحد مع السنة[3]. وذكر النسائي أيضاً عن ابن المبارك قال: ما وجدت الرخصة في المسكر عن أحد صحيحاً إلا عن إبراهيم. قال أبو أسامة: ما رأيت

(١) راجع ١٨/ ١٧٧.

(٢) راجع ٦/ ٢٨٥.

(٣) لعل ما يشربه النخعي وهو إمام ـ ليس من النبيذ المسكر فإن منه ما لم يبلغ حد الإسكار.

رجلاً أطلب للعلم من عبد الله بن المبارك الشامات[١] ومصر واليمن والحجاز. وأما الطحاويّ وسفيان لو صح ذلك عنهما لم يحتج بهما على من خالفهما من الأئمة في تحريم المسكر مع ما ثبت من السنة؛ على أن الطحاويّ قد ذكر في كتابه الكبير في الاختلاف خلاف ذلك. قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد له: قال أبو جعفر الطحاويّ اتفقت الأمة على أن عصير العنب إذا اشتد وغلى وقذَف بالزَّبَد فهو خمر ومستحلّه كافر. واختلفوا في نَقِيع التمر إذا غلى وأسكر. قال: فهذا يدلّك على أن حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الخمر من هاتين الشجرين النخلة والعنب» غير معمول به عندهم؛ لأنهم لو قبلوا الحديث لأكفروا مستحل نقيع التمر؛ فثبت أنه لم يدخل في الخمر المحرّمة غير عصير العنب الذي قد اشتدّ وبلغ أن يسكر. قال: ثم لا يخلو من أن يكون التحريم معلقاً بها فقط غير مقيس عليها غيرها أو يجب القياس عليها، فوجدناهم جميعاً قد قاسوا عليها نقيع التمر إذا غلى وأسكر كثيره وكذلك نقيع الزبيب. قال: فوجب قياساً على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة. قال: وقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «كل مسكر حرام» واستغنى عن سنده لقبول الجميع له، وإنما الخلاف بينهم في تأويله، فقال بعضهم: أراد به جنس ما يسكر. وقال بعضهم: أراد به ما يقع السكر عنده كما لا يسمى قاتلاً إلا مع وجود القتل.

قلت: فهذا يدل على أنه محرم عند الطحاوي لقوله: فوجب قياساً على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة. وقد روى الدارقطنيّ في سننه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن الله لم يحرّم الخمر لاسمها وإنما حرّمها لعاقبتها، فكل شراب يكون عاقبته كعاقبة الخمر فهو حرام كتحريم الخمر. قال ابن المنذر: وجاء أهل الكوفة بأخبار معلولة، وإذا اختلف الناس في الشيء وجب ردّ ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، وما روي عن بعض التابعين أنه شرب الشراب الذي يسكر كثيره فللقوم ذنوب يستغفرون

---

(١) في حاشية السندي على سنن النسائي: «قوله الشامات، كأنه جمع على إرادة البلاد الشامية».

الله منها، وليس يخلو ذلك من أحد معنيين: إما مخطىء أخطأ في التأويل على حديث سمعه، أو رجل أتى ذنباً لعله أن يكثر من الاستغفار لله تعالى، والنبي ﷺ حجة الله على الأولين والآخرين من هذه الأمة. وقد قيل في تأويل الآية: إنها إنما ذكرت للاعتبار، أي من قدر على خلق هذه الأشياء قادر على البعث، وهذا الاعتبار لا يختلف بأن كانت الخمر حلالاً أو حراماً، فاتخاذ السَكَر لا يدل على التحريم، وهو كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[1] والله أعلم.

[٦٨] ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ قد مضى القول في الوحي وأنه قد يكون بمعنى[2] الإلهام، وهو ما يخلقه الله تعالى في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر، وهو من قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[3]. ومن ذلك البهائم وما يخلق الله سبحانه فيها من درك منافعها واجتناب مضارها وتدبير معاشها. وقد أخبر عز وجل بذلك عن الموات فقال: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[3]. قال إبراهيم الحربيّ: للَّهِ عز وجل في الموات قدرة لم يُدْرَ ما هي، لم يأتها رسول من عند الله ولكن الله تعالى عرفها ذلك؛ أي ألهمها. ولا خلاف بين المتأوِّلين أن الوحي هنا بمعنى الإلهام. وقرأ يحيى بن وَثَّاب «إلى النَّحَلِ» بفتح الحاء. وسمي نحلاً لأن الله عز وجل نحله العسل الذي يخرج منه؛ قاله الزجاج. الجوهريّ: والنحل والنحلة الدَّبْر يقع على الذكر والأنثى، حتى يقال: يَعْسُوب. والنحل يؤنّث في لغة أهل الحجاز، وكل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء. وروي من حديث

(١) راجع ٣/ ٥١.
(٢) راجع ٤/ ٨٥.
(٣) راجع ٢٠/ ٧٥. و ١٤٥.

أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الذِّبّان كلها في النار يجعلها عذاباً لأهل النار إلا النحل» ذكره الترمذيّ الحكيم في (نوادر الأصول). وروي عن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل النملة والنحلة والهُدْهُد والصُّرَد[١]، خرّجه أبو داود أيضاً، وسيأتي في «النمل»[٢] إن شاء الله تعالى.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ ﴾ هذا إذا لم يكن لها مليك[٣]. ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة الأنواع، إما في الجبال وكِوَاها، وإما في متجوف الأشجار، وإما فيما يعرِش ابن آدم من الأجباح[٤] والخلايا والحيطان وغيرها. وعَرَش معناه هنا هيّأ، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من إتقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها؛ ومنه العريش الذي صنع لرسول الله ﷺ يوم بدر، ومن هذا لفظة العرش. يقال: عرش يعرِش ويعرش (بكسر الراء وضمها)، وقرىء بهما. قرأ ابن عامر بالضم وسائرهم بالكسر، واختلف في ذلك عن عاصم.

الثالثة ـ قال ابن العربيّ: ومن عجيب ما خلق الله في النحل أن ألهمها لاتخاذ بيوتها مسدّسة، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة، وذلك أن الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينهما فُرَج، إلا الشكل المسدّس؛ فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه كالقطعة الواحدة.

[٦٩] ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

---

(١) الصرد: طائر ضخم الرأس والمنقار له ريش عظيم نصفه أبيض ونصفه أسود يصيد صغار الطير.
(٢) راجع ١٣/١٦٩ فما بعد.
(٣) كذا في ي. وفي أ: مالك.
(٤) الأجباح: خلايا النحل في الجبل وفيها تعسل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ وذلك أنها إنما تأكل النوّار من الأشجار. ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي طرق ربك. والسبل: الطرق، وأضافها إليه لأنه خالقها. أي ادخلي طرق ربك لطلب الرزق في الجبال وخلال الشجر. ﴿ذُلُلًا﴾ جمع ذَلول وهو المنقاد؛ أي مطيعة مسخَّرة. فـ« ـذُلُلًا» حال من النحل. أي تنقاد وتذهب حيث شاء صاحبها؛ لأنها تتبع أصحابها حيث ذهبوا؛ قاله ابن زيد. وقيل: المراد بقوله «ذللا» السبل. واليَعْسُوب سيّد[1] النحل، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ فيه تسع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ رجع الخطاب إلى الخبر على جهة تعديد النعمة والتنبيه على العبرة فقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ يعني العسل. وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل؛ وورد عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في تحقيره للدنيا: أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة، وأشرف شرابه رجِيع نحلة. فظاهر هذا أنه من غير الفم. وبالجملة فإنه يخرج ولا يدرى من فيها أو أسفلها، ولكن لا يتم صلاحه إلا بحمى أنفاسها. وقد صنع أرسطا طاليس بيتاً من زجاج لينظر إلى كيفية ما تصنع، فأبت أن تعمل حتى لطخت باطن الزجاج بالطين؛ ذكره الغزنويّ. وقال: ﴿مِنْ بُطُونِهَا﴾ لأن استحالة الأطعمة لا تكون إلا في البطن.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ يريد أنواعه من الأحمر والأبيض والأصفر والجامد والسائل، والأم واحدة والأولاد مختلفون دليل على أن القدرة نوّعته بحسب تنويع الغذاء، كما يختلف طعمه بحسب اختلاف المراعي؛ ومن هذا المعنى قول زينب للنبيّ ﷺ: «جَرَسَتْ نَحْلُه العُرْفُطَ»[2] حين شبهت رائحته برائحة المغافير.

---

(١) اليعسوب: هو الملكة وليس للنحل غيرها رئيساً وذكر النحل هو الذي يلقح الملكة ثم يموت، هذا الذي يقرّره العلماء بهذا الجنس.

(٢) الجرس: الأكل. والعرفط (بالضم): شجر الطلح، وله صمغ كريه الرائحة، فإذا أكلته النحل حصل في عسلها من ريحه. أي شربت عسلاً أكلت نحله من شجر الطلح.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ الضمير للعسل؛ قاله الجمهور. أي في العسل شفاء للناس. وروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك والفرّاء وٱبن كَيْسان: الضمير للقرآن؛ أي في القرآن شفاء. النحاس: وهذا قول حسن؛ أو فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس. وقيل: العسل فيه شفاء، وهذا القول بيّن أيضاً؛ لأن أكثر الأشربة والمعجونات التي يتعالج بها أصلها من العسل. قال القاضي أبو بكر ٱبن العربيّ: من قال إنه القرآن بعيد ما أراه يصح عنهم، ولو صح نقلاً لم يصح عقلاً؛ فإن مساق الكلام كله للعسل: ليس للقرآن فيه ذكر. قال ابن عطية: وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية يراد بها أهل البيت وبنو هاشم؛ وأنهم النحل، وأن الشراب القرآن والحكمة، وقد ذكر هذا بعضهم في مجلس المنصور أبي جعفر العباسيّ، فقال له رجل ممن حضر: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم، فأضحك الحاضرين وبُهِت الآخر وظهرت سخافة قوله.

الرابعة ـ اختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ هل هو على عمومه أم لا؟ فقالت طائفة: هو على العموم في كل حال ولكل أحد، فروي عن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئاً إلا جعل عليه عسلاً، حتى الدمل إذا خرج عليه طلى عليه عسلاً. وحكى النقاش عن أبي وَجْرة أنه كان يكتحل بالعسل ويستمشي بالعسل ويتداوى بالعسل. وروي أن عوف بن مالك الأشجعي مرض فقيل له: ألا نعالجك؟ فقال: ائتوني بالماء، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً﴾[١] ثم قال: ائتوني بعسل، فإن الله تعالى يقول: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ وائتوني بزيت، فإن الله تعالى يقول: ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[٢] فجاؤوه بذلك كله فخلطه جميعاً ثم شربه فبرىء. ومنهم من قال: إنه على العموم إذا خلط بالخلّ ويطبخ فيأتي شراباً ينتفع به في كل حالة من كل داء. وقالت طائفة: إن ذلك على الخصوص ولا يقتضي العموم في كل عِلّة، وفي كل إنسان، بل إنه خبر عن أنه يشفى كما يشفى غيره من

---

(١) راجع ٦/١٧. والظاهر أن المراد بالمبارك ماء المطر فإنه في غاية النقاء فهو شفاء من الأمراض مطهر من الجراثيم. محققه.
(٢) راجع ٢٦٢/١٢.

الأدوية في بعض وعلى حال دون حال؛ ففائدة الآية إخبار منه في أنه دواء لما كثر الشفاء به وصار خليطاً ومُعيناً للأدوية في الأشربة والمعاجين؛ وليس هذا بأول لفظ خصص فالقرآن مملوء منه ولغة العرب يأتي فيها العام كثيراً بمعنى الخاص والخاص بمعنى العام. ومما يدل على أنه ليس على العموم أن «شفاء» نكرة في سياق الإثبات، ولا عموم فيها باتفاق أهل اللسان ومحققي أهل العلم ومختلفي أهل الأصول. لكن قد حملته طائفة من أهل الصدق والعزم على العموم، فكانوا يستشفون بالعسل من كل الأوجاع والأمراض، وكانوا يشفون من عللهم ببركة القرآن وبصحة التصديق والإيقان. ابن العربي: ومن ضعفت نيته وغلبته على الدِّين عادته أخذه مفهوماً على قول الأطباء، والكلّ مِن حِكَم الفعَّال لما يشاء.

الخامسة - إن قال قائل: قد رأينا من ينفعه العسل ومن يضره، فكيف يكون شفاء للناس؟ قيل له: الماء حياة كل شيء وقد رأينا من يقتله الماء إذا أخذه على ما يضاده من علة في البدن، وقد رأينا شفاء العسل في أكثر هذه الأشربة؛ قال معناه الزجاج. وقد اتفق الأطباء عن بَكْرة أبيهم على مدح عموم منفعة السكنجبين[1] في كل مرض، وأصله العسل وكذلك سائر المعجونات، على أن النبيّ ﷺ قد حسم داء الإشكال وأزاح وجه الاحتمال حين أمر الذي يشتكي بطنه بشرب العسل، فلما أخبره أخوه بأنه لم يزده إلا استطلاقاً أمره بعود الشراب له فبرىء؛ وقال: «صدق الله وكذب بطن أخيك».

السادسة - اعترض بعض زنادقة الأطباء على هذا الحديث فقال: قد أجمعت الأطباء على أن العسل يسهل فكيف يوصف لمن به الإسهال؛ فالجواب أن ذلك القول حق في نفسه لمن حصل له التصديق بنبيه عليه السلام، فيستعمله على الوجه الذي عينه وفي المحل الذي أمره بعقد نية وحسن طوية، فإنه يرى منفعته ويدرك بركته كما قد اتفق لصاحب هذا العسل وغيره كما تقدّم. وأما ما حكي من الإجماع فدليل على جهله بالنقل حيث لم يقيّد وأطلق. قال الإمام أبو عبد الله المازَري: ينبغي أن يعلم أن الإسهال يعرض من ضروب كثيرة، منها الإسهال

---

(١) السكنجبين: شراب معرّب، أي خل وعسل (عن الألفاظ الفارسية المعرّبة).

الحادث عن التُّخم والهَيْضات[1]؛ والأطباء مجمعون في مثل هذا على أن علاجه بأن يترك للطبيعة وفعلها، وإن احتاجت إلى مُعين على الإسهال أعينت ما دامت القوّة باقية، فأما حبسها فضرر، فإذا وضح هذا قلنا: فيمكن أن يكون ذلك الرجل أصابه الإسهال عن امتلاء وهيضة فأمره النبيّ ﷺ بشرب العسل فزاده إلى أن فنيت المادة فوقف الإسهال فوافقه شرب العسل. فإذا خرج هذا عن صناعة الطب أذِن ذلك بجهل المعترض بتلك الصناعة. قال: ولسنا نستظهر على قول نبينا بأن يصدقه الأطباء بل لو كذبوه لكذبناهم ولكفرناهم وصدّقناه ﷺ؛ فإن أوجدونا بالمشاهدة صحة ما قالوه فنفتقر حينئذ إلى تأويل كلام رسول الله ﷺ وتخريجه على ما يصح إذ قامت الدلالة على أنه لا يكذب.

السابعة ـ في قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ دليل على جواز التعالج بشرب الدواء وغير ذلك خلافاً لمن كره ذلك من جلّة العلماء، وهو يرد على الصوفية الذين يزعمون أن الولاية لا تتم إلا إذا رضي بجميع ما نزل به من البلاء، ولا يجوز له مداواة. ولا معنى لمن أنكر ذلك، روى الصحيح عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لكل داء دواء فإذا أصيب دواءُ الداءِ برأ بإذن الله». وروى أبو داود والترمذي عن أسامة بن شريك قال قالت الأعراب: ألا نَتداوَى يا رسول الله؟ قال: «نعم. يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحداً» قالوا: يا رسول الله وما هو؟ قال: «الهرم» لفظ الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وروي عن أبي خِزامة عن أبيه قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أرأيت رُقًى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها، هل تردّ من قَدَر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله» قال: حديث حسن، ولا يعرف لأبي خِزامة غير هذا الحديث. وقال ﷺ: «إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم أو شربة من عسل أو لذعة بنار وما أحب أن أكتوِي» أخرجه الصحيح. والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تحصى. وعلى إباحة التداوي والاسترقاء

---

(١) الهيضات: جمع هيضة، وهي انطلاق البطن.

جمهور العلماء. روي أن ابن عمر اكْتَوى من اللَّقْوة[١] ورقى من العقرب. وعن ابن سِيرين أن ابن عمر كان يسقي ولده التّرياق[٢]. وقال مالك: لا بأس بذلك. وقد احتج من كره ذلك بما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت أُمَّة بقضها[٣] وقضِيضها الجنة كانوا لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون». قالوا: فالواجب على المؤمن أن يترك ذلك اعتصاماً بالله وتوكلاً عليه وثقة به وانقطاعاً إليه؛ فإن الله تعالى قد علم أيام المرض وأيام الصحة فلو حَرَص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا؛ قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾[٤]. وممن ذهب إلى هذا جماعة من أهل الفضل والأثر، وهو قول ابن مسعود وأبي الدرداء رضوان الله عليهما. دخل عثمان بن عفان على ابن مسعود في مرضه الذي قبض فيه فقال له عثمان: ما تشتكي؟ قال ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: ألا أدعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني... وذكر الحديث. وسيأتي بكماله في فضل الواقعة إن شاء الله تعالى. وذكر وَكِيع قال: حدّثنا أبو هلال عن معاوية بن قُرّة قال: مرِض أبو الدّرداء فعادوه وقالوا: ألا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أضجعني. وإلى هذا ذهب الربيع بن خَيْثم. وكره سعيد بن جبير الرُّقَى. وكان الحسن يكره شرب الأدوية كلها إلا اللبن والعسل. وأجاب الأوّلون عن الحديث بأنه لا حجة فيه، لأنه يحتمل أن يكون قصد إلى نوع من الكي مكروه بدليل كي النبيّ ﷺ أبَيًّا يوم الأحزاب على أكْحَله[٥] لما رُمِي. وقال: «الشفاء في ثلاثة» كما تقدّم. ويحتمل أن يكون قصد إلى الرقى بما ليس في كتاب الله، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾[٦] على ما يأتي بيانه. ورقى أصحابه وأمرهم بالرُّقية؛ على ما يأتي بيانه.

---

(١) اللقوة (بالفتح): مرض يعرض للوجه فيميله إلى أحد جانبيه.
(٢) الترياق: ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين، وهو معرب.
(٣) أي دخلوا مجتمعين، ينقض آخرهم على أولهم. وقال ابن الأعرابي: إن القض الحصى الكبار، والقضيض الحصى الصغار، أي دخلوا بالكبير والصغير.
(٤) راجع ١٧/ ١٩٤.
(٥) الأكحل: عرق في وسط الذراع.
(٦) راجع ص ٣١٥ من هذا الجزء.

الثامنة ـ ذهب مالك وجماعة أصحابه إلى أن لا زكاة في العسل وإن كان مطعوماً مقتاتاً. واختلف فيه قول الشافعي، والذي قطع به في قوله الجديد: أنه لا زكاة فيه. وقال أبو حنيفة بوجوب زكاة العسل في قليله وكثيره؛ لأن النصاب عنده فيه ليس بشرط. وقال محمد بن الحسن: لا شيء فيه حتى يبلغ ثمانية أفراق[١]، والفرق ستة وثلاثون رطلاً من أرطال العراق. وقال أبو يوسف: في كل عشرة أزقاق زِقّ؛ متمسكاً بما رواه الترمذي عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «في العسل في كل عشرة أزقاق زق» قال أبو عيسى: في إسناده مقال، ولا يصح عن النبيّ ﷺ في هذا الباب كبير شيء، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، وبه يقول أحمد وإسحاق، وقال بعض أهل العلم: ليس في العسل شيء.

التاسعة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي يعتبرون؛ ومن العبرة في النحل بإنصاف النظر وإلطاف الفكر في عجيب أمرها، فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة، وحذقها باحتيالها في تفاوت أحوالها هو الله سبحانه وتعالى؛ كما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ الآية. ثم إنها تأكل الحامض والمرّ والحلو والمالح والحشائش الضارة[٢]، فيجعله الله تعالى عسلاً حلواً وشفاء، وفي هذا دليل على قدرته.

[٧٠] ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ بيّن معناه. ﴿وَمِنكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ يعني أرداه وأوضعه. وقيل: الذي ينقص قوته وعقله، ويصيره إلى الخرف ونحوه. وقال ابن عباس: يعني إلى أسفل العمر، يصير كالصبي الذي لا عقل له؛ والمعنى متقارب. وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال كان رسول الله ﷺ يتعوذ يقول:

---

(١) في جـ و ي: «خمسة أفراق».

(٢) لم يصح هذا عند النحالين. محققه.

«اللهم إني أعوذ بك من الكسل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من الهرم وأعوذ بك من البخل». وفي حديث سعد بن أبي وَقّاص «وأعوذ بك أن أردّ إلى أرذل العمر» الحديث. خرّجه البخاري. ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي يرجع إلى حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبلُ من الأمور لفرط الكبر. وقد قيل: هذا لا يكون للمؤمن، لأن المؤمن لا ينزع عنه علمه. وقيل: المعنى لكيلا يعمل بعد علم شيئاً؛ فعبر عن العمل بالعلم لافتقاره إليه؛ لأن تأثير الكبر في عمله أبلغ من تأثيره في علمه. والمعنى المقصود الاحتجاج على منكري البعث، أي الذي رده إلى هذه الحال قادر على أن يميته ثم يحييه.

[٧١] ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ أي جعل منكم غنياً وفقيراً وحراً وعبداً. ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا ﴾ أي في الرزق. ﴿ بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أي لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رُزق شيئاً حتى يستوي المملوك والمالك في المال. وهذا مثل ضربه الله لعبدة الأصنام، أي إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عبيدي معي سواء؛ فلما لم يكن يشركهم عبيدهم في أموالهم لم يجز لهم أن يشاركوا الله تعالى في عبادة غيره من الأوثان والأنصاب وغيرهما مما عُبد؛ كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلقه. حكى معناه الطبري، وقاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم. وعن ابن عباس أيضاً أنها نزلت في نَصَارَى نَجْران حين قالوا: عيسى ابن الله فقال الله لهم: ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتى يكون المولى والعبد في المال شَرَعا سواء، فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم فتجعلون لي ولداً

من عبيدي. ونظيرها ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاء فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾[١] على ما يأتي. ودل هذا على أن العبد لا يملك، على ما يأتي آنفاً[٢].

[٧٢] ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ جعل بمعنى خلق؛ وقد تقدم. ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ يعني آدم خلق منه حواء. وقيل: المعنى جعل لكم من أنفسكم، أي من جنسكم ونوعكم وعلى خلقتكم؛ كما قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾[٣] أي من الآدميين. وفي هذا ردّ على العرب التي كانت تعتقد أنها كانت تزوّج الجن وتباضعها، حتى روي أن عمرو بن هند[٤] تزوج منهم غُولاً وكان يخبؤها عن البرق لئلا تراه فتنفر، فلما كان في بعض الليالي لمع البرق وعاينته السِّعلاة[٥] فقالت: عمرو! ونفرت، فلم يرها أبداً. وهذا من أكاذيبها، وإن كان جائزاً في حكم الله وحكمته، فهو ردّ على الفلاسفة الذين ينكرون وجود الجانّ ويحيلون طعامهم. (أَزْوَاجاً) زوج الرجل هي ثانيته، فإنه فرد فإذا انضافت إليه كانا زوجين، وإنما جعلت الإضافة إليه دونها لأنه أصلها في الوجود كما تقدم.

---

(١) راجع ١٤/ ٢٢.

(٢) يريد بعد قليل. «آنفاً» إنما تستعمل في الماضي القريب لا في المستقبل القريب.

(٣) راجع ٨/ ٣٠١.

(٤) كذا في نسخ الأصول وأحكام القرآن لابن العربي، والصواب أنه عمرو بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن مناة؛ قال علباء بن أرقم:

يا قبح الله بني السعلاة عمرو بن يربوع شرار النات

راجع شرح التنوير على سقط الزند في شرح بيت أبي العلاء المعرّي:

إذا لاح إيماض سترت وجوهها كأني عمرو والمطيّ سعالى

(٥) السعلاة: أخبث الغيلان.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ﴾ ظاهر في تعديد النعمة في الأبناء، ووجود الأبناء يكون منهما معاً؛ ولكنه لما كان خلق المولود فيها وانفصاله عنها أضيف إليها، ولذلك تبعها في الرّق والحرية وصار مثلها في المالية. قال ابن العربيّ: سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفا علي بن عقيل يقول: إنما تبع الولد الأم في المالية وصار بحكمها في الرق والحرية؛ لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة له ولا مالية فيه ولا منفعة، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلأجل ذلك تبعها. كما لو أكل رجل تمراً في أرض رجل وسقطت منه نواة في الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل بإجماع من الأمة؛ لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها.

الثانية ـ قوله تعالى: «وَحَفَدَةً» روى ابن القاسم عن مالك قال: وسألته عن قوله تعالى: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ قال: الحفدة الخدم والأعوان في رأيي. وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَحَفَدَةً﴾ قال: هم الأعوان، من أعانك فقد حفدك. قيل له: فهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم وتقوله! أو ما سمعت قول الشاعر:

حَفَدَ الولائدُ حولهن وأسلمَتْ ... بأكفِّهِنّ أزِمّةَ الأجمال

أي أسرعن الخدمة. والولائد: الخدم، الواحدة وَلِيدَة؛ قال الأعشى:

كلّفتُ مجهولَها نُوقاً يمانية ... إذا الحُداة على أكسائها حَفَدوا[1]

أي أسرعوا. وقال ابن عرفة: الحفدة عند العرب الأعوان، فكل من عمل عملاً أطاع فيه وسارع فهو حافد، قال: ومنه قولهم «إليك نسعى ونحفِد» والحَفَدان السرعة. قال أبو عبيد: الحفد العمل والخدمة. وقال الخليل بن أحمد: الحفَدة عند العرب الخدم، وقاله مجاهد. وقال الأزهري: قيل الحفدة أولاد الأولاد. وروي عن ابن عباس. وقيل: الأَخْتَان؛ قاله ابن مسعود وعلقمة وأبو الضحا وسعيد بن جبير وإبراهيم؛

(١) الأكساء: جمع كسى (بالضم) وهو مؤخر العجز.

ومنه قول الشاعر[١]:

فلو أن نفسي طاوعتني لأصبحتْ لهـا حَفَـدٌ ممـا يُعَـدُّ كثيـرُ

ولكنهـا نفـسٌ علـيّ أبيّـة عَيُوفٌ لإصهار[٢] اللئام قذور

وروى زِرّ عن عبد الله قال: الحفدة الأصهار؛ وقاله إبراهيم، والمعنى متقارب. قال الأصمعي: الختَن مَن كان من قِبل المرأة، مثل أبيها وأخيها وما أشبههما؛ والأصهار منهما جميعاً. يقال: أصهر فلان إلى بني فلان وصاهر. وقول عبد الله «هم الأَخْتَان» يحتمل المعنيين جميعاً. يحتمل أن يكون أراد أبا المرأة وما أشبهه من أقربائها، ويحتمل أن يكون أراد وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهن، فيكون لكم بسببهن أختان. وقال عكرمة: الحفدة من نفع الرجل من ولده؛ وأصله من حَفَد يحفِد (بفتح العين في الماضي وكسرها في المستقبل) إذا أسرع في سيره؛ كما قال كُثَيِّر[٣]:

حفد الولائد بينهن. . . البيت

ويقال: حفدت وأحفدت، لغتان إذا خدمت. ويقال: حافد وحفد؛ مثل خادم وخدم، وحافد وحفدة مثل كافر وكفرة. قال المهدوي: ومن جعل الحفدة الخدم جعله منقطعاً مما قبله ينوي به التقديم؛ كأنه قال: جعل لكم حفدة وجعل لكم من أزواجكم بنين.

قلت: ما قاله الأزهري من أن الحفدة أولاد الأولاد هو ظاهر القرآن بل نصه؛ ألا ترى أنه قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ فجعل الحفدة والبنين منهن. وقال ابن العربيّ: الأظهر عندي في قوله ﴿بَنِينَ وحَفَدَةً﴾ أن البنين أولاد الرجل لصُلْبه والحفدة أولاد ولده، وليس في قوة اللفظ أكثر من هذا، ويكون تقدير الآية على هذا: وجعل لكم من أزواجكم بنين ومن البنين حفدة. وقال معناه الحسن.

الثالثة - إذا فرعنا على قول مجاهد وابن عباس ومالك وعلماء اللغة في قولهم إن الحفدة الخدم والأعوان، فقد خرجت خدمة الولد والزوجة من القرآن بأبدع بيان؛ قاله ابن العربيّ

---

(١) هو جميل.

(٢) في البحر: لأصحاب.

(٣) تقدم استشهاد ابن عباس به فلا يصح أن يكون لكثير عزة.

روى البخاري وغيره عن سهل بن سعد أن أبا أسَيِّد الساعدي دعا النبيّ ﷺ لعرسه فكانت امرأته خادمهم. . . الحديثَ، وقد تقدم في سورة «هود»[١]. وفي الصحيح عن عائشة قالت: أنا فتلت قلائد بُدْن النبيّ ﷺ بيدي. الحديث. ولهذا قال علماؤنا: عليها أن تفرش الفراش وتطبخ القدْر وتَقُمّ الدار، بحسب حالها وعادة مثلها؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا﴾[٢] فكأنه جمع لنا فيها السَّكَن والاستمتاع وضرباً من الخدمة بحسب جري العادة.

الرابعة ـ ويخدِم الرجلُ زوجتَه فيما خفّ من الخدمة ويُعينها؛ لما روته عائشة أن النبيّ ﷺ كان يكون في مهْنة أهله فإذا سمع الأذان خرج. وهذا قول مالك: ويعينها. وفي أخلاق النبيّ ﷺ: أنه كان يخصِف النعل ويَقُم البيت ويخِيط الثوب. وقالت عائشة وقد قيل لها: ما كان يعمل رسول الله ﷺ في بيته؟ قالت: كان بشراً من البشر يَفْلِي[٣] ثوبه ويحلب شاته ويخدِمُ نفسه.

الخامسة ـ وينفق على خادمة واحدة، وقيل: على أكثر؛ على قدر الثروة والمنزلة. وهذا أمر دائر على العرف الذي هو أصل من أصول الشريعة، فإن نساء الأعراب وسكان البوادي يخدمن أزواجهن [حتى][٤] في استعذاب الماء وسياسة الدواب، ونساء الحواضر يخدم المِقل منهم زوجته فيما خف ويعينها، وأما أهل الثروة فيخدمون[٥] أزواجهم ويترفهن معهم إذا كان لهم منصب ذلك؛ فإن كان أمراً مشكلاً شرطت عليه الزوجة ذلك، فتشهد أنه قد عرف أنها ممن لا تخدم نفسها فالتزم إخدامها، فينفذ ذلك وتنقطع الدعوى فيه.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي من الثمار والحبوب والحيوان. ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ﴾ يعني الأصنام، قاله ابن عباس. ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ قراءة الجمهور بالياء وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاء. ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي بالإسلام. ﴿هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾.

---

(١) راجع ٩/٦٨. (٢) راجع ٧/٣٣٧.

(٣) يفلي ثوبه مما يناله من بعض الجلساء لأن عنصره صلوات الله عليه في غاية الصفا والنقاء الخالص.

(٤) من ابن العربي.

(٥) كذا في ابن العربي والعبارة له.

[٧٣] ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

[٧٤] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَوَاتِ﴾ يعني المطر. ﴿وَالأَرْضِ﴾ يعني النبات. ﴿شَيْئاً﴾ قال الأخفش: هو بدل من الرزق. وقال الفرّاء: هو منصوب بإيقاع الرزق عليه؛ أي يعبدون ما لا يملك أن يرزقهم شيئاً. ﴿وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي لا يقدرون على شيء، يعني الأصنام. ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ أي لا تشبهوا به هذه الجمادات؛ لأنه واحد قادر لا مثل له. وقد تقدم.

[٧٥] ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾ نبّه تعالى على ضلالة المشركين، وهو منتظم بما قبله من ذكر نِعَم الله عليهم وعدم مثل ذلك من آلهتهم. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾ أي بين شبهاً؛ ثمّ ذكر ذلك فقال: ﴿عَبْداً مَمْلُوكاً﴾ أي كما لا يستوي عندكم عبدٌ مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجلٌ حُرٌّ قد رزق رزقاً حسناً فكذلك أنا وهذه الأصنام. فالذي هو مثالٌ في هذه الآية هو عبد بهذه الصفة مملوك لا يقدر على شيء من المال ولا من أمر نفسه، وإنما هو مسخَّر بإرادة سيده. ولا يلزم من الآية أن العبيد كلهم بهذه الصفة؛ فإن النكرة في الإثبات لا تقتضي الشمول عند أهل اللسان كما تقدم، وإنما تفيد واحداً، فإذا كانت بعد أمر أو نهي أو مضافة إلى مصدر كانت للعموم الشيوعي؛ كقوله: أعتق رجلاً ولا تُهِن

رجلاً، والمصدر كإعتاق رقبة، فأيّ رجل أعتق فقد خرج عن عهدة الخطاب، ويصح منه الاستثناء. وقال قتادة: هذا المثل للمؤمن والكافر؛ يذهب قتادة إلى أن العبد المملوك هو الكافر؛ لأنه لا ينتفع في الآخرة بشيء من عبادته، وإلى أن معنى ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً﴾ المؤمن. والأول عليه الجمهور من أهل [العلم][1] والتأويل. قال الأصَمّ: المراد بالعبد المملوك الذي ربما يكون أشدّ من مولاه أسْراً[2] وأنْضَر وجهاً، وهو لسيده ذليل لا يقدر إلا على ما أذن له فيه؛ فقال الله تعالى ضرباً للمثال. أي فإذا كان هذا شأنكم وشأن عبيدكم فكيف جعلتم أحجاراً مواتاً شركاء لله تعالى في خلقه وعبادته، وهي لا تعقل ولا تسمع.

الثانية - فهم المسلمون من هذه الآية ومما قبلها نقصان رتبة العبد عن الحر في الملك، وأنه لا يملك شيئاً وإن ملك. قال أهل العراق: الرق ينافي الملك، فلا يملك شيئاً ألبتة بحال، وهو قول الشافعيّ في الجديد، وبه قال الحسن وابن سِيرين. ومنهم من قال: يملك إلا أنه ناقص الملك؛ لأن لسيده أن ينتزعه منه أيّ وقت شاء، وهو قول مالك ومن ٱتبعه، وبه قال الشافعيّ في القديم. وهو قول أهل الظاهر؛ ولهذا قال أصحابنا: لا تجب عليه عبادة الأموال من زكاة وكفارات، ولا من عبادات الأبدان ما يقطعه عن خدمة سيده كالحج والجهاد وغير ذلك. وفائدة هذه المسألة أن سيده لو ملّكه جارية جاز له أن يطأها بملك اليمين، ولو ملّكه أربعين من الغنم فحال عليها الحول لم تجب على السيد زكاتها لأنها ملك غيره، ولا على العبد لأن ملكه غير مستقر. والعراقيّ يقول: لا يجوز له أن يطأ الجارية، والزكاة في النصاب واجبة على السيد كما كانت. ودلائل هذه المسألة للفريقين في كتب الخلاف. وأدلّ دليل لنا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾[3] فسوّى بين العبد والحرّ في الرزق والخلق. وقال عليه السلام: «من أعتق عبداً وله مال...» فأضاف المال إليه. وكان ابن عمر يرى عبده يتسرى في ماله فلا يعيب عليه ذلك. وروي عن ٱبن عباس أن عبداً له طلق ٱمرأته طلقتين فأمره أن يرتجعها بملك اليمين؛ فهذا دليل على أنه يملك ما بيده ويفعل فيه ما يفعل المالك في ملكه ما لم ينتزعه سيده. والله أعلم.

---

(١) من ي. (٢) الأسر: الخلق. (٣) راجع ١٤/ ٤٠.

الثالثة ـ وقد استدلّ بعض العلماء بهذه الآية على أن طلاق العبد بيد سيده، وعلى أن بيع الأمة طلاقها؛ معوّلا على قوله تعالى: ﴿لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾. قال: فظاهره يفيد أنه لا يقدر على شيء أصلاً، لا على الملك ولا على غيره فهو على عمومه، إلا أن يدلّ دليل على خلافه. وفيما ذكرناه عن ابن عمر وابن عباس ما يدل على التخصيص. والله تعالى أعلم.

الرابعة ـ قال أبو منصور في عقيدته[1]: الرزق ما وقع الاغتذاء به. وهذه الآية ترد هذا التخصيص؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[2]. و ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾[3] وغير ذلك من قول النبيّ ﷺ: «جعل رزقي تحت ظِلِّ رمحِي» وقوله: «أرزاق أمتي في سنابك خيلها وأسِنة رماحها». فالغنيمة كلها رزق، وكل ما صحّ به الانتفاع فهو رزق، وهو مراتب: أعلاها ما يغذّي. وقد حصر رسول الله ﷺ وجوه الانتفاع في قوله: «يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأمضيت». وفي معنى اللباس يدخل الركوب وغير ذلك. وفي ألسنة المحدّثين: السماع رزق، يعنون سماع الحديث، وهو صحيح.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً﴾ هو المؤمن، يطيع الله في نفسه وماله، والكافر لما لم ينفق في الطاعة صار كالعبد الذي لا يملك شيئاً ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ أي لا يستوون، ولم يقل يستويان لمكان «مَن» لأنه اسم مُبهَم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث. وقيل: إنّ «عَبْداً مَمْلُوكاً»، «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ» أريد بهما الشيوع في الجنس. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي هو المستحق للحمد دون ما يعبدون من دونه؛ إذ لا نعمة للأصنام عليهم من يدٍ ولا معروف فتحمد عليه، إنما الحمد الكامل لله؛ لأنه المنعم الخالق. «بَلْ أَكْثَرُهُمْ» أي أكثر المشركين «لاَ يَعْلَمُونَ» أن الحمد لي، وجميع النعمة مني. وذكر الأكثر وهو يريد الجميع، فهو خاص أريد به التعميم. وقيل: أي بل أكثر الخلق لا يعلمون، وذلك أن أكثرهم المشركون.

---

(١) العقيدة: اسم كتاب لأبي منصور الماتريدي، وهو محمد بن محمد بن محمود مات بسمرقند سنة ٣٣٣ هـ. راجع كشف الظنون وتاج التراجم في طبقات الحنفية.

(٢) راجع ١/ ١٧٧.

(٣) راجع ٣/ ٢٦٥.

[٧٦] ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوثن، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى؛ قاله قتادة وغيره. وقال ابن عباس: الأبكم عبد كان لعثمان رضي الله عنه، وكان يعرض عليه الإسلام فيأبى، ويأمر بالعدل عثمان. وعنه أيضاً أنه مثل لأبي بكر الصدّيق ومولى له كافر. وقيل: الأبكم أبو جهل، والذي يأمر بالعدل عمار بن ياسر العنسِي وعنس (بالنون) حي من مذحج وكان حليفاً لبني مخزوم رهط أبي جهل، وكان أبو جهل يعذبه على الإسلام ويعذب أمّه سُمَيّة، وكانت مولاة لأبي جهل، وقال لها ذات يوم: إنما آمنت بمحمد لأنك تحبينه لجماله، ثم طعنها بالرمح في قُبلِها فماتت، فهي أوّل شهيد مات في الإسلام، رحمها الله. من كتاب النقاش وغيره. وسيأتي هذا في آية الإكراه مبيّناً[1] إن شاء الله تعالى. وقال عطاء: الأبكم أبيّ بن خلف، وكان لا ينطق بخير. ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ﴾ أي قومه لأنه كان يؤذيهم ويؤذي عثمان بن مظعون. وقال مقاتل: نزلت في هشام بن عمرو بن الحارث، كان كافراً قليل الخير يعادي النبيّ ﷺ. وقيل: إن الأبكم الكافر، والذي يأمر بالعدل المؤمن جملة بجملة؛ روي عن ابن عباس وهو حسن لأنه يعمّ. والأبكم الذي لا نطق له. وقيل: الذي لا يعقل. وقيل: الذي لا يسمع ولا يبصر. وفي التفسير إن الأبكم ها هنا الوثن. بيّن أنه لا قدرة له ولا أمر، وأن غيره ينقله ويَنْحِته فهو كلّ عليه. والله الآمر بالعدل، الغالب على كل شيء. وقيل المعنى ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ﴾ أي ثِقْل على وليّه وقرابته، ووَبَال على صاحبه وابن عمه. وقد يسمى اليتيم كَلاًّ لثقله على من يكفُله؛ ومنه قول الشاعر:

أكُولٌ لمال الكَلّ قبل شبابه ... إذا كان عظم الكَلّ غيرَ شديد

---

(١) راجع ص ١٨٠ وما بعدها من هذا الجزء.

والكَلّ أيضاً الذي لا ولد له ولا والد. والكَلّ العيال، والجمع الكلول؛ يقال منه: كَلّ السكّينُ يكِلّ كَلاًّ أي غلظت شفرته فلم يقطع. ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ قرأ الجمهور «يُوَجِّهه» وهو خط المصحف؛ أي أينما يرسله صاحبه لا يأت بخير، لأنه لا يعرف ولا يفهم ما يقال له ولا يفهم عنه. وقرأ يحيى بن وَثّاب «أينما يُوَجَّهْ» على الفعل المجهول. [وروي[1] عن ابن مسعود] وروي عن ابن مسعود أيضاً «تَوَجّه» على الخطاب. ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي هل يستوي هذا الأبكم ومن يأمر بالعدل على الصراط المستقيم.

[٧٧] ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تقدّم معناه[2]. وهذا متصل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي شرع التحليل والتحريم إنما يحسن ممن يحيط بالعواقب والمصالح، وأنتم أيها المشركون لا تحيطون بها فلِم تتحكمون. ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ﴾ وتجازَوْن فيها بأعمالكم. والساعة هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة؛ سميت ساعة لأنها تفجأ الناس في ساعة فيموت الخلق بصيحة. واللَّمْحُ: النظر بسرعة؛ يقال: لَمَحَه لَمْحاً ولَمَحاناً. ووجه التأويل أن الساعة لما كانت آتية ولا بدّ جعلت من القرب كلمح البصر. وقال الزجاج: لم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها؛ أي يقول للشيء كن فيكون. وقيل: إنما مَثّل بلمح البصر لأنه يلمح السماء مع ما هي عليه من البعد من الأرض. وقيل: هو تمثيل للقرب؛ كما يقول القائل: ما السَّنَة إلا لحظة، وشبهه. وقيل: المعنى هو عند الله كذلك لا عند المخلوقين؛ دليله قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً. وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾[3]. ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ ليس «أو» للشك بل للتمثيل بأيهما أراد الممثل. وقيل: دخلت لشك المخاطب. وقيل: «أو» بمنزلة بل. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقدّم[4].

---

(١) من ي. (٢) راجع ٩/١١٧. (٣) راجع ١٨/٢٨٣. (٤) راجع ١/٢٢٤.

[٧٨] ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشيء. وفيه ثلاثة أقاويل: **أحدها** ـ لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم. **الثاني** ـ لا تعلمون شيئاً مما قضى عليكم من السعادة والشقاء. **الثالث** ـ لا تعلمون شيئاً من منافعكم؛ وتَمّ الكلام، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي التي تعلمون بها وتدركون؛ لأن الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم؛ أي وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه، والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته. «وَالْأَفْئِدَة» جمع الفؤاد نحو غراب وأغربة. وقد قيل في ضمن قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ إثبات النطق لأن من لم يسمع لم يتكلم، وإذا وجدت حاسّة السمع وجد النطق. وقرأ الأعمش وابن وَثّاب وحمزة «إمهاتِكم» هنا وفي النور[١] والزمر[٢] والنجم[٣]، بكسر الهمزة والميم. وأما الكسائي فكسر الهمزة وفتح الميم؛ وإنما كان هذا للإتباع. الباقون بضم الهمزة وفتح الميم على الأصل. وأصل الأمهات: أمّات؛ فزيدت الهاء تأكيداً كما زادوا هاء في أهرقت الماء وأصله أرقت. وقد تقدّم هذا المعنى في «الفاتحة»[٤]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فيه تأويلان: **أحدهما** ـ تشكرون نعمه. **الثاني** ـ يعني تبصرون آثار صنعته؛ لأن إبصارها يؤدي إلى الشكر.

[٧٩] ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

---

(١) راجع ١٢/ ٣١١.

(٢) راجع ١٥/ ٢٣٤.

(٣) راجع ١٧/ ١٠٥.

(٤) راجع ١/ ١٤٨.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ اللَّهُ﴾ قرأ يحيى بن وَثّاب والأعمش وابن عامر وحمزة ويعقوب «تروا» بالتاء على الخطاب، واختاره أبو عبيد. الباقون بالياء على الخبر. ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ مذللات لأمر الله تعالى؛ قاله الكلبي. وقيل: «مُسَخّراتٍ» مذللات لمنافعكم. ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ الجَوّ ما بين السماء والأرض؛ وأضاف الجوَّ إلى السماء لارتفاعه عن الأرض. وفي قوله: «مُسَخَّراتٍ» دليل على مُسخّر سخَّرها ومُدبِّر مكّنها من التصرف. ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ اللَّهُ﴾ في حال القبض والبسط والاصطفاف. بيّن لهم كيف يعتبرون بها على وحدانيته. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ أي علامات وعِبَراً ودلالات. ﴿لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبما جاءت به رسله[1].

[٨٠] ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾.

فيه عشر[2] مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ معناه صيّر. وكلّ ما علاك فأظلّك فهو سقف وسماء، وكل ما أقلّك فهو أرض، وكلّ ما ستَرك من جِهاتك الأربع فهو جِدار: فإذا انتظمت واتصلت فهو بَيْت. وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت، فذكر أولاً بيوت المُدن وهي التي للإقامة الطويلة. وقوله: ﴿سَكَناً﴾ أي تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة، وقد تتحرك فيه وتسكن في غيره؛ إلا أن القول خرج على الغالب. وعدّ هذا في جملة النِّعم فإنه لو شاء خلق العبد مضطرباً أبداً كالأفلاك لكان ذلك كما خلق وأراد، ولو خلقه ساكناً كالأرض لكان كما خلق وأراد، ولكنه أوجده خلقاً يتصرف للوجهين، ويختلف حاله بين الحالتين، وردّده كَيْف وأيْنَ. والسَّكَنُ مصدر يوصف به الواحد والجمع. ثم ذكر تعالى بيوت النقلة والرحلة وهي:

(١) في جـ وو: رسلهم.
(٢) اضطربت الأصول في عدّ هذه المسائل.

الثانية ـ فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي من الأنطاع والأَدَم. «بُيُوتاً» يعني الخيام والقِباب يخفّ عليكم حملها في الأسفار. ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ الظَّعْنُ: سير البادية في الانتجاع[1] والتحوّل من موضع إلى موضع؛ ومنه قول عنترة:

ظَعَـنَ الـذيـن فِـراقَهُـم أتـوَقَّـع ... وجـرى بينهـم الغُـرابُ الأبقَـعُ

والظعن الهَودَجِ أيضاً؛ قال:

ألا هلْ هاجَك الأظعان إذ بانوا ... وإذ جادت بوشك البين غربان

وقرىء بإسكان العين وفتحها كالشّعْر والشّعَر. وقيل: يحتمل أن يعم [به][2] بيوت الأَدَم وبيوت الشعَر وبيوت الصوف؛ لأن هذه من الجلود لكونها ثابتة فيها؛ نحا إلى ذلك ابن سَلام. وهو احتمال حسن، ويكون قوله: «وَمِنْ أَصْوَافِهَا» ابتداء كلام، كأنه قال جعل: أثاثاً؛ يريد الملابس والوطاء، وغير ذلك؛ قال الشاعر:

أهـاجتـك الظعـائـن يـوم بـانـوا ... بذي الزِّيّ الجميل من الأثاث

ويحتمل أن يريد بقوله: «مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ» بيوت الأَدَم فقط كما قدّمناه أوّلاً. ويكون قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ عطفاً على قوله: ﴿مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ أي جعل بيوتاً أيضاً. قال ابن العربي: «وهذا أمر انتشر في تلك الديار، وعَزَبت عنه بلادنا، فلا تُضرب الأخبِية عندنا إلا من الكتّان والصوف، وقد كان للنبيّ ﷺ قُبّةٌ من أدَم، وناهيك مِن أدَم الطائف غلاء في القيمة، واعتلاء في الصنعة، وحُسْناً في البشرة، ولم يعدّ ذلك ﷺ تَرَفا ولا رآه سرفاً؛ لأنه مما امتن الله سبحانه من نعمته وأذن فيه من متاعه، وظهرت وجوه منفعته في الاكتنان والاستظلال الذي لا يقدر على الخروج عنه جنس الإنسان. ومن غريب ما جرى أنّي زُرتُ بعض المتزهّدين من الغافلين مع بعض المحدّثين، فدخلنا عليه في خِباء كتّان فعرض عليه صاحبي المحدّث أن يحمله إلى منزله ضيفاً، وقال: إن هذا موضع يكثر فيه الحَرّ والبيت أرفق بك وأطيب لنفسي فيك؛ فقال: هذا الخباء لنا كثير، وكان

---

(١) النجعة والانتجاع: طلب الكلأ ومساقط الغيث.

(٢) من جـ و ي.

في صُنعنا من الحقير؛ فقلتُ ليس كما زعمت! فقد كان لرسول الله ﷺ وهو رئيس الزهاد قبة من أدَم طائفيّ يسافر معها ويستظلّ بها؛ فبُهت، ورأيته على منزلة من العيّ فتركته مع صاحبي وخرجت عنه».

الثالثة - قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ أذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووَبَر الإبلِ وشعر المعز؛ كما أذِن في الأعظم، وهو ذبحها وأكل لحومها، ولم يذكر القطن والكتان لأنه لم يكن في بلاد العرب المخاطبين به، وإنما عدّد عليهم ما أنعم به عليهم، وخوطبوا فيما عرفوا بما فهموا. وما قام مقام هذه وناب منابها فيدخل في الاستعمال والنعمة مدخلها؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾[١]؛ فخاطبهم بالبَرَد لأنهم كانوا يعرفون نزوله كثيراً عندهم، وسكت عن ذكر الثلج؛ لأنه لم يكن في بلادهم، وهو مثله في الصفة والمنفعة، وقد ذكرهما النبيّ ﷺ معاً في التطهير فقال: «اللهم اغسلني بماء وثَلْج وبَرَد». قال ابن عباس: الثلج شيء أبيض ينزل من السماء وما رأيته قط. وقيل: إن ترك ذكر القطن والكتان إنما كان إعراضاً عن الترف؛ إذ مَلْبَس عباد الله الصالحين إنما هو الصُّوف» وهذا فيه نظر؛ فإنه سبحانه يقول: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾ حسبما تقدّم بيانه في «الأعراف»[٢]. وقال هنا: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ فأشار إلى القطن والكتان في لفظة «سرابيل» والله أعلم. ﴿أَثَاثاً﴾ قال الخليل: متاعاً منضماً بعضه إلى بعض؛ من أَثَّ إذا كثر. قال:

وفرْعٍ يَزِين المَتْنَ أسودَ فاحِمٍ أثِيثٍ كقِنْوِ النخلة المتعثْكِلِ[٣]

ابن عباس: «أَثَاثاً» ثياباً. وقد تقدّم. وتضمنت هذه الآية جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال، ولذلك قال أصحابنا: صوف الميتة وشعرها طاهر يجوز

(١) راجع ١٢/ ٢٨٩.

(٢) راجع ٧/ ١٨٢.

(٣) البيت من معلقة امرىء القيس. والفرع: الشعر التامّ. والمتن والمتنة: ما عن يمين الصلب وشماله من العصب واللحم. والفاحم: الشديد السواد. والقنو (بالكسر والضم): العذق وهو الشمراخ. والمتعثكل: الذي قد دخل بعضه في بعض لكثرته.

الانتفاع به على كل حال، ويغسل مخافة أن يكون علِق به وسخ؛ وكذلك روت أم سلمة عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لا بأس بجلد الميتة إذا دُبغ وصوفِها وشعرِها إذا غُسل»[(١)] لأنه مما لا يحله الموت، وسواء كان شعر ما يؤكل لحمه أو لا، كشعر ٱبن آدم والخنزير، فإنه طاهر كله؛ وبه قال أبو حنيفة، ولكنه زاد علينا فقال: القَرْن والسِّن والعظم مثل الشعر؛ قال: لأن هذه الأشياء كلها لا روح فيها فلا تنجس بموت الحيوان. وقال الحسن البَصْرِيّ والليث بن سعد والأوزاعِيّ: إن الشعور كلها نجسة ولكنها تطهر بالغسل. وعن الشافعي ثلاث روايات: **الأولى** ـ طاهرة لا تنجس بالموت. **الثانية** ـ تنجس. **الثالثة** ـ الفرق بين شعر ابن آدم وغيره، فشعر ٱبن آدم طاهر وما عداه نجس. ودليلنا عموم قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ الآية. فمنّ علينا بأن جعل لنا الانتفاع بها، ولم يخصّ شعر الميتة من المذكّاة، فهو عموم إلا أن يمنع منه دليل. وأيضاً فإن الأصل كونها طاهرة قبل الموت بإجماع، فمن زعم أنه انتقل إلى نجاسة فعليه الدليل. فإن قيل قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾[(٢)] وذلك عبارة عن الجملة. قلنا: نخصه بما ذكرناه؛ فإنه منصوص عليه في ذكر الصوف، وليس في آيتكم ذكره صريحاً، فكان دليلنا أَوْلى. والله أعلم. وقد عوّل الشيخ الإمام أبو إسحاق إمام الشافعية ببغداد على أن الشعر جزء متصل بالحيوان خِلقة، فهو ينمى بنمائه ويتنجس بموته كسائر الأجزاء. وأجيب بأن النَّماء ليس بدليل على الحياة؛ لأن النبات ينمي وليس بحَيّ. وإذا عوّلوا على النَّماء المتصل لما على الحيوان عوّلنا نحن على الإبانة التي تدلّ على عدم الإحساس الذي يدلّ على عدم الحياة. وأما ما ذكره الحنفيُّون في العظم والسِّن والقَرْن أنه مثل الشعر، فالمشهور عندنا أن ذلك نجس كاللحم. وقال ٱبن وهب مثل قول أبي حنيفة. ولنا قول **ثالث** ـ هل تلحق أطراف القرون والأظلاف بأصولها أو بالشعر، قولان. وكذلك الشعرِيّ من الريش حكمه حكم الشعر، والعظمِيّ منه حكمه حكمه. ودليلنا قوله ﷺ: «لا تنتفعوا من الميتة بشيء» وهذا عام فيها وفي كل جزء منها، إلا ما قام دليله؛ ومن الدليل القاطع على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[(٣)]،

---

(١) والحديث المشهور «أيما إهاب دبغ فقط طهر» رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه.
(٢) راجع ٦/ ٤٧.
(٣) راجع ١٥/ ٥٨.

وقال تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾[١]، وقال: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْماً﴾[٢]، وقال: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً﴾[٣] فالأصل هي العظام، والروح والحياة فيها كما في اللحم والجلد. وفي حديث عبد الله بن عُكَيم: «لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب». فإن قيل: قد ثبت في الصحيح أن النبيّ ﷺ قال في شاة ميمونة: «ألا انتفعتم بجلدها»؟ فقالوا يا رسول الله، إنها ميتة. فقال: «إنما حَرُم أكلها» والعظم لا يؤكل. قلنا: العظم يؤكل، وخاصّةً عظم الحمل[٤] الرضيع والجَدْي والطير، وعظم الكبير يشوى ويؤكل. وما ذكرناه قبلُ يدلّ على وجود الحياة فيه، وما كان طاهراً بالحياة ويستباح بالذكاة ينجس بالموت. والله أعلم.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿مِنْ جُلُودِ ٱلْأَنْعَامِ﴾ عام في جلد الحيّ والميت، فيجوز الانتفاع بجلود الميتة وإن لم تُدبغ؛ وبه قال ٱبن شهاب الزهريّ والليث بن سعد. قال الطحاويّ: لم نجد عن أحد من الفقهاء جواز بيع جلد الميتة قبل الدباغ إلا عن الليث. قال أبو عمر: يعني من الفقهاء أئمة الفتوى بالأمصار بعد التابعين، وأما ابن شهاب فذلك عنه صحيح، وهو قول أباه جمهور أهل العلم. وقد روي عنهما خلاف هذا القول، والأول أشهر.

قلت: قد ذكر الدَّارَقُطْنِيّ في سننه حديث يحيى بن أيوب عن يونس وعقيل عن الزهريّ، وحديث بَقِيَّةَ عن الزُّبيدي، وحديث محمد بن كثير العبدي وأبي سلمة المِنْقَريّ عن سليمان بن كثير عن الزهريّ، وقال في آخرها: هذه أسانيد صحاح.

السادسة[٥] ـ اختلف العلماء في جلد الميتة إذا دُبغ هل يطهر أم لا؛ فذكر ابن عبد الحَكَم عن مالك ما يشبه مذهب ابن شهاب في ذلك. وذكره ابن خويزِ منداد في كتابه عن ٱبن عبد الحكم أيضاً. قال ٱبن خويزِ منداد: وهو قول الزهريّ والليث. قال: والظاهر من مذهب مالك ما ذكره ٱبن عبد الحكم، وهو أن الدباغ لا يطهِّر جلد الميتة، ولكن يبيح الانتفاع به في الأشياء اليابسة، ولا يُصلّى عليه ولا يؤكل فيه. وفي المدوّنة لابن القاسم:

(١) راجع ٣/٢٨٨. (٢) راجع ١٢/١٠٨.
(٣) راجع ١٩/١٨٨. (٤) في أ، جـ، حـ، و: الجمل.
(٥) اضطربت الأصول في عدّ هذه المسائل.

«من اغتصب جلد ميتة غير مدبوغ فأتلفه كان عليه قيمته» وحكي أن ذلك قول مالك. وذكر أبو الفرج أن مالكاً قال: من اغتصب لرجل جلد ميتة غير مدبوغ فلا شيء عليه. قال إسماعيل: إلا أن يكون لمجوسي. وروى ابن وهب وابن عبد الحكم عن مالك جواز بيعه، وهذا في جلد كل ميتة إلا الخنزير وحده؛ لأن الذكاة لا تعمل فيه، فالدباغ أولى. قال أبو عمر: وكل جلد ذُكِّي فجائز استعماله للوضوء وغيره. وكان مالك يكره الوضوء في إناء جلد الميتة بعد الدباغ على اختلاف من قوله، ومَرّةً قال: إنه لم يكرهه إلا في خاصة نفسه، وتكره الصلاة عليه وبيعه، وتابعه على ذلك جماعة من أصحابه. وأما أكثر المدنيين فعلى إباحة ذلك وإجازته؛ لقول رسول الله ﷺ: «أيما إهاب دُبغ فقد طهر». وعلى هذا أكثر أهل الحجاز والعراق من أهل الفقه والحديث، وهو اختيار ابن وهب.

السابعة ـ ذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه إلى أنه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة في شيء وإن دُبغت، لأنها كلحم الميتة. والأخبار بالانتفاع بعد الدباغ تردّ قوله. واحتج بحديث عبد الله بن عُكَيم ـ رواه أبو داود ـ قال: قرىء علينا كتاب رسول الله ﷺ بأرض جُهَينة وأنا غلام شاب: «ألا تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عصب». وفي رواية: «قبل موته بشهر»[1]. رواه القاسم بن مخيمرة عن عبد الله بن عكيم، قال: حدثنا مشيخة لنا أن النبيّ ﷺ كتب إليهم... قال داود بن عليّ: سألت يحيى بن معَين عن هذا الحديث فضعفه وقال: ليس بشيء، إنما يقول حدثني الأشياخ. قال أبو عمر: ولو كان ثابتاً لاحتمل أن يكون مخالفاً للأحاديث المروية عن ابن عباس وعائشة وسلمة بن المُحَبّق وغيرهم، لأنه جائز أن يكون معنى حديث ابن عُكيم «ألا تنتفعوا من الميتة بإهاب» قبل الدباغ؛ وإذا احتمل ألا يكون مخالفاً فليس لنا أن نجعله مخالفاً، وعلينا أن نستعمل الخبرين ما أمكن، وحديث عبد الله بن عكيم وإن كان قبل موت النبيّ ﷺ بشهر كما جاء في الخبر فيمكن أن تكون قصة ميمونة وسماع ابن عباس منه «أيما إهاب دبغ فقد طهر» قبل موته بجمعة، أو دون جمعة. والله أعلم.

(١) لفظة «بشهر» ساقطة من سنن أبي داود.

الثامنة ـ المشهور عندنا أن جلد الخنزير لا يدخل في الحديث ولا يتناوله العموم، وكذلك الكلب عند الشافعيّ. وعند الأوزاعي وأبي ثور: لا يطهر بالدباغ إلا جلد ما يؤكل لحمه. وروى مَعْن بن عيسى عن مالك أنه سئل عن جلد الخنزير إذا دبغ فكرهه. قال ٱبن وَضّاح: وسمعت سُحْنوناً يقول لا بأس به؛ وكذلك قال محمد بن عبد الحكم وداود بن عليّ وأصحابه؛ لقوله عليه السلام: «أيما مَسْك[١] دبغ فقد طهر». قال أبو عمر: يحتمل أن يكون أراد بهذا القول عموم الجلود المعهود الانتفاع بها، فأما الخنزير فلم يدخل في المعنى لأنه غير معهود الانتفاع بجلده، إذ لا تعمل فيه الذكاة. ودليل آخر وهو ما قاله النّضْر بن شُمَيل: إن الإهاب جلد البقر والغنم والإبل، وما عداه فإنما يقال له: جلد لا إهاب.

قلت: وجلد الكلب وما لا يؤكل لحمه أيضاً غير معهود الانتفاع به فلا يطهر؛ وقد قال ﷺ: «أكل كل ذي ناب من السباع حرام» فليست الذكاة فيها ذكاة، كما أنها ليست في الخنزير ذكاة. وروى النسائيّ عن المقدام بن معد يكرب قال: نهى رسول الله ﷺ عن الحرير والذهب ومَيَاثر النمور[٢].

التاسعة ـ ٱختلف الفقهاء في الدباغ الذي تطهر به جلود الميتة ما هو؟ فقال أصحاب مالك وهو المشهور من مذهبه: كل شيء دبغ الجلد من ملح أو قَرَظ أو شَبّ أو غير ذلك فقد جاز الانتفاع به؛ وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه، وهو قول داود. وللشافعيّ في هذه المسألة قولان: أحدهما ـ هذا، والآخر أنه لا يُطهِّر إلا الشّب والقَرَظ؛ لأنه الدباغ المعهود على عهد النبيّ ﷺ، وعليه خرّج الخطابِيّ ـ والله أعلم ـ ما رواه النسائيّ عن ميمونة زوج النبيّ ﷺ أنه مرّ برسول الله ﷺ رجال من قريش يجرّون شاة لهم مثل الحصان؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «لو أخذتم إهابها» قالوا: إنها ميتة. فقال رسول الله ﷺ: «يطهرها الماء والقرظ».

---

(١) المسك (بالفتح وسكون السين): الجلد. وخص بعضهم به جلد السخلة، ثم كثر حتى صار كل جلد مسكاً، والجمع مسك ومسوك.

(٢) أي عن أن تفرش جلودها على السرج والرحال للجلوس عليها لما فيه من التكبر، أو لأنه زي العجم، أو لأن الشعر نجس لا يقبل الدباغ. (عن شرح سنن النسائي). المياثر: جلود محشوة تجعل على الرحل.

العاشرة ـ قوله تعالى: ﴿أَثَاثاً﴾ الأثاث متاع البيت، واحدها أَثَاثة؛ هذا قول أبي زيد الأنصاري. وقال الأمويّ: الأثاث متاع البيت، وجمعه آثّة وأُثُث. وقال غيرهما: الأثاث جميع أنواع المال ولا واحد له من لفظه. وقال الخليل: أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعض حتى يكثر؛ ومنه شعر أثِيث أي كثير. وأثّ شعر فلان يأَثُّ أثّاً إذا كثر والتفّ؛ قال امرؤ القيس:

وفرعٍ يزِينُ المتن أسود فاحم أثيـث كقِنـوِ النخلـة المتعثكِـلِ

وقيل: الأثاث ما يلبس ويفترش. وقد تأَثَّثْ إذا اتخذت أثاثاً. وعن ابن عباس رضي الله عنه «أثاثاً» مالا. وقد تقدم القول في الحين[1]؛ وهو هنا وقت غير معين بحسب كل إنسان، إما بموته وإمّا بفقد تلك الأشياء التي هي أثـاث. ومن هذه اللفظـة قول الشاعر:

أهاجتك الظعائن يوم بانوا بذي الزي الجميل من الأثاث

[٨١] ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ظِلَٰلًا﴾ الظلال: كل ما يستظل به من البيوت والشجر. وقوله: ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾ يعمّ جميع الأشخاص المظِلّة.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿أَكْنَٰنًا﴾ الأكنان: جمع كِنّ، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك؛ وهي هنا الغيران في الجبال، جعلها الله عدّة للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها. وفي الصحيح أنه عليه السلام كان في أول أمره يتعبّد بغار حِرَاء ويمكث فيه الليالي... الحديثَ. وفي صحيح البخاريّ قال: خرج رسول الله ﷺ

(١) راجع ١/ ٣٢١ و ٩/ ٣٦٠ فما بعد.

من مكة مهاجراً هارباً من قومه فارّاً بدينه مع صاحبه أبي بكر حتى لحقا بغار في جبل ثور، فكَمِنا[(١)] فيه ثلاث ليال يبيت عندهما فيه عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثَقِف[(٢)] لَقِن فيُدْلج من عندهما بسحَر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمراً يُكادان[(٣)] به إلا وعَاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فُهَيرة مولى أبي بكر مِنْحَةً[(٤)] من غنم فيرِيحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيَبِيتان في رِسْل، وهو ابن مِنحتهما ورَضِيفِها[(٥)] حتى ينعِق بهما عامر بن فُهيرة بغَلَس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث. . . وذكر الحديث. انفرد بإخراجه البخاري.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ يعني القمص، واحدها سربال. ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ يعني الدروع التي تقي الناس في الحرب؛ ومنه قول كعب بن زهير:

شُمُّ العَرانِين أبطالٌ لَبُوسُهُم ... من نَسْج داودَ في الهيجا سَرَابِيلُ

الرابعة ـ إن قال قائل: كيف قال ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً﴾ ولم يذكر السهل، وقال: ﴿تَقِيكُمُ الحَرّ﴾ ولم يذكر البرد؟ فالجواب أن القوم كانوا أصحاب جبال ولم يكونوا أصحاب سهل، وكانوا أهل حر ولم يكونوا أهل برد، فذكر لهم نعمه التي تختص بهم كما خصهم بذكر الصوف وغيره، ولم يذكر القطن والكتان ولا الثلج ـ كما تقدم ـ فإنه لم يكن ببلادهم[(٦)]؛ قال معناه عطاء الخراسانيّ وغيره: وأيضاً: فذكر أحدهما يدلّ على الآخر؛ ومنه قول الشاعر:

وما أدري إذا يَمَّمْت أرضاً ... أريد الخير أيهما يَليني

أألخير الذي أنا أبتغيه ... أم الشر الذي هو يبتغيني

الخامسة ـ قال العلماء: في قوله تعالى: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ دليل على اتخاذ العباد عدّة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء، وقد لبسها النبيّ ﷺ تقاة

(١) في جـ و و: مكثا. (٢) أي حاذق سريع الفهم، لقن حسن التلقن لما يسمعه.

(٣) من الكيد؛ أي يطلب لهما ما فيه المكروه. (٤) أي شاة تحلب إناء بالغداة وإناء بالعشي.

(٥) الرضيف: اللبن المرضوف، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحماة ليذهب وخمه. وينعق يصيح.

(٦) يقول محققه: ذكر الله لهم تلك النعم وهي دالة على ما يقابلها على سبيل الاكتفاء. والقطن مشهور باليمن ومنه الثياب السحولية وكذا صحار ومنه كفن عليه السلام في ثوبين صحاريين. وكذا الثلج في جبال ببلاد العرب.

الجراحة وإن كان يطلب الشهادة، وليس للعبد[1] أن يطلبها بأن يستسلم للحتوف وللطعن بالسنان وللضرب بالسيوف، ولكنه يلبس لأمة[2] حرب لتكون له قوّة على قتال عدوّه، ويقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ويفعل الله بعدُ ما يشاء.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ قرأ ابن مُحَيصِن وحُميد «تتم» بتاءين، «نعمتُه» رفعاً على أنها الفاعل. الباقون «يتم» بضم الياء على أن الله هو يتمها. و «تُسْلِمُونَ» قراءة ابن عباس وعكرمة «تَسلَمون» بفتح التاء واللام، أي تسلمون من الجراح، وإسناده ضعيف؛ رواه عَباد بن العوّام عن حنظلة عن شهْر عن ابن عباس. الباقون بضم التاء، ومعناه تستسلمون وتنقادون إلى معرفة الله وطاعته شكراً على نعمه. قال أبو عبيد: والاختيار قراءة العامّة، لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح.

[٨٢] ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ﴾ أي ليس عليك إلا التبليغ، وأما الهداية فإلينا.

[٨٣] ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ قال السُّدِّي: يعني محمداً ﷺ، أي يعرفون نبوّته. ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ ويكذبونه. وقال مجاهد: يريد ما عدّد الله عليهم في هذه السورة من النعم؛ أي يعرفون أنها من عند الله وينكرونها بقولهم إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم. وبمثله قال قتادة. وقال عون بن عبد الله: هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا، ولولا فلان ما أصبت كذا، وهم يعرفون النفع والضر من عند الله. وقال الكَلْبِيّ: هو أن رسول الله ﷺ لما عرّفهم بهذه النعم كلها عرفوها، وقالوا: نعم، هي كلها نِعم من الله، ولكنها

(١) في ي: على العبد.

(٢) لأمة الحرب: أداته؛ وقد تترك الهمزة تخفيفاً. في ي: حربه.

بشفاعة آلهتنا. وقيل: يعرفون نعمة الله بتقلّبهم فيها، وينكرونها بترك الشكر عليها. ويحتمل سادساً ـ يعرفونها في الشدّة وينكرونها في الرخاء. ويحتمل سابعاً ـ يعرفونها بأقوالهم وينكرونها بأفعالهم. ويحتمل ثامناً ـ يعرفونها بقلوبهم ويجحدونها بألسنتهم؛ نظيرها: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾[١]. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يعني جميعهم؛ حسبما تقدّم.

[٨٤] ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ نظيره: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ وقد تقدّم[٢]. ﴿ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي في الاعتذار والكلام؛ كقوله: ﴿وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[٣]. وذلك حين تطبق عليهم جهنم، كما تقدّم في أوّل «الحجر»[٤] ويأتي. ﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يعني يسترضون، أي لا يكلفون أن يرضوا ربّهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون. وأصل الكلمة من العَتْب وهي المَوْجدة؛ يقال: عَتَب عليه يُعتِب إذا وجد عليه، فإذا فاوضه ما عتَب عليه فيه قيل: عاتبه، فإذا رجع إلى مسرّتك فقد أعتَب، والاسم العُتبي وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتبَ؛ قاله الهروِيّ. وقال النابغة:

فإن كنتُ مظلوماً فعبداً ظلمتَه وإن كنتَ ذا عُتْبَى فمثلُكَ يُعْتِبُ

[٨٥] ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي أشركوا. ﴿الْعَذَابَ﴾ أي عذاب جهنم بالدخول فيها. ﴿فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون؛ إذ لا توبة لهم ثَمَّ.

---

(١) راجع ١٣/١٥٦.
(٢) راجع ٥/١٩٧.
(٣) راجع ١٩/١٦٤.
(٤) راجع ص ٣٠ فما بعد من هذا الجزء.

[٨٦] ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

[٨٧] ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي أصنامهم وأوثانهم التي عبدوها؛ وذلك أن الله يبعث معبوديهم فيتبعونهم حتى يُورِدوهم النار. وفي صحيح مسلم: «من كان يعبد شيئاً فَلْيَتَّبِعْه فيتّبع من كان يعبد الشمسَ الشمسَ ويتبع من كان يعبد القمر القمرَ ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» الحديثَ، خرجه من حديث أنس[١]، والترمذي من حديث أبي هريرة، وفيه: «فيُمَثَّل لصاحب الصليب صليبُه ولصاحب التصاوير تصاويرُه ولصاحب النار نارُه فيتبعون ما كانوا يعبدون» وذكر الحديث[٢]. ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ أي الذين جعلناهم لك شركاء. ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي ألقت إليهم الآلهة القول، أي نطقت بتكذيب من عبدها بأنها لم تكن آلهة، ولا أمرتهم بعبادتها، فيُنطق الله الأصنامَ حتى تظهر عند ذلك فضيحةُ الكفار. وقيل: المراد بذلك الملائكة الذين عبدوهم. ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ يعني المشركين، أي استسلموا لعذابه وخضعوا لعزه. وقيل: استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم. ﴿وضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي زال عنهم ما زَيّنَ لهم الشيطان وما كانوا يؤمّلون من شفاعة آلهتهم.

[٨٨] ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

---

(١) ورد هذا الحديث في صحيح مسلم عن أبي هريرة. راجع كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية.

(٢) راجع الحديث في سنن الترمذي في باب صفة الجنة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال ابن مسعود: عقارب أنيابها كالنخل الطوال، وحيات مثل أعناق الإبل، وأفاعي كأنها البَخَاتِيّ[١] تضربهم، فتلك الزيادة. وقيل: المعنى يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار. وقيل: المعنى زدنا القادة عذاباً فوق السّفلة، فأحد العذابين على كفرهم والعذاب الآخر على صدّهم. ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والمعصية.

[٨٩] ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وهم الأنبياء، شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوهم الرسالة ودعَوْهم إلى الإيمان، وفي كل زمان شهيد وإن لم يكن نبياً؛ وفيهم قولان: أحدهما - أنهم أئمة الهدى الذين هم خلفاء الأنبياء. الثاني - أنهم العلماء الذين حفظ الله بهم شرائع أنبيائه.

قلت: فعلى هذا لم تكن فترة إلا وفيها من يوحّد الله؛ كقُسّ بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نُفيل الذي قال فيه النبيّ ﷺ: «يبعث أمة وحده»، وسَطِيح[٢]، وورقة بن نَوْفل الذي قال فيه النبيّ ﷺ: «رأيته ينغمس في أنهار الجنة». فهؤلاء ومن كان مثلهم حجةٌ على أهل زمانهم وشهيدٌ عليهم. والله أعلم. وقوله: ﴿وجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ﴾ تقدّم في البقرة والنساء[٣].

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ نظيره: ﴿مَا فَرَّطْنَا في الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[٤] وقد تقدّم، فلينظر هناك. وقال مجاهد: تبياناً للحلال والحرام.

---

(١) البخاتي: جمال طوال الأعناق.

(٢) هو كاهن بني ذئب، كان يتكهن في الجاهلية، واسمه: ربيع بن ربيعة. (راجع سيرة ابن هشام ص ٩ طبع أوروبا).

(٣) راجع ٣/ ١٥٤ و ٥/ ١٩٧.

(٤) راجع ٦/ ٤١٩.

[٩٠] ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ روي عن عثمان بن مظعون أنه قال: لما نزلت هذه الآية قرأتها على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فتعجب فقال: يا آل غالب، اتبعوه تفلحوا، فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق. وفي حديث ـ إن أبا طالب لما قيل له: إن ٱبن أخيك زعم أن الله أنزل عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية، قال: اتبعوا ٱبن أخي، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق. وقال عكرمة: قرأ النبي ﷺ على الوليد بن المغيرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ إلى آخرها، فقال: يابن أخي أعد! فأعاد عليه فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمُورِق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر! . وذكر الغَزْنَوِيّ أن عثمان بن مظعون هو القارىء. قال عثمان: ما أسلمت ابتداء إلا حياءً من رسول الله ﷺ حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فٱستقر الإيمان في قلبي، فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال: يابن أخي أعد! فأعدت فقال: والله إن له لحلاوة، . . . وذكر تمام الخبر. وقال ابن مسعود: هذه أجمع آية في القرآن لخير يمتثل، ولشر يجتنب. وحكى النقاش قال: يقال زكاة العدل الإحسان، وزكاة القدرة العفو، وزكاة الغنى المعروف وزكاة الجاه كَتْبُ الرجل إلى إخوانه.

الثانية ـ اختلف العلماء في تأويل العدل والإحسان؛ فقال ابن عباس: العدل لا إله إلا الله، والإحسان أداء الفرائض. وقيل: العدل الفرض، والإحسان النافلة. وقال سفيان بن عُيينة: العدل ها هنا استواء السريرة، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية. عليّ بن أبي طالب: العدل الإنصاف، والإحسان التفضل. قال ابن عطية:

العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع في أداء الأمانات، وتركُ الظلم والإنصافُ، وإعطاء الحق، والإحسان هو فعل كل مندوب إليه؛ فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه، ومنها ما هو فرض، إلا أن حدّ الإجزاء منه داخل في العدل، والتكميلُ الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان. وأما قول ابن عباس ففيه نظر؛ لأن أداء الفرائض هي الإسلام حسبما فسره رسول الله ﷺ في حديث سؤال جبريل، وذلك هو العدل، وإنما الإحسان التكميلات والمندوب إليه حسبما يقتضيه تفسير النبي ﷺ في حديث سؤال جبريل بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». فإن صح هذا عن ابن عباس فإنما أراد الفرائض مكملة. وقال ابن العربي: العدل بين العبد وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر. وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾[1] وعُزوبُ[2] الأطماع عن الاتباع، ولزومُ القناعة في كل حالٍ ومعنًى. وأما العدل بينه وبين الخلق فبذلُ النصيحة، وترك الخيانة فيما قلّ وكثُر، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه؛ ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل لا في سِرّ ولا في عَلَن، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقلّ ذلك الإنصاف وترك الأذى.

قلت: هذا التفصيل في العدل حَسَنٌ وعدل، وأما الإحسان فقد قال علماؤنا: الإحسان مصدر أحسن يُحْسن إحساناً. ويقال على معنيين: أحدهما متعدّ بنفسه؛ كقولك: أحسنت كذا، أي حسّنته وكمّلته، وهو منقول بالهمزة من حَسُن الشيء. وثانيهما متعدّ بحرف جر؛ كقولك: أحسنت إلى فلان، أي أوصلت إليه ما ينتفع به.

قلت: وهو في هذه الآية مراد بالمعنيين معاً؛ فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض، حتى أن الطائر في سجنك والسِّنَّوْر في دارك لا ينبغي أن تقصر تعهّده بإحسانك؛ وهو تعالى غنيٌّ عن إحسانهم، ومنه الإحسان والنعم والفضل والمِنَن. وهو في حديث جبريل

---

(١) راجع ١٩/ ٢٠٥.

(٢) في ي: عزوف.

بالمعنى الأوّل لا بالثاني؛ فإن المعنى الأوّل راجع إلى إتقان العبادة ومراعاتها بأدائها المصححة المكملة، ومراقبة الحق فيها، واستحضار عظمته وجلاله حالة الشروع وحالة الاستمرار. وهو المراد بقوله «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وأرباب القلوب في هذه المراقبة على حالين: أحدهما غالب عليه مشاهدة الحق فكأنه يراه. ولعل النبيّ ﷺ أشار إلى هذه الحالة بقوله: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» وثانيهما ـ لا تنتهي إلى هذا، لكن يغلب عليه أن الحق سبحانه مطلع عليه ومشاهد له، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[١] وقوله: ﴿إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[٢].

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي القرابة؛ يقول: يعطيهم المال كما قال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾[٣] يعني صلته. وهذا من باب عطف المندوب على الواجب، وبه استدلّ الشافعيّ في إيجاب إيتاء المكاتب؛ على ما يأتي بيانه. وإنما خص ذا القربى لأن حقوقهم أوكد وصلتهم أوجب؛ لتأكيد حق الرحم التي اشتق الله اسمها من اسمه، وجعل صلتها من صلته، فقال في الصحيح: «أمَا تَرضينَ أن أصِل من وَصَلك وأقطع من قَطَعك»[٤]. ولا سِيما إذا كانوا فقراء.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ الفحشاء: الفحش، وهو كل قبيح من قول أو فعل. ابن عباس: هو الزنى. والمنكر: ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وهو يعم جميع المعاصي والرذائل والدناءات. على اختلاف أنواعها. وقيل: هو الشرك. والبغي: هو الكِبر والظلم والحِقد والتعدّي؛ وحقيقته تجاوز الحدّ، وهو داخل تحت المنكر، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماماً به لشدّة ضرره. وفي الحديث عن النبيّ ﷺ: «لا ذنب أسرع عقوبةً من بَغْيٍ». وقال عليه السلام: «الباغي مصروع». وقد وعد الله من بُغِيَ عليه بالنصر. وفي بعض الكتب المنزّلة: لو بَغَى جبل على جبل لجعل الباغي منهما دَكًّا.

---

(١) راجع ١٣/ ١٤٣. (٢) راجع ٨/ ٣٥٥.

(٣) راجع ص ٢٤٧ من هذا الجزء.

(٤) راجع صحيح البخاري في كتاب التفسير في سورة محمد وكتاب الأدب والتوحيد. وصحيح مسلم في كتاب الأدب.

الخامسة ـ ترجم الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه فقال: (باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾[1]، ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾[2]، وترك إثارة الشر على مسلم أو كافر) ثم ذكر حديث عائشة في سِحْرِ لَبِيد بنِ الأَعْصَم النبيَّ ﷺ. قال ابن بطال: فتأوّل رضي الله عنه من هذه الآيات وترك إثارة الشر على مسلم أو كافر؛ كما دلّ عليه حديث عائشة حيث قال عليه السلام: «أمّا الله فقد شفاني وأما أنا فأكره أن أثير على الناس شراً». ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أنه تأوّل في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الندب بالإحسان إلى المسيء وترك معاقبته على إساءته. فإن قيل: كيف يصح هذا التأويل في آيات البغي. قيل: وجه ذلك ـ والله أعلم ـ أنه لما أعلم الله عباده بأن ضرر البغي ينصرف على الباغي بقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُم عَلَى أَنْفُسِكُم﴾ وضمن تعالى نصرة من بُغِيَ عليه، كان الأولى بمن بغي عليه شكر الله على ما ضمن من نصره ومقابلة ذلك بالعفو عمن بغي عليه؛ وكذلك فعل النبيّ ﷺ باليهودي الذي سحره، وقد كان له الانتقام منه بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾[3]. ولكن آثر الصفح أخذا بقوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[4].

السادسة ـ تضمّنت هذه الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد تقدّم القول فيهما[5]. روي أن جماعة رفعت عاملها إلى أبي جعفر المنصور العباسي، فحاجّها العامل وغلبها، بأنهم لم يثبتوا عليه كبير ظلم ولا جوره في شيء؛ فقام فتى من القوم فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإنه عدل ولم يحسن. قال: فعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل.

(١) راجع ٨/ ٣٢٤.
(٢) راجع ١٢/ ٨٩.
(٣) راجع ص ٢٠٠ من هذا الجزء.
(٤) راجع ١٦/ ٣٨.
(٥) راجع ٤/ ٤٧.

[٩١] ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ لفظ عام لجميع ما يُعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو مواثقة في أمر موافق للديانة. وهذه الآية مضمّن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ لأن المعنى فيها: افعلوا كذا، وانتهوا عن كذا؛ فعطف على ذلك التقدير. وقد قيل: إنها نزلت في بيعة النبيّ ﷺ على الإسلام. وقيل: نزلت في التزام الحِلف الذي كان في الجاهلية وجاء الإسلام بالوفاء به؛ قاله قتادة ومجاهد وأبن زيد. والعموم يتناول كل ذلك كما بيناه. روى الصحيح عن جُبَير بن مُطعِم قال قال رسول الله ﷺ: «لا حِلف في الإسلام وأيما حِلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة» يعني في نصرة الحق والقيام به والمواساة. وهذا كنحو حِلف الفُضُول الذي ذكره أبن إسحاق قال: اجتمعت قبائل من قريش في دار عبد الله بن جُدْعان لشرفه ونسبه[١]، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألاّ يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتى تُرَدّ عليه مظلِمته؛ فسمت قريش ذلك الحِلف حِلْف الفضول، أي حلف الفضائل. والفضول هنا جمع فَضْل للكثرة كفلس وفلوس. روى أبن إسحاق عن أبن شهاب قال قال رسول الله ﷺ: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حِلفا ما أحِب أن لي به حُمْر النَّعَم لو أدعى به في الإسلام لأجبت». وقال أبن إسحاق: تحامل الوليد بن عُتبة على حسين بن عليّ في مال له، لسلطان الوليد فإنه كان أميراً على المدينة؛ فقال له حسين بن عليّ: أحلِف بالله لتُنْصِفَنّي من حقي أو لآخذنّ سيفي ثم لأقومنّ في مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعونّ بحلِف الفضول. قال عبد الله بن الزبير: وأنا أحلف والله لئن دعانا[٢] لآخذنّ سيفي ثم لأقومنّ معه حتى ينتصف من حقه أو نموت جميعاً. وبلغت المِسْوَر بن مَخْرَمة فقال مثل ذلك. وبلغت

(١) في سيرة ابن هشام: «لشرفه وسنه».
(٢) في سيرة ابن هشام: «لئن دعا به».

عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك. فلما بلغ ذلك الوليد أنصفه. قال العلماء: فهذا الحِلف الذي كان في الجاهلية هو الذي شدّه الإسلامُ وخصه النبيّ عليه الصلاة والسلام من عموم قوله: «لا حِلف في الإسلام». والحكمة في ذلك أن الشرع جاء بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه وإيصاله إلى المظلوم، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجاباً عاماً على من قدر من المكلَّفين، وجعل لهم السبيل على الظالمين فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١]. وفي الصحيح [من قوله][٢]: «أُنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تأخذ على يديه ـ في رواية: تمنعه من الظلم ـ فإن ذلك نصره». وقد تقدّم قوله عليه السلام: «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده».

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يقول بعد تشديدها وتغليظها؛ يقال: توكيد وتأكيد، ووَكّد وأكّد، وهما لغتان.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ يعني شهيداً. ويقال: حافظاً، ويقال: ضامناً. وإنما قال: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِها﴾ فَرْقاً بين اليمين المؤكدة بالعزم وبين لغو اليمين. وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك: التوكيد هو حِلف الإنسان في الشيء الواحد مراراً، يردّد فيه الأيمان ثلاثاً أو أكثر من ذلك؛ كقوله: والله لا أُنقصه من كذا، والله لا أنقصه من كذا، والله لا أنقصه من كذا. قال: فكفارة ذلك واحدة مثل كفارة اليمين. قال يحيى بن سعيد: هي العهود، والعهد يمين، ولكن الفرق بينهما أن العهد لا يكفَّر. قال النبيّ ﷺ: «يُنْصَب لكل غادر لواء يوم القيامة عند أسته بقدر غَدرته يقال هذه غدرة فلان». وأما اليمين بالله فقد شرع الله سبحانه فيها الكفارة بخصلة واحدة، وحل ما انعقدت عليه اليمين. وقال ابن عمر: التوكيد هو أن يحلف مرتين، فإن حلف واحدة فلا كفارة فيه. وقد تقدّم في المائدة[٣].

---

(١) راجع ١٦/ ٤٤.
(٢) من و.
(٣) راجع ٦/ ٣٦٤.

[٩٢] ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً﴾ النقض والنكث واحد، والاسم النكث والنقض، والجمع الأنكاث. فشبّهت هذه الآية الذي يحلف ويعاهد ويُبْرِم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتِله مُحْكَماً ثم تَحُلُّه. ويروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تسمى رَيْطَة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرّة كانت تفعل ذلك، فبها وقع التشبيه؛ قاله الفراء، وحكاه عبد الله بن كثير والسُّدّي ولم يسميا المرأة. وقال مجاهد وقتادة: وذلك ضرب مثلٍ، لا على امرأة معيّنة. و «أنكاثاً» نصب على الحال. والدَّخَلَ: الدغَل والخديعة والغش. قال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دَخَلَ. ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ قال المفسرون: نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة[١] قوية فداخلتها، غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى ـ قاله مجاهد ـ فقال الله تعالى: لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى أو أكثر أموالاً فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم الكثرة والسعة في الدنيا لأعدائكم المشركين. والمقصود النهي عن العود إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم. وقال الفراء: المعنى لا تغدِروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم، وقد عززتموهم بالأيمان. ﴿أَرْبَى﴾ أي أكثر؛ من رَبَى الشيء يربو إذا كثر. والضمير في «به» يحتمل أن يعود على الوفاء الذي أمر الله به. ويحتمل أن يعود على الرباء؛ أي أن الله تعالى ابتلى عباده بالتحاسد، وطلب بعضِهم الظهورَ على بعض، واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد نفسه فيخالفها ممن يتبعها ويعمل بمقتضى هواها؛ وهو معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من البعث وغيره.

---

(١) في ي: كبيرة.

[٩٣] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي على ملة واحدة. ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ بخذلانه إياهم؛ عدلاً منه فيهم. ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بتوفيقه إياهم؛ فضلاً منه عليهم، ولا يسأل عما يفعل بل تسألون أنتم. والآية تردّ على أهل القدر كما تقدم. واللام في «وليبينن ولتسألن» مع النون المشدّدة يدلان على قسم مضمر، أي والله ليبينن لكم ولتسألن.

[٩٤] ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ كرر ذلك تأكيداً. ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ مبالغة في النهي عنه لعظم موقعه في الدين وتردّده في معاشرات الناس؛ أي لا تعقِدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد فتزل قدم بعد ثبوتها، أي عن الأيمان بعد المعرفة بالله. وهذه استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه؛ لأن القدم إذا زلّت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر؛ ومن هذا المعنى قول كُثَيِّر:

فلما توافينا ثَبَتُّ وزَلّتِ

والعرب تقول لكل مبتلًى بعد عافية أو ساقط في ورطة: زَلَّت قدمه؛ كقول الشاعر:

سَيُمْنَع منك السَّبْقُ إن كنت سابقاً وتُقْتَل إن زَلَّت بك القدمان

ويقال لمن أخطأ في شيء: زلّ فيه. ثم توعد تعالى بعدُ بعذاب في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة. وهذا الوعيد إنما هو فيمن نقض عهد رسول الله ﷺ؛ فإن من عاهده ثم نقض عهده خرج عن الإيمان، ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي بصدّكم. وذَوْقُ السوء في الدنيا هو ما يحل بهم من المكروه.

[٩٥] ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

[٩٦] ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ نهى عن الرشا وأخذ الأموال على نقض العهد؛ أي لا تنقضوا عهودكم لَعَرض قليل من الدنيا. وإنما كان قليلاً وإن كثر؛ لأنه مما يزول، فهو على التحقيق قليل، وهو المراد بقوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ فبين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفَد وتحول، وما عند الله من مواهب فضله، ونعيم جنته ثابت لا يزول لمن وَفّى بالعهد وثبت على العقد. ولقد أحسن من قال:

المــال ينفـدُ حِلّـه وحـرامـه ... يـومـاً وتبقـى فـي غـدٍ آثـامُـه

ليـس التّقِـيُّ بمتّـقٍ لإلهـه[١] ... حتـى يطيـب شـرابـه وطعـامـه

آخر:

هَبِ الـدنيـا تساق إليـك عَفْـواً ... أليـس مصيـر ذاك إلـى انتقـال

ومــا دنيــاك إلا مثــالُ فَــيْءٍ ... أظَلَّــك ثــم آذن بــالــزوال

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي على الإسلام والطاعات وعن المعاصي. ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي من الطاعات، وجعلها أحسن لأن ما عداها من الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعات من حيث الوعد من الله. وقرأ عاصم وابن كثير «وَلَنَجْزِيَنّ» بالنون على التعظيم. الباقون بالياء. وقيل: إن هذه الآية ﴿وَلاَ تَشْتَرُوا﴾ إلى هنا نزلت في امرىء القيس بن عابس الكندي وخصمه ابن أَسْوع[٢]، اختصما في أرض فأراد امرؤ القيس أن يحلف فلما سمع هذه الآية نكل وأقرّ له بحقه؛ والله أعلم.

---

(١) في نسخ الأصل: ليس التقى بمن يمير بأهله وفي ي: يميز، والتصويب عن أدب الدنيا والدين ص ٢١٢ طبع بولاق. (٢) الذي في كتب الصحابة في ترجمة امرىء القيس بن عابس أنه ربيعة بن عيدان. وقال صاحب كتاب الإصابة في ترجمة عيدان بن أسوع: «ذكر مقاتل في تفسيره أنه الذي حاصر أمرأ القيس بن عابس الكندي في أرضه، وفيه نزلت ﴿إن الذين يشترون بعهد الله...﴾ الآية.

[٩٧] ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ شرط وجوابه. وفي الحياة الطيبة خمسة أقوال: الأوّل ـ أنه الرزق الحلال؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جُبَير وعطاء والضحاك. الثاني ـ القناعة؛ قاله الحسن البصري وزيد بن وهب ووهب بن منبّه، ورواه الحكم عن عكرمة عن ابن عباس، وهو قول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. الثالث ـ توفيقه إلى الطاعات فإنها تؤديه إلى رضوان الله؛ قال معناه الضحاك. وقال أيضاً: من عمل صالحاً وهو مؤمن في فاقة ومَيْسَرة فحياته طيبة، ومن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه ولا عمل صالحاً فمعيشته ضَنْكٌ لا خير فيها. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هي الجنة، وقاله الحسن، وقال: لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة. وقيل: هي السعادة، روي عن ابن عباس أيضاً. وقال أبو بكر الورّاق: هي حلاوة الطاعة. وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ: هي أن ينزع عن العبد تدبيره ويردّ تدبيره إلى الحق. وقال جعفر الصادق: هي المعرفة بالله؛ وصدق المقام بين يدي الله. وقيل: الاستغناء عن الخلق والافتقار إلى الحق. وقيل: الرضا بالقضاء. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي في الآخرة. ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وقال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾ ثم قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ لأن «مَنْ» يصلح للواحد والجمع؛ فأعاد مرة على اللفظ ومرة على المعنى؛ وقد تقدّم. وقال أبو صالح: جلس ناس من أهل التوراة وناس من أهل الإنجيل وناس من أهل الأوثان، فقال هؤلاء: نحن أفضل، وقال هؤلاء: نحن أفضل؛ فنزلت.

[٩٨] ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

فيه مسألة واحدة ـ وهي أن هذه الآية متصلة بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ فإذا أخذت في قراءته فاستعذ بالله من أن يعرض لك الشيطان فيصدّك عن

تدبّره والعمل بما فيه؛ وليس يريد استعذ بعد القراءة؛ بل هو كقولك: إذا أكلت فقل بسم الله؛ أي إذا أردت أن تأكل. وقد روى جُبير بن مُطْعِم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ حين افتتح الصلاة قال: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه»[١]. وروى أبو سعيد الخُدْرِيّ أن النبي ﷺ كان يتعوّذ في صلاته قبل القراءة. قال الكيا الطبري: ونُقل عن بعض السلف التعوّذ بعد القراءة مطلقاً، احتجاجاً بقوله تعالى: ﴿فَإذا قَرَأتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ولا شك أن ظاهر ذلك يقتضي أن تكون الاستعاذة بعد القراءة؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً﴾[٢]. إلا أن غيره محتمل، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾[٣] ﴿وَإِذَا سَأَلْتُموهُنّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[٤] وليس المراد به أن يسألها من وراء حجاب بعد سؤال متقدم. ومثله قول القائل: إذا قلت فاصدق، وإذا أحرمت فاغتسل، يعني قبل الإحرام. والمعنى في جميع ذلك: إذا أردت ذلك؛ فكذلك الاستعاذة. وقد تقدم هذا المعنى[٥]، وتقدّم القول في الاستعاذة مستوفى[٦].

[٩٩] ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

[١٠٠] ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بالإغواء والكفر، أي ليس لك قدرة على أن تحملهم على ذنب لا يُغفر؛ قاله سفيان. وقال مجاهد: لا حجة له على ما يدعوهم إليه من المعاصي. وقيل: إنه ليس له عليهم سلطان بحال؛ لأن الله تعالى صرف

---

(١) الهمز: النخس والغمز، وكل شيء دفعته فقد همزته. والنفخ: الكبر؛ لأن المتكبر يتعاظم ويجمع نفسه ونفسه فيحتاج أن ينفخ. والنفث: قال ابن الأثير: جاء تفسيره في الحديث أنه الشعر؛ لأنه ينفث من الفم.

(٢) راجع ٥/ ٣٧٣.

(٣) راجع ٧/ ١٣٧.

(٤) راجع ١٤/ ٢٢٧.

(٥) راجع ٦/ ٨٠.

(٦) راجع ١/ ٨٦.

سلطانه عليهم حين قال عدوّ الله إبليس لعنه الله: ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[(١)] قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

قلت: قد بينا أن هذا عامٌ يدخله التخصيص، وقد أغوى آدم وحوّاءَ عليهما السلام بسلطانه، وقد شوّش على الفضلاء أوقاتهم بقوله: من خلق ربك؟ حسبما تقدّم في آخر الأعراف[(٢)] بيانه. ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أي يطيعونه. يقال: توليته أي أطعته، وتوليت عنه، أي أعرضت عنه. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي بالله؛ قاله مجاهد والضحاك. وقيل: يرجع «به» إلى الشيطان؛ قاله الربيع بن أنس والقُتَبيّ. والمعنى: والذين هم من أجله مشركون. يقال: كفرت بهذه الكلمة، أي من أجلها. وصار فلانٌ بك عالماً، أي من أجلك. أي والذي تولّى الشيطانَ مشركون بالله.

[١٠١] ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

[١٠٢] ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ قيل: المعنى بدلنا شريعة متقدّمة بشريعة مستأنفة؛ قاله ابن بحر. مجاهد: أي رفعنا آية وجعلنا موضعها غيرها. وقال الجمهور: نسخنا آية بآية أشدّ منها عليهم. والنسخ والتبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه. وقد تقدّم الكلام في النسخ في البقرة مستوفى[(٣)]. ﴿قَالُوا﴾ يريد كفار قريش. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي كاذب مختلق، وذلك لما رأوا من تبديل الحكم. فقال الله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أن الله شرع الأحكام وتبديل البعض بالبعض. وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ

---

(١) راجع ص ٢٧ من هذا الجزء فما بعد.

(٢) راجع ٣٤٨/٧.

(٣) راجع ٦١/٢ وما بعدها.

القُدُسِ﴾ يعني جبريل، نزل بالقرآن كلِّه ناسخه ومنسوخه. وروي بإسناد صحيح عن عامر الشَّعْبِيّ قال: وُكّل إسرافيل بمحمد ﷺ ثلاث سنين، فكان يأتيه بالكلمة والكلمة، ثم نزل عليه جبريل بالقرآن. وفي صحيح مسلم أيضاً أنه نزل عليه بسورة «الحمد» ملك لم ينزل إلى الأرض قط. كما تقدّم في الفاتحة بيانه[1]. ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي من كلام ربك. ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بما فيه من الحجج والآيات. ﴿وَهُدًى﴾ أي وهو هدى. ﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

[١٠٣] ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ اختلف في اسم هذا الذي قالوا إنما يعلمه؛ فقيل: هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر، كان نصرانياً فأسلم؛ وكانوا إذا سمعوا من النبيّ ﷺ ما مضى وما هو آت مع أنه أُمِّيٌّ لم يقرأ قالوا: إنما يعلمه جبر وهو أعجمي؛ فقال الله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي كيف يعلمه جبر وهو أعجمي هذا الكلام الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها. وذكر النقاش أن مولى جبر كان يضربه ويقول له: أنت تعلّم محمداً، فيقول: لا والله، بل هو يعلمني ويهديني. وقال ابن إسحاق: كان النبيّ ﷺ ـ فيما بلغني ـ كثيراً ما يجلس عند المَرْوة إلى غلام نصراني يقال له جبر، عبدُ بني الحضرمي، وكان يقرأ الكتب، فقال المشركون: والله ما يعلم محمداً ما يأتي به إلا جبر النصراني. وقال عكرمة: اسمه يعيش عبدٌ لبني الحضرمي، كان رسول الله ﷺ يلقنه القرآن؛ ذكره الماورديّ. وذكر الثعلبيّ عن عكرمة وقتادة أنه غلام لبني المغيرة اسمه يعيش، وكان يقرأ الكتب الأعجمية، فقالت قريش: إنما يعلمه بشر، فنزلت. المهدويّ عن عكرمة:

(١) راجع ١١٦/١.

هو غلام لبني عامر بن لؤي، واسمه يعيش. وقال عبد الله بن مسلم الحضرميّ: كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر، اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر. كذا ذكر الماورديّ والقشيريّ والثعلبيّ إلا أن الثعلبيّ قال: يقال لأحدهما نَبْت ويكنى أبا فُكَيْهة، والآخر جبر، وكانا صَيْقَلَين[1] يعملان السيوف؛ وكانا يقرأان كتاباً لهم. الثعلبي: يقرأان التوراة والإنجيل. الماورديّ والمهدويّ: التوراة. فكان رسول الله ﷺ يمرّ بهما ويسمع قراءتهما، وكان المشركون يقولون: يتعلم منهما، فأنزل الله هذه الآية وأكذبهم. وقيل: عَنَوا سلمان الفارسي رضي الله عنه؛ قاله الضحاك. وقيل: نصرانياً بمكة اسمه بلعام، وكان غلاماً يقرأ التوراة؛ قاله ابن عباس. وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ حين يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام. وقال القُتَبِيّ: كان بمكة رجل نصراني يقال له أبو ميسرة يتكلم بالرومية، فربما قعد إليه رسول الله ﷺ، فقال الكفار: إنما يتعلم محمد منه، فنزلت. وفي رواية أنه عدّاس غلام عتبة بن ربيعة. وقيل: عابس غلام حويطب بن عبد العُزَّى ويسار أبو فُكَيْهَة مولى ابن الحضرمي، وكانا قد أسلما. والله أعلم.

قلت: والكل محتمل؛ فإن النبيّ ﷺ ربما جلس إليهم في أوقات مختلفة ليعلمهم مما علمه الله، وكان ذلك بمكة. وقال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأنه يجوز أن يكونوا أَوْمَئُوا إلى هؤلاء جميعاً، وزعموا أنهم يعلمونه.

قلت: وأما ما ذكره الضحاك من أنه سلمان ففيه بُعْدٌ؛ لأن سلمان إنما أتى النبيّ ﷺ بالمدينة، وهذه الآية مكية. ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ الإلحاد: الميل؛ يقال: لحد وألحد، أي مال عن القصد. وقد تقدّم في الأعراف[2] وقرأ حمزة «يَلْحَدون» بفتح الياء والحاء؛ أي لسان الذي يميلون إليه ويشيرون أعجميّ. والعُجمة: الإخفاء وضدّ البيان. ورجل أعجم وامرأة عجماء، أي لا يُفصح؛ ومنه عَجْم الذنب لاستتاره. والعجماء:

(١) الصيقل: شحاذ السيوف وجلاؤها.
(٢) راجع ٧/٣٢٨.

البهيمة؛ لأنها لا توضح عن نفسها. وأعجمت الكتاب أي أزلت عجمته. والعرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بكلامهم أعجمياً. وقال الفرّاء: الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب، والأعجمي أو العجمي الذي أصله من العجم. وقال أبو علي: الأعجمي الذي لا يفصح، سواء كان من العرب أو من العجم، وكذلك الأعجم والأعجمي المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً. وأراد باللسان القرآن؛ لأن العرب تقول للقصيدة والبيت لساناً؛ قال الشاعر:

لسانُ الشر تهديها إلينا وخُنت وما حسبتك أن تخونا

يعني باللسان القصيدة. ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي أفصح ما يكون من العربية.

[١٠٤] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي هؤلاء المشركون الذين لا يؤمنون بالقرآن. ﴿لاَ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

[١٠٥] ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ هذا جواب وصفهم النبيّ ﷺ بالافتراء. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ هذا مبالغة في وصفهم بالكذب؛ أي كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم. ويقال: كذب فلان ولا يقال إنه كاذب؛ لأنّ الفعل قد يكون لازماً وقد لا يكون لازماً. فأما النعت فيكون لازماً ولهذا يقال: عصى آدمُ ربَّه فَغَوى، ولا يقال: إنه عاصٍ غاوٍ. فإذا قيل: كذب فلان فهو كاذب، كان مبالغة في الوصف بالكذب؛ قاله القشيري.

[١٠٦] ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

فيه إحدى وعشرون مسألة:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ هذا متصل بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ فكان مبالغة في الوصف بالكذب؛ لأن معناه لا ترتدوا عن بيعة الرسول ﷺ. أي من كفر من بعد إيمانه وارتدّ فعليه غضب الله. قال الكلبي: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ومِقْيَس بن صُبابة وعبد الله بن خَطَل[1]، وقَيْس بن الوليد بن المغيرة، كفروا بعد إيمانهم. ثم قال: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ﴾. وقال الزجاج: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ بدل ممن يفتري الكذب؛ أي إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه؛ لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام فعلَّقه بما قبله. وقال الأخفش: «مَنْ» ابتداء وخبره محذوف، اكتفى منه بخبر «من» الثانية: كقولك: من يأتنا من يحسن نكرمه.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ﴾ هذه الآية نزلت في عَمَّار بن ياسر، في قول أهل التفسير؛ لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه. قال ابن عباس: أخذه المشركون وأخذوا أباه وأمَّه سُمَيَّة وصُهَيْباً وبِلالاً وخَبّاباً وسالماً فعذبوهم، ورُبطت سُمَيَّة بين بعيرين ووُجِيء قُبُلُها بحَرْبة، وقيل لها: إنك أسلمتِ من أجل الرجال؛ فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين في الإسلام. وأما عمّار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «كيف تجد قلبك»؟ قال: مطمئن بالإيمان. فقال رسول الله ﷺ: «فإن عادوا فَعُدْ». وروى منصور بن المُعْتَمِر عن مجاهد قال: أول شهيدة في الإسلام أمّ عمار، قتلها أبو جهل، وأول

(١) في الأصول: «عبد الله بن أنس بن خطل» وهو تحريف.

شهيد من الرجال مِهْجَع مولى عمر. وروى منصور أيضاً عن مجاهد قال: أول من أظهر الإسلام سبعةٌ: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وبِلَال، وخَبّاب، وصُهَيب، وعَمّار، وسُمَيّة أمّ عمار. فأما رسول الله ﷺ فمنعه أبو طالب، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأخذوا الآخرين فألبسوهم أدراع الحديد، ثم صهروهم في الشمس حتى بلغ منهم الجهد كل مبلغ من حَرِّ الحديد والشمس، فلما كان من العشيّ أتاهم أبو جهل ومعه حربة، فجعل يَسُبّهم ويوبخهم، وأتى سُمَيّة فجعل يسبّها ويَرْفُث[1]، ثم طعن فرجها حتى خرجت الحربة من فمها فقتلها؛ رضي الله عنها. قال: وقال الآخرون ما سُئلوا؛ إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه في الله، فجعلوا يعذبونه ويقولون له: ارجع عن دينك، وهو يقول أَحَد أَحَد؛ حتى مَلّوه، ثم كتّفوه وجعلوا في عنقه حَبْلا من لِيفٍ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أَخْشَبَيْ[2] مكة حتى مَلّوه وتركوه، قال فقال عمار: كلنا تكلم بالذي قالوا ـ لولا أن الله تداركنا ـ غير بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله، فهان على قومه حتى ملّوه وتركوه. والصحيح أن أبا بكر اشترى بلالاً فأعتقه. وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد أن ناساً من أهل مكة آمنوا، فكتب إليهم بعض أصحاب محمد ﷺ بالمدينة: أن هاجروا إلينا، فإنا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا، فخرجوا يريدون المدينة حتى أدركتهم قريش بالطريق، ففتنوهم فكفروا مكرهين، ففيهم نزلت هذه الآية. ذكر الروايتين عن مجاهد إسماعيلُ بن إسحاق. وروى الترمذيّ عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «ما خُيِّر عمّار بين أمرين إلا اختار أرشدهما» هذا حديث حسن غريب. وروي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة عليّ وعمّار وسَلمان بن ربيعة». قال الترمذيّ: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن صالح.

الثالثة ـ لما سمح الله عز وجل بالكفر به وهو أصل الشريعة عند الإكراه ولم يؤاخذ به، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلّها، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يترتب

(١) الرفث: الفحش من القول.

(٢) الأخشبان الجبلان المطيفان بمكة؛ وهما أبو قبيس والأحمر.

عليه حكم؛ وبه جاء الأثر المشهور عن النبي ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما أستكرِهوا عليه» الحديثَ. والخبر وإن لم يصح سنده فإن معناه صحيح بأتفاق من العلماء؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربيّ. وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح، قال: وقد ذكره أبو بكر الأصيلي في الفوائد وابن المنذر في كتاب الإقناع.

الرابعة ـ أجمع أهل العلم على أن من أُكرِه على الكفر حتى خَشِيَ على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبُه مطمئن بالإيمان ولا تَبِين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر؛ هذا قول مالك والكوفيين والشافعيّ؛ غير محمد بن الحسن فإنه قال: إذا أظهر الشرك كان مرتداً في الظاهر، وفيما بينه وبين الله تعالى على الإسلام، وتَبِين منه أمرأته ولا يصلَّى عليه إن مات، ولا يرِث أباه إن مات مسلماً. وهذا قول يرده الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ﴾ الآية. وقال: ﴿إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[1] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾[2] الآية. وقال: ﴿إلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ والوِلْدَانِ﴾[2] الآية. فعذر الله المستضعفين الذين يمتنعون من ترك ما أمر الله به، والمكره لا يكون إلا مستضعفاً غير ممتنع من فعل ما أمر به؛ قاله البخاري.

الخامسة ـ ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الرخصة إنما جاءت في القول، وأما في الفعل فلا رخصة فيه، مثل أن يكرهوا على السجود لغير الله أو الصلاة لغير القبلة؛ أو قتل مسلم أو ضربه أو أكل ماله، أو الزنى وشرب الخمر وأكل الربا؛ يروى هذا عن الحسن البصري، رضي الله عنه. وهو قول الأوزاعي وسُحْنون من علمائنا. وقال محمد بن الحسن: إذا قيل للأسير: أُسجد لهذا الصنم وإلا قتلتك. فقال: إن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد وتكون نيته لله تعالى، وإن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه. والصحيح أنه يسجد وإن كان لغير القبلة، وما أحراه بالسجود حينئذ؛ ففي الصحيح عن أبن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يصلّي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان

---

(١) راجع ٤/٥٧.

(٢) راجع ٥/٣٤٥.

وجهه، قال: وفيه نزلت. ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1]. في رواية: ويُوتِر عليها، غير أنه لا يصلّي عليها المكتوبة. فإذا كان هذا مباحاً في السفر في حالة الأمن لتعب النزول عن الدابة للتنفل فكيف بهذا؟. واحتج من قصر الرخصة على القول بقول ابن مسعود: ما من كلام يدرأ عنّي سوطين من ذي سلطان إلا كنت متكلّماً به. فقصَر الرخصة على القول ولم يذكر الفعل، وهذا لا حجة فيه؛ لأنه يحتمل أن يجعل الكلام مثالاً وهو يريد أن الفعل في حكمه. وقالت طائفة: الإكراه في الفعل والقول سواء إذا أسرّ الإيمان. روي ذلك عن عمر بن الخطاب ومَكْحُول، وهو قول مالك وطائفة من أهل العراق. روى ابن القاسم عن مالك أن من أكره على شرب الخمر وترك الصلاة أو الإفطار في رمضان، أن الإثم عنه مرفوع.

السادسة ـ أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره، ويصبر على البلاء الذي نزل به، ولا يحلّ له أن يَفْدِي نفسه بغيره، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.

واختلف في الزنى، فقال مُطَرِّف وأصبَغ وابن عبد الحكم وابن الماجِشون: لا يفعل أحد ذلك، وإن قُتل لم يفعله، فإن فعله فهو آثم ويلزمه الحدّ؛ وبه قال أبو ثور والحسن. قال ابن العربي: الصحيح أنه يجوز الإقدام على الزنى ولا حدّ عليه، خلافاً لمن ألزمه ذلك؛ لأنه رأى أنها شهوة خُلقِية لا يتصوّر الإكراه عليها، وغفل عن السبب في باعث الشهوة وهو الإلْجَاء إلى ذلك، وهو الذي أسقط حكمه، وإنما يجب الحَدّ على شهوة بعث عليها سبب اختياري، فقاس الشيء على ضده، فلم يحل بصواب من عنده. وقال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد في أحكامه: اختلف أصحابنا متى أكره الرجل على الزنى؛ فقال بعضهم: عليه الحدّ؛ لأنه إنما يفعل ذلك باختياره. وقال بعضهم: لا حدّ عليه. قال ابن خويزِ منداد: وهو الصحيح. وقال أبو حنيفة إن أكرهه غير السلطان حُدّ، وإن أكرهه السلطان فالقياس أن يحدّ، ولكن أستحسن ألا يحدّ. وخالفه صاحباه فقالا: لا حدّ عليه في الوجهين، ولم يراعوا الانتشار،

(١) راجع ٢/ ٧٩.

وقالوا: متى علم أنه يتخلص من القتل بفعل الزنى جاز أن ينتشر. قال ابن المنذر: لا حدّ عليه، ولا فرق بين السلطان في ذلك وغير السلطان.

السابعة - اختلف العلماء في طلاق المكره وعتاقه؛ فقال الشافعيّ وأصحابه: لا يلزمه شيء. وذكر ابن وهب عن عمر وعليّ وابن عباس أنهم كانوا لا يرون طلاقه شيئاً. وذكره ابن المنذر عن ابن الزبير وابن عمر وابن عباس وعطاء وطاوس والحسن وشُرَيح والقاسم وسالم ومالك والأوزاعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور. وأجازت طائفة طلاقه؛ روي ذلك عن الشَّعْبِيّ والنَّخَعِيّ وأبي قلابة والزهريّ وقتادة، وهو قول الكوفيين. قال أبو حنيفة: طلاق المكره يلزم؛ لأنه لم يعدم فيه أكثر من الرضا، وليس وجوده بشرط في الطلاق كالهازل. وهذا قياس باطل؛ فإن الهازل قاصد إلى إيقاع الطلاق راض به، والمكره غير راض ولا نية له في الطلاق، وقد قال عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيات». وفي البخاري: وقال ابن عباس فيمن يكرهه اللصوص فيطلق: ليس بشيء؛ وبه قال ابن عمر وابن الزبير والشعبي والحسن. وقال الشعبي: إن أكرهه اللصوص فليس بطلاق، وإن أكرهه السلطان فهو طلاق. وفسّره ابن عيينة فقال: إن اللصّ يُقدِم على قتله والسلطان لا يقتله.

الثامنة - وأما بيع المكره والمضغوط فله حالتان. **الأولى** - أن يبيع ماله في حق وجب عليه؛ فذلك ماضٍ سائغٌ لا رجوع فيه عند الفقهاء؛ لأنه يلزمه أداء الحق إلى ربه من غير المبيع، فلما لم يفعل ذلك كان بيعه اختياراً منه فلزمه. وأما بيع المكره ظلماً أو قهراً فذلك بيع لا يجوز عليه، وهو أولى بمتاعه يأخذه بلا ثمن، ويتبع المشتري بالثمن ذلك الظالم؛ فإن فات المتاع رجع بثمنه أو بقيمته بالأكثر من ذلك على الظالم إذا كان المشتري غير عالم بظلمه. قال مُطَرّف: ومن كان من المشترين يعلم حال المكره فإنه ضامن لما ابتاع من رقيقه وعروضه كالغاصب، كلما أحدث المبتاع في ذلك من عتق أو تدبير أو تحبيس فلا يلزم المكره، وله أخذ متاعه. قال سُحْنون: أجمع أصحابنا وأهل العراق على أن بيع المكره على الظلم والجور لا يجوز. وقال الأَبْهَرِيّ: إنه إجماع.

التاسعة ـ وأما نكاح المكره؛ فقال سُحْنون: أجمع أصحابنا على إبطال نكاح المكره والمكرهة، وقالوا: لا يجوز المقام عليه، لأنه لم ينعقد. قال محمد بن سُحنون: وأجاز أهل العراق نكاح المكره وقالوا: لو أكره على أن ينكح امرأة بعشرة آلاف درهم، وصداق مثلها ألف درهم، أن النكاح جائز وتلزمه الألف ويبطل الفضل. قال محمد: فكما أبطلوا الزائد على الألف فكذلك يلزمهم إبطال النكاح بالإكراه. وقولهم خلاف السنة الثابتة في حديث خَنْساء بنت خِذام الأنصارية؛ ولأمره ﷺ بالاستئمار في أبضاعهن، وقد تقدّم، فلا معنى لقولهم.

العاشرة ـ فإن وطئها المكره على النكاح غيرَ مكره على الوطء والرضا بالنكاح لزمه النكاح عندنا على المسمَّى من الصداق ودُرِىء عنه الحد. وإن قال: وطئتها على غير رضاً مني بالنكاح فعليه الحد والصداق المسمّى؛ لأنه مدّعٍ لإبطال الصداق المسمّى، وتحدّ المرأة إن أقدمت وهي عالمة أنه مكره على النكاح. وأما المكرهة على النكاح وعلى الوطء فلا حدّ عليها ولها الصداق، ويحدّ الواطىء؛ فاْعلمه. قاله سُحنُون.

الحادية عشرة ـ إذا استكرهت المرأة على الزنى فلا حدّ عليها؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ وقوله عليه السلام: «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»؛ ولقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1] يريد الفتيات. وبهذا المعنى حكم عمر في الوليدة التي استكرهها العبد فلم يحدّها. والعلماء متفقون على أنه لا حدّ على امرأة مستكرهَة. وقال مالك: إذا وجدت المرأة حاملاً وليس لها زوج فقالت اُستكرِهت فلا يقبل ذلك منها وعليها الحدّ، إلا أن تكون لها بيِّنة أو جاءت تَدْمِي على أنها أوتيت[2]، أو ما أشبه ذلك. واحتج بحديث عمر بن الخطاب أنه قال: الرّجْم في كتاب الله حق على من زنى من الرجال والنساء إذا أحصن إذا قامت البيّنة، أو كان الحَبَل أو الاعتراف. قال ابن المنذر: وبالقول الأوّل أقول.

(١) راجع ١٢/ ٢٥٥.
(٢) عبارة الموطأ: «أو جاءت تدمي إن كانت بكراً أو استغاثت حتى أوتيت وعلى ذلك...» الخ.

الثانية عشرة ـ واختلفوا في وجوب الصداق للمستكرهة؛ فقال عطاء والزهريّ: لها صداق مثلها؛ وهو قول مالك والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبي ثور. وقال الثَّوريّ: إذا أقيم الحدّ على الذي زنى بها بطل الصداق. وروي ذلك عن الشعبي، وبه قال أصحاب مالك وأصحاب الرأي. قال ابن المنذر: القول الأوّل صحيح.

الثالثة عشرة ـ إذا أكره الإنسان على إسلام أهله لما لم يَحِلّ أسلمها، ولم يقتل[١] نفسه دونها ولا آحتمل أذية في تخليصها. والأصل في ذلك ما خرجه البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة ودخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فأرسل إليه أن أرسل بها إليّ فأرسل بها فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلي فقالت: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك فلا تسلّط عليّ هذا الكافر. فغُطّ حتى ركَض برجله»[٢]. ودلّ هذا الحديث أيضاً على أن سارة لما لم يكن عليها ملامة، فكذلك لا يكون على المستكرهة ملامة، ولا حدّ فيما هو أكبر من الخلوة. والله أعلم.

الرابعة عشرة ـ وأما يمين المكره فغير لازمة عند مالك والشافعي وأبي ثور وأكثر العلماء. قال ابن الماجِشون: وسواء حلف فيما هو طاعة لله أو فيما هو معصية إذا أكره على اليمين؛ وقاله أصْبَغ. وقال مطرّف: إن أكره على اليمين فيما هو لله معصية أو ليس في فعله طاعة ولا معصية فاليمين فيه ساقطة، وإن أكره على اليمين فيما هو طاعة مثل أن يأخذ الوالي رجلاً فاسقاً فيكرهه أن يحلف بالطلاق لا يشرب خمراً، أو لا يفسق أو لا يَغُشّ في عمله، أو الوالد يحلّف ولده تأديباً له فإن اليمين تلزم؛ وإن كان المكره قد أخطأ فيما يكلّف من ذلك. وقال به ابن حبيب. وقال أبو حنيفة ومن اتبعه من الكوفيين: إنه إن حلف ألاّ يفعل ففعل حنِث، قالوا: لأن المكره له أن يورِّيَ في يمينه كلها، فلما لم يورّ ولا ذهبت نيّته إلى خلاف ما أكره عليه فقد قصد إلى اليمين. احتج الأوّلون بأن قالوا: إذا أكره عليها فنيته مخالفة لقوله؛ لأنه كاره لما حلف عليه.

---

(١) ينظر هذا مع ما رواه أبو داود والترمذي والنسائي، وابن ماجه وفيه «من قتل دون أهله شهيد». كشف الخفا ٢/٢٦٩.

(٢) ذكر المؤلف هذا الحديث مختصراً، فراجعه في شرح القسطلاني، كتاب البيوع ٤/١٢٢ طبعة بولاق. الغط هنا هو العصر الشديد والكبس، والركض الضرب بالرجل.

الخامسة عشرة ـ قال ابن العربي: ومن غريب الأمر أن علماءنا اختلفوا في الإكراه على الحنث هل يقع به أم لا، وهذه مسألة عراقية سرت لنا منهم، لا كانت هذه المسألة ولا كانوا! وأي فرق يا معشر أصحابنا بين الإكراه على اليمين في أنها لا تلزم وبين الحِنث في أنه لا يقع! فاتقوا الله وراجعوا بصائركم ولا تغتروا بهذه الرواية فإنها وصمة في الدراية.

السادسة عشرة ـ إذا أكره الرجل على أن يحلف وإلا أخذ له مال كأصحاب المكس وظلمة السعاة وأهل الاعتداء؛ فقال مالك: لا تقِيّة له في ذلك، وإنما يدرأ المرء بيمينه عن بدنه لا ماله. وقال ابن الماجشون: لا يحنث وإن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه. وقال ابن القاسم بقول مطرّف، ورواه عن مالك، وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ.

قلت: قول ابن الماجشون صحيح؛ لأن المدافعة عن المال كالمدافعة عن النفس؛ وهو قول الحسن وقتادة وسيأتي. وقال رسول الله ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام» وقال: «كلُّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». وروى أبو هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي قال: «فلا تعطِه مالك». قال: أرأيت إن قاتلني قال: «قاتله» قال: أرأيت إن قتلني قال: «فأنت شهيد» قال: أرأيت إن قتلته قال: «هو في النار» خرجه مسلم[1]. وقد مضى الكلام فيه. وقال مطرّف وابن الماجشون: وإن بدر الحالف بيمينه للوالي الظالم قبل أن يُسألها ليذُبّ بها عما خاف عليه من ماله وبدنه فحلف له فإنها تلزمه. وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ. وقال أيضاً ابن الماجشون فيمن أخذه ظالم فحلف له بالطلاق ألبتّة من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب، وإنما حلف خوفاً من ضربه وقتله وأخذ ماله: فإن كان إنما تبرع باليمين غلبة خوف ورجاءَ النجاة من ظلمه فقد دخل في الإكراه ولا شيء عليه، وإن لم يحلف على رجاء النجاة فهو حانث.

السابعة عشرة ـ قال المحققون من العلماء: إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجوز له أن يجريه على لسانه إلا مجرى المعاريض؛ فإن في المعاريض[2] لمندوحة عن الكذب. ومتى لم يكن

---

(١) ويؤيد هذا ما رواه أحمد والترمذي عن ابن عمر «من قتل دون ماله فهو شهيد» كشف الخفا ٢/ ٢٩٦.

(٢) المعاريض: التورية بالشيء عن الشيء. وأعراض الكلام ومعارضه ومعاريضه: كلام يشبه بعضه بعضاً في المعاني.

كذلك كان كافراً، لأن المعاريض لا سلطان للإكراه عليها. مثاله ـ أن يقال له: أكفر بالله فيقول باللاهي؛ فيزيد الياء. وكذلك إذا قيل له: أكفر بالنبيّ فيقول هو كافر بالنبيّ، مشدّداً وهو المكان المرتفع من الأرض[١]. ويطلق على ما يعمل من الخوص شبه المائدة، فيقصد أحدهما بقلبه ويبرأ من الكفر ويبرأ من إثمه. فإن قيل له: أكفر بالنبيء (مهموزاً) فيقول هو كافر بالنبيء يريد بالمخبر، أي مخبر كان كطليحة[٢] ومُسَيْلمة الكذاب أو يريد به النبيء الذي قال فيه الشاعر:

فأصبح رَتْماً دُقاق الحَصَى مكان النبيء من الكاثب[٣]

الثامنة عشرة ـ أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر فاختار القتل أنه أعظم أجراً عند الله ممن ٱختار الرخصة. وٱختلفوا فيمن أكره على غير القتل من فعل ما لا يحل له؛ فقال أصحاب مالك: الأخذ بالشدّة في ذلك واختيار القتل والضرب أفضل عند الله من الأخذ بالرخصة. ذكره ابن حبيب وسُحنون. وذكر ابن سُحنون عن أهل العراق أنه إذا تُهدّد بقتل أو قطع أو ضرب يخاف منه التلف فله أن يفعل ما أكره عليه من شرب خمر أو أكل خنزير؛ فإن لم يفعل حتى قتل خِفنا أن يكون آثماً لأنه كالمضطر. وروى خَبّاب بن الأرَتّ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوَسِّد بُرْدَةً له في ظل الكعبة فقلت: ألاَ تَسْتَنْصِر لنا ألاَ تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَن قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيُجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يَصُدّه ذلك عن دينه والله لَيَتمَّنَّ هذا الأمر[٤] حتى يسير الركب من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوْت لا يخاف إلا الله والذئبَ على غنمه ولكنكم تستعجلون». فوَصْفُهُ ﷺ هذا عن الأمم السالفة على جهة المدح لهم والصبر على المكروه في ذات الله، وأنهم لم يكفروا في الظاهر وتبطّنوا الإيمان ليدفعوا العذاب عن أنفسهم. وهذه حجة من آثر الضرب

---

(١) ومنه الحديث: «لا تصلوا على النبيّ» أي على الأرض المرتفعة المُحْدَوْدَبة.
(٢) هو طليحة بن خويلد بن نوفل الأسدي، ارتد بعد النبيﷺ وأدعى النبوّة ثم أسلم.
(٣) الرتم (بالتاء والثاء): الدق والكسر. ويريد بالنبيء المكان المرتفع. والكاثب: الرمل المجتمع.
(٤) يريد الإسلام.

والقتل والهوان على الرخصة والمقام بدار الجنان. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الأخدود»[١] إن شاء الله تعالى. وذكر أبو بكر محمد بن محمد بن الفرج البَغْدادِيّ قال: حدثنا شريح بن يونس عن إسماعيل بن إبراهيم عن يونس بن عبيد عن الحسن أن عيوناً لمسيلمَة أخذوا رجلين من أصحاب النبيّ ﷺ فذهبوا بهما إلى مسيلمة، فقال لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم. فخلّى عنه. وقال للآخر: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: وتشهد أني رسول الله؟ قال: أنا أصم لا أسمع؛ فقدّمه وضرب عنقه. فجاء هذا إلى النبيّ ﷺ فقال: هلكتُ! قال: «وما أهلكك»؟ فذكر الحديث، قال: «أمّا صاحبك فأخذ بالثقة[٢] وأما أنت فأخذت بالرخصة على ما أنت عليه الساعة»؟ قال: أشهد أنك رسول الله. قال «أنت على ما أنت عليه». الرخصة فيمن حلفه سلطان ظالم على نفسه أو على أن يدله على رجل أو مال رجل؛ فقال الحسن: إذا خاف عليه وعلى ماله فليحلف ولا يكفر يمينه؛ وهو قول قتادة إذا حلف على نفسه أو مال نفسه. وقد تقدّم ما للعلماء في هذا. وذكر موسى بن معاوية أن أبا سعيد بن أشرس صاحب مالك استحلفه السلطان بتونس على رجل أراد السلطان قتله أنه ما آواه، ولا يعلم له موضعاً؛ قال: فحلف له ابن أشرس؛ وابن أشرس يومئذ قد علم موضعه وآواه، فحلّفه بالطلاق ثلاثاً، فحلف له ابن أشرس، ثم قال لامرأته: اعتزلي فاعتزلته؛ ثم ركب ابن أشرس حتى قدم على البهلول بن راشد القيروان، فأخبره بالخبر؛ فقال له البهلول: قال مالك إنك حانث. فقال ابن أشرس: وأنا سمعت مالكاً يقول ذلك، وإنما أردت الرخصة، أو كلام هذا معناه؛ فقال له البهلول بن راشد: قال الحسن البصري إنه لا حنث عليك. قال: فرجع ابن أشرس إلى زوجته وأخذ بقول الحسن. وذكر عبد الملك بن حبيب قال: حدّثني معبد عن المسيّب بن شريك عن أبي شيبة قال: سألت أنس بن مالك عن الرجل يؤخذ بالرجل، هل ترى أن يحلف ليَقِيه بيمينه؟ فقال نعم؛ ولأن أحلف سبعين يميناً

---

(١) راجع ١٩/ ٢٨٤.

(٢) عبارة الدر المنثور: «أما صاحبك فمضى على إيمانه».

وأحنث أحبّ إليّ أن أدُلّ على مسلم. وقال إدريس بن يحيى كان الوليد بن عبد الملك يأمر جواسيس يتجسسون الخلق يأتونه بالأخبار، قال: فجلس رجل منهم في حلقة رجاء بن حَيْوَة فسمع بعضَهم يقع في الوليد، فرفع ذلك إليه فقال: يا رجاء! أُذْكَرُ بالسوء في مجلسك ولم تغيِّر؟ فقال: ما كان ذلك يا أمير المؤمنين؛ فقال له الوليد: قل: الله الذي لا إله إلا هو، قال: الله الذي لا إله إلا هو؛ فأمر الوليد بالجاسوس فضربه سبعين سوطاً، فكان يلقى رجاء فيقول: يا رجاء، بك يستقى[1] المطر، وسبعون سوطاً في ظهري! فيقول رجاء: سبعون سوطاً في ظهرك خير لك من أن يقتل رجل مسلم.

التاسعة عشرة ـ واختلف العلماء في حدّ الإكراه؛ فروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ليس الرجل آمن على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته. وقال ابن مسعود ما كلام يدرأ عنّي سوطين إلا كنتُ متكلماً به. وقال الحسن: التقية جائزة للمؤمن إلى يوم القيامة؛ إلا أن الله تبارك وتعالى ليس يجعل في القتل تقيّة. وقال النَّخَعِيّ: القيد إكراه، والسجن إكراه. وهذا قول مالك، إلا أنه قال: والوعيد المخوّف إكراه وإن لم يقع، إذا تحقق ظلم ذلك المتعدّي وإنفاذه لما يتوعّد به، وليس عند مالك وأصحابه في الضرب والسجن توقيت، إنما هو ما كان يؤلم من الضرب، وما كان من سجن يدخل منه الضيق على المكره. وإكراه السلطان وغيره عند مالك إكراه. وتناقض الكوفيون فلم يجعلوا السجن والقيد إكراهاً على شرب الخمر وأكل الميتة؛ لأنه لا يخاف منهما التلف. وجعلوهما إكراهاً في إقراره لفلان عندي ألف درهم. قال ابن سُحنون: وفي إجماعهم على أن الألم والوجع الشديد إكراه ما يدلّ على أنِ الإكراه يكون من غير تلف نفس. وذهب مالك إلى أن من أُكره على يمين بوعيد أو سجن أو ضرب أنه يحلف ولا حنث عليه؛ وهو قول الشافعي وأحمد وأبي ثور وأكثر العلماء.

الموفية عشرين ـ ومن هذا الباب ما ثبت إن من المعاريض لمندوحةً عن الكذب. وروى الأعمش عن إبراهيم النّخعِيّ أنه قال: لا بأس إذا بلغ الرجلَ عنك شيء أن تقول:

---

(١) في جـ وي: يستسقى.

والله، إن الله يعلم ما قلت فيك من ذلك من شيء. قال عبد الملك بن حبيب: معناه أن الله يعلم أن الذي قلت، وهو في ظاهره انتفاء من القول، ولا حنث على من قال ذلك في يمينه ولا كذب عليه في كلامه. وقال النخعِيّ: كان لهم كلام من ألغاز الأيمان يدرءون به عن أنفسهم، لا يرون ذلك من الكذب ولا يخشون فيه الحنث[١]. قال عبد الملك: وكانوا يسمون ذلك المعاريض من الكلام، إذا كان ذلك في غير مكر ولا خديعة في حق. وقال الأعمش: كان إبراهيم النخعي إذا أتاه أحد يكره الخروج إليه جلس في مسجد بيته وقال لجاريته: قولي له هو والله في المسجد. وروى مغيرة عن إبراهيم أنه كان يجيز للرجل من البعث[٢] إذا عرضوا على أميرهم أن يقول: والله ما أهتدي إلا ما سدّد لي غيري، ولا أركب إلا ما حملني غيري؛ ونحو هذا من الكلام. قال عبد الملك: يعني بقوله: «غيري» الله تعالى، هو مسدّده وهو يحمله؛ فلم يكونوا يرون على الرجل في هذا حنثاً في يمينه، ولا كذباً في كلامه، وكانوا يكرهون أن يقال هذا في خديعة وظلم وجحدان[٣] حق فمن اجترأ وفعل أثم في خديعته ولم تجب عليه كفارة في يمينه.

الحادية والعشرون ـ قوله تعالى: ﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي وسعه لقبول الكفر، ولا يقدر أحد على ذلك إلا الله؛ فهو يرد على القدرية. و «صَدْراً» نصب على المفعول. ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب جهنم.

[١٠٧] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

[١٠٨] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

[١٠٩] ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

---

(١) وذلك كما في كتاب الملاحن لابن دريد.

(٢) البعث: الجيش.

(٣) هذا المصدر لم تورده كتب اللغة في هذه المادة.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك الغضب. ﴿بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي اختاروها على الآخرة. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ «أنّ» في موضع خفض عطفاً على «بأنهم». ﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ثم وصفهم فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي عن فهم المواعظ. ﴿وَسَمْعِهِمْ﴾ عن كلام الله تعالى. ﴿وَأَبْصَارِهِمْ﴾ عَنِ النَّظرِ في الآيات. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ عما يراد بهم. ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ تقدّم[1].

[١١٠] ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ هذا كله في عمّار. والمعنى وصبروا على الجهاد؛ ذكره النحاس. وقال قتادة: نزلت في قوم خرجوا مهاجرين إلى المدينة بعد أن فتنهم المشركون وعذبوهم، وقد تقدّم ذكرهم في هذه السورة[2]. وقيل: نزلت في ابن أبي سَرْح، وكان قد ارتد ولحق بالمشركين فأمر النبيّ ﷺ بقتله يوم فتح مكة، فاستجار بعثمان فأجاره النبيّ ﷺ؛ ذكره النسائي عن عكرمة عن ابن عباس قال: في سورة النحل. ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ ـ إلى قوله ـ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فنسخ، واستثنى من ذلك فقال ﴿ثُمَّ إنّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي كان على مصر، كان يكتب لرسول الله ﷺ فأزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر به أن يقتل يوم الفتح؛ فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره رسول الله ﷺ.

[١١١] ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

(١) راجع ٩/٢٠. (٢) راجع ص ١٨٠ من هذا الجزء.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ أي إن الله غفور رحيم في ذلك. أو ذكرهم. ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ أي تخاصم وتحاجّ عن نفسها؛ جاء في الخبر أن كل أحد يقول يوم القيامة: نفسي نفسي! من شدة هَوْل يوم القيامة سوى محمد ﷺ فإنه يسأل في أمته. وفي حديث عمر أنه قال لكعب الأحبار: يا كعب، خوّفنا هيّجنا حدّثنا نبّهنا. فقال له كعب: يا أمير المؤمنين، والذي نفسي بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبياً لأتت عليك تاراتٌ لا يهُمّك إلا نفسك، وإن لجهنم زَفْرة لا يبقى مَلَك مقرّب لا نبيّ منتخَب إلا وقع جاثياً على ركبتيه، حتى إن إبراهيم الخليل ليُدْلِي بالخُلّة فيقول: يا رب، أنا خليلك إبراهيم، لا أسألك اليوم إلا نفسي! قال: يا كعب، أين تجد ذلك في كتاب الله؟ قال: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾. وقال ابن عباس في هذه الآية: ما تزال الخصومة بالناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد؛ فتقول الروح: ربِّ، الروح منك أنت خلقته، لم تكن لي يد أبْطِشُ بها، ولا رجل أمشي بها، ولا عين أبصِر بها، ولا أذن أسمع بها ولا عقل أعقل به، حتى جئت فدخلت في هذا الجسد، فضعّف عليه أنواع العذاب ونجّني؛ فيقول الجسد: ربّ، أنت خلقتني بيدك فكنتُ كالخشبة، ليس لي يد أبطش بها، ولا قدم أسعى به، ولا بصر أبصِر به، ولا سمع أسمع به، فجاء هذا كشعاع النور، فبه نطق لساني، وبه أبصرت عيني، وبه مشت رجلي، وبه سمعت أذني، فضعِّف عليه أنواع العذاب ونجّني منه. قال: فيضرب الله لهما مثلاً أعمى ومُقْعَداً دخلا بستاناً فيه ثمار، فالأعمى لا يبصِر الثمرة والمُقْعد لا ينالها، فنادى المقعد الأعمى: ايتني فأحملني آكل وأطعِمك، فدنا منه فحمله، فأصابوا من الثمرة؛ فعلى من يكون العذاب؟ [قالا[1]: عليهما] قال: عليكما جميعاً العذاب؛ ذكره الثعلبي.

[١١٢] ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

---

(١) من جـ وي، وفي و: قال.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً﴾ هذا متصل بذكر المشركين. وكان رسول الله ﷺ دعا على مشركي قريش وقال: «اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَرَ واجعلها عليهم سنِين كسِنِي يوسف». فابتُلُوا بالقحط حتى أكلوا العظام، ووجه إليهم رسول الله ﷺ طعاماً ففرّق فيهم. ﴿كَانَتْ آمِنَةً﴾ لا يُهاج أهلها. ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من البرِّ والبحر؛ نظيره: ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] الآية. ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ الأنعم: جمع النِّعمة؛ كالأَشُدّ جمع الشِّدة. وقيل: جمع نُعْمَى؛ مثل بؤسى وأبؤس. وهذا الكفران تكذيب بمحمد ﷺ. ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ﴾ أي أذاق أهلها. ﴿لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ سماه لباساً لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس. ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي من الكفر والمعاصي. وقرأ حفص بن غياث ونصر بن عاصم وابن أبي إسحاق والحسن وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث وعبيد وعباس «والخَوْفَ» نصباً بإيقاع أذاقها عليه، عطفاً على. «لِبَاسَ الجُوعِ» [أي أذاقها الله لباس الجوع][2] وأذاقها الخوفَ. وهو بعث النبيّ ﷺ سراياه التي كانت تُطيف بهم. وأصل الذوق بالفم ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء. وضرب مكة مثلاً لغيرها من البلاد؛ أي إنها مع جوار بيت الله وعمارة مسجده لمّا كفر أهلها أصابهم القَحْط فكيف بغيرها من القرى. وقد قيل: إنها المدينة، آمنت برسول الله ﷺ، ثم كفرت بأنْعُم الله لقتل عثمان بن عفان، وما حدث بها بعد رسول الله ﷺ من الفتن. وهذا قول عائشة وحفصة زَوْجَيِ النبيّ ﷺ. وقيل: إنه مثَلٌ مضروب بأيّ قرية كانت على هذه الصفة من سائر القُرَى.

[١١٣] ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

---

(١) راجع ١٣/٢٩٩.

(٢) من جـ وي.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ هذا يدلّ على أنها مكة. وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة. ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وهو الجوع الذي وقع بمكة. وقيل: الشدائد والجوع منها.

[١١٤] ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي كلوا يا معشر المسلمين من الغنائم. وقيل: الخطاب للمشركين؛ لأن النبيّ ﷺ بعث إليهم بطعام رِقّةً عليهم، وذلك أنهم لما ابتلوا بالجوع سبع سنين، وقطع العرب عنهم المِيرة بأمر النبيّ ﷺ أكلوا العظام المحرقة والجِيفة والكلاب الميتة والجلود والعِلْهِز، وهو الوبر يعالج بالدّم. ثم إن رؤساء مكة كلّموا[1] رسول الله ﷺ حين جُهدوا وقالوا: هذا عذاب الرجال فما بال النساء والصبيان. وقال له أبو سفيان: يا محمد، إنك جئت تأمر بصِلَة الرّحِم والعفو، وإن قومك قد هلكوا؛ فادع الله لهم. فدعا لهم رسول الله ﷺ، وأذِن[2] للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعدُ مشركون.

[١١٥] ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

تقدم في «البقرة» القول فيها مستوفى[3].

[١١٦] ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

[١١٧] ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

(١) في جـ: كاتبوا.
(٢) في ي: أمر الناس.
(٣) راجع ٢/٢١٦ وما بعدها.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿لِما تَصِفُ﴾ ما ها هنا مصدرية، أي لوصف. وقيل: اللام لام سبب وأجل، أي لا تقولوا لأجل وصفكم «الكَذِبَ» بنزع الخافض، أي لما تصف ألسنتكم من الكذب. وقرىء. «الكُذُبُ» بضم الكاف والذال والباء، نعتاً للألسنة، وقد تقدّم[١]. وقرأ الحسن هنا خاصة «الكذِبِ» بفتح الكاف وخفض الذال والباء، نعتاً «لما»؛ التقدير: ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذبِ. وقيل: على البدل من ما، أي ولا تقولوا للكذب الذي تصفه ألسنتكم، ﴿هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾. الآية خطاب للكفار الذين حرّموا البحائر والسّوائب وأحلّوا ما في بطون الأنعام وإن كان ميتة. فقوله: «هَذَا حَلاَلٌ» إشارة إلى ميتة بطون الأنعام، وكل ما أحلّوه. وقوله: ﴿وهَذَا حَرَامٌ﴾ إشارة إلى البحائر والسوائب وكل ما حرّموه. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ أي ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عن قريب. وقال الزجّاج: أي متاعهم متاع قليل. وقيل: لهم متاع قليل ثم يردّون إلى عذاب أليم.

الثانية - أسند الدّارِمِيّ أبو محمد في مسنده: أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال: ما سمعت إبراهيم قَطّ يقول حلال ولا حرام، ولكن كان يقول: كانوا يكرهون وكانوا يستحبون. وقال ابن وهب قال مالك: لم يكن من فُتْيَا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام، ولكن يقولون إيّاكم كذا وكذا، ولم أكن لأصنع هذا. ومعنى هذا: أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل، وليس لأحد أن يقول أو يصرّح بهذا في عين من الأعيان، إلا أن يكون البارىء تعالى يخبر بذلك عنه. وما يؤدي إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول: إني أكره [كذا]. وكذلك كان مالك يفعل اقتداءً بمن تقدم من أهل الفتوى. فإن قيل: فقد قال فيمن قال لزوجته أنت عليّ حرام إنها حرام ويكون ثلاثاً. فالجواب أن مالكاً لمّا سمع عليّ بن أبي طالب يقول إنها حرام اقتدى به. وقد يقوي الدليل على التحريم

(١) راجع ص ١٢٠ من هذا الجزء.

عند المجتهد فلا بأس عند ذلك أن يقول ذلك، كما يقول إن الربا حرام في غير الأعيان الستة[١]، وكثيراً ما يطلق مالك رحمه الله؛ فذلك حرام لا يصلح في الأموال الرّبوية وفيما خالف المصالح وخرج عن طريق المقاصد لقوة الأدلة في ذلك.

[١١٨] ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ بيّن أن الأنعام والحَرث حلال لهذه الأمة، فأما اليهود فحرمت عليهم منها أشياء. ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي في سورة الأنعام[٢]. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي بتحريم ما حرمنا عليهم، ولكن ظلموا أنفسهم فحرمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم؛ كما تقدم في النساء[٣].

[١١٩] ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾ أي الشرك؛ قاله ابن عباس. وقد تقدم في النساء[٤].

[١٢٠] ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً﴾ دعا عليه السلام مشركي العرب إلى مِلّة إبراهيم؛ إذ كان أباهم وبانِي البيت الذي به عِزُّهم. والأمة: الرجل الجامع للخير، وقد تقدم محامله[٥]. وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال: بلغني أن عبد الله بن مسعود

---

(١) هي الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح.

(٢) راجع ٧/ ١٢٤.

(٣) راجع ٦/ ١٢.

(٤) راجع ٥/ ٩٢.

(٥) راجع ٢/ ١٢٧.

قال: يرحم الله معاذاً! كان أمة قانتاً. فقيل له: يا أبا عبد الرحمن، إنما ذكر الله عز وجل بهذا إبراهيم عليه السلام. فقال ابن مسعود: إن الأمة الذي يعلم الناس الخير، وإن القانت هو المطيع. وقد تقدم القنوت في البقرة[1] و «حنيفا» في الأنعام[2].

[١٢١] ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾.

[١٢٢] ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿شَاكِراً﴾ أي كان شاكراً. ﴿لأَنْعُمِهِ﴾ الأنعم جمع نِعمة، وقد تقدم. ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أي اختاره. ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قيل: الولد الطيب. وقيل: الثناء الحسن. وقيل: النبوّة. وقيل: الصلاة مقرونة بالصلاة على محمد عليه السلام في التشهد. وقيل: إنه ليس أهل دين إلاّ وهم يتولّونه. وقيل: بقاء ضيافته وزيارة قبره. وكل ذلك أعطاه الله وزاده ﷺ. ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾. «مِن» بمعنى مع، أي مع الصالحين: لأنه كان في الدنيا أيضاً مع الصالحين. وقد تقدم هذا في البقرة[3].

[١٢٣] ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

قال ابن عمر: أُمِر باتباعه في مناسك الحج كما علّم إبراهيمَ جبريلُ عليهما السلام. وقال الطبري: أُمِر باتباعه في التبرؤ من الأوثان والتزين بالإسلام. وقيل: أُمِر باتباعه في جميع ملته إلا ما أمر بتركه؛ قاله بعض أصحاب الشافعي على ما حكاه الماوردي. والصحيح الاتباع في عقائد الشرع دون الفُروع؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُم شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[4].

---

(١) راجع ٢/٨٦ و ٣/٢١٣.

(٢) ذكر في الأنعام في موضعين، (٧/٢٨، ١٥٢) ولم يذكر المؤلف اشتقاقه فيهما، وإنما تكلم عليه في سورة البقرة ٢/١٣٩ فراجعه.

(٣) راجع ٢/١٣٣.

(٤) راجع ٦/٢١١.

مسألة: في هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول ـ لما تقدم[١] [إلى الصواب][١] - والعمل به، ولا دَرَك[٢] على الفاضل في ذلك؛ لأن النبيّ ﷺ أفضل الأنبياء عليهم السلام، وقد أمِر بالاقتداء بهم فقال: ﴿فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[٣]. وقال هنا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾.

[١٢٤] ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي لم يكن في شرع إبراهيم ولا من دينه، بل كان سَمْحاً لا تغليظ فيه، وكان السبت تغليظاً على اليهود في رفض الأعمال وترك التبسط في المعاش بسبب اختلافهم فيه، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم الجمعة فقال: تفرغوا للعبادة في كل سبعة أيام يوماً واحداً. فقالوا: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا، فاختاروا الأحد. وقد اختلف العلماء في كيفية ما وقع لهم من الاختلاف؛ فقالت طائفة: إن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وعيّنه لهم، وأخبرهم بفضيلته على غيره، فناظروه أن السبت أفضل؛ فقال الله له: «دعهم وما اختاروه لأنفسهم». وقيل: إن الله تعالى لم يعيّنه لهم، وإنما أمرهم بتعظيم يوم في الجمعة فاختلف اجتهادهم في تعيينه، فعيّنت اليهود السبت؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق. وعيّنت النصارى يوم الأحد؛ لأن الله تعالى بدأ فيه الخلق. فأُلزِم كلّ منهم ما أداه إليه اجتهاده. وعيّن الله لهذه الأمة يوم الجمعة من غير أن يَكِلَهم إلى اجتهادهم فضلاً منه ونعمة، فكانت خيرَ الأمم أمةً. روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة ونحن أوّل من يدخل الجنة بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فيه فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذي

(١) كذا في ي. وفي أ وجـ وو: في الأصول.
(٢) الدرك: التبعة.
(٣) راجع ٧/ ٣٥.

اختلفوا فيه فهدانا الله له ـ قال يوم الجمعة ـ فاليوم لنا وغداً لليهود وبعد غد للنصارى». فقوله: «فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه» يقوّي قول من قال: إنه لم يعيّن لهم؛ فإنه لو عُيّن لهم وعاندوا لما قيل «اختلفوا». وإنما كان ينبغي أن يقال فخالفوا فيه وعاندوا. ومما يقوّيه أيضاً قوله عليه السلام: «أضل الله عن الجمعة مَن كان قبلنا». وهذا نصٌ في المعنى. وقد جاء في بعض طرقه «فهذا يومهم الذي فرض الله عليهم اختلفوا فيه». وهو حجة للقول الأول. وقد روي: «إن الله كتب الجمعة على مَن كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا فيه تَبَعٌ».

قوله تعالى: ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يريد في يوم الجمعة كما بيناه؛ اختلفوا على نبيّهم موسى وعيسى. ووجه الاتصال بما قبله أن النبيّ ﷺ أمِر باتباع الحق، وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدّد عليهم كما شدّد على اليهود.

[١٢٥] ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

فيه مسألة واحدة ـ هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش؛ وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مُخاشنة وتَعْنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة. فهي محكمة في جهة العصاة من الموحّدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين. وقد قيل: إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورُجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة. والله أعلم.

[١٢٦] ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية، نزلت في شأن التمثيل بحَمْزَةَ في يوم أُحُد، ووقع ذلك في صحيح البخاري وفي كتاب السِّيَر. وذهب النحاس إلى أنها مكية، والمعنى متصل بما قبلها من المكي اتصالاً حسناً؛ لأنها تتدرّج الرتبُ من الذي يُدْعَى ويُوعَظ، إلى الذي يُجَادل، إلى الذي يجازَى على فعله. ولكن ما روى الجمهور أثبت؛ روى الدَّارَقُطْنِيّ عن ٱبن عباس قال: لما ٱنصرف المشركون عن قتلى أُحُد ٱنصرف رسول الله ﷺ فرأى منظَراً ساءه، رأى حَمْزَة قد شُقّ بطنه، وٱصطُلم أنفه، وجُدِعت أذناه، فقال: «لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدي لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثلنّ مكانه بسبعين رجلاً» ثم دعا ببردة وغطى بها وجهه، فخرجت رجلاه فغطى رسول الله ﷺ وجهه وجعل على رجليه من الإذْخِر، ثم قدّمه فكبر عليه عشراً، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه، حتى صلى عليه سبعين صلاة، وكان القتلى سبعين، فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية: ﴿ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ـ إلى قوله ـ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ بِاللَّهِ﴾ فصبر رسول الله ﷺ ولم يُمَثِّل بأحَد. خرجه إسماعيل بن إسحاق من حديث أبي هريرة، وحديثُ ٱبن عباس أكمل. وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: إنما نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة ألا ينال مِن ظالمه إذا تمكّن إلا مثل ظلامته لا يتعدّاه إلى غيره. وحكاه الماوردي عن ٱبن سيرين ومجاهد.

الثانية ـ وٱختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل في أخذ مال ثم ٱئتمن الظالم المظلوم على مال، هل يجوز له خيانته في القدر الذي ظلمه؛ فقالت فرقة: له ذلك؛ منهم ٱبن سيرين وإبراهيم النخعِيّ وسفيان ومجاهد؛ وٱحتجت بهذه الآية وعموم لفظها. وقال مالك وفرقة معه: لا يجوز له ذلك؛ وٱحتجوا بقول رسول الله ﷺ: «أدّ الأمانة إلى من ٱئتمنك ولا تخن من خانك». رواه الدَّارَقُطْنِي وقد تقدّم هذا في «البقرة» مستوفًى[1].

(١) راجع ٢/٣٥٥.

ووقع في مسند ابن إسحاق أن هذا الحديث إنما ورد في رجل زنى بامرأة آخر، ثم تمكّن الآخر من زوجة الثاني بأن تركها عنده وسافر؛ فاستشار ذلك الرجل رسول الله ﷺ في الأمر فقال له: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك». وعلى هذا يتقوّى قول مالك في أمر المال؛ لأن الخيانة لاحقة في ذلك، وهي رذيلة لا انفكاك عنها، فينبغي أن يتجنبها لنفسه؛ فإن تمكن من الانتصاف من مالٍ لم يأتمنه عليه فيُشبه أن ذلك جائز وكأن الله حكم له؛ كما لو تمكن الآخذ بالحكم من الحاكم. وقد قيل: إن هذه الآية منسوخة، نسختها. ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾.

الثالثة - في هذه الآية دليل على جواز التماثل في القصاص؛ فمن قَتل بحديدة قُتل بها. ومن قَتل بحجر قُتل به، ولا يتعدّى قدر الواجب، وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة» مستوفى[(١)]، والحمد لله.

الرابعة - سمّى الله تعالى الإذايات في هذه الآية عقوبة، والعقوبة حقيقة إنما هي الثانية، وإنما فعل ذلك ليستوي اللفظان وتتناسب دباجة القول، هذا بعكس قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾[(٢)] وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[(٣)] فإن الثاني هنا هو المجاز والأوّل هو الحقيقة؛ قاله ابن عطية.

[١٢٧] ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

[١٢٨] ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

فيه **مسألة واحدة** - قال ابن زيد: هي منسوخة بالقتال. وجمهور الناس على أنها مُحْكَمة. أي اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا من المُثْلَة. ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على قتلى أُحُد فإنهم صاروا إلى رحمة الله. ﴿وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ ضيق جمع ضيقة؛ قال الشاعر:

كَشَفَ الضَّيْقَةَ عنّا وفَسَحْ[(٤)]

---

(١) راجع ٣/٣٥٥. (٢) راجع ٤/٩٨.

(٣) راجع ١/٢٠٧. (٤) هذا عجز بيت للأعشى. وصدره كما في اللسان وديوانه:

فلئن ربك من رحمته

وقراءة الجمهور بفتح الضاد. وقرأ ابن كثير بكسر الضاد، ورويت عن نافع، وهو غلط ممن رواه. قال بعض اللغويين: الكسر والفتح في الضاد لغتان في المصدر. قال الأخفش: الضَّيق والضِّيق مصدر ضاد يضيق. والمعنى: لا يضيق صدرك من كفرهم. وقال الفراء: الضَّيق ما ضاق عنه صدرك، والضِّيق ما يكون في الذي يتسع ويضيق؛ مثل الدار والثوب. وقال ابن السكيت: هما سواء؛ يقال: في صدره ضَيق وضِيق. القُتَبِيّ: ضَيْق مخفّف ضيّق؛ أي لا تكن في أمر ضيِّق فخفّف؛ مثل هَيِّن وهَيْن. وقال ابن عرفة: يقال ضاق الرجل إذا بخل، وأضاق إذا افتقر. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي الفواحش والكبائر بالنصر والمعونة والفضل والبِّر والتأييد. وتقدّم معنى الإحسان. وقيل لهَرِم بن حِبّان[1] عند موته: أوصنا؛ فقال: أوصيكم بآيات الله وآخر سورة النحل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى آخرها.

تمت سورة النحل، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الإسراء

هذه السورة مكية، إلا ثلاث آيات: قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾[2] نزلت حين جاء رسول الله ﷺ وَفْدُ ثَقيف، وحين قالت اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء. وقوله عز وجل: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ الآية. وقال مقاتل: وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ الآية. وقال ابن مسعود رضي الله عنه في بني إسرائيل والكهف [ومريم]: إنهن من العِتاق الأول، وهنّ مِن تِلادِي؛ يريد من قديم كسبه.

(١) في أسد الغابة: حيان. بالياء. وكذا في جـ. وفي التاج وي: حبان. بالموحدة.

(٢) راجع ص ٣٠١، و ٣١٢، وص ٢٨١ فما بعد، و ٣٤٠ من هذا الجزء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾.

فيه ثمان[١] مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ﴾ «سبحان» اسم موضوع موضع المصدر، وهو غير متمكن؛ لأنه لا يجري بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام، ولم يجر منه فعل، ولم ينصرف لأن في آخره زائدتين، تقول: سبَّحْت تسبِيحاً وسُبحاناً، مثل كفَّرت اليمين تَكْفِيراً وكُفْراناً. ومعناه التنزيه والبراءة لله عز وجل من كل نقص. فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره؛ فأما قول الشاعر:

أقـول لمّـا جـاءنـي فَخْـرُه سُبْحـانَ مِـن عَلْقَمَـةَ الفـاخِـرِ[٢]

فإنما ذكره على طريق النادر. وقد روى طلحة بن عبيد الله الفَيَّاض أحدُ العشرة أنه قال للنبي ﷺ: ما معنى سبحان الله؟ فقال: «تنزيه الله من كل سوء». والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعل الذي من معناه لا من لفظه: إذ لم يجر من لفظه فعل، وذلك مثل قعد القُرْفُصاء، واشتمل الصَّمّاء[٣]؛ فالتقدير عنده: أنزّه الله تنزيهاً؛ فوقع «سبحان الله» مكان قولك تنزيهاً.

---

(١) كذا في جميع الأصول، ويلاحظ أن المسائل ست.

(٢) البيت للأعشى. يقول هذا لعلقمة بن علاثة الجعفري في منافرته لعامر بن الطفيل، وكان الأعشى قد فضل عامراً وتبرأ من علقمة وفخره على عامر (عن الشنتمري).

(٣) القرفصاء: جلسة المحتبي بيديه. والصماء، ضرب من الاشتمال. واشتمال الصماء: أن تجلل جسدك بثوبك نحو شملة الأعراب بأكسيتهم، وهو أن يردّ الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وعاتقه الأيسر ثم يردّه ثانية من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الأيمن فيغطيهما جميعاً.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ «أسرى» فيه لغتان: سرى وأسرى؛ كسقى وأسقى، كما تقدّم[١]. قال:

أسْرتْ عليه من الجَوْزاء سارِيَةٌ تُزْجِي الشَّمال عليه جامدَ البَرد[٢]

وقال آخر:

حَـيِّ النَّضِيـرة ربـة الخِـدْرِ أسْرت إليّ ولم تكن تَسْري[٣]

فجمع بين اللغتين في البيتين. والإسراء: سير الليل؛ يقال: سَرَيْت مَسْرًى وسُرًى، وأسريت إسراء؛ قال الشاعر:

وليلــة ذات نــدًى سـريـتُ ولـم يَلِتْنِـي مـن سُـراهـا لَيْـت

وقيل: أسْرى سار من أوّل الليل، وسَرى سار من آخره؛ والأوّل أعرف.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ قال العلماء: لو كان للنبي ﷺ اسم أشرف منه لسماه به في تلك الحالة العلية. وفي معناه أنشدوا:

يـا قـومِ قلبـي عنـد زهـراءِ يعـرفـه السـامـع والـرائـي
لا تَـدْعُنِـي إلاّ بيـا عبـدهـا فـإنــه أشــرف أسمـائـي

وقد تقدّم[٤]. قال القُشَيْرِي: لما رفعه الله تعالى إلى حضرته السّنية، وأرقاه فوق الكواكب العلوية[٥]، ألزمه اسم العبودية تواضعاً للأمة.

الرابعة ـ ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث، وروي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه. وذكر النقاش ممن رواه عشرين صحابياً. روى الصحيح عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض [طويل] فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه ـ قال ـ فركبته حتى أتيت بيت المقدس ـ قال ـ فربطته بالحَلْقة التي يربط بها الأنبياء ـ قال ـ ثم دخلت المسجد

---

(١) راجع ١/٤١٧.
(٢) البيت للنابغة الذبياني، من قصيدته التي مطلعها: يا دار مية بالعلياء.
(٣) البيت لحسان بن ثابت.
(٤) راجع ١/٢٣٢.
(٥) في و: اسمه عبد الله.

فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترتَ الفِطْرة ـ قال ـ ثم عَرج بنا إلى السماء. . .» وذكر الحديث. ومما ليس في الصحيحين ما خرّجه الآجُرِّيّ والسَّمْرَقَنْدي، قال الآجري عن أبي سعيد الخُدْرِيّ في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ قال أبو سعيد: حدثنا رسول الله ﷺ عن ليلة أسْرِيَ به، قال النبي ﷺ: «أتيت بدابّة هي أشبه الدواب بالبغل له أذنان يضطربان[1] وهو البراق الذي كانت الأنبياء تركبه قبلُ فركبته فانطلق تقع يداه عند منتهى بصره فسمعت نداء عن يميني يا محمد على رِسلِك حتى أسألك فمضيت ولم أعرِّج عليه ثم سمعت نداء عن يساري يا محمد على رِسْلِك فمضيت ولم أُعَرِّجْ عليه ثم استقبلتني ٱمرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أعَرِّجْ ثم أتيت بيت المقدس الأقصى فنزلت عن الدابة فأوثقته في الحلقة التي كانت الأنبياء توثق بها ثم دخلت المسجد وصليت فيه فقال لي جبريل عليه السلام ما سمعتَ يا محمد فقلت سمعتُ نداءً عن يميني يا محمد على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أعَرِّجْ فقال ذلك داعي اليهود ولو وقفت لتهوّدت أمتك ـ قال ـ ثم سمعت نداء عن يساري على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّجْ عليه فقال ذلك داعي النصارى أمَا إنك لو وقفت لتنصّرت أمتك ـ قال ـ ثم استقبلتني ٱمرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رِسْلِك فمضيت ولم أعَرِّجْ عليها فقال تلك الدنيا لو وقفتَ لاخترت الدنيا على الآخرة ـ قال ـ ثم أتيت بإناءين أحدهما فيه لَبَنٌ والآخر فيه خَمْر فقيل لي خذ فاشرب أيهما شئت فأخذت اللبن فشربته فقال لي جبريل أصبت الفِطْرة ولو أنك أخذت الخمر غَوَتْ أمتك ثم جاء بالمعراج الذي تعرج فيه أرواح بني آدم فإذا هو أحسن ما رأيت أو لم تروا إلى الميت كيف يحدّ بصره إليه فعرج بنا حتى أتينا[2] باب السماء الدنيا فٱستفتح جبريل فقيل من هذا؟ قال: جبريل قالوا: ومن معك؟ قال: محمد قالوا: وقد أرسل إليه؟

---

(١) في الأصول: «يخطرفان» والتصويب عن الدر المنثور.

(٢) في جـ وو وي: انتهينا.

قال نعم ففتحوا لي وسلّموا عليّ وإذا مَلَكَ يحرس السماء يقال له إسماعيل معه سبعون ألف مَلَكٍ مع كل مَلَك مائة ألف ـ قال ـ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ. . .﴾ وذكر الحديث إلى أن قال: «ثم مضينا إلى السماء الخامسة وإذا أنا بهارون بن عمران المُحَبّ في قومه وحوله تبع كثير من أمته فوصفه النبيّ ﷺ وقال طويل اللحية تكاد لحيته تضرب في سرته ثم مضينا إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى فسلم عليّ ورحب بي ـ فوصفه النبيّ ﷺ فقال ـ رجل كثير الشعر ولو كان عليه قميصان خرج شعره منهما. . .» الحديث. وروى البّزار أن رسول الله ﷺ أُتِي بفرس فحمل عليه، كلُّ خُطوة منه أقصى بصره. . . وذكر الحديث. وقد جاء في صفة البراق من حديث ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم في الحِجْر إذ أتاني آت فحركني برجله فأتبعت الشخص فإذا هو جبريل عليه السلام قائم على باب المسجد معه دابّة دون البغل وفوق الحمار وجهها وجه إنسان وخُفّها خُفّ حافر وذَنَبها ذنب ثور وعُرْفُها عرف الفرس فلما أدناها مني جبريل عليه السلام نفرت ونفشت عرفها فمسحها جبريل عليه السلام وقال يا بُرْقة لا تَنْفِري من محمد فوالله ما ركبك مَلَك مقرّب ولا نبيّ مُرْسَل أفضلُ من محمد ﷺ ولا أكرم على الله منه قالت قد علمت أنه كذلك وأنه صاحب الشفاعة وإني أحِبّ أن أكون في شفاعته فقلت أنت في شفاعتي إن شاء الله تعالى. . .» الحديث. وذكر أبو سعيد عبد الملك بن محمد النّيسابوري عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال: لما مرّ النبيّ ﷺ بإدريس عليه السلام في السماء الرابعة قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح الذي وُعدنا أن نراه فلم نره إلا الليلة قال فإذا فيها مريم بنت عمران لها سبعون قصراً من لؤلؤ ولأم موسى بن عمران سبعون قصراً من مرجانة حمراء مكللة باللؤلؤ أبوابها وأسِرّتها من عرق واحد فلما عرج المعراج إلى السماء الخامسة وتسبيحُ أهلها سبحان من جمع بين الثلج والنار من قالها مرة واحدة كان له مثلُ ثوابهم آستفتح الباب جبريلُ عليه السلام ففُتح له فإذا هو بكَهْلٍ لم يُرَ قطُّ كَهْلٌ أجمل منه عظيم العينين تضرب لحيته

قريباً من سرته قد كاد أن تكون شَمْطَة[١] وحوله قوم جلوس يقصّ عليهم فقلت يا جبريل من هذا قال هارون المُحَبّ في قومه. . . » وذكر الحديث.

فهذه نبذة مختصرة من أحاديث الإسراء خارجة عن الصحيحين، ذكرها أبو الربيع سليمان بن سبع بكمالها في كتاب (شفاء الصدور) له. ولا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السِّيَر أن الصلاة إنما فرضت على النبيّ ﷺ بمكة في حين الإسراء حين عرج به إلى السماء. واختلفوا في تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة، وهل كان إسراءً بروحه أو جسده؛ فهذه ثلاث مسائل تتعلق بالآية، وهي مما ينبغي الوقوف عليها والبحث عنها، وهي أهمّ من سَرْد تلك الأحاديث، وأنا أذكر ماوقفت عليه فيها من أقاويل العلماء واختلاف الفقهاء بعون الله تعالى.

فأما المسألة الأولى - وهي هل كان إسراءً بروحه أو جسده؛ اختلَف في ذلك السلف والخلف، فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح، ولم يفارق شخصُه مضجَعه، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق، ورؤيا الأنبياء حق. ذهب إلى هذا معاوية وعائشة، وحكي عن الحسن وابن إسحاق. وقالت طائفة: كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح؛ واحتجوا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء. قالوا: لو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فإنه كان يكون أبلغ في المدح. وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراء بالجسد وفي اليقظة، وأنه ركب البُرَاق بمكة، ووصل إلى بيت المقدس وصلّى فيه ثم أسْرِيَ بجسده. وعلى هذا تدلّ الأخبار التي أشرنا إليها والآية. وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يُعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، ولو كان مناماً لقال بروح عبده ولم يقل بعبده. وقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾[٢] يدلّ على ذلك. ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما قالت له أم هانيء: لا تحدِّث الناس

---

(١) الشمط في الشعر: اختلافه بلونين من سواد وبياض.

(٢) راجع ١٧/ ٩٢.

فيكذبوك، ولا فضّل أبو بكر بالتصديق، ولما أمكن قريشاً التشنيعُ والتكذيب، وقد كذبه قريش فيما أخبر به حتى ارتد أقوام كانوا آمنوا، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر، وقد قال له المشركون: إن كنت صادقاً فخبّرنا عن عِيرنا أين لقيَتَها؟ قال: «بمكان كذا وكذا مررت عليها ففزع فلان» فقيل له: ما رأيت يا فلان، قال: ما رأيت شيئاً! غير أن الإبل قد نفرت. قالوا: فأخبرنا متى تأتنا العِيرُ؟ قال: «تأتيكم يوم كذا وكذا». قالوا: أيّة ساعة؟ قال: «ما أدري، طلوع الشمس من ها هنا أسرع أم طلوع العِير من ها هنا». فقال رجل: ذلك اليوم؟ هذه الشمس قد طلعت. وقال رجل: هذه عِيركم قد طلعت، واستخبروا النبيّ ﷺ عن صفة بيت المقدس فوصفه لهم ولم يكن رآه قبل ذلك. روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحِجر وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أُثْبِتْها[1] فكُرِبْتُ كَرْباً ما كُرِبت مثله قطّ ـ قال ـ فرفعه الله لي أنظر إليه فما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به» الحديث. وقد اعترض قول عائشة ومعاوية: «إنما أُسري بنَفْس رسول الله ﷺ» بأنها كانت صغيرة لم تشاهِد، ولا حدّثت عن النبيّ ﷺ. وأما معاوية فكان كافراً في ذلك الوقت غير مشاهِد للحال، ولم يحدّث عن النبيّ ﷺ. ومن أراد الزيادة على ما ذكرنا فليقف على (كتاب الشفاء) للقاضي عياض يجد من ذلك الشفاء. وقد احتج لعائشة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنّاسِ﴾[2] فسماها رؤيا. وهذا يردّه قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ ولا يقال في النوم أسرى. وأيضاً فقد يقال لرؤية العين: رؤيا، على ما يأتي بيانه في هذه السورة. وفي نصوص الأخبار الثابتة دلالة واضحة على أن الإسراء كان بالبدن، وإذا ورد الخبر بشيء هو مجوّز في العقل في قدرة الله تعالى فلا طريق إلى الإنكار، لا سيما في زمن خرق العوائد، وقد كان للنبيّ ﷺ معارجُ؛ فلا يبعد أن يكون البعض بالرؤيا، وعليه يحمل قوله عليه السلام في الصحيح: «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان» الحديث. ويحتمل أن يردّ من الإسراء إلى نوم. والله أعلم.

---

(١) أي لم أعرفها حق؛ يقال: أثبت الشي وثابته إذا عرفه حق المعرفة.

(٢) راجع ص ٢٨٢ من هذا الجزء.

المسألة الثانية[(١)] ـ في تاريخ الإسراء، وقد اختلف العلماء في ذلك أيضاً، واختلف في ذلك على ابن شهاب؛ فروى عنه موسى بن عقبة أنه أسرِيَ به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة. وروى عنه يونس عن عروة عن عائشة قالت: تُوفِّيت خديجة قبل أن تُفرض الصلاة. قال ابن شهاب: وذلك بعد مبعث النبيّ ﷺ بسبعة أعوام. وروى عنه الوَقّاصيّ: قال أُسْرِيَ به بعد مبعثه بخمس سنين. قال ابن شهاب: وفُرض الصيام بالمدينة قبل بَدْر، وفُرضت الزكاة والحج بالمدينة، وحُرّمت الخمر بعد أُحُد. وقال ابن إسحاق: أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس، وقد فشا الإسلام بمكة في القبائل. وروى عنه يونس بن بكير قال: صلّت خديجة مع النبيّ ﷺ. وسيأتي. قال أبو عمر: وهذا يدلك على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام؛ لأن خديجة قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين وقيل: بثلاث وقيل: بأربع. وقول ابن إسحاق مخالف لقول ابن شهاب، على أن ابن شهاب قد اختلف عنه كما تقدّم. وقال الحَرْبِي: أسري به ليلة سبع وعشرين من [شهر] ربيع الآخرة قبل الهجرة بسنة. وقال أبو بكر محمد بن عليّ ابن القاسم الذهبي في تاريخه: أسري به من مكة إلى بيت المقدس، وعرج به إلى السماء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً. قال أبو عمر: لا أعلم أحداً من أهل السير قال ما حكاه الذهبي، ولم يُسْنِد قوله إلى أحد ممن يضاف إليه هذا العلم منهم، ولا رفعه إلى من يحتج به عليهم.

المسألة الثالثة[(١)] ـ وأما فرض الصلاة وهيئتها حين فُرضت، فلا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عرج به إلى السماء، وذلك منصوص في الصحيح وغيره. وإنما اختلفوا في هيئتها حين فرضت؛ فروي عن عائشة رضي الله عنها أنها فرضت ركعتين ركعتين، ثم زيد في صلاة الحضر فأكملت أربعاً، وأقرّت صلاة السفر على ركعتين. وبذلك قال الشَّعْبِي وميمون بن مِهْران ومحمد بن إسحاق. قال الشعبيّ: إلا المغرب. قال يونس بن بكير: وقال ابن إسحاق ثم إن جبريل عليه السلام أتى النبيّ ﷺ حين فرضت عليه الصلاة يعني في الإسراء فهمز له بعقبِه في ناحية

---

(١) في جـ: المسألة الخامسة، والمسألة السادسة بدل المسألة الثانية والثالثة. فيكون الترقيم على ما قال المصنف أوّلاً: ثمان مسائل.

الوادي فأنفجرت عين ماء فتوضأ جبريل ومحمد ينظر عليهما السلام فوَضّأ وجهه وأستنشق وتمضمض ومسح برأسه وأذنيه ورجليه إلى الكعبين ونضح فرجه، ثم قام يصلي ركعتين بأربع سجدات، فرجع رسول الله ﷺ وقد أقر الله عينه وطابت نفسه وجاءه ما يحب من أمر الله تعالى، فأخذ بيد خديجة ثم أتى بها العين فتوضأ كما توضأ جبريل ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة، ثم كان هو وخديجة يصليان سواء. وروي عن ابن عباس أنها فرضت في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين. وكذلك قال نافع بن جُبَير والحسن بن أبي الحسن البصري، وهو قول ابن جريج، وروي عن النبي ﷺ ما يوافق ذلك. ولم يختلفوا في أن جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال، فعلّم النبيّ ﷺ الصلاة ومواقيتها. وروى يونس بن بكير عن سالم مولى أبي المهاجر قال سمعت ميمون بن مهران يقول: كان أوّل الصلاة مثنى، ثم صلّى رسول الله ﷺ أربعاً فصارت سُنّة، وأُقِرّت الصلاة للمسافر وهي تمام. قال أبو عمر: وهذا إسناد لا يحتج بمثله، وقوله: «فصارت سنّةً» قول منكر، وكذلك استثناء الشعبي المغرب وحدها ولم يذكر الصبح قولٌ لا معنى له. وقد أجمع المسلمون أن فرض الصلاة في الحضر أربع إلا المغرب والصبح ولا يعرفون غير ذلك عملاً ونقلاً مستفيضاً، ولا يضرهم الاختلاف فيما كان أصل فرضها.

الخامسة[1] ـ قد مضى الكلام في الأذان في «المائدة»[2] والحمد لله. ومضى في «آل عمران»[3] أن أوّل مسجد وضع في الأرض المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى. وأن بينهما أربعين عاماً من حديث أبي ذرّ، وبناء سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو ووجه الجمع في ذلك؛ فتأمله هناك فلا معنى للإعادة. ونذكر هنا قوله ﷺ: «لا تُشَدّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام وإلى مسجدي هذا وإلى مسجد إيلياء ـ أو بيت المقدس». خرّجه مالك من حديث أبي هريرة. وفيه ما يدلّ على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد؛ لهذا قال العلماء: من نذر صلاة في مسجد

---

(١) في جـ هذه المسألة السابعة.
(٢) راجع ٦/ ٢٢٤.
(٣) ٤/ ١٣٧.

لا يصل إليه إلا برحلة وراحلة فلا يفعل، ويصلّي في مسجده، إلا في الثلاثة المساجد المذكورة فإنه من نذر صلاة فيها خرج إليها. وقد قال مالك وجماعة من أهل العلم فيمن نذر رِباطاً في ثَغْر يسدّه: فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط لأنه طاعة لله عز وجل. وقد زاد أبو البخْتَرِي في هذا الحديث مسجد الجند، ولا يصح وهو موضوع، وقد تقدّم في مقدّمة الكتاب.

السادسة[1] ـ قوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ سُمِّيَ الأقْصَى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظّم بالزيارة، ثم قال: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ قيل: بالثمار وبمجاري الأنهار. وقيل: بمن دُفن حوله من الأنبياء والصالحين؛ وبهذا جعله مقدساً. وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى يا شام أنت صفوَتِي من بلادي وأنا سائق إليك صفوتي من عبادي» [أصله سام فعرب][2] ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ هذا من باب تلوين الخطاب. والآيات التي أراه الله من العجائب التي أخبر بها الناس، وإسراؤه من مكة إلى المسجد الأقصى في ليلة وهو مسيرة شهر، وعروجه إلى السماء ووصفه الأنبياء واحداً واحداً، حسبما ثبت في صحيح مسلم وغيره. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقدّم[3].

[٢] ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ﴾.

أي كرمنا محمداً ﷺ بالمعراج، وأكرمنا موسى بالكتاب وهو التوراة. ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي ذلك الكتاب. وقيل: موسى. وقيل: معنى الكلام سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً وآتى موسى الكتاب؛ فخرج من الغيبة إلى الإخبار عن نفسه جل وعز. وقيل: إن معنى سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً، معناه أسرينا، يدلّ عليه ما بعده من قوله: ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ فحمل ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ على المعنى. ﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا﴾ قرأ أبو عمرو «يتخذوا»

(١) في جـ: المسألة الثامنة.
(٢) من ي.
(٣) راجع ٥/٢٥٨.

بالياء. الباقون بالتاء. فيكون من باب تلوين الخطاب. ﴿وَكِيلًا﴾ أي شريكاً؛ عن مجاهد. وقيل: كفيلاً بأمورهم؛ حكاه الفراء. وقيل: ربًّا يتوكّلون عليه في أمورهم؛ قاله الكلبي. وقال الفراء: كافياً؛ والتقدير: عهدنا إليه في الكتاب ألا تتخذوا من دوني وكيلاً. وقيل: التقدير لئلا تتخذوا. والوكيل: من يُوكَل إليه الأمر.

[٣] ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾.

أي يا ذرية من حملنا، على النداء؛ قاله مجاهد ورواه عنه ابن أبي نجيح. والمراد بالذرية كل من احتج عليه بالقرآن، وهم جميع مَن على الأرض؛ ذكره المهدوِيّ. وقال الماورِدِيّ: يعني موسى وقومه من بني إسرائيل، والمعنى يا ذرية من حملنا مع نوح لا تشركوا. وذكر نوحاً ليذكرهم نِعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم. وروى سفيان عن حُميد عن مجاهد أنه قرأ «ذَرِّيّة» بفتح الذال وتشديد الراء والياء. وروى هذه القراءة عامر بن الواجد[١] عن زيد بن ثابت. وروي عن زيد بن ثابت أيضاً «ذِرية»[١] بكسر الذال وشدّ الراء [والياء][٢]. ثم بيّن أن نوحاً كان عبداً شكوراً يشكر الله على نعمه ولا يرى الخير إلا من عنده. قال قتادة: كان إذا لبس ثوباً قال: بسم الله، فإذا نزعه قال: الحمد لله . كذا روى عنه مَعْمَر. وروى معمر عن منصور عن إبراهيم قال: شكره إذا أكل قال : بسم الله : فإذا فرغ من الأكل قال : الحمد لله . قال سلمان الفارسي: لأنه كان يَحمَد الله على طعامه. وقال عمران بن سليم: إنما سمي نوحاً عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء لأجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو شاء لأظمأني ، وإذا اكتسى قال الحمد لله الذي كساني ولو شاء لأعراني، وإذا احتذى قال: الحمد الله الذي حذاني ولو شاء لأحفاني، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني الأذى ولو شاء لحبسه فيّ. ومقصود الآية: إنكم من ذرية نوح وقد كان عبداً شكوراً فأنتم أحق بالاقتداء به دون آبائكم الجهال. وقيل: المعنى أن موسى كان عبداً شكوراً إذ جعله الله من ذرية نوح. وقيل: يجوز أن يكون

(١) كذا في نسخ الأصل، ولم نعثر عليه في المظان. وفي الشواذ: ذرية بالكسر الأصل.
(٢) من جـ.

«ذُرِّيَّةَ» مفعولاً ثانياً لـ «تَتَّخِذُوا»، ويكون قوله: «وكيلًا» يراد به الجمع فيسوغ ذلك في القراءتين جميعاً أعني الياء والتاء في «تتخذوا». ويجوز أيضاً في القراءتين جميعاً أن يكون «ذرية» بدلاً من قوله «وكيلًا» لأنه بمعنى الجمع؛ فكأنه قال: لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح. ويجوز نصبها بإضمار أعْنِي وأمدَحُ، والعرب قد تنصب على المدح والذّم. ويجوز رفعها على البدل من المضمر في «تتخذوا» في قراءة من قرأ بالياء؛ ولا يحسن ذلك لمن قرأ بالتاء لأن المخاطب لا يبدل منه الغائب. ويجوز جرّها على البدل من بني إسرائيل في الوجهين فأما «أن» من قوله: «ألاّ تَتَّخِذُوا» فهي على قراءة من قرأ بالياء في موضع نصب بحذف الجار، التقدير: هديناهم لئلا يتخذوا. ويصلح على قراءة التاء أن تكون زائدة والقول مضمر كما تقدّم. ويصلح أن تكون مفسرة بمعنى أي، لا موضع لها من الإعراب، وتكون « لا » للنهي فيكون خروجاً من الخبر إلى النهي.

[٤] ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ وقرأ سعيد بن جبير وأبو العالية «فِي الكُتُبِ» على لفظ الجمع. وقد يرِد لفظ الواحد ويكون معناه الجمع؛ فتكون القراءتان بمعنى واحد. ومعنى. «قَضَيْنَا» أعلمنا وأخبرنا؛ قاله ابن عباس: وقال قتادة حكمنا؛ وأصل القضاء الإحكام للشيء والفراغ منه. وقيل: قضينا أوحينا؛ ولذلك قال: «إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ». وعلى قول قتادة يكون «إِلَى» بمعنى على؛ أي قضينا عليهم وحكمنا. وقاله ابن عباس أيضاً. والمعنِيّ بالكتاب اللوح المحفوظ. ﴿لَتُفْسِدُنّ﴾ وقرأ ابن عباس «لَتُفْسَدُنّ». عيسى الثقفي «لَتَفْسُدُنّ». والمعنى في القراءتين قريب؛ لأنهم إذا أفسدوا فسدوا، والمراد بالفساد مخالفة أحكام التوراة. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يريد أرض الشام وبيت المقدس وما والاها . ﴿مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنّ﴾ اللام في «لتفسدن ولتعلن» لام قسم مضمر كما تقدّم. ﴿عُلُوًّا كَبِيراً﴾ أراد التكبر والبَغْي والطغيان والاستطالة والغَلَبة والعدوان.

[٥] ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أولاَهُمَا﴾ أي أولى المرّتين من فسادهم. ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أولِي بَأسٍ شَدِيدٍ﴾ هم أهل بَابِل، وكان عليهم بُخْتَنَصّر في المرة الأولى حين كذبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه؛ قاله ابن عباس وغيره. وقال قتادة: أرسل عليهم جالوت فقتلهم، فهو وقومه أولوا بأس شديد. وقال مجاهد: جاءهم جند من فارس يتجسّسون أخبارهم ومعهم بختنصر فوَعَى حديثهم من بين أصحابه، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال، وهذا في المرة الأولى، فكان منهم جَوْسٌ خلال الديار لا قتل؛ ذكره القشيري أبو نصر. وذكر المهدوِيّ عن مجاهد أنه جاءهم بختنصر فهزمه بنو إسرائيل، ثم جاءهم ثانية فقتلهم ودمّرهم تدميراً. ورواه ابن أبي نَجيح عن مجاهد؛ ذكره النحاس. وقال محمد بن إسحاق في خبر فيه طول[1]: إن المهزوم سَنْحاريب مَلِك بابل، جاء ومعه ستمائة ألف راية تحت كل راية مائة ألف فارس فنزل حول بيت المقدس فهزمه الله تعالى وأمات جميعهم إلا سنحاريب وخمسة نفر من كُتّابه، وبعث ملك بني إسرائيل واسمه صديقة في طلب سنحاريب فأخِذ مع الخمسة، أحدهم بختنصر، فطرح في رقابهم الجوامع[2] وطاف بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس وإيلياء ويرزقهم كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم، ثم أطلقهم فرجعوا إلى بابل، ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين، واستخلف بختنصر وعظمت الأحداث في بني إسرائيل، واستحلوا المحارم وقتلوا نبيهم شَعْيَا؛ فجاءهم بختنصر ودخل هو وجنوده بيت المقدس وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم. وقال ابن عباس وابن مسعود: أوّل الفساد قتل زكريا. وقال ابن إسحاق: فسادهم في المرة الأولى قتل شَعْيَا نبي الله في الشجرة؛ وذلك أنه لما مات صديقة ملكهم مَرِج[3] أمرهم

(١) راجع كتاب قصص الأنبياء، المسمى بالعرائس ص ٢٥٩ طبع بولاق وتاريخ الطبري جـ ٢ قسم أوّل ص ٦٣٨ وما بعدها طبع أوروبا.

(٢) الجوامع: الأغلال، والواحد جامعة.

(٣) مرج الأمر: فسد وٱختلط وٱلتبس المخرج فيه.

وتنافسوا على الملك وقتل بعضهم بعضاً وهم لا يسمعون من نبيهم؛ فقال الله تعالى له: قم في قومك أوحِ على لسانك، فلما فرغ مما أوحى الله إليه عدوا عليه ليقتلوه فهرب فانفلقت له شجرة فدخل فيها، وأدركه الشيطان فأخذ هُدْبَة من ثوبه فأراهم إياها، فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها. وذكر ابن إسحاق: أن بعض العلماء أخبره أن زكريا مات موتاً ولم يقتل وإنما المقتول شَعْيَا. وقال سعيد بن جُبَير في قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ هو سنحاريب من أهل نِينَوَى بالمَوْصَل مِلِك بابل. وهذا خلاف ما قال ابن إسحاق، فالله أعلم. وقيل: إنهم العمالقة وكانوا كفاراً، قاله الحسن. ومعنى «جَاسُوا»: عاثوا وقتلوا؛ وكذا حاسوا وهاسوا وداسوا؛ قاله ابن عُزيز: وهو قول القُتَبِيّ. وقرأ ابن عباس: «حاسوا» بالحاء المهملة. قال أبو زيد: الحوس والجوس والعَوْس والهَوْس: الطواف بالليل. وقال الجوهري: الجَوْسُ مصدر قولك جاسوا خلال الديار، أي تخَلّلوها فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أي يطلبها؛ وكذلك الاجتياس. والجَوَسان (بالتحريك) الطوفان بالليل؛ وهو قول أبي عبيدة. وقال الطبري: طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين؛ فجمع بين قول أهل اللغة. قال ابن عباس: مشوا وتردّدوا بين الدور والمساكن. وقال الفراء: قتلوكم بين بيوتكم؛ وأنشد لحسان:

ومنا الذي لاقى بسيف محمد ... فجاس به الأعداء عرض العساكر

وقال قطرب: نزلوا؛ قال:

فجُسْنَا ديارَهم عُنْوَةً ... وأُبْنَا بسادتهم مُوثَقِينَا

﴿وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ أي قضاء كائناً لا خلف فيه.

[٦] ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِم﴾ أي الدولة والرجعة؛ وذلك لمّا تبتم وأطعتم. ثم قيل: ذلك بقتل داود جالوت أو بقتل غيره، على الخلاف في من قتلهم. ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ حتى عاد أمركم كما كان. ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ أي أكثر عدداً ورجالاً من عدوّكم. والنفير مَن نفر مع الرجل من عشيرته؛ يقال: نفير ونافر مثل قدير وقادر. ويجوز أن يكون النفير جمع نَفْر كالكليب والمعيز والعبيد؛ قال الشاعر:

فـأكْـرِمْ بقَحْطـانَ مـن والـد وحِمْيَـر أكـرم بقـوم نفيـرا

والمعنى: أنهم صاروا بعد هذه الوقعة الأولى أكثرَ انضماماً وأصلح أحوالاً، جزاء من الله تعالى لهم على عودهم إلى الطاعة.

[٧] ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي نفع إحسانكم عائد عليكم. ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي فعليها؛ نحو سلام لك، أي سلام عليك. قال:

فخرّ صريعاً لليدين وللفمِ[١]

أي على اليدين وعلى الفم. وقال الطبري: اللام بمعنى إلى، يعني وإن أسأتم فإليها، أي فإليها ترجع الإساءة؛ كقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[٢] أي إليها. وقيل: فلها الجزاء والعقاب. وقال الحسين بن الفضل: فلها رَبٌّ يغفر الإساءة. ثم يحتمل أن يكون هذا

---

(١) هذا عجز بيت لربيعة بن مكدم. وصدره:

وهتكت بالرمح الطويل إهابه

وقبل هذا البيت:

فصـرفـت راحلـة الظعينـة نحـوه عمـداً ليعلـم بعـض مـا لـم يعلـم

وبعده:

ومنحـت آخـر بعـده جيـاشـة نجـلاء فـاغـرة كشـدق الأضجـم

وهذه الأبيات قيلت يوم الظعينة. راجع أمالي القالي ٢/ ٢٧٠ طبع دار الكتب. (٢) راجع ٢٠/ ١٤٩.

خطاباً لبني إسرائيل في أوّل الأمر؛ أي أسأتم فحلّ بكم القتل والسَّبْيُ والتخريب ثم أحسنتم فعاد إليكم الملك والعُلُوّ وانتظام الحال. ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو إسرائيل في زمن محمد ﷺ، أي عرفتم استحقاق أسلافكم للعقوبة على العصيان فارتقبوا مثله. أو يكون خطاباً لمشركي قريش على هذا الوجه. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ من إفسادكم؛ وذلك أنهم قتلوا في المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما السلام، قتله مِلِك من بني إسرائيل يقال له: لاخت؛ قاله القُتَبِيّ. وقال الطبري: اسمه هيردوس، ذكره في التاريخ؛ حمله على قتله أمرأة اسمها أزبيل. وقال السدّي: كان ملك بني إسرائيل يكرم يحيى بن زكريا ويستشيره في الأمر، فاستشاره الملك أن يتزوج بنت أمرأة له فنهاه عنها وقال: إنها لا تحلّ لك؛ فحقدت أمّها على يحيى عليه السلام، ثم ألبست ابنتها ثياباً حمراء رِقَاقاً وطيّبتها وأرسلتها إلى الملك وهو على شرابه، وأمرتها أن تتعرض له، وإن أرادها أَبَتْ حتى يعطيها ما تسأله؛ فإذا أجاب سألت أن يؤتى برأس يحيى بن زكريا في طَسْت من ذهب؛ ففعلت ذلك حتى أتى برأس يحيى بن زكريا والرأس يتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول: لا تحلّ لك؛ لا تحلّ لك؛ فلما أصبح إذا دمه يَغْلِي، فألقي عليه التراب فغلى فوقه، فلم يزل يلقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يَغْلِي؛ ذكره الثعلبي وغيره. وذكر ابن عساكر الحافظ في تاريخه عن الحسين بن عليّ قال: كان ملك من هذه الملوك مات وترك امرأته وابنته فورِث مُلْكَه أخوه، فأراد أن يتزوّج امرأة أخيه، فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك، وكانت الملوك في ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء، فقال له: لا تتزوّجها فإنها بَغِيّ، فَعُرِّفَت المرأةُ أنه قد ذكرها وصرفه عنها، فقالت: من أين هذا؟ حتى بلغها أنه من قِبَل يحيى، فقالت: ليقتلن يحيى أو ليخرجن من ملكه، فعمدت إلى ابنتها وصَنّعتها، ثم قالت: اذهبي إلى عمك عند الملأ فإنه إذا رآك سيدعوك ويجلسك في حجره، ويقول سليني ما شئت، فإنك لن تسأليني شيئاً إلا أعطيتك، فإذا قال لك ذلك فقولي: لا أسأل إلا رأس يحيى. قال: وكانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشيء على رؤوس الملأ ثم لم يُمْض له نُزِع من ملكه؛ ففعلت ذلك. قال: فجعل يأتيه الموت من قتله يحيى،

وجعل يأتيه الموت من خروجه من ملكه» فاختار ملكه فقتله. قال: فساخت بأمّها الأرض. قال ابن جُدْعان: فحدّثت بهذا الحديث ابنَ المسيّب فقال: أفما أخبرك كيف كان قتل زكريا؟ قلت لا: قال: إن زكريا حيث قتل ابنه انطلق هارباً منهم واتبعوه حتى أتى على شجرة ذات ساق فدعته إليها فانطوت عليه وبقيت من ثوبه هُدْبَة تكفتها الرياح، فانطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثره بعدها، ونظروا بتلك الهدبة فدعوا بالمِنشار فقطعوا الشجرة فقطعوه معها.

قلت: وقع في التاريخ الكبير للطبري[1] فحدثني أبو السائب قال: حدّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المِنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: بعث عيسى ابن مريم يحيى بن زكريا في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس، قال: كان فيما نهوهم عنه نكاح ابنة الأخ، قال: وكان لملكهم ابنة أخ تعجبه. . . وذكر الخبر بمعناه. وعن ابن عباس قال: بعث يحيى بن زكريا في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس، وكان فيما يعلمونهم ينهونهم عن نكاح بنت الأخت، وكان لملكهم بنت أخت تعجبه وكان يريد أن يتزوّجها، وكان لها كل يوم حاجة يقضيها، فلما بلغ ذلك أمَّها أنهم نهوا عن نكاح بنت الأخت قالت لها: إذا دخلت على الملك فقال ألك حاجة فقولي: حاجتي أن تذبح يحيى بن زكريا ؛ فقال: سليني سوى هذا! فقالت: ما أسألك إلا هذا. فلما أبت عليه دعا بطَسْت ودعا به فذبحه، فندَرت قطرة من دمه على وجه الأرض فلم تزل تَغْلِي حتى بعث الله عليهم بختنصّر فألقِي في نفسه أن يقتل على ذلك الدّم منهم حتى يسكن ذلك الدم، فقتل عليه منهم سبعين ألفاً، في رواية خمسة وسبعين ألفاً. قال سعيد بن المسيّب: هي دِيَةٌ كل نبيّ. وعن ابن عباس قال: أوحى الله إلى محمد ﷺ إني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وإني قاتل بابن ابنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً. وعن سمير بن عطية قال: قتل على الصخرة التي في بيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيى بن زكريا. وعن زيد بن وَاقد قال: رأيت رأس يحيى عليه السلام حيث أرادوا بناء مسجد دمشق، أخرج من تحت ركن من أركان القُبّة التي تلي المحراب

(١) راجع جـ ٣ قسم أول ص ٧١٣ طبع أوروبا.

مما يلي الشرق، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغيّر. وعن قرّة بن خالد قال: ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن عليّ؛ وحمرتها بكاؤها. وعن سفيان بن عُيَيْنة قال: أوحش ما يكون ٱبن آدم في ثلاثة مواطن: يوم ولد فيخرج إلى دارِ هَمٍّ، وليلة يبيت مع الموتى فيجاور جيراناً لم ير مثلهم، ويوم يُبعث فيشهد مشهداً لم ير مثله؛ قال الله تعالى ليحيى في هذه الثلاثة مواطن: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾(١). كله من التاريخ المذكور.

واختلف فيمن كان المبعوث عليهم في المرة الآخرة؛ فقيل: بختنصر وقاله القشيري أبو نصر، لم يذكر غيره. قال السُّهَيْلِيّ: وهذا لا يصح؛ لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى، وبختنصر كان قبل عيسى ابن مريم عليهما السلام بزمان طويل؛ وقبل الإسكندر؛ وبين الإسكندر وعيسى نحوٌ من ثلمائة سنة، ولكنه أريد بالمرة الأخرى حين قتلوا شَعْيَا، فقد كان بختنصر إذا ذاك حياً، فهو الذي قتلهم وخرّب بيت المقدس وأتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها. وقال الثعلبي: ومن روى أن بختنصر هو الذي غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا فغلط عند أهل السير والأخبار؛ لأنهم مجمعون على أن بختنصر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم شَعْيَا وفي عهد إرْمِيَاء. قالوا: ومن عهد إرمياء وتخريب بختنصر بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا عليهما السلام أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة، وذلك أنهم يعدّون من عهد تخريب بيت المقدس إلى عمارته في عهد كوسك(٢) سبعين سنة، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانية وثمانين سنة، ثم من بعد مملكة الإسكندر إلى مولد يحيى ثلثمائة وثلاث وستين سنة(٣).

قلت: ذكر جميعه الطبري في التاريخ رحمه الله. قال الثعلبي: والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق قال: لما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى ـ وبعض

---

(١) راجع ١١/٨٨ فما بعد.

(٢) الذي في تاريخ الطبري: «كيرش» ولم نوفق لتصويبه.

(٣) في الطبري: «ثلثمائة وثلاث سنين». راجع ص ٧١٨ من القسم الأول.

الناس يقول: لما قتلوا زكريا ـ بعث الله إليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له: خردوس[١]، فسار إليهم بأهل بابل وظهر عليهم بالشأم، ثم قال لرئيس جنوده: كنت حلفت بإلهي لئن أظهرني الله على بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري، وأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم، فدخل الرئيس بيت المقدس فوجد فيها دماء تغلي، فسألهم فقالوا: دم قربان قرّبناه فلم يتقبل منا منذ ثمانين[٢] سنة. قال ما صدقتموني، فذبح على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رجلاً من رؤسائهم فلم يهدأ، [فأتي بسبعمائة غلام من غلمانهم فذبحوا على الدم فلم يهدأ][٣]، فأمر بسبعة آلاف من سبيِهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يبرد، فقال: يا بني إسرائيل، اصدقوني قبل ألا أترك منكم نافخ نار من أنثى ولا من ذكر إلا قتلته. فلما رأوا الجهد قالوا: إن هذا دم نبيّ منا كان ينهانا عن أمور كثيرة مِن سخط الله فقتلناه، فهذا دمه، كان أسمه يحيى بن زكريا، ما عصى الله قط طرفة عين ولا همّ بمعصية. فقال: الآن صدقتموني، وخر ساجداً ثم قال: لمثل هذا ينتقم منكم، وأمر بغلق الأبواب وقال: أخرجوا من كان ها هنا من جيش خردوس[١]، وخلا في بني إسرائيل وقال: يا نبيّ الله، يا يحيى بن زكريا قد علم ربي وربك ما قد أصاب قومك من أجلك، فأهدأ بإذن الله قبل ألا أبقي منهم أحداً. فهدأ دم يحيى بن زكريا بإذن الله عز وجل، ورفع عنهم القتل وقال: رب، إني آمنت بما آمن به بنو إسرائيل وصدّقت به؛ فأوحى الله تعالى إلى رأس من رؤوس الأنبياء: إن هذا الرئيس مؤمن صدوق. ثم قال: إن عدوّ الله خردوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره؛ وإني لا أعصيه، فأمرهم فحفروا خندقاً وأمر بأموالهم من الإبل والخيل والبغال والحمير والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم إلى العسكر، وأمر بالقتلى الذين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم، ثم انصرف عنهم إلى بابل، وقد كاد أن يفني بني إسرائيل.

---

(١) في جـ: جردوش. ولعله تحريف من الناسخ.

(٢) في تاريخ الطبري ص ٧٢١: «منذ ثمانمائة سنة».

(٣) زيادة عن تاريخ الطبري.

قلت: قد ورد في هذا الباب حديث مرفوع فيه طول من حديث حُذيفة، وقد كتبناه في (كتاب التذكرة) مقطعاً في أبوابٍ في أخبار المهْدِيّ، نذكر منها هنا ما يُبَيّن معنى الآية ويفسّرها حتى لا يحتاج معه إلى بيان، قال حذيفة: قلت يا رسول الله، لقد كان بيت المقدس عند الله عظيماً جسيم الخطر عظيم القدر. فقال رسول الله ﷺ: «هو من أجَلّ البيوت ابتناه الله لسليمان بن داود عليهما السلام من ذهب وفضة ودُرّ وياقوت وزمرد» وذلك أن سليمان بن داود لما بناه سخر الله له الجن فأتوه بالذهب والفضة من المعادن، وأتوه بالجواهر والياقوت والزمرد، وسخر الله تعالى له الجن حتى بنوه من هذه الأصناف. قال حذيفة: فقلت يا رسول الله، وكيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس؟. فقال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل لما عصوا الله وقتلوا الأنبياء سلط الله عليهم بختنصر وهو من المجوس وكان ملكه سبعمائة سنة، وهو قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسَبُوا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان في بيت المقدس من هذه الأصناف فاحتملوها على سبعين ألفاً ومائة ألف عجلة حتى أودعوها أرض بابل، فأقاموا يستخدمون بني إسرائيل ويستملكونهم بالخزي والعقاب والنكال مائة عام، ثم إن الله عز وجل رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس في أرض بابل، وأن يستنقذ من في أيديهم من بني إسرائيل؛ فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل فاستنقذ من بقي من بني إسرائيل من أيدي المجوس واستنقذ ذلك الحلي الذي كان من بيت المقدس وردّه الله إليه كما كان أول مرة فقال لهم: يا بني إسرائيل إن عدتم إلى المعاصي عدنا عليكم بالسَّبْي والقتل، وهو قوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ فلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصي فسلط الله عليهم ملك الروم قيصر، وهو قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوا تَتْبِيراً﴾ فغزاهم في البر والبحر فسباهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم، وأخذ حلي جميع بيت المقدس واحتمله على سبعين ألفاً ومائة ألف عجلة حتى أودعه

في كنيسة الذهب، فهو فيها الآن حتى يأخذه المهدي فيردّه إلى بيت المقدس، وهو ألف سفينة وسبعمائة سفينة يُرْسَى بها على يافا[١] حتى تنقل إلى بيت المقدس وبها يجمع الله الأوّلين والآخرين. . . » وذكر الحديث.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أي من المرتين؛ وجواب «إذا» محذوف، تقديره بعثناهم؛ دلّ عليه «بعثنا» الأوّل. ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي بالسَّبْي والقتل فيظهر أثر الحزن في وجوهكم؛ فـ «ليسوءوا» متعلق بمحذوف؛ أي بعثنا عباداً ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم. قيل: المراد بالوجوه السادة؛ أي ليذِلّوهم. وقرأ الكسائي «لنسوءَ» بنون وفتح الهمزة، فعل مخبر عن نفسه معظم، اعتباراً بقوله: «وقضينا وبعثنا ورددنا». ونحوه عن عليّ. وتصديقها قراءة أُبَيّ «لنسوءنّ» بالنون وحرف التوكيد. وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وَثّاب وحمزة وابن عامر «ليسوء» بالياء على التوحيد وفتح الهمزة؛ ولها وجهان: أحدهما ـ ليسوء الله وجوهكم. والثاني ـ ليسوء الوعد وجوهكم. وقرأ الباقون «لِيَسُوءُوا» بالياء وضم الهمزة على الجمْع؛ أي ليسوء العباد الذين هم أولوا بأس شديد وجوهكم. ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أي ليدمروا ويهلكوا. وقال قطرب: يهدموا؛ قال الشاعر:

فما الناس إلا عاملان فعاملٌ يُتَبِّـرُ مـا يَبْنِـي وآخـر رافـع

﴿مَا عَلَوْا﴾ أي غلبوا عليه من بلادكم ﴿تَتْبِيراً﴾.

[٨] ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ وهذا مما أخبروا به في كتابهم. و «عَسَى» وعد من الله أن يكشف عنهم. و «عَسَى» من الله واجبة. ﴿أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد انتقامه منكم، وكذلك كان؛ فكثّر عددهم وجعل منهم الملوك. ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ قال قتادة:

(١) كذا في الطبري والدر المنثور. وفي أ وجـ وو وي: يافي. وهذا خطأ النساخ.

فعادوا فبعث الله عليهم محمداً ﷺ؛ فهم يعطون الجزية بالصغار؛ وروي عن ابن عباس. وهذا خلاف ما تقدّم في الحديث وغيره. وقال القشيريّ: وقد حَلّ العقاب ببني إسرائيل مرّتين على أيدي الكفار، ومرة على أيدي المسلمين. وهذا حين عادوا فعاد الله عليهم. وعلى هذا يصح قول قتادة. ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ أي محبِساً وسِجْناً، من الحَصْر وهو الحبس. قال الجوهري: يقال حصره يحصره حصراً ضيق عليه وأحاط به. والحصير: الضيق البخيل. والحصير البارية. والحصير: الجنْب، قال الأصْمَعِي: هو ما بين العِرْق الذي يظهر في جنب البعير والفرس معترضاً فما فوقه إلى منقطع الجنب. والحصير: الملِك؛ لأنه محجوب. قال لبيد:

وقَمَاقِمٍ غُلْبِ الرقاب كأنهم ... جِنّ لدى باب الحَصِير قيام

ويروى(١):

وَمَقَامَةٍ غُلْب الرقاب. . .

على أن يكون «غلب» بدلاً من «مقامة» كأنه قال: ورُبَّ غُلْبِ الرقاب. وروي عن أبي عبيدة:

لدى طرف الحصير قيام

أي عند طرف البساط للنعمان بن المنذر. والحصِير: المَحْبِس؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلكَافِرِينَ حَصِيراً﴾. قال القُشَيْرِي: ويقال للذي يُفْتَرش حصيرا؛ لحصر بعضه على بعض بالنسج. وقال الحسن: أي فراشاً ومهاداً؛ ذهب إلى الحصير الذي يفرش، لأن العرب تسمي البساط الصغير حصيراً، قال الثعلبي: وهو وجه حسن.

[٩] ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾.

[١٠] ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ لما ذكر المعراج ذكر ما قضى إلى بني إسرائيل، وكان ذلك دلالة على نبوّة محمد ﷺ، ثم بين أن الكتاب الذي

(١) في هامش جـ: قال الشيخ المصنف: ويروى: وعصابة.

أنزل الله عليه سبب اهتداء. ومعنى ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي الطريقة التي هي أسدّ وأعدل وأصوب؛ فـ«التي» نعت لموصوف محذوف، أي الطريقة التي هي أقوم. وقال الزجاج: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله. وقاله الكلبي والفرّاء.

قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصـ ﴾ تقدم[1]. ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم. ﴿أَجْراً كَبِيراً﴾ أي الجنة. ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ أي ويبشرهم بأن لأعدائهم العقاب. والقرآن معظمه وعدٌ ووعيدٌ. وقرأ حمزة والكسائي «وَيَبْشُر» مخففاً بفتح الياء وضم الشين؛ وقد ذُكر[2].

[١١] ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له: اللهم أهلكه، ونحوه. ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي كدعائه ربه أن يهب له العافية؛ فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر هلك لكن بفضله لا يستجيب له في ذلك. نظيره: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ وقد تقدّم[3]. وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، كان يدعو ويقول: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾[4]. وقيل: هو أن يدعو في طلب المحظور كما يدعو في طلب المباح، قال الشاعر وهو ابن جامع:

أطوف بالبيت فيمن يطوف ... وأرفع من مِئْزَرِي المُسْبَلِ
وأسجدُ بالليل حتى الصباح ... وأتْلُو من المُحْكَم المُنْزَلِ
عسى فارجُ الهمّ عن يوسفٍ ... يُسَخِّر لي ربّةَ المَحْمِلِ

---

(١) راجع ١/ ٣٣٨.
(٢) راجع ٤/ ٧٥.
(٣) راجع ٨/ ٣١٤.
(٤) راجع ٧/ ٣٩٨ و ٨/ ٣١٥.

قال الجوهري: يقال ما على فلان مَحمِل مثال مَجلِس أي معتمد. والمحمِل أيضاً: واحد محامل الحاج. والمِحمل مثال المِرجل: عِلاقة السيف. وحذفت الواو من «وَيَدْعُ الإِنْسانُ» في اللفظ والخط ولم تحذف في المعنى لأن موضعها رفع فحذفت لاستقبالها اللام الساكنة؛ كقوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾[1] ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾[2] ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3] ﴿يُنَادِ الْمُنَادِ﴾[4] ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾[5]. ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً﴾ أي طبعه العجلة، فَيَعْجَل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير. وقيل: أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تركّب فيه الروح على الكمال. قال سلمان: أوّل ما خلق الله تعالى من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق جسده، فلما كان عند العصر بقيت رجلاه لم ينفخ فيهما الروح فقال: يا ربّ عَجّل قبل الليل؛ فذلك قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً﴾. وقال ابن عباس: لما انتهت النفخة إلى سرّته نظر إلى جسده فذهب لينهض فلم يقدر؛ فذلك قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً﴾. وقال ابن مسعود: لما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عَجْلاَنَ إلى ثمار الجنة؛ فذلك حين يقول: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[5] ذكره البيهقي. وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لما صوّر الله تعالى آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يُطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خُلِق خلقاً لا يتمالك» وقد تقدّم[6]. وقيل: سلّم عليه السلام أسِيرا إلى سَوْدة فبات يَئِنّ فسألته فقال: أنيني لشدّة القِدّ والأسر؛ فأرخَت من كتافه فلما نامت هرب؛ فأخبرت النبيّ ﷺ فقال: «قطع الله يديك» فلما أصبحت كانت تتوقّع الآفة؛ فقال عليه السلام: «إني سألت الله تعالى أن يجعل دعائي على من لا يستحق من أهلي رحمة لأني بشر أغضب كما يغضب البشر» ونزلت الآية؛ ذكره القشيري أبو نصر رحمه الله. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) راجع ٢٠/١٢٦.

(٢) راجع ١٦/٢٤.

(٣) راجع ٥/٤٢٥.

(٤) راجع ١٧/٢٧ و ١٢٨.

(٥) راجع ١١/٢٨٨. (٦) راجع ١/٢٨١.

«اللّهمّ إنما محمد بشر يغضب كما يغضَب البشر وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تُخلِفَنِيه فأيُّما مؤمنٍ آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارةً وقُرْبَةً تقرّبهُ بها إليك يوم القيامة». وفي الباب عن عائشة وجابر. وقيل: معنى. ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً﴾ أي يؤثر العاجل وإن قلّ، على الآجل وإن جلّ.

[١٢] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ أي علامتين على وحدانيتنا ووجودنا وكمال علمنا وقدرتنا. والآية فيهما: إقبال كلّ واحد منهما من حيث لا يعلم، وإدباره إلى حيث لا يعلم. ونقصان أحدهما بزيادة الآخر وبالعكس آية أيضاً. وكذلك ضوء النهار وظلمة الليل. وقد مضى هذا[1]. ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ ولم يقل: فمحونا الليل، فلما أضاف الآية إلى الليل والنهار دلّ على أن الآيتين المذكورتين لهما لاهما. و «مَحَوْنا» معناه طمسنا. وفي الخبر: أن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام فأمَرّ جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء وكان كالشمس في النور، والسوادُ الذي يُرى في القمر من أثر المحو. قال ابن عباس: جعل الله الشمس سبعين جزءاً والقمر سبعين جزءاً، فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءاً فجعله مع نور الشمس، فالشمس على مائة [وتسع] وثلاثين جزءاً، والقمرُ على جزء واحد. وعنه أيضاً: خلق الله شمسين من نور عرشه، فجعل ما سبق في علمه أن يكون شمساً مثل الدنيا على قدرها ما بين مشارقها إلى مغاربها، وجعل القمر دون الشمس؛ فأرسل جبريلَ عليه السلام فأمَرّ جناحه على وجهه ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس ضوءه وبقي نوره؛ فالسّواد الذي ترونه في القمر أثر المحو، ولو تركه شمساً لم يعرف الليل من النهار. ذكر

(١) راجع ٢/ ١٩٢.

عنه الأوّل الثعلبيُّ، والثاني المَهدَوِيّ؛ وسيأتي مرفوعاً. وقال عليّ رضي الله عنه وقتادة: يريد بالمحو اللطخة السوداء التي في القمر، ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار. ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي جعلنا شمسه مضيئة للأبصار. قال أبو عمرو بن العلاء: أي يبصر بها. قال الكسائيّ: وهو من قول العرب أبصر النهار إذا أضاء، وصار بحالة يُبْصَر بها. وقيل: هو كقولهم خبيث مُخْبِث إذا كان أصحابه خبثاء. ورجل مُضعِف إذا كانت دوابه ضعافاً؛ فكذلك النهار مبصِراً إذا كان أهله بصراء. ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يريد التصرف في المعاش. ولم يذكر السكون في الليل اكتفاء بما ذكر في النهار. وقد قال في موضع آخر: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾[(١)]. ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ أي لو لم يفعل ذلك لما عُرف الليل من النهار، ولا كان يُعرف الحساب والعدد. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ أي من أحكام التكليف؛ وهو كقوله: ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[(٢)] ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[(٣)]. وعن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال: «لما أبرم الله خلقه فلم يبق من خلقه غيرُ آدم خلق شمساً من نور عرشه وقمراً فكانا جميعاً شمسين فأما ما كان في سابق علم الله أن يَدَعَها شمساً فخلقها مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها وأما ما كان في علم الله أن يخلقها قمراً فخلقها دون الشمس في العِظَم ولكن إنما يرى صغرهما من شدة ارتفاع السماء وبعدها من الأرض فلو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولا كان الأجيرُ يدري إلى متى يعمل ولا الصائم إلى متى يصوم ولا المرأة كيف تَعْتَدّ ولا تُدْرى أوقات الصلوات والحج ولا تحلّ[(٤)] الديون ولا حين يبذرون ويزرعون ولا متى يسكنون للراحة لأبدانهم وكأنّ الله نظر إلى عباده وهو أرحم بهم من أنفسهم فأرسل جبريل فأمَرّ جناحه على وجه القمر ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور فذلك قوله: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ الآية.

---

(١) راجع ٨/ ٣٦٠.
(٢) راجع ص ١٦٤ من هذا الجزء.
(٣) راجع ٦/ ٤٢٠.
(٤) في جـ وي: محل.

[١٣] ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال الزجاج: ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القِلادة للعنق. وقال ابن عباس: «طائره» عمله وما قُدّر عليه من خير وشر، وهو ملازمه أينما كان. وقال مقاتل والكلبي: خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسَب به. وقال مجاهد: عمله ورزقه، وعنه: ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة فيها مكتوب شقي أو سعيد. وقال الحسن: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ﴾ أي شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير، أي صار له عند القسمة في الأزل. وقيل: أراد به التكليف، أي قلدناه التزام[1] الشرع، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أُمِر به وينزجر عما زُجر به أمكنه ذلك. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾ يعني كتاب طائِره الذي في عنقه. وقرأ الحسن وأبو رَجاء ومجاهد: «طيره» بغير ألف؛ ومنه ما روي في الخبر «اللهم لا خيرَ إلا خيرُك ولا طيرَ إلا طيرك ولا ربّ غيرك». وقرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن مُحَيْصِن وأبو جعفر ويعقوب. «ويَخْرُج» بفتح الياء وضم الراء، على معنى ويخرج له الطائر كتاباً، فـ «كتاباً» منصوب على الحال. ويحتمل أن يكون المعنى: ويخرج الطائر فيصير كتاباً. وقرأ يحيى بن وثّاب. «ويُخْرِجُ» بضم الياء وكسر الراء؛ وروي عن مجاهد؛ أي يخرج الله. وقرأ شيبة ومحمد بن السَّمَيْقَع، وروي أيضاً عن أبي جعفر: «ويُخْرَجُ» بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول، ومعناه: ويخرج له الطائر كتاباً. الباقون «ونُخْرِجُ» بنون مضمومة وكسر الراء؛ أي ونحن نخرج. احتج أبو عمرو في هذه القراءة بقوله: « أَلْزَمْنَاهُ » . وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر. « يُلَقّاه » بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، بمعنى يؤتاه. الباقون بفتح الياء خفيفة، أي يراه منشوراً. وقال: «مَنْشُوراً» تعجيلاً للبشرى بالحسنة والتوبيخ بالسيئة. قال

---

(١) من ي، وفي أ وحـ: قدرناه إلزام، وفي جـ: قلدناه إلزام.

أبو السوّار العدوي وقرأ هذه الآية. ﴿وَكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال: هما نشرتان وَطَيّة؛ أما ما حييت يابن آدم فصحيفتك المنشورة فأَمْلِ فيها ما شئت، فإذا متّ طُوِيت حتى إذا بُعثت نُشرت. ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ قال الحسن: يقرأ الإنسان كتابه أمّياً كان أو غير أميٍّ. ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ أي محاسباً. وقال بعض الصلحاء: هذا كتاب، لسانك قلمه، وريقك مِداده، وأعضاؤك قرطاسه، أنت كنت المُمْلِي على حفَظَتِك، ما زيد فيه ولا نُقص منه، ومتى أنكرت منه شيئاً يكون فيه الشاهد منك عليك.

[١٥] ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي إنما كلّ أحد يحاسب عن نفسه لا عن غيره؛ فمن اهتدى فثواب اهتدائه له، ومن ضلّ فعقاب كفره عليه. ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ تقدّم في الأنعام[١]. وقال ابن عباس: نزلت في الوليد بن المغيرة، قال لأهل مكة: اتبعوني واكفروا بمحمد وعليّ أوزاركم، فنزلت هذه الآية؛ أي إن الوليد لا يحمل آثامكم وإنما إثم كل واحد عليه. يقال: وَزَرَ يَزِرُ وِزْراً ووِزْرَة، أي أثِم. والوِزر: الثِّقْل المثقِل والجمع أوزار؛ ومنه: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾[٢] أي أثقال ذنوبهم. وقد وَزَرَ إذا حَمَل فهو وَازِر؛ ومنه وزير السلطان الذي يحمل ثقل دولته. والهاء في قوله[٣] كناية عن النفس، أي لا تؤخذ نفس آثمة بإثم أخرى، حتى أن الوالدة تلقي ولدها يوم القيامة فتقول: يا بنيّ! ألم يكن حجري لك وِطاء، ألم يكن ثديي لك سِقاء، ألم يكن بطني لك وعاء، ! فيقول: بلى يا أمّهْ! فتقول يا بنيّ! فإن ذنوبي أثقلتني فاحمل عني منها ذنباً واحداً! فيقول: إليك عني يا أمّهْ! فإني بذنبي عنكِ اليوم مشغول.

(١) راجع ٧/ ١٥٥.
(٢) راجع ٦/ ٤١٣.
(٣) يبدو هنا سقط لفظ وازرة بدليل ما بعدها.

مسألة ـ نزعت عائشة رضي الله عنها بهذه الآية في الردّ على ابن عمر حيث قال: «إن الميت لَيُعَذَّب ببكاء أهله». قال علماؤنا: وإنما حملها على ذلك أنه لم تسمعه، وأنه معارض للآية. ولا وجه لإنكارها، فإن الرواة لهذا المعنى كثير؛ كعمر وابنه والمغيرة بن شعبة وقَيْلَة بنت مَخْرَمَة، وهم جازمون بالرواية، فلا وجه لتخطئتهم، ولا معارَضة بين الآية والحديث؛ فإن الحديث محمله على ما إذا كان النَّوْح من وصيّة الميت وسنته، كما كانت الجاهلية تفعله، حتى قال طرفة:

إذا مِتّ فانعيني بما أنا أهله ... وشُقّي عليّ الجيب يا بنت مَعْبَدِ

وقال:

إلى الحَوْل ثم اَسْمُ السلام عليكما ... ومن يَبْكِ حَوْلا كاملاً فقد اعتذر

وإلى هذا نحا البخاري. وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم داود إلى اعتقاد ظاهر الحديث، وأنه إنما يعذب بنَوْحِهم؛ لأنه أهمل نهيهم عنه قبل موته وتأديبَهم بذلك، فيعذَّب بتفريطه في ذلك؛ وبترك ما أمره الله به من قوله: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾[1] لا بذنب غيره، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ أي لم نترك الخلق سُدًى، بل أرسلنا الرسل. وفي هذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع، خلافاً للمعتزلة القائلين بأن العقل يقبّح ويحسّن ويبيح ويحظر. وقد تقدّم في البقرة القول[2] فيه. والجمهور على أن هذا في حكم الدنيا؛ أي أن الله لا يهلك أمة بعذابٍ إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار. وقالت فرقة: هذا عام في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُم خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ. قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا﴾[1]. قال ابن عطية: والذي يعطيه النظر أن بعثة آدم عليه السلام بالتوحيد وبَثّ المعتقدات في بنيه مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفِطَر توجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله، ثم تجدد ذلك في زمن نوح عليه السلام بعد

---

(١) راجع ١٨/ ١٩٤ و ٢١٢.
(٢) راجع ١/ ٢٥١.

غرق الكفار. وهذه الآية أيضا يعطى احتمال ألفاظها نحو هذا في الذين لم تصلهم رسالة، وهم أهل الفَتَرات الذين قد قدّر وجودَهم بعضُ أهل العلم. وأما ما روي من أن اللّه تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديث لم يصح، ولا يقتضي ما تعطيه الشريعةُ من أن الآخرة ليست دَارَ تكليف. قال المهدوِي: وروي عن أبي هريرة أن اللّه عز وجل يبعث يوم القيامة رسولا إلى أهل الفترة والأبكم والأخرس والأصمّ؛ فيطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه في الدنيا، وتلا الآية؛ رواه مَعْمَر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة، ذكره النحاس.

قلت: هذا موقوف، وسيأتي مرفوعا في آخر سورة طه إن شاء اللّه تعالى؛ ولا يصح. وقد استدل قوم في أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى؛ وهذا صحيح، ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل، والله أعلم.

[١٦] ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ أخبر الله تعالى في الآية التي قبلُ أنه لم يهلك القرى قبل ابتعاث الرسل، لا لأنه يقبح منه ذلك إن فعل، ولكنه وعدٌ منه، ولا خلف في وعده. فإذا أراد إهلاك قرية مع تحقيق وعده على ما قاله تعالى أَمَرَ مترفيها بالفِسق[١] والظلم فيها فحق عليها القول بالتدمير. يعلمك أن من هلك [فإنما][٢] هلك بإرادته، فهو الذي يسبب الأسباب ويسوقها إلى غاياتها ليحق القول السابق من الله تعالى.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا﴾ قرأ أبو عثمان النهدِيّ وأبو رجاء وأبو العالية، والربيع ومجاهد والحسن. «أمّرْنا» بالتشديد، وهي قراءة عليّ رضي الله عنه؛ أي سلّطنا شرارها فعصَوْا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم. وقال أبو عثمان النهدِي «أمرنا» بتشديد الميم، جعلناهم

---

(١) المحققون على ما قال ابن عباس كما في البحر: أمرناهم فعصوا وفسقوا وسيأتي. وهذا هو المطابق لقوله تعالى إن الله لا يأمر بالفحشاء. أما ما ذكره القرطبي كالزمخشري فيحتاج إلى تأويل. محققه.

(٢) من جـ وي.

أمراء مسلّطين؛ وقاله ابن عُزيز. وتأمّر عليهم تسلّط عليهم. وقرأ الحسن أيضاً وقتادة وأبو حَيْوة الشامي ويعقوب وخارجة عن نافع وحماد بن سلمة عن ابن كثير وعليّ وابن عباس باختلاف عنهما: «آمرنا» بالمد والتخفيف، أي أكثرنا جبابرتها وأمراءها؛ قاله الكسائيّ. وقال أبو عبيدة: آمرته بالمد وأمرته، لغتان بمعنى كثرته؛ ومنه الحديث «خير المال مَهْرَة مأمُورَة أو سِكّة مأبُورَة»[١] أي كثيرة النِّتاج والنّسل. وكذلك قال ابن عزيز: آمرنا وأمرنا بمعنى واحد؛ أي أكثرنا. وعن الحسن أيضاً ويحيى بن يَعْمَر «أمِرنا» بالقصر وكسر الميم على فعِلنا، ورويت عن ابن عباس. قال قتادة والحسن: المعنى أكثرنا؛ وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد، وأنكره الكسائي وقال: لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد؛ قال: وأصلها «أأمرنا» فخفّف، حكاه المهدويّ. وفي الصحاح: وقال أبو الحسن أَمِر مالُه (بالكسر) أي أكثره وأَمِر القوم أي كثروا؛ قال الشاعر:

أَمِرون لا يرثون سَهْمَ القُعْدُدِ[٢]

وآمر الله مالَه (بالمد). الثعلبي: ويقال للشيء الكثير أَمِرٌ، والفعل منه: أَمِرَ القومُ يأمَرون أمراً إذا كثروا. قال ابن مسعود: كنا نقول في الجاهلية للحيّ إذا كثروا: أَمِر أمرُ بني فلان؛ قال لبيد:

كُــل بنــي حُــرَّةٍ مَصيــرُهُــم قُــلٌّ وإن أكثــرَتْ مــن العــددِ
إن يُغْبَطــوا يَهْبِطُــوا وإن أَمِــرُوا يوماً يصيروا للهُلْكِ والنَكَدِ[٣]

---

(١) السكة: الطريقة المصطفة من النخل. والمأبورة: الملقحة؛ يقال: أبرت النخلة وأبرتها؛ فهي مأبورة ومؤبرة. وقيل: السكة سكة الحرث، والمأبورة المصلحة له. المراد: خير المال نتاج وزرع. (ابن الأثير).

(٢) هذا عجز بيت للأعشى وصدره:

طرفون ولاّدون كل مبارك

الطرف والطريف: الكثير الآباء إلى الجد الأكبر. والقعدد: القليل الآباء إلى الجد الأكبر.

(٣) يقول: إن غبطوا يوماً فإنهم يموتون. و «يهبطوا» ها هنا يموتوا. ويروى: «إن يغبطوا يعبطوا» يموتوا عبطة؛ كأنهم يموتون من غير مرض. (راجع الديوان). في جـ وي: والفند.

قلت: وفي حديث هِرَقْل الحديث الصحيح: «لقد أَمِر أَمْرُ ابنِ أبي كَبشة[١]، ليخافه ملك بني الأصفر» أي كثر. وكله غير متعدّ ولذلك أنكره الكسائي، والله أعلم. قال المهدوِي: ومن قرأ «أَمِر» فهي لغة، ووجه تعدية «أمِر» أنه شبهه بعمِر من حيث كانت الكثرة أقرب شيء إلى العمارة فعدّى كما عدّى عَمِرَ[٢]. الباقون «أَمَرْنَا» من الأمر؛ أي أمرناهم بالطاعة إعذاراً وإنذاراً وتخويفاً ووعيداً. ﴿فَفَسَقُوا﴾ أي فخرجوا عن الطاعة عاصين لنا. ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ فوجب عليها الوعيد؛ عن ابن عباس. وقيل: «أمَّرْنَا» جعلناهم أمراء؛ لأن العرب تقول: أمير غير مأمور، أي غير مؤمّر. وقيل: معناه بعثنا مستكبريها. قال هارون: وهي قراءة أُبَيّ: «بعثنا أكابر مجرميها ففسقوا» ذكره الماوردِيّ. وحكى النحاس: وقال هارون في قراءة أبي «وإذا أردنا أن نهلك قرية بعثنا فيها أكابر مجرميها فمكروا فيها فحق عليها القول». ويجوز أن يكون «أَمَرْنا» بمعنى أكثرنا؛ ومنه «خير المال مهرة مأمورة» على ما تقدّم. وقال قوم: مأمورة اتباع لمأبورة؛ كالغدايا والعشايا. وكقوله: «ارجِعن مأزورات غير مأجورات». وعلى هذا لا يقال: أمَرهم الله، بمعنى كثرهم، بل يقال: آمره وأمره. واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة العامة. قال أبو عبيد: وإنما اخترنا «أمرنا» لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة. والمُتْرَفُ: المنعّم؛ وخُصّوا بالأمر لأن غيرهم تبع لهم.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَاهَا﴾ أي استأصلناها بالهلاك. ﴿تَدْمِيراً﴾ ذكر المصدر للمبالغة في العذاب الواقع بهم. وفي الصحيح[٣] من حديث زينب بنت جحش زوج النبيّ ﷺ قالت: خرج رسول الله ﷺ يوماً فزِعاً محمراً وجهه يقول: «لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها. قالت: فقلت يا رسول الله، أنهلك وفينا

---

(١) يريد: رسول الله ﷺ؛ وكان المشركون يقولون للنبي ﷺ «ابن أبي كبشة» شبهوه بأبي كبشة، رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان. أو هي كنية وهب بن عبد مناف جده ﷺ من قبل أمه، لأنه كان نزع إليه في الشبه. أو كنية زوج حليمة السعدية.

(٢) عمر كفرح.

(٣) في هامش جـ: الصحيحين. خ.

الصالحون؟ قال: «نعم إذا كَثُر الخبث». وقد تقدّم الكلام في هذا الباب، وإن المعاصي إذا ظهرت ولم تُغيّر كانت سبباً لهلاك[١] الجميع؛ والله أعلم.

[١٧] ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ أي كم من قوم كفروا حل بهم البَوَار. يخوّف كفار مكة؛ وقد تقدّم القول في القرن في أوّل سورة الأنعام[٢]، والحمد لله. ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ «خَبِيراً» عليماً بهم. «بَصِيراً» يُبصر أعمالهم؛ وقد تقدّم[٣].

[١٨] ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ يعني الدنيا، والمراد الدار العاجلة؛ فعُبّر بالنعت[٤] عن المنعوت. ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أي لم نعطه منها إلا ما نشاء ثم نؤاخذه بعمله، وعاقبتُه دخول النار. ﴿مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾ أي مطروداً مبعَداً من رحمة الله. وهذه صفة المنافقين الفاسقين، والمرائين المداجين، يلبِسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا يقبل ذلك العمل منهم في الآخرة ولا يعطون في الدنيا إلا ما قُسم لهم. وقد تقدّم في «هود»[٥] أن هذه الآية تقيّد تلك الآيات المطلقة؛ فتأمله. ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ﴾ أي الدار الآخرة. ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي عمِل لها عملها من الطاعات. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمن. ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ أي مقبولاً غير

(١) راجع ٧/ ٣٩١.
(٢) راجع ٦/ ٣٩١.
(٣) راجع ٢/ ٣٥.
(٤) في هـ جـ خ: عن المنعوت بالنعت.
(٥) راجع ٩/ ١٣.

مردود. وقيل: مضاعَفاً؛ أي تضاعف لهم الحسنات إلى عشر، وإلى سبعين وإلى سبعمائة ضعف، وإلى أضعاف كثيرة؛ كما روي عن أبي هريرة وقد قيل له: أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ليَجْزي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة»؟ فقال سمعته يقول: «إن الله ليَجْزي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة».

[٢٠] ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أعلم أنه يرزق المؤمنين والكافرين. ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ أي محبوساً ممنوعاً؛ من حَظَر يَحْظُر حَظْراً وحِظاراً. ثم قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في الرزق والعمل؛ فمن مُقِلٌّ ومُكثر. ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ أي للمؤمنين؛ فالكافر وإن وُسِّع عليه في الدنيا مرّة، وقُتِّر على المؤمن مَرّة فالآخرة لا تقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم؛ فمن فاته شيء منها لم يستدركه فيها. وقوله: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمّته. وقيل: الخطاب للإنسان. ﴿فَتَقْعُدَ﴾ أي تبقى. ﴿مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾ لا ناصر لك ولا وَلِياً.

[٢٣] ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

فيه ست عشرة مسألة:

الأولى ـ ﴿قَضَى﴾ أي أمر وألزم وأوجب. قال ابن عباس والحسن وقتادة: ليس هذا قضاء حُكْم بل هو قضاء أمر. وفي مصحف ابن مسعود «ووصَّى» وهي قراءة أصحابه وقراءة ابن عباس أيضاً وعليّ وغيرهما، وكذلك عند أُبيّ بن كَعْب. قال ابن عباس: إنما هو «ووصى ربك» فالتصقت إحدى الواوين فقرئت. «وَقَضَى رَبُّكَ» إذ لو كان على القضاء ما عصى الله أحد. وقال الضحاك: تصحفت على قوم «وصى بقضى» حين اختلطت الواو بالصاد وقتَ كتْب المصحف. وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثلَ قول الضحاك. وقال عن مَيْمون بن مِهْران أنه قال: إن على قول ابن عباس لنورا، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾(١) ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابن عباس قال ذلك. وقال: لو قلنا هذا لطعن الزنادقة في مصحفنا، ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم: القضاء يستعمل في اللغة على وجوه: فالقضاء بمعنى الأمر؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ﴾ معناه أمر. والقضاء بمعنى الخلق؛ كقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾(٢) يعني خلقهن. والقضاء بمعنى الحكم؛ كقوله تعالى: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾(٣) يعني احكم ما أنت تحكم. والقضاء بمعنى الفراغ؛ كقوله: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾(٤). أي فرغ منه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾(٥). وقوله تعالى: ﴿فإذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ﴾(٦). والقضاء بمعنى الإرادة؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(٧). والقضاء بمعنى العهد؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ﴾(٨).

فإذا كان القضاء يحتمل هذه المعاني فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصي بقضاء الله؛ لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك، لأن الله تعالى لم يأمر بها،

---

(١) راجع ١٦/٩.
(٢) راجع ١٥/٣٤٢.
(٣) راجع ١١/٢٢٥.
(٤) راجع ٩/١٩٣.
(٥) راجع ٢/٤٣١.
(٦) راجع ١٨/١٠٨.
(٧) راجع ٤/٩٢.
(٨) راجع ١٣/٢٩١.

فإنه لا يأمر بالفحشاء. وقال زكريا بن سَلاَم: جاء رجل إلى الحسن فقال إنه طلق امرأته ثلاثاً. فقال: إنك قد عصيت ربك وبانت منك. فقال الرجل: قضى الله ذلك عليّ! فقال الحسن وكان فصيحاً: ما قضى الله ذلك! أي ما أمر الله به، وقرأ هذه الآية: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ﴾.

الثانية ـ أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل برّ الوالدين مقروناً بذلك، كما قرن شكرهما بشكره فقال: ﴿وقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾. وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[1]. وفي صحيح البخاريّ عن عبد الله قال: سألت النبيّ ﷺ أيّ العمل أحبّ إلى الله عز وجل؟ قال: «الصلاة على وقتها» قال: ثم أيّ؟ قال: «ثم بِرُّ الوالدين» قال ثم أيّ؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» فأخبر ﷺ أن برّ الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام. ورتّب ذلك بـ «ثُمّ» التي تعطي الترتيب والمهلة.

الثالثة ـ من البِرِّ بهما والإحسانِ إليهما ألا يتعرض لسبِّهما ولا يَعُقُّهما؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف، وبذلك وردت السنة الثابتة؛ ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الكبائر شتم الرجلِ والديه» قالوا: يا رسول الله، وهل يَشْتُمُ الرجل والديه؟ قال: «نعم. يسبّ الرجلُ أبا الرجل فيَسُبّ أباه ويَسُبُّ أمّهُ فيسب أمّه».

الرابعة ـ عقوق الوالدين مخالفتهما في أغراضهما الجائزة لهما؛ كما أن بِرَّهما موافقتهما على أغراضهما. وعلى هذا إذا أمرا أو أحدُهما ولدَهما بأمر وجبت طاعتهما فيه، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله، كذلك إذا كان من قبيل المندوب. وقد ذهب بعض الناس إلى أن أَمرهما بالمباح يصيّره في حق الولد مندوباً إليه وأمرُهما بالمندوب يزيده تأكيداً في نَدْبيّته.

---

(١) راجع ١٤/ ٦٥.

الخامسة ـ روى الترمذي عن ابن عمر قال: كانت تحتي امرأة أحبّها، وكان أبي يكرهها فأمرني أن أطلقها فأبَيْت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «يا عبد الله بن عمر طَلّق امرأتك». قال: هذا حديث حسن صحيح.

السادسة ـ روى الصحيح عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمُّك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أمُّك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أمّك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك». فهذا الحديث يدلّ على أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب؛ لذكر النبي ﷺ الأم ثلاث مرات وذِكْرِ الأب في الرابعة فقط. وإذا تُوصّل[1] هذا المعنى شهد له العِيان. وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب؛ فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب. وروي عن مالك أن رجلاً قال له: إن أبي في بلد السودان، وقد كتب إليَّ أن أقدم عليه، وأمي تمنعني من ذلك؛ فقال له: أطع أباك، ولا تَعْص أمَّك. فدَلّ قول مالك هذا أن برّهما متساو عنده. وقد سُئلَ اللّيْثُ عن هذه المسألة فأمره بطاعة الأم؛ وزعم أن لها ثلثي البِرّ. وحديث أبي هريرة يدلّ على أن لها ثلاثة أرباع البر؛ وهو الحجّة على من خالف. وقد زعم المُحَاسِبِي في (كتاب الرعاية) له أنه لا خلاف بين العلماء أن للأم ثلاثة أرباع البِرّ وللأب الرّبع؛ على مقتضى حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والله أعلم.

السابعة ـ لا يختص برّ الوالدين بأن يكونا مسلمين، بل إن كانا كافِرَين يَبَرّهما ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد؛ قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾[2]. وفي صحيح البخاري عن أسماء قالت: قدِمت أمّي وهي مشركة في عهد قريش ومُدّتهم إذ عاهدوا النبي ﷺ مع أبيها، فاستفتيتُ النبيّ ﷺ فقلت: إن أمِّي قدِمتْ وهي راغبة[3] أفأصِلُها؟ قال: «نعم صِلِي أمَّكِ».

---

(١) كذا في الأصول.

(٢) راجع ١٨/٥٨ و ١٤/٦٣.

(٣) قولها راغبة: أي راغبة في بري وصلتي، أو راغبة عن الإسلام كارهة له.

وروي أيضاً عن أسماء قالت: أتتني أمّي راغبة في عهد النبي ﷺ فسألت النبي ﷺ أأصلها؟ قال: «نعم». قال ٱبن عُيينة: فأنزل الله عز وجل فيها: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ الأوّل معلّق والثاني مسند.

الثامنة ـ من الإحسان إليهما والبِرّ بهما إذا لم يتعيّن الجهاد ألاّ يجاهد إلا بإذنهما. روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ يستأذنه في الجهاد فقال: «أحَيٌّ والداك»؟ قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد». لفظ مسلم. في غير الصحيح قال: نعم؛ وتركتهما يبكيان. قال: «اذهب فأضحكهما كما أبكيتهما». وفي خبر آخر أنه قال: «نومك مع أبويك على فراشهما يضاحكانك ويلاعبانك أفضل لك من الجهاد معي». ذكره ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد. ولفظ البخارِي في كتاب بِرّ الوالدين: أخبرنا أبو نعيم أخبرنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يبايعه على الهجرة، وترك أبويه يبكيان فقال: «ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما». قال ابن المنذر: في هذا الحديث النّهيُ عن الخروج بغير إذن الأبوين ما لم يقع النَّفِير؛ فإذا وقع وجب الخروج على الجميع. وذلك بَيّنٌ في حديث أبي قتادة أن رسول الله ﷺ بعث جيش الأمراء...؛ فذكر قصة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وابن رَوَاحة وأن منادي رسول الله ﷺ نادى بعد ذلك: أن الصلاة جامعة؛ فٱجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، ٱخرجوا فأمِدّوا[1] إخوانكم ولا يتخلفن أحد» فخرج الناس مشاةً وركباناً في حَرٍّ شديد. فدلّ قوله: «ٱخرجوا فأمدوا إخوانكم» أن العذر في التخلف عن الجهاد إنما هو ما لم يقع النفير؛ مع قوله عليه السلام: «فإذا استنفرتم فانفِروا».

قلت: وفي هذه الأحاديث دليل على أن الفروض أو المندوبات متى اجتمعت قُدّم الأهَمّ منها. وقد استوفى هذا المعنى المحاسبي في كتاب الرعاية.

التاسعة ـ واختلفوا في الوالدين المشركَيْن هل يخرج بإذنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية؛ فكان الثَّوْرِيّ يقول: لا يغزو إلا بإذنهما. وقال الشافعيّ: له أن يغزو

---

(١) في جـ: فأيدوا.

بغير إذنهما. قال ابن المنذر: والأجداد آباء، والجدّات أمهات فلا يغزو المرء إلا بإذنهم؛ ولا أعلم دلالة توجب ذلك لغيرهم من الإخوة وسائر القرابات. وكان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله عز وجل.

العاشرة ـ من تمام برّهما صِلة أهل وُدّهما؛ ففي الصحيح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أبرّ البر صلة الرجل أهل ودّ أبيه بعد أن يُوَلِّي». وروى أبو أسيد وكان بَدْرِيًّا قال: كنت مع النبيّ ﷺ جالساً فجاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي من برّ والدَيّ من بعد موتهما شيء أبرّهما به؟ قال: «نعم. الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما بعدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما فهذا الذي بقي عليك». وكان ﷺ يُهدي لصدائق خديجة بِرًّا بها ووَفاءً لها وهي زوجته، فما ظنك بالوالدين.

الحادية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْكِلاَهُمَا﴾ خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بِرّه لتغيّر الحال عليهما بالضّعف والكبر؛ فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبلُ، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كَلاًّ عليه، فيحتاجان أن يَلِيَ منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يلِيا منه؛ فلذلك خُصّ هذه الحالة بالذكر. وأيضاً فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال للمرء عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتنتفخ لهما أَوْدَاجُه، ويستطيل عليهما بدالّة البنوّة وقِلّة الديانة، وأقل المكروه ما يظهره بتنفُّسه المتردد من الضجر. وقد أُمِر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب فقال: ﴿فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾. روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُه رغم أنفه رغم أنفه» قيل: مَن يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كِلَيْهما ثم لم يدخل الجنة». وقال البخاري في كتاب برّ الوالدين: حدّثنا مسدّد حدّثنا بِشْر بن المفَضّل حدّثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي سعيد المَقْبُرِيّ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«رغِمَ أنفُ رجل ذُكرتُ عنده فلم يصلّ عليّ رَغِمَ أنْفُ رجل أدرك أبويه عنده الكبر أو أحدَهما فلم يدخلاه الجنة، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم ٱنسلخ قبل أن يُغفر له». حدّثنا ٱبن أبي أوَيْس حدّثني أخي عن سليمان بن بلال عن محمد بن هلال عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عُجْرَة السالميّ عن أبيه رضي الله عنه قال: إن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال قال النبيّ ﷺ: «احضروا المنبر» فلما خرج رَقِيَ [إلى] المنبر، فرقى في أوّل درجة منه قال آمين ثم رقي في الثانية فقال آمين ثم لما رقي في الثالثة قال آمين، فلمّا فرغ ونزل من المنبر قلنا: يا رسول الله، لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه منك؟ قال: «وسمعتموه»؟ قلنا نعم. قال: «إن جبريل عليه السلام اعترض قال: بَعُد مَن أدرك رمضان فلم يغفر له فقلت آمين فلمّا رقِيت في الثانية قال بَعُد مَن ذكرت عنده فلم يصلّ عليك فقلت آمين فلما رقيت في الثالثة قال بعد من أدرك عنده أبواه الكبرَ أو أحدهما فلم يُدخلاه الجنة قلت آمين». حدّثنا أبو نعيم حدّثنا سَلَمة بن وَرْدَان سمعت أنساً رضي الله عنه يقول: ارتقى رسول الله ﷺ على المنبر درجة فقال آمين ثم ارتقى درجة فقال آمين ثم ارتقى الدرجة الثالثة فقال آمين، ثم استوى وجلس فقال أصحابه: يا رسول الله، علامَ أمّنت؟ قال: «أتاني جبريل عليه السلام فقال رغِم أنفُ مَن ذُكرتَ عنده فلم يصلّ عليك فقلت آمين ورغم أنف مَن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخل الجنة فقلت آمين» الحديث. فالسعيد الذي يبادر اغتنام فرصة بِرهما لئلا تفوته بموتهما فيندم على ذلك، والشقيّ من عقّهما، لا سيما من بلغه الأمر ببرهما.

الثانية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ أي لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرُّم. وعن أبي رَجَاء العطارِدِيّ قال: الأُفّ الكلام القَذَع الرديء الخفِيّ. وقال مجاهد: معناه إذا رأيت منهما في حال الشيخ الغائط والبول الذي رأياه منك في الصغر فلا تَقْذَرْهما وتقول أُفّ. والآية أعمّ من هذا. والأفُ والتُّفّ وسخ الأظفار. ويقال لكل ما يضجر ويستثقل: أفّ له. قال الأزهري: والتُّفُّ أيضاً الشيء الحقير. وقرىء «أُفٌّ» منوّنا

مخفوضاً؛ كما تُخفض الأصوات وتُنَوّن، تقول: صَهٍ ومهٍ. وفيه عشر لغات: أفَّ، أُفُّ، وأُفٍّ، وأفًّا وأُفٌّ، وأُفٍّ، وأُفَّهْ، وإفْ لك (بكسر الهمزة)، وأُفْ (بضم وتسكين الفاء)، وأُفاً (مخففة الفاء). وفي الحديث: «فألقى طرف ثوبه على أنفه ثمّ قال أُفَ أُفَ». قال أبو بكر: معناه استقذار لما شَمّ. وقال بعضهم: معنى أفّ الاحتقار والاستقلال؛ أخذ من الأفَف وهو القليل. وقال القُتَبِيّ: أصله نفخك الشيء يَسقط عليك من رماد وتراب وغير ذلك، وللمكان تريد إماطة شيء لتقعد فيه؛ فقيلت هذه الكلمة لكل مستثقل. وقال أبو عمرو بن العلاء: الأفّ وسخ بين الأظفار، والتف قلامتها. وقال الزجاج: معنى أفّ النتن. وقال الأصْمَعِيّ: الأُفّ وسخ الأذن، والتُّف وسخ الأظفار؛ فكثر استعماله حتى ذكر في كل ما يُتأذّى به. وروي من حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لو علم الله من العقوق شيئاً أردأ من «أف» لذكره فليعمل البارّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار؛ وليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة». قال علماؤنا: وإنما صارت قولة «أُفٍّ» للأبوين أردأ شيء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة، وجحد التربية وردّ الوصية التي أوصاه في التنزيل. و «أف» كلمة مقولة لكل شيء مرفوض؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه: ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[1] أي رفْضٌ لكم ولهذه الأصنام معكم.

الثالثة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾ النهر: الزجر والغِلظة. ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ أي ليِّناً لطيفاً، مثل: يا أبتاه ويا أمّاه، من غير أن يسميهما[2] أو يكنيهما؛ قاله عطاء. وقال أبو البَدّاح[3] التُّجِيبيّ: قلت لسعيد بن المسيّب كل ما في القرآن من برّ الوالدين قد عرفته إلا قوله: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ ما هذا القول الكريم؟ قال ابن المسيب: قول العبد المذنب للسيد الفَظّ الغليظ.

الرابعة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلل الرعية للأمير والعبيد للسادة؛ كما أشار إليه سعيد بن

---

(١) راجع ١١/٣٠٢. (٢) في ي: ينسبهما.

(٣) كذا في الأصول. والذي في ابن جرير والدر المنثور «أبو الهدّاج».

المسيب. وضَرَبَ خَفْضَ الجناح ونصبه مثلاً لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده. والذل: هو اللين. وقراءة الجمهور بضم الذال، من ذَلّ يَذِلّ ذُلاّ وذِلّة ومذلة فهو ذالّ وذليل. وقرأ سعيد بن جُبَير وابن عباس وعروة بن الزبير «الذِّل» بكسر الذال، ورويت عن عاصم؛ من قولهم: دابّة ذَلول بينة الذِّل. والذِّل في الدواب المنقاد السهل دون الصعب. فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويْه في خير ذِلة، في أقواله وسكناته ونظره، ولا يُحِدّ إليهما بصره فإن تلك هي نظرة الغاضب.

الخامسة عشرة ـ الخطاب في هذه الآية للنبيّ ﷺ والمراد به أمته؛ إذ لم يكن له عليه السلام في ذلك الوقت أبوان. ولم يذكر الذُّل في قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] وذكره هنا بحسب عظم الحق وتأكيده. و «مِن» في قوله: «مِنَ الرَّحْمَةِ» لبيان الجنس، أي إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالاً. ويصح أن يكون لانتهاء الغاية، ثم أمر تعالى عباده بالترحّم على آبائهم والدعاء لهم، وأن ترحمهما كما رحماك وترفُق بهما كما رفقا بك؛ إذ ولِياك صغيراً جاهلاً محتاجاً فآثراك على أنفسهما، وأسهرا ليلهما، وجاعا وأشبعاك، وتعرّيا وكَسَواك، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحدَّ الذي كنت فيه من الصغر، فتَلِي منهما ما وَلِيَا منك، ويكون لهما حينئذ فضل التقدّم. قال ﷺ: «لا يَجْزِي ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتَرِيَه فيعتِقه». وسيأتي في سورة «مريم»[2] الكلام على هذا الحديث.

السادسة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ خص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيده ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما، وهذا كله في الأبوين المؤمنين. وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولي قُرْبَى، كما تقدّم[3]. وذكر عن ابن عباس وقتادة أن هذا كله منسوخ بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ـ إلى قوله ـ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ فإذا كان والدا المسلم ذِميين استعمل

(١) راجع ١٣/ ١١٨ فما بعد.
(٢) راجع ١١/ ١٥٩.
(٣) راجع ٨/ ٢٧٢.

معهما ما أمره الله به ها هنا؛ إلا الترحم لهما بعد موتهما على الكفر؛ لأن هذا وحده نسخ بالآية المذكورة. وقيل: ليس هذا موضع نسخ، فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيّين، كما تقدم. أو يكون عموم هذه الآية خَصّ بتلك، لا رحمة الآخرة، لا سيما وقد قيل: إن قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ نزلت في سعد بن أبي وقاص، فإنه أسلم، فألقت أمه نفسها في الرَّمضاء مُتَجَرِّدة، فذكر ذلك لسعد فقال: لِتَمُت، فنزلت الآية. وقيل: الآية خاصة في الدعاء للأبوين المسلمين. والصواب أن ذلك عموم كما ذكرنا، وقال ابن عباس قال النبي ﷺ: «من أمسى مُرْضِياً لوالديه وأصبح أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة وإن واحداً فواحداً، ومن أمسى وأصبح مُسْخطاً لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار وإن واحداً فواحداً» فقال رجل: يا رسول الله، وإن ظلماه؟ قال: «وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه». وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أبي أخذ مالي. فقال النبيّ ﷺ للرجل: «فأتني بأبيك» فنزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ فقال: «إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمِعته أذناه» فلما جاء الشيخ قال له النبي ﷺ: «ما بال ابنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله؟» فقال: «سله يا رسول الله، هل أنفِقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسي! فقال له رسول الله ﷺ: «إيهِ[1]، دعنا من هذا، أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمِعته أذناك»؟ فقال الشيخ: والله يا رسول الله، ما زال الله عز وجل يزيدنا بك يقيناً، لقد قلت في نفسي شيئاً ما سمعته أذناي. قال: «قل وأنا أسمع» قال قلت:

---

(١) إيه (بكسر الهاء): كلمة استزادة واستنطاق. وإذا قلت «إيهاً» بالنصب والتنوين فإنما تأمره بالسكوت. وقال ابن سيده: «إيه (بالكسر) كلمة زجر بمعنى حسبك، وتنوّن فيقال إيها». وحكي عن الليث: «إيه وإيه في الاستزادة والاستنطاق. وإيه وإيهاً في الزجر؛ كقولك: إيه حسبك، وإيهاً حسبك».

غَذَوْتُك(١) مولوداً ومُنْتُك(٢) يافِعا ... تُعَلّ بما أجْنِي عليك وتُنْهَلُ
إذا ليلةٌ ضافَتَك(٣) بالسُّقم لم أبِتْ ... لسُقْمك إلا ساهراً أتململُ
كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طُرِقتَ به دوني فعيْنِي تَهْمُلُ
تخاف الرَّدى نفسي عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقتٌ مؤجّل
فلما بلغتَ السِّنّ والغايةَ التي ... إليها مَدَى ما كنتُ فيك أؤمِّلُ
جعلتَ جزائِي غِلظةً وفظاظةً ... كأنك أنت المُنعِم الْمُتَفَضِّلُ
فليتك إذ لم تَرْعَ حقّ أبوّتي ... فعلتَ كما الجار المُصَاقِب يفعلُ
فأوْليتني حقّ الجِوار ولم تكن ... عليّ بمال دون مالك تَبْخَلُ

قال: فحينئذ أخذ النبي ﷺ بتلابيب ابنه وقال: «أنت ومالك لأبيك». قال الطبراني: اللَّخْميُّ لا يروي ـ يعني هذا الحديث ـ عن ابن المُنْكَدِر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد؛ وتفرّد به عبيد الله بن خَلَصَة. والله أعلم.

[٢٥] ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي من اعتقاد الرحمة بهما والحنوّ عليهما، أو من غير ذلك من العقوق، أو من جعل ظاهر برهما رِيَاء. وقال ابن جبير: يريد البادرة التي تبدر، كالفَلْتة والزّلّة، تكون من الرجل إلى أبوَيْه أو أحدهما، لا يريد بذلك بأساً؛ قال الله تعالى: ﴿إنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أي صادقين في نية البرّ بالوالدين فإن الله يغفر البادرة. وقوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ وعد بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة

(١) نسبت هذه الأبيات في أشعار الحماسة لأمية بن أبي الصلت. قال التبريزي: «وتروى لابن عبد الأعلى. وقيل: لأبي العباس الأعمى».
(٢) في الأصول: «وصنتك». وفي أشعار الحماسة: «وعلتك» أي قمت بمؤونتك. و «يافعاً» شاباً. و «تعل» من عله يعله، سقاه ثانية. و «أجنى» أكسب. و «تنهل» من أنهله، سقاه أول سقية.
(٣) في الحماسة:

إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت ... لشكواك .... الخ

إلى طاعة الله سبحانه وتعالى. قال سعيد بن المسيّب: هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب. وقال ابن عباس رضي الله عنه: الأوّاب: الحفيظ الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها. وقال عُبيد بن عُمير: هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخَلَاء[١] ثم يستغفرون الله عز وجل. وهذه الأقوال متقاربة. وقال عَوْن العقيليّ: الأوّابون هم الذين يصلون صلاة الضحى. وفي الصحيح: «صلاة الأوّابين حين ترمض الفِصال»[٢]. وحقيقة اللفظ [أنه][٣] من آب يؤوب إذا رجع.

[٢٦] ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

[٢٧] ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا القُرْبى حَقَّهُ﴾ أي كما راعيت حق الوالدين فصِل الرحم، ثم تصدّق على المسكين وابن السبيل. وقال عليّ بن الحسين في قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ﴾: هم قرابة النبيّ ﷺ، أمر ﷺ بإعطائهم حقوقهم من بيت المال، أي من سهم ذَوِي القربى من الغَزْوِ والغنيمة، ويكون خطاباً للولاة أو من قام مقامهم. والحق في هذه الآية ما يتعين من صلة الرحم، وسَدّ الخَلَّة، والمواساة عند الحاجة بالمال، والمعونة بكل وجه.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُبَذِّرْ﴾ أي لا تسرف في الإنفاق في غير حق. قال الشافعيّ رضي الله عنه: والتبذير إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير. وهذا قول الجمهور: وقال أشهب عن مالك: التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعه في غير حقه، وهو الإسراف، وهو حرام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنّ المُبَذِّرِينَ كَانوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ وقوله:

---

(١) الخلاء: الخلوة.

(٢) هي أن تحمى الرمضاء، وهي الرمل، فتبرك الفصال من شدّة حرها وإحراقها أخفافها.

(٣) من جـ.

«إخْوَانَ» يعني أنهم في حكمهم؛ إذ المبذِّر ساعٍ في إفساد كالشياطين، أو أنهم يفعلون ما تسوّل لهم أنفسهم، أو أنهم يُقرَنون بهم غداً في النار؛ ثلاثة أقوال. والإخوان هنا جمع أخ من غير النسب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ أي احذروا متابعته والتشبه به في الفساد. والشيطان اسم الجنس. وقرأ الضحاك. «إخْوانَ الشيطان» على الأفراد، وكذلك ثبت في مصحف أنس بن مالك رضي الله عنه.

الثالثة ـ من أنفق ماله في الشهوات زائداً على قدر الحاجات وعرضه بذلك للنفاد فهو مبذر. ومن أنفق رِبْح ماله في شهواته وحفِظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذّر. ومن أنفق درهماً في حرام فهو مبذّر؛ ويحجر عليه في نفقته الدرهم في الحرام، ولا يحجر عليه إن بذله في الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد.

[٢٨] ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل.

الأولى ـ وهو أنه سبحانه وتعالى خصّ نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾. وهو تأديب عجيب وقول لطيف بديع؛ أي لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فَتَحْرِمهم[2]. وإنما يجوز أن تُعرض عنهم عند عجزٍ يعرِض وعائق يعوق، وأنت عند ذلك ترجو من الله سبحانه وتعالى فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل؛ فإن قعد بك الحال ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾.

الثانية ـ في سبب نزولها؛ قال ابن زيد: نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيأبى أن يعطيهم؛ لأنه كان يعلم منهم نفقة المال في فساد،

(١) راجع ١٦/ ٣٢٢.
(٢) في ي: والفرار من فتنتهم. ولا يبدو له معنى.

فكان يُعرض عنهم رغبة في الأجر في منعهم لئلا يعينهم على فسادهم. وقال عطاء الخراسانيّ في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ قال: ليس هذا في ذكر الوالدين، جاء ناس من مُزَيْنَةَ إلى النبي ﷺ يستحملونه؛ فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وأعينهم تفِيض من الدمع حزناً؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِن رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾. والرحمة الفَيْءُ[1].

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ أمره بالدعاء لهم، أي يَسِّرْ فقرهم عليهم بدعائك لهم. وقيل: أدْعُ لهم دعاءً يتضمن الفتح لهم والإصلاح. وقيل: المعنى ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنّ﴾ أي إن أعرضت يا محمد عن إعطائهم لضيق يدٍ فقل لهم قولاً ميسوراً؛ أي أحسن القول وابسط العذر، وأدع لهم بسعة الرزق، وقل إذا وجدتُ فعلتُ وأكرمتُ؛ فإن ذلك يعمل في مَسَرّة نفسه عمل المواساة. وكان عليه الصلاة والسلام إذا سئل وليس عنده ما يُعطِي سكت انتظاراً لرزق يأتي من الله سبحانه وتعالى كراهة الردّ، فنزلت هذه الآية، فكان ﷺ إذا سئل وليس عنده ما يعطي قال: «يرزقنا الله وإياكم من فضله»، فالرحمة على هذا التأويل الرزق المنتظر. وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة. والضمير في «عنهم» عائد على من تقدّم ذكرهم من الآباء والقرابة والمساكين وأبناء السبيل. و ﴿قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ أي ليّناً لطيفاً طيباً، مفعول بمعنى الفاعل، من لفظ اليسر كالميمون، أي وعداً جميلاً، على ما بيّناه. ولقد أحسن من قال:

إلاَّ تكن وَرِقٌ يوماً أجود بها ... للسائلين فإنّي ليّن العُودِ
لا يعدم السائلون الخير من خلقي ... إمّا نَوَالِي وإمّا حسنُ مردودي

تقول: يَسّرت لك كذا إذا أعددته.

[٢٩] ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) في جـ في هـ: الغنى.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ هذا مجاز عبّر به عن البخيل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله؛ فضرب له مثل الغَلّ الذي يمنع من التصرف باليد. وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ضرب رسول الله ﷺ مَثَل البخيل والمتصدّق كمثل رجلين عليهما جُبّتان من حديد قد اُضْطَرّت أيدِيَهما إلى ثُدِيِّهما وتَراقِيهما فجعل المتصدِّق كلما تصدّق بصدقة انبسطت[١] عنه حتى تغشى أناملَه وتَعْفُوَ أثره[٢] وجعل البخيل كلما همّ بصدقة قَلَصت[٣] وأخذت كلُّ حلقة بمكانها. قال أبو هريرة رضي الله عنه: فأنا رأيت رسول الله ﷺ[٤] يقول بأصبعيه هكذا في جيْبه فلو[٥] رأيتَه يوسِّعها ولا توسع[٦].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ضرب بسط اليد مثلاً لذهاب المال، فإن قبض الكفّ يحبس ما فيها، وبسطها يذهب ما فيها. وهذا كله خطاب للنبيّ ﷺ والمراد أمته، وكثيراً ما جاء في القرآن؛ فإن النبيّ ﷺ لما كان سَيّدَهم وواسطتهم إلى ربهم عُبِّر به عنهم على عادة العرب في ذلك. وأيضاً فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدّخر شيئاً لغَدٍ، وكان يجوع حتى يَشُدّ الحَجر على بطنه من الجوع. وكان كثير من الصحابة ينفقون في سبيل الله جميع أموالهم. فلم يعنِّفهم النبيّ ﷺ ولم ينكر عليهم لصحة يقينهم وشدّة بصائرهم . وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط في الإنفاق ، وإخراج ما حوته يده من المال مَن خِيف عليه الحسرةُ على ما خرج من يده، فأما من وثق بموعود الله عز وجل وجزيل ثوابه فيما أنفقه فغير مراد بالآية، والله أعلم . وقيل : إن هذا الخطاب للنبيّ ﷺ في خاصة نفسه، علّمه فيه كيفية الإنفاق، وأمره بالاقتصاد. قال جابر وابن مسعود: جاء غلام إلى النبيّ ﷺ فقال: إن أمي

(١) أي انتشرت عنه الجبة. (٢) أي أثر مشيه لسبوغها. (٣) أي انضمت وارتفعت.

(٤) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان؛ فتقول: قال بيده، أي أخذ. وقال برجله، أي مشى. وكل ذلك على المجاز والاتساع.

(٥) في جـ وهـ: ولقد رأيته.

(٦) جواب لو محذوف؛ أي لتعجبت.

تسألك كذا وكذا. فقال «ما عندنا اليوم شيء». قال: فتقول لك اكْسُنِي قميصَك؛ فخلع قميصه فدفعه إليه وجلس في البيت عُرياناً. وفي رواية جابر: فأذّن بلال للصلاة وانتظر رسول الله ﷺ يخرج، واشتغلت القلوب، فدخل بعضهم فإذا هو عار؛ فنزلت هذه الآية. وكل هذا في إنفاق الخير. وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام. كما تقدّم.

الثالثة ـ نهت هذه الآية عن استفراغ الوجد[1] فيما يطرأ أوّلاً من سؤال المؤمنين؛ لئلا يبقى من يأتي بعد ذلك لا شيء له، أو لئلاّ يضيّع المنفق عياله. ونحوه من كلام الحكمة: ما رأيت قط سرفاً إلا ومعه حق مُضيَّع. وهذه من آيات فقه الحال فلا يُبَيَّن حكمها إلا باعتبار شخص شخص من الناس.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ قال ابن عرفة: يقول لا تسرف ولا تتلف مالك فتبقى محسوراً منقطعاً عن النفقة والتصرف؛ كما يكون البعير الحسير، وهو الذي ذهبت قوته فلا أنبعاث به؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[2] أي كَليلٌ منقطع. وقال قتادة: أي نادماً على ما سلف منك؛ فجعله من الحسْرة، وفيه بُعْدٌ؛ لأن الفاعل من الحسرة حَسِر وحَسْران ولا يقال محسور. والملوم: الذي يلام على إتلاف ماله، أو يلومه من لا يعطيه.

[٣٠] ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾[3].

---

(١) الوجد (مثلثة الواو): اليسار والسعة.

(٢) راجع ١٨/٢٠٩.

(٣) هذه الآية لم يتكلم عليها المؤلف ولم تذكر في النسخ التي بين أيدينا ولعله تكلم عليها وحصل سقط من النساخ.

وعبارة ابن جرير الطبري في كلامه على الآية كما وردت في تفسيره: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ إن ربك يا محمد يبسط رزقه لمن يشاء من عباده فيوسع عليه. ويقدر على من يشاء، يقول: ويقتر على من يشاء منهم فيضيق عليه: ﴿إنه كان بعباده خبيراً﴾ يقول: إن ربك ذو خبرة بعباده، ومن الذي تصلحه السعة في الرزق وتفسده، ومن الذي يصلحه الإقتار والضيق ويهلكه. ﴿بصيراً﴾ يقول هو ذو بصر بتدبيرهم وسياستهم. يقول: فانته يا محمد إلى أمرنا فيما أمرناك ونهيناك من بسط يدك فيما تبسطها فيه وفيمن تبسطها له، ومن كفها عمن تكفها عنه وتكفها فيه؛ فنحن أعلم بمصالح العباد منك ومن جميع الخلق وأبصر بتدبيرهم».

[٣١] ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قد مضى الكلام في هذه الآية في الأنعام، والحمد لله[1]. والإملاق: الفقر وعدم الملك. أملق الرجل أي لم يبق له إلاّ الملَقات؛ وهي الحجارة العظام المُلس. قال الهُذَلِي يصف صائداً:

أُتِيحَ لها أُقَيْدِرُ ذو حَشِيف ... إذا سامَتْ على المَلَقات ساما

الواحدة مَلَقة. والأُقَيْدر تصغير الأقدر، وهو الرجل القصير. والحشِيف من الثياب: الخَلَق. وسامت مرّت. وقال شَمِر: أمْلَق لازم ومتعدٍّ، أمْلَق إذا افتقر، وأملق الدهر ما بيده. قال أَوْس:

وأَمْلق ما عندي خطوب تنبّلُ[2]

الثانية - قوله تعالى: ﴿خِطْأً﴾ «خِطْأً» قراءة الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وبالهمزة والقصر. وقرأ ابن عامر «خَطَأً» بفتح الخاء والطاء والهمزة مقصورة، وهي قراءة أبي جعفر يزيد. وهاتان قراءتان مأخوذتان من «خطىء» إذا أتى الذنب على عمد. قال ابن عرفة: يقال خَطِىء في ذنبه خَطَأً إذا أثِم فيه، وأخطأ إذا سلَك سبيل خطأ عامداً أو غير عامد. قال: ويقال خطِىء في معنى أخطأ. وقال الأزهري: يقال خطِىء يخطأ خِطئاً إذا تعمد الخطأ؛ مثل أثِم يأثم إثماً. وأخطأ إذا لم يتعمد، إخطاء وخطأ. قال الشاعر:

دَعيني إنما خَطْئِي وصَوْبِي ... عليّ وإنّ ما أهلكتُ مالُ[3]

---

(١) راجع ٧/ ١٣٠.

(٢) صدر البيت:

لما رأيت العدم قيد نائلي

(٣) في الأصول: «وإن ما أهلكت مالي». والتصويب عن كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن سلام في ترجمة أوس بن غلفاء، ولسان العرب في مادة «صوب». وقيل هذا البيت:

ألا قالت أمامة يوم غول ... تقطع يابن غلفاء الحبال

يقول: وإن الذي أهلكت إنما هو مال، والمال يستخلف ولم أتلف عرضاً.

وغول، مكان كان فيه وقعة للعرب لضبة على بني كلاب. (راجع معجم ياقوت).

والخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء، وهو ضدّ الصواب. وفيه لغتان: القصر وهو الجيّد، والمدّ وهو قليل. وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «خطأ» بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة. وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومدّ الهمزة. قال النحاس: ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً، ولذلك جعلها أبو حاتم غلطاً. قال أبو عليّ: هي مصدر من خاطأ يخاطىء، وإن كنا لا نجد خاطأ، ولكن وجدنا تخاطأ، وهو مطاوع خاطأ، فدلنا عليه؛ ومنه قول الشاعر:

تَخَاطَأت النَّبْلُ أحشاءَه وأخّرَ[1] يومِي فلم أعْجَلِ

وقول الآخر في وصف مَهاة:

تخاطأه القَنّاص حتى وجدتُه وخرطومُه في مَنْقَع الماء راسِبُ

الجوهري: تخاطأه أي أخطأه؛ وقال أوْفَى بن مطر المازني:

ألا أبلغا خُلَّتِي جابرا بأنّ خليلك لم يُقْتَلِ
تخاطأت النَّبْلُ أحشاءه وأخّر[1] يومي فلم يَعْجَلِ

وقرأ الحسن «خطاء» بفتح الخاء والطاء والمد في الهمزة. قال أبو حاتم: لا يعرف هذا في اللغة وهي غلط غير جائز. وقال أبو الفتح: الخطاء من أخطأت بمنزلة العطاء من أعطيت، هو اسم بمعنى المصدر، وعن الحسن أيضاً «خَطًى» بفتح الخاء والطاء منوّنة من غير همزة.

[٣٢] ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

فيه مسألة واحدة:

قال العلماء: قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ أبلغ من أن يقول: ولا تزنوا؛ فإن معناه لا تدنوا من الزنى. والزنى يمد ويقصر، لغتان. قال الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كما كان الزِّناء فريضةَ الرَّجْمِ

و ﴿سَبِيلاً﴾ نصب على التمييز؛ التقدير: وساء سبيله سبيلا. أي لأنه يؤدّي إلى النار. والزنى من الكبائر، ولا خلاف فيه وفي قبحه لا سيما بحليلة الجار. وينشأ عنه استخدام ولد الغير

(١) أخر: بمعنى يتأخر، ويجوز «أخر» بضم الهمزة وشد الخاء مع الكسر.

واتخاذه أبناً وغير ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه. وفي الصحيح أن النبيّ ﷺ أتي[١] بامرأةٍ مُجِحٍّ على باب فسطاط فقال: «لعله يريد أن يُلِمّ بها» فقالوا: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «لقد هَمَمْتُ أن أَلْعَنه لَعْناً يدخل معه قبرَه كيف يُوَرِّثه وهو لا يَحِلّ له كيف يستخدمه وهو لا يَحِلّ له».

[٣٣] ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ قد مضى الكلام فيه في الأنعام[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾. فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً﴾ أي بغير سبب يوجب القتل. ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ﴾ أي لمستحِق دمه. قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: الولِيّ يجب أن يكون ذكراً؛ لأنه أفرده بالولاية بلفظ التذكير. وذكر إسماعيل بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ﴾ ما يدل على خروج المرأة عن مطلق لفظ الوليّ، فلا جرم ليس للنساء حق في القصاص لذلك ولا أثر

---

(١) قوله: «أتي بامرأة» أي مر عليها في بعض أسفاره. و«المجح» (بميم مضمومة وجيم مكسورة وحاء مهملة) صفة لامرأة، وهي الحامل التي قربت ولادتها. وقوله: فقال لعله... الخ فيه حذف تقديره: فسأل عنها فقالوا أمة فلان؛ أي مسبيته. ومعنى «يلم بها»: أي يطؤها، وكانت حاملاً مسبية، لا يحل جماعها حتى تضع. وقوله «كيف يورثه... الخ» معناه: أنه قد تتأخر ولادتها ستة أشهر، بحيث يحتمل كون الولد من هذا السابي، ويحتمل أنه كان ممن قبله، فعلى تقدير كونه من السابي يكون ولداً له، ويتوارثان. وعلى تقدير كونه من غير السابي لا يتوارثان هو ولا السابي لعدم القرابة، بل له استخدامه لأنه مملوكه. فتقدير الحديث: أنه قد يستلحقه ويجعله ابناً له ويورثه مع أنه لا يحل له توريثه لكونه ليس منه، ولا يحل توريثه ومزاحمته لباقي الورثة. وقد يستخدمه استخدام العبيد ويجعله عبداً يتملكه، مع أنه لا يحل له ذلك لكونه منه إذا وضعته لمدة محتملة كونه من كل واحد منهما؛ فيجب عليه الامتناع من وطئها خوفاً من هذا المحظور. (راجع شرح النووي على صحيح مسلم، كتاب النكاح باب تحريم وطء الحامل المسبية).

(٢) راجع ٧/ ١٣٠.

لعَفْوِها، وليس لها الاستيفاء. وقال المخالف: إن المراد ها هنا بالولي الوارث؛ وقد قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[1] وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ[1] مِنْ شَيْءٍ﴾، وقال: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فاقتضى ذلك إثبات القود لسائر الورثة؛ وأمّا ما ذكروه من أن الولي في ظاهره على التذكير وهو واحد كأن ما كان بمعنى الجنس يستوي المذكر والمؤنث فيه، وتتمته في كتب الخلاف. ﴿سُلْطَاناً﴾ أي تسليطاً إن شاء قتل وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الديَة؛ قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والضحاك وأشهب والشافعي. وقال ابن وهب قال مالك: السلطان أمر الله. ابن عباس: السلطان الحجة. وقيل: السلطان طلبه حتى يدفع إليه. قال ابن العربي: وهذه الأقوال متقاربة. وأوضحها[2] قول مالك: إنه أمر الله. ثم إن أمر الله عز وجل لم يقع نَصًّا فاختلف العلماء فيه؛ فقال ابن القاسم عن مالك وأبو حنيفة: القتل خاصة. وقال أشهب: الخيرة؛ كما ذكرنا آنفاً، وبه قال الشافعيّ. وقد مضى في سورة «البقرة»[3] هذا المعنى.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال: لا يقتل غير قاتله؛ قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير. الثاني ـ لا يقتل بدل وليه اثنين كما كانت العرب تفعله. الثالث ـ لا يمثّل بالقاتل؛ قاله طَلْق بن حبيب، وكله مراد لأنه إسراف منهي عنه. وقد مضى في «البقرة»[3] القول في هذا مستوفًى. وقرأ الجمهور «يُسْرِفْ» بالياء، يريد الولي، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي «تسرف» بالتاء من فوق، وهي قراءة حُذيفَة. وروى العلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال: هو للقاتل الأوّل، والمعنى عندنا فلا تسرف أيها القاتل. وقال الطبريّ: هو على معنى الخطاب للنبيّ ﷺ والأئمة من بعده. أي لا تقتلوا غير القاتل. وفي حرف أُبيّ «فلا تسرِفوا في القتلِ».

(١) راجع ٨/٢٠٢ و ٥٥ و ٥٨.
(٢) في جـ: أظهرها.
(٣) راجع ٢/٢٤٤ فما بعد.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ أي مُعاناً: يعني الوليّ. فإن قيل: وكم من وليّ مخذول لا يصل إلى حقه. قلنا: المعونة تكون بظهور الحجة تارة وباستيفائها أخرى، وبمجموعها ثالثة، فأيّها كان فهو نصر من الله سبحانه وتعالى. وروى ابن كثير عن مجاهد قال: إن المقتول كان منصوراً. النحاس: ومعنى قوله إن الله نصره بوليه. وروي أنه في قراءة أبي «فلا تسرِفوا فِي القتلِ إن وَلِيّ المقتولِ كان منصوراً». قال النحاس: الأبين بالياء ويكون للوليّ؛ لأنه إنما يقال: لا يسرف إن كان له أن يقتل، فهذا للوليّ. وقد يجوز بالتاء ويكون للوليّ أيضاً، إلا أنه يحتاج فيه إلى تحويل المخاطبة. قال الضحاك: هذا أوّل ما نزل من القرآن في شأن القتل، وهي مكية[١].

[٣٤] ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قد مضى الكلام فيه في الأنعام[٢].

الثانية - قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بالْعَهْدِ﴾ قد مضى الكلام فيه في غير موضع[٣]. قال الزجاج: كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد. ﴿إنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ عنه، فحذف، كقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٤] به وقيل: إن العهد يسأل تبكيتا لناقضه فيقال: لم نقضت؟ كما تسأل الموؤودة تبكيتا لوائدها[٥].

[٣٥] ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾.

(١) المروي عن الحسن أنها مدنية كما في الألوسي. وهو المتبادر لأنها من الأحكام.
(٢) راجع ٧/ ١٣٠.
(٣) راجع ١/ ٣٣٢.
(٤) راجع ١٨/ ١٩٦.
(٥) راجع ١٩/ ٢٣٠ فما بعد.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ تقدم الكلام فيه أيضاً في الأنعام[١]. وتقتضي هذه الآية أن الكيل على البائع، وقد مضى في سورة «يوسف» فلا معنى للإعادة[٢]. والقُِسْطَاسِ (بضم القاف وكسرها): الميزان بلغة الروم؛ قاله ابن عُزيز. وقال الزجاج: القسطاس: الميزان صغيراً كان أو كبيراً. وقال مجاهد: القسطاس العدل، وكان يقول: هي لغة رومية، وكأن الناس قيل لهم: زِنوا بمَعْدِله[٣] في وزنكم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر «القُسطاس» بضم القاف. وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم [القِسطاس] (بكسر القاف) وهما لغتان.

الثانية - قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي وفاء الكيل وإقامة الوزن خير عند ربك[٤] وأبرك. ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي عاقبة. قال الحسن: ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقدر رجل على حرام ثم يَدَعُه ليس لديه إلا مخافة الله تعالى إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك».

[٣٦] ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي لا تتبع ما لا تعلم ولا يَعنِيك. قال قتادة: لا تقل رأيتُ وأنت لم تر، وسمعتُ وأنت لم تسمع، وعلمتُ وأنت لم تعلم؛ وقاله ابن عباس رضي الله عنهما. قال مجاهد: لا تَذُمّ أحداً بما ليس لك به علم؛ وقاله ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً. وقال محمد بن الحنفية: هي شهادة الزور. وقال القُتَبي: المعنى لا تتبع الحَدْس

(١) راجع ٧/ ١٣٠.
(٢) راجع ٩/ ٢٥٤.
(٣) في أ وخـ وو وي: بمعدلة وفي ج؛ بمعدله.
(٤) في جـ: عند الله.

والظنون؛ وكلها متقاربة. وأصل القَفْو البُهْتُ والقذفُ بالباطل؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «نحن بنو النضر بن كنانة لا نَقفو أُمَّنا ولا ننتفي من أبينا» أي لا نَسُبّ أمنا. وقال الكُمَيت:

فـلا أرمـي البـريء بغيـر ذنـب ولا أَقْفـو الحـواصـن إن قُفينـا

يقال: قَفَوْتُه أقْفُوه، وقُفْتُه أَقُوفُه، وقَفَيته إذا اتَّبعت أثره. ومنه القافة لتتبعهم الآثار وقافية كلِّ شيء آخره، ومنه قافية الشِّعر؛ لأنها تقفو البيت. ومنه أسم النبيّ ﷺ المُقَفّى؛ لأنه جاء آخر الأنبياء. ومنه القائف، وهو الذي يتبع أثر الشَّبَه. يقال: قاف القائف يقوف إذا فعل ذلك. وتقول: فَقَوْت الأثر، بتقديم الفاء على القاف. ابن عطية: ويشبه أن يكون هذا من تلعّب العرب في بعض الألفاظ، كما قالوا: رَعَمْلِي في لَعَمْرِي. وحكى الطبريّ عن فرقة أنها قالت؛ قفا وقاف، مثل عتا وعات. وذهب منذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثلُ جَبَذ وجَذَب. وبالجملة فهذه الآية تنهى عن قول الزور والقذف، وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة. وقرأ بعض الناس فيما حكى الكسائي «تَقُفْ» بضم القاف وسكون الفاء. وقرأ الجرّاح «والفَآد»[1] بفتح الفاء، وهي لغة لبعض الناس، وأنكرها أبو حاتم وغيره.

الثانية ـ قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: تضمنت هذه الآية الحكم بالقافة؛ لأنه لما قال: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ دلّ على جواز ما لنا به علم، فكل ما علمه الإنسان أو غلب على ظنه جاز أن يحكم به، وبهذا احتججنا على إثبات القُرْعة والخَرْص؛ لأنه ضرب من غلبة الظن، وقد يُسَمَّى علماً أتساعاً. فالقائف يُلحق الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما كما يلحق الفقيه الفرع بالأصل من طريق الشبه. وفي الصحيح عن عائشة: أن رسول الله ﷺ دخل عليّ مسروراً تبرق أسارير وجهه فقال: «ألم تَرَيْ أن مُجَزِّزًا نظر إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد عليهما قطيفة قد غَطّيا رءوسهما وبَدَتْ أقدامهما فقال إن بعض هذه الأقدام لَمن بعض». وفي حديث يونس بن يزيد: «وكان مُجَزِّز قائفاً».

---

(١) في الشواذ: الفواد بفتح الفاء والواو. والجراح قاضي البصرة.

الثالثة ـ قال الإمام أبو عبد الله المازَرِي: كانت الجاهلية تقدح في نسب أسامة لكونه أسود شديد السواد، وكان زيد أبوه أبيضَ من القطن، هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح. قال القاضي عِياض: وقال غير أحمد كان زيد أزهر اللون، وكان أسامة شديد الأُدْمة؛ وزيد بن حارثة عربيّ صريح من كَلْب، أصابه سِباء، حسبما يأتي في سورة «الأحزاب»[1] إن شاء الله تعالى.

الرابعة ـ استدلّ جمهور العلماء على الرجوع إلى القافة عند التنازع في الولد؛ بسرور النبيّ ﷺ بقول هذا القائف؛ وما كان عليه السلام بالذي يُسَرّ بالباطل ولا يعجبه ولم يأخذ بذلك أبو حنيفة وإسحاق والثّورِيّ وأصحابهم متمسكين بإلغاء النبيّ ﷺ الشبه في حديث اللّعان؛ على ما يأتي في سورة «النور»[2] إن شاء الله تعالى.

الخامسة ـ واختلف الآخذون بأقوال القافة، هل يؤخذ بذلك في أولاد الحرائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء، على قولين؛ فالأول ـ قول الشافعيّ ومالك رضي الله عنهما في رواية ابن وهب عنه، ومشهور مذهبه قصْرُه على ولد الأَمَة. والصحيح ما رواه ابن وهب عنه وقاله الشافعيّ رضي الله عنه؛ لأن الحديث الذي هو الأصل في الباب إنما وقع في الحرائر، فإن أسامة وأباه حُرّان فكيف يُلْغَى السبب الذي خُرّج عليه دليل الحكم وهو الباعث عليه، هذا مما لا يجوز عند الأصوليين. وكذلك اختلف هؤلاء، هل يكتفى بقول واحد من القافة أو لا بُدّ من اثنين لأنها شهادة؛ وبالأوّل قال ابن القاسم وهو ظاهر الخبر بل نصّه. وبالثاني قال مالك والشافعيّ رضي الله عنهما.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ أي يسأل كل واحد منهم عما اكتسب، فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه واعتقده، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع. وقيل: المعنى أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده؛ ونظيره قوله ﷺ: «كلّكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»

---

(١) راجع ١٤/١١٨.

(٢) راجع ١٢/١٩١.

فالإنسان راع على جوارحه؛ فكأنه قال كل هذه كان الإنسان عنه مسؤولاً، فهو على حذف مضاف. والمعنى الأول أبلغ في الحجة؛ فإنه يقع تكذيبه من جوارحه، وتلك غاية الخزي؛ كما قال: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[(١)]، وقوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(١)]. وعبّر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك لأنها حواس لها إدراك، وجعلها في هذه الآية مسؤولة، فهي حالة من يعقل، فلذلك عبّر عنها بأولئك. وقال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾: إنما قال: «رَأَيْتُهُمْ» في نجوم، لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعل مَن يعقل عبّر عنها بكناية مَن يعقل؛ وقد تقدّم[(٢)].

وحكى الزجاج أن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك، وأنشد هو والطبري:

ذُمّ المنازل بعد منزلة اللِّوَى ... والعيش بعد أولئك الأيام

وهذا أمر يوقف عنده. وأما البيت فالرواية فيه «الأقوام» والله أعلم.

[٣٧] ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

[٣٨] ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ هذا نَهْيٌ عن الخُيَلاء وأمرٌ بالتواضع. والمَرَح: شدّة الفرح. وقيل: التكبر في المشي. وقيل: تجاوز الإنسان قدره. وقال قتادة: و الخيلاء في المشي. وقيل: هو البطر والأَشَر. وقيل: هو النشاط. وهذه الأقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين: أحدهما مذموم والآخر محمود؛ فالتكبّر والبَطَر والخُيلاء وتجاوز الإنسان قدره مذموم والفرح والنشاط محمود. وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما؛ ففي الحديث الصحيح «لَلَّهُ أفرح بتوبة العبد من رجل. . .» الحديث. والكسل

(١) راجع ١٥/٤٨، و ٣٤٩.

(٢) راجع ٩/١٢٢.

مذموم شرعاً والنشاط ضدّه. وقد يكون التكبر وما في معناه محموداً، وذلك على أعداء الله والظلمة. أسند أبو حاتم محمد بن حِبّان عن ابن جابر بن عتيك عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مِن الغَيْرة ما يبغض الله عز وجل ومنها ما يحب الله عزّ وجلّ ومن الخُيَلاء ما يحب الله عز وجل ومنها ما يبغض الله فأما الغَيْرةُ التي يحب الله الغيرة في الدِّين والغيرة التي يبغض الله الغيرةُ في غير دينه والخيلاء التي يحب الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدقة والاختيال الذي يبغض الله الخيلاء في الباطل» وأخرجه أبو داود في مصنَّفه وغيره. وأنشدوا:

ولا تمـش فـوق الأرض إلا تـواضعـاً فكم تحتها قومٌ همو منك أرفعُ
وإن كنتَ في عزٍّ وحِرْز ومَنْعة فكم مات من قوم همو منك أمنعُ

الثانية - إقبال الإنسان على الصيد ونحوه ترفُّعاً دون حاجة إلى ذلك داخل في هذه الآية، وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنًى. وأما الرجل يستريح في اليوم النادر(١) والساعة من يومه، يجُمّ فيها نفسه في التطرّح والراحة ليستعين بذلك على شغل من البر، كقراءة علم أو صلاة، فليس بداخل في هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿مَرَحًا﴾ قراءة الجمهور بفتح الراء. وقراءة فرقة فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بناء اسم الفاعل. والأوّل أبلغ، فإن قولك: جاء زيد ركْضاً أبلغ من قولك: جاء زيد راكضاً؛ فكذلك قولك مَرَحاً. والمرح المصدر أبلغ من أن يقال مَرِحاً.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ يعني لن تتولّج باطنها فتعلم ما فيها ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ أي لن تساوي الجبال بطولك ولا تطاولك. ويقال: خرق الثوب أي شقه، وخرق الأرض قطعها. والخَرْق: الواسع من الأرض. أي لن تخرق الأرض بكبرك ومشيك عليها. ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ بعظمتك، أي بقدرتك لا تبلغ هذا المبلغ، بل أنت عبد ذليل، محاط بك من تحتك ومن فوقك، والمحاط محصور ضعيف؛ فلا يليق بك

(١) في حـ: «في اليوم البارد».

التكبر. والمراد بخرق الأرض هنا نقبها لا قطعها بالمسافة؛ والله أعلم. وقال الأزهري: معناه لن تقطعها. النحاس: وهذا أبيَن؛ لأنه[1] مأخوذ من الخرق وهي الصحراء الواسعة. ويقال: فلان أخرق من فلان، أي أكثر سفراً وعزة ومَنعة. ويروى أن سَبَأ دوّخ الأرض بأجناده شرقاً وغرباً وسَهْلا وجبلا، وقتل سادة وسبى ـ وبه سُمِّيَ سبأ ـ ودان له الخلق، فلما رأى ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيام ثم خرج إليهم فقال: إني لما نلت ما لم ينل أحد رأيت الابتداء بشكر هذه النعم، فلم أر أوقع في ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت، فسجدوا لها، وكان ذلك أوّلَ عبادة الشمس؛ فهذه عاقبة الخُيَلاء والتكبر والمرَح، نعوذ بالله من ذلك.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ «ذَلِكَ» إشارة إلى جملة ما تقدّم ذكره مما أمر به ونَهَى عنه. و «ذلك» يصلح للواحد والجمع والمؤنث والمذكر. وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ومسروق «سيئُه» على إضافة سَيِّء إلى الضمير، ولذلك قال: «مَكْرُوهاً» نصب على خبر كان. والسيِّء: هو المكروه، وهو الذي لا يرضاه الله عز وجل ولا يأمر به. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآي من قوله: ﴿وقَضَى رَبُّكَ ـ إلى قوله ـ كَانَ سَيِّئُهُ﴾ مأمورات بها ومنهيات عنها، فلا يخبر عن الجميع بأنه سَيئة فيدخل المأمور به في المنهيّ عنه. واختار هذه القراءة أبو عبيد. ولأن في قراءة أُبَيّ. «كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَاته» فهذه لا تكون إلا للإضافة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو «سيئةً» بالتنوين؛ أي كل ما نهى الله ورسوله عنه سيئة. وعلى هذا انقطع الكلام عند قوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ ثم قال: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، ﴿وَلاَ تَمْشِ﴾، ثم قال: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً﴾ بالتنوين. وقيل: إن قوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ﴾ إلى هذه الآية كان سيئةً لا حسنة فيه، فجعلوا «كلا» محيطاً بالمنهيّ عنه دون غيره. وقوله: «مَكْرُوهاً» ليس نعتاً لسيئة، بل هو بدل منه؛ والتقدير: كان سيئة وكان مكروهاً. وقد قيل: إن «مَكْرُوهاً» خبر ثان لكان حمل على لفظة كلّ، و «سيئة» محمول على المعنى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبلُ. وقال بعضهم: هو نعت لسيئة؛ لأنه لما كان

(١) في جـ وي: كأنه.

تأنيثها غير حقيقي جاز أن توصف بمذكر. وضعّف أبو علي الفارسيّ هذا وقال: إن المؤنث إذا ذُكّر فإنما ينبغي أن يكون ما بعده مذكراً، وإنما التساهل أن يتقدم الفعل المسند إلى المؤنث وهو في صيغة ما يسند إلى المذكّر؛ ألا ترى قول الشاعر:

فلا مزنة ودَقَتْ وَدْقَهَا ولا أرضَ أبقل إبقالها

مستقبح عندهم. ولو قال قائل: أبقل أرض لم يكن قبيحاً. قال أبو عليّ: ولكن يجوز في قوله: «مَكْرُوهاً» أن يكون بدلاً من «سيئةً». ويجوز أن يكون حالاً من الضمير الذي في «عِنْدَ رَبِّكَ» ويكون «عِنْدَ رَبِّكَ» في موضع الصفة لسيئة.

الخامسة ـ استدلّ العلماء بهذه الآية على ذمّ الرّقْص وتعاطيه. قال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل: قد نصّ القرآن على النّهي عن الرقص فقال: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ وذم المختال. والرقصُ أشد المرح والبطر. أو لسنا الذين قِسْنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما في الإطراب والسكر، فما بالنا لا نقيس القضيب وتلحين الشّعر معه على الطُّنبور والمِزمار والطّبل لاجتماعهما. فما أقبح من ذي لِحْية، وكيف إذا كان شيبةً، يرقص ويصفق على إيقاع الألحان والقضبان، وخصوصاً إن كانت أصواتٌ لنسوان ومردان، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط، ثم هو إلى إحدى الدّارين، يَشْمُس[1] بالرقص شمس البهائم، ويصفّق تصفيق النسوان، و [الله][2] لقد رأيت مشايخ في عمري ما بان لهم سِنّ من التبسّم فضلاً عن الضحك مع إدمان مخالطتي لهم. وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله: ولقد حدّثني بعض المشايخ عن الإمام الغزالي رضي الله عنه أنه قال: الرقص حماقة بين الكتفين لا تزول إلا باللعب. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في «الكهف»[3] وغيرها[4] إن شاء الله تعالى.

---

(١) شمست الدابة شردت وجمحت.

(٢) من جـ وي.

(٣) راجع ص ٣٦٥ من هذا الجزء.

(٤) راجع ١٤/ ٥١ فما بعد.

[٣٩] ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

الإشارة بـ «ذلك» إلى هذه الآداب والقصص والأحكام التي تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التي نزل بها جبريل عليه السلام. أي هذه من الأفعال المحكمة التي تقتضيها حكمة الله عز وجل في عباده، وخلقها لهم من محاسن الأخلاق والحكمة وقوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة. ثم عطف قوله: «وَلاَ تَجْعَلْ» على ما تقدّم من النواهي. والخطاب للنبيّ ﷺ والمرادُ كلُّ من سمع الآية من البشر. والمدحور: المُهان المبعد المُقْصَى. وقد تقدّم في هذه السورة[١]. ويقال في الدعاء: اللهم أدْحر عنا الشيطان؛ أي أبعده.

[٤٠] ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

هذا يردّ على من قال من العرب: الملائكة بنات الله، وكان لهم بنات أيضاً مع البنين، ولكنه أراد: أفأخلص لكم البنين دونه وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه. ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ أي في الإثم عند الله عز وجل.

[٤١] ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي بينا. وقيل: كَرَّرْنَا. ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ قيل: «في» زائدة، والتقدير: ولقد صرفنا هذا القرآن؛ مثل: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾[٢] أي أصلح ذريتي. والتصريف: صرف الشيء من جهة إلى جهة. والمراد بهذا التصريف البيان والتكرير. وقيل: المغايرة؛ أي غايرنا بين المواعظ ليذّكروا ويعتبروا ويتّعظوا. وقرءاة العامة «صَرَّفْنَا»

---

(١) راجع ص ٢٣٥ من هذا الجزء.
(٢) راجع ١٦/ ١٩٥.

بالتشديد على التكثير حيث وقع. وقرأ الحسن بالتخفيف. وقوله: ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ يعني الأمثال والعِبَر والحكَم والمواعظ والأحكام والإعلام. قال الثعلبي: سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبي الطيب: لقوله تعالى: ﴿صرفنا﴾ معنيان؛ أحدهما لم يجعله نوعاً واحداً بل وعداً ووعيداً ومُحْكَماً ومتشابهاً ونهياً وأمراً وناسخاً ومنسوخاً وأخباراً وأمثالاً؛ مثلُ تصريف الرياح من صَباً ودَبُور وجنوب وشمال، وتصريف الأفعال من الماضي والمستقبل والأمر والنّهي والفعل والفاعل والمفعول ونحوها. والثاني أنه لم ينزل مرة واحدة بل نجوماً؛ نحو قوله: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ﴾[1] ومعناه: أكثرنا صرف جبريل عليه السلام إليك. ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ قراءة يحيى والأعمش وحمزة والكسائي «لِيَذْكُروا» مخففاً، وكذلك في الفرقان ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذكروا﴾[2]. الباقون بالتشديد. واختاره أبو عبيد؛ لأن معناه ليتذكروا وليتعظوا. قال المَهْدَوِيّ: من شدّد «لِيَذَّكَّروا» أراد التدبر. وكذلك من قرأ «لِيَذْكُروا» ونظير الأول. ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2] والثاني ـ ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾[3]. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي التصريف والتذكير. ﴿إِلاَّ نُفُوراً﴾ أي تباعداً عن الحق وغفلة عن النظر والاعتبار؛ وذلك لأنهم اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر.

[٤٢] ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

[٤٣] ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ﴾ هذا متصل بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ وهو ردّ على عبّاد الأصنام. ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ قرأ ابن كثير وحفص «يقولون» بالياء. الباقون «تقولون» بالتاء على الخطاب. ﴿إِذاً لاَبْتَغَوْا﴾ يعني الآلهة. ﴿إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لطلبوا مع الله منازعة وقتالاً كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض. وقال سعيد بن جُبير رضي الله تعالى عنه: المعنى إذاً لطلبوا

(١) راجع ص ١٣٩ من هذا الجزء.
(٢) راجع ١٣/٥٧ و ٢٩٤ فما بعد.
(٣) راجع ١/٤٣٦.

طريقاً إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه، لأنهم شركاؤه. وقال قتادة: المعنى إذا لابْتَغَت الآلهة القُرْبة إلى ذي العرش سبيلا، والتمست الزُّلْفة عنده لأنهم دونه، والقوم اعتقدوا أن الأصنام تقرّبهم إلى الله زلفى، فإذا اعتقدوا في الأصنام أنها محتاجة إلى الله سبحانه وتعالى فقد بطل أنها آلهة. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ نزّه سبحانه نفسه وقدّسه ومجده عما لا يليق به. والتسبيح: التنزيه. وقد تقدّم[1].

[٤٤] ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل، لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح. وقوله: «وَمَنْ فِيهِنَّ» يريد الملائكة والإنس والجن، ثم عمّ بعد ذلك الأشياء كلّها في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾. واختلف في هذا العموم، هل هو مخصّص أم لا؛ فقالت فرقة: ليس مخصوصاً والمراد به تسبيح الدلالة، وكل محدَث يشهد على نفسه بأن الله عز وجل خالق قادر. وقالت طائفة: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيء على العموم يسبّح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهه، ولو كان ما قاله الأوّلون من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمراً مفهوماً، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفقه. وأجيبوا بأن المراد بقوله: «لاَ تَفْقَهُونَ» الكفارُ الذين يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى في الأشياء. وقالت فرقة: قوله «مِنْ شَيْءٍ» عموم، ومعناه الخصوص في كلّ حيٍّ ونامٍ، وليس ذلك في الجمادات. ومن هذا قول عكرمة: الشجرة تسبح والأسطوان لا يسبّح. وقال يزيد الرَّقَاشِي للحسن وهما في طعام وقد قُدِّم الخِوان: أيسبّح هذا الخِوان يا أبا سعيد؟ فقال: قد كان يسبح مرة؛ يريد أن الشجرة في زمن ثمرها واعتدالها كانت تسبّح، وأما الآن فقد صار خواناً مدهوناً.

---

(١) راجع ١/٢٧٦.

قلت: ويستدلّ لهذا القول من السنّة بما ثبت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ ﷺ مَرّ على قبرين فقال: «إنهما لَيُعَذَّبان وما يعذَّبان في كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنَّميمة وأما الآخر فكان لا يستبرىء من البول» قال: فدعا بعَسِيب رَطْب فشقّه ٱثنين، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ثم قال: «لعلّه يخفّف عنهما ما لم يَيْبَسا». فقوله عليه الصلاة والسلام. «ما لم ييبسا» إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبحان، فإذا يبسا صارا جماداً. والله أعلم. وفي مسند أبي داود الطيالسي: فوضع على أحدهما نصفاً وعلى الآخر نصفاً وقال: «لعله أن يهوّن عليهما العذاب ما دام فيهما من بلولتهما شيء». قال علماؤنا: ويستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خُفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن. وقد بيّنا هذا المعنى في (كتاب التذكرة) بياناً شافياً، وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يُهْدَى إليه. والحمد لله على ذلك. وعلى التأويل الثاني لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن كل شيء من الجماد وغيره يسبح.

قلت: ويستدلّ لهذا التأويل وهذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ. إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾[1]، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[2] ـ على قول مجاهد ـ، وقوله: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾[3]. وذكر ابن المبارك في (دقائقه) أخبرنا مِسعر عن عبد الله بن واصل عن عوف بن عبد الله قال قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن الجبل يقول للجبل: يا فلان، هل مَرّ بك اليوم ذاكرٌ لله عز وجل؟ فإن قال نعم سُرّ به. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾[3] الآية. قال: أفتراهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير. وفيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما من صباح ولا رواح إلا تنادي بقاع الأرض بعضها بعضاً: يا جاراه، هل مَرّ بك اليوم عبد فصلى لله أو ذكر الله عليك؟ فمِن قائلة لا، ومن قائلة نعم، فإذا قالت نعم رأت لها بذلك فضلاً عليها. وقال رسول الله ﷺ:

(١) راجع ١٥/ ١٥٨ فما بعد.
(٢) راجع ١/ ٤٦٢ فما بعد.
(٣) راجع ١١/ ١٥٥ فما بعد.

«لا يَسمع صوت المؤذن جِنٌّ ولا إنس ولا شجر ولا حَجَر ولا مَدَر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة». رواه ابن ماجه في سننه، ومالك في موطئه من حديث أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه. وخرّج البخاريّ عن عبد الله رضي الله عنه قال: لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. وفي غير هذه الرواية عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه. وفي صحيح مسلم عن جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن». قيل: إنه الحجر الأسود، والله أعلم. والأخبار في هذا المعنى كثيرة؛ وقد أتينا على جملة منها في اللمع اللؤلؤية في شرح العشرنيات النبوية للفاداري رحمه الله، وخبر الجِذْع أيضاً مشهور في هذا الباب خرّجه البخاري في مواضع من كتابه. وإذا ثبت ذلك في جماد واحد جاز في جميع الجمادات، ولا أستحالة في شيء من ذلك؛ فكل شيء يسبح للعموم. وكذا قال النَّخَعِيّ وغيره: هو عام فيما فيه روح وفيما لا روح فيه حتى صرِير الباب. واحتجوا بالأخبار التي ذكرنا. وقيل: تسبيح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول: سبحان الله! لعدم الإدراك منها. وقال الشاعر:

تُلْقَى بتسبيحة من حيث ما انصرفت ... وتَستقـر حَشَـا الـرابـي بِتَـرْعَـادِ

أي يقول من رآها: سبحانَ خالِقها. فالصحيح أن الكل يسبّح للأخبار الدالة على ذلك، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأيّ تخصيص لداود، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا. وقد نصّت السنة على ما دلّ عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء فالقول به أوْلى. والله أعلم. وقرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وحفص وحمزة والكسائي وخَلَف «تفقهون» بالتاء لتأنيث الفاعل. الباقون بالياء، واختاره أبو عبيد، قال: للحائل بين الفعل والتأنيث. ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً﴾ عن ذنوب عباده في الدنيا. ﴿غَفُوراً﴾ للمؤمنين في الآخرة.

[٤٥] ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت: لما نزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾[١] أقبلت العَوْراءُ أُمُّ جميل بنت حرب ولها وَلْوَلة وفي يدها فِهْر[٢] وهي تقول:

مُذَمَّماً عَصَيْنَا * وأمْرَه أَبَيْنَا * وَدِينَه قَلَيْنَا[٣]

والنبيّ ﷺ قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه؛ فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، لقد أقبلتْ وأنا أخاف أن تراك! قال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني» وقرأ قرآنا فاعتصم به كما قال، وقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾. فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر، أُخبِرتُ أن صاحبك هجاني! فقال: لا ورَبِّ هذا البيت ما هجاك. قال: فولتْ وهي تقول: قد علمتْ قريش أني ابنة سيدها. وقال سعيد بن جُبير رضي الله عنه: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جاءت امرأة أبي لهب إلى النبيّ ﷺ ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فقال أبو بكر: لو تَنَحَّيْتَ عنها لئلا تُسمِعَك ما يؤذيك، فإنها امرأة بذيّة. فقال النبيّ ﷺ: «إنه سيحال بيني وبينها» فلم تره. فقالت لأبي بكر: يا أبا بكر، هجانا صاحبك! فقال واللّهِ ما ينطق بالشعر ولا يقوله. فقالت: وإنك لمصدّقه؛ فاندفعت راجعة. فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، أما رأتك؟ قال: «لا. ما زال مَلَك بيني وبينها يسترني حتى ذهبت». وقال كعب رضي الله عنه في هذه الآية: كان النبيّ ﷺ يستتر من المشركين بثلاث آيات: الآية التي في الكهف. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾[٤] والآية التي في النحل

---

(١) راجع ٢٠/ ٢٣٤.

(٢) الفهر (بالكسر): الحجر ملء الكف. وقيل: هو الحجر مطلقاً.

(٣) هذا ما ورد في سيرة ابن هشام. والذي في نسخ الأصل: مذمما أتينا * ودينه قلينا

(٤) راجع ١١/ ٤ فما بعد.

﴿أولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[١]، والآية التي في الجاثية[٢]. ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾[٣] الآية. فكان النبيّ ﷺ إذا قرأهن يستتر من المشركين، قال كعب رضي الله تعالى عنه: فحدّثت بهن رجلاً من أهل الشأم، فأتى أرض الروم فأقام بها زماناً، ثم خرج هارباً فخرجوا في طلبه فقرأ بهن فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه. قال الثعلبي[٤]: وهذا الذي يروُونه عن كعب حدّثت به رجلاً من أهل الريّ فأسر بالدَّيْلَم، فمكث زماناً ثم خرج هارباً فخرجوا في طلبه فقرأ بهن حتى جعلت ثيابهم لتلمس ثيابه فما يبصرونه.

قلت: ويزاد إلى هذه الآي أوّلُ سورة يس إلى قوله: ﴿فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾[٥]. فإن في السيرة في هجرة النبيّ ﷺ ومقامِ عليّ رضي الله عنه في فراشه قال: وخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده، وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس: ﴿يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾. ـ إلى قوله ـ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾. حتى فرغ رسول الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب.

قلت: ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور[٦] من أعمال قرطبة مثل هذا. وذلك أني هربت أمام العدوّ وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن؛ فعبرا عليّ ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر: هذا دِيبْلُهْ[٧]؛ يعنون شيطاناً. وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يروني، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك. وقيل: الحجاب

(١) راجع ص ١٩١ من هذا الجزء.
(٢) في أ وجـ وي: الشريعة. وهي من أسماء الجاثية.
(٣) راجع ١٦٦/١٦ فما بعد.
(٤) في أ وجـ وي: «الكلبي».
(٥) راجع ٩/١٥.
(٦) كذا في الأصول.
(٧) لفظة فرانسيّة، معناها: جِنّي. ولعله كذلك في لغة اللاتين.

المستور طَبْعُ اللَّهِ على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة؛ قاله قتادة. وقال الحسن: أي أنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب في عدم رؤيته لك حتى كأن على قلوبهم أغطية. وقيل: نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأم جميل امرأة أبي لهب وحُوَيطب؛ فحجب الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يمرّون به ولا يرونه؛ قاله الزجاج وغيره. وهو معنى القول الأوّل بعينه، وهو الأظهر في الآية، والله أعلم. وقوله: ﴿مَسْتُوراً﴾ فيه قولان: أحدهما ـ أن الحجاب مستور عنكم لا ترونه. والثاني ـ أن الحجاب ساتر عنكم ما وراءه؛ ويكون مستوراً بمعنى ساتر.

[٤٦] ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ «أكِنة» جمع كِنان، وهو ما ستر الشيء. وقد تقدم في «الأنعام»[١]. ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي لئلا يفقهوه، أو كراهية أن يفقهوه، أي أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحِكم والمعاني. وهذا ردّ[٢] على القدرية. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ أي صمماً وثقلاً. وفي الكلام إضمار، أي أن يسمعوه. ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي قلت: لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن. وقال أبو الجَوْزاء أوْس بن عبد الله: ليس شيء أطْرَدَ للشيطان من القلب من قول لا إله إلاّ الله، ثم تلا: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾. وقال علي بن الحسين: هو قوله بسم الله الرحمن الرحيم. وقد تقدم هذا في البسملة[٣]. ﴿وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾ قيل: يعني بذلك المشركين. وقيل: الشياطين. و «نُفُوراً» جمع نافر؛ مثل شهود جمع شاهد، وقعود جمع قاعد، فهو منصوب على الحال. ويجوز أن يكون مصدراً على غير الصدر؛ إذ كان قوله: «وَلَّوْا» بمعنى نفروا، فيكون معناه نفروا نفوراً.

---

(١) راجع ٦/ ٤٠٤. (٢) في جـ: يرد. (٣) راجع ١/ ٩ فما بعد.

[٤٧] ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ قيل : الباء زائدة في قوله : « به » أي يستمعونه . وكانوا يستمعون من النبيّ ﷺ القرآن ثم ينفرون فيقولون : هو ساحر ومسحور ؛ كما أخبر الله تعالى به عنهم ؛ قاله قتادة وغيره . ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ أي متناجون في أمرك . قال قتادة : وكانت نجواهم قولهم إنه مجنون وإنه ساحر وإنّه يأتي بأساطير الأوّلين ، وغير ذلك . وقيل : نزلت حين دعا عُتبَة أشرافَ قريش إلى طعام صنعه لهم ، فدخل عليهم النبيّ ﷺ وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ؛ فتناجوا ؛ يقولون ساحر ومجنون . وقيل : أمر النبيّ ﷺ عليًّا أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين؛ ففعل ذلك عليّ ودخل عليهم رسول الله ﷺ وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد، وقال: «قولوا لا إله إلا الله لتطيعكم العرب وتدين لكم العجم» فأبوا، وكانوا يستمعون من النبيّ ﷺ ويقولون بينهم متناجين: هو ساحر وهو مسحور ؛ فنزلت الآية . وقال الزجاج: النجوى اسم للمصدر؛ أي وإذ هم ذو نجوى، أي سرار. ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ أبو جهل والوليد بن المغيرة وأمثالهما. ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ أي مَطْبُوباً قد خبله السحر فاختلط عليه أمره، يقولون ذلك لينفروا عنه الناس. وقال مجاهد: ﴿مَسْحُوراً﴾ أي مخدوعاً؛ مثل قوله: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾(١) أي من أين تخدعون. وقال أبو عبيدة: «مَسْحُوراً» معناه أن له سَحْراً، أي رِئة، فهو لا يستغني عن الطعام والشراب؛ فهو مثلكم وليس بمَلَك. وتقول العرب للجَبان: قد انتفخ سَحْره. ولكل من أكل من آدمي وغيره أو شرب مسحور ومُسَحَّر. قال لبِيد:

فإن تسألينا فِيم نحن فإننا ... عصافير من هذا الأنام المُسَحَّرِ

---

(١) راجع ١٢/ ١٤٤.

وقال امرؤ القيس:

أرانا مُوضِعين لأمر غَيْبٍ[1] ونُسْحَر بالطعام وبالشَّراب

أي نُغَذَّى ونُعَلّل. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: مَن هذه التي تُساميني من أزواج النبيّ ﷺ، وقد تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ بين سَحْرِي ونَحْري[2].

[٤٨] ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ عجّبه من صنعهم كيف يقولون تارةً ساحر وتارة مجنون وتارة شاعر. ﴿فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ أي حيلة في صدّ الناس عنك. وقيل: ضَلُّوا عن الحق فلا يجدون سبيلاً، أي إلى الهدى. وقيل: مخرجاً؛ لتناقض كلامهم في قولهم: مجنون، ساحر، شاعر.

[٤٩] ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً﴾ أي قالوا وهم يتناجَوْن لما سمعوا القرآن وسمعوا أمر البعث: لو لم يكن مسحوراً مخدوعاً لما قال هذا. قال ابن عباس: الرّفات الغبار. مجاهد: التراب. والرفات ما تكسّر وبَلِيَ من كل شيء؛ كالفُتَات والحُطام والرُّضاض؛ عن أبي عبيدة والكسائي والفَراء والأخفش. تقول منه: رُفِتَ الشيء رَفْتاً، أي حُطِم؛ فهو مرفوت. ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ «أَئِنَّا» استفهام والمراد به الجَحْد والإنكار و «خَلْقاً» نصب لأنه مصدر؛ أي بعثاً جديداً. وكان هذا غاية الإنكار منهم.

---

(١) أوضع الرجل في السير إذا أسرع. وقوله: «لأمر غيب» يريد الموت وأنه قد غيب عنا وقته ونحن نلهى عنه بالطعام والشراب.

(٢) تريد أنه مات ﷺ وهو مستند إلى صدرها وما يحاذي سحرها وهو (الرئة).

[٥٠] ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ ﴾ .

[٥١] ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً﴾ أي قل لهم يا محمد كونوا على جهة التعجيز حجارة أو حديداً في الشدّة والقوة. قال الطبري: أي إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاماً ولحماً فكونوا أنتم حجارة أو حديداً إن قَدرتم. وقال عليّ بن عيسى: معناه أنكم لو كنتم حجارة أو حديداً لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم؛ إلا أنه خرج مخرج الأمر، لأنه أبلغ في الإلزام. وقيل: معناه لو كنتم حجارة أو حديداً لأعادكم كما بدأكم، ولأماتكم ثم أحياكم. وقال مجاهد: المعنى كونوا ما شئتم فستعادون. النحاس: وهذا قول حسن؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة، وإنما المعنى أنهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ما شئتم، فلو كنتم حجارة أو حديداً لبُعثتم كما خُلقتم أول مرة. ﴿أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال مجاهد: يعني السموات والأرض والجبال لعظمها في النفوس. وهو معنى قول قتادة. يقول: كونوا ما شئتم، فإن الله يميتكم ثم يبعثكم. وقال ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن جُبير ومجاهد أيضاً وعكرمة وأبو صالح والضحاك: يعني الموت؛ لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه؛ قال أُمَيَّة بن أبي الصلت:

وللمَوْتُ خَلْق في النفوس فظيع

يقول. إنكم لو خُلقتم من حجارة أو حديد أو كنتم الموت لأميتَنكم ولأبعثنكم؛ لأن القدرة التي بها أنشأتكم بها نعيدكم. وهو معنى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. وفي الحديث أنه «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كَبْش أَمْلح فيذبح بين الجنة والنار». وقيل: أراد به البعث؛ لأنه كان أكبر في صدورهم؛ قاله الكلبي. «فَطَرَكُمْ» خلقكم وأنشأكم. ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي يحركون رؤوسهم استهزاء؛ يقال:

نَغَض رأسُه يَنْغُض وَيَنْغِض نَغْضاً وَنُغُوضاً؛ أي تحرك. وأنغض رأسه أي حركه، كالمتعجب من الشيء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾.

قال الراجز:

أنغض نحوي رأسه وأقنعا[1]

ويقال أيضاً: نغض فلان رأسه أي حركه؛ يتعدّى ولا يتعدّى، حكاه الأخفش. ويقال: نَغَضت سنّه؛ أي تحركت وانقلعت.

قال الراجز:

ونغضت من هَرَم أسنانها

وقال آخر:

لما رأتني أنغضتُ لي الرأسا

وقال آخر:

لا ماء في المَقْراة إن لم تنهض بمَسَدٍ فوق المَحَال النُّغَّض

المحال والمحالة: البكرة العظيمة التي يستقي بها الإبل. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ أي البعث والإعادة وهذا الوقت. ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ أي هو قريب؛ لأن عسى واجب؛ نظيره: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾[2]. و ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[3]. وكل ما هو آت فهو قريب.

[٥٢] ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ الدعاء: النداء إلى المحشر بكلام تسمعه الخلائق، يدعوهم الله تعالى فيه بالخروج. وقيل: بالصيحة التي يسمعونها؛ فتكون داعية لهم إلى الاجتماع في أرض القيامة. قال ﷺ: «إنكم تُدْعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم». ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي باستحقاقه الحمد على الإحياء.

---

(١) أقنع فلان رأسه: وهو أن يرفع بصره ووجهه إلى ما حيال رأسه من السماء.
(٢) راجع ١٤/ ٢٨٤. (٣) راجع ١٦/ ١٥.

وقال أبو سهل: أي والحمد لله؛ كما قال:

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبِسْتُ، ولا من غدرة أتقنع

وقيل: حامدين لله تعالى بألسنتكم. قال سعيد بن جُبير: تخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون سبحانك وبحمدك؛ ولكن لا ينفعهم اعتراف ذلك اليوم. وقال ابن عباس[١]: «بحمده» بأمره؛ أي تقرون بأنه خالقكم. وقال قتادة؛ بمعرفته وطاعته. وقيل: المعنى بقدرته. وقيل: بدعائه إياكم. قال علماؤنا: وهو الصحيح؛ فإن النفخ في الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور؛ وبالحقيقة إنما هو خروج الخلق بدعوة الحق، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ فيقومون يقولون سبحانك اللهم وبحمدك. قال: فيوم القيامة يوم يبدأ بالحمد ويُختم به؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ وقال في آخره: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢]. ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ يعني بين النفختين؛ وذلك أن العذاب يُكَف عن المعذَّبين بين النفختين، وذلك أربعون عاماً فينامون؛ فذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾[٢] فيكون خاصاً للكفار. وقال مجاهد: للكافرين هَجْعة قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم، فإذا صيح بأهل القبور قاموا مذعورين. وقال قتادة: المعنى أن الدنيا تحاقرت في أعينهم وقلّت حين رأوا يوم القيامة. الحسن: ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ في الدنيا لطول لبثكم في الآخرة.

[٥٣] ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ تقدم إعرابه[٣]. والآية نزلت في عمر بن الخطاب. وذلك أن رجلاً من العرب شتمه، وسبّه عمر وهَمّ بقتله، فكادت تثير فتنة فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. ذكره الثعلبي والماوَرْدِيّ

(١) في جـ: وسفيان.
(٢) راجع ١٥/ ٢٨٤ و ٣٩.
(٣) راجع ٩/ ٣٦٦.

وابن عطية والواحِديّ: وقيل: نزلت لما قال المسلمون: إيذن لنا يا رسول الله في قتالهم فقد طال إيذاؤهم إيانا؛ فقال: «لم أُومَر بعد بالقتال» فأنزل الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ قاله الكلبي. وقيل: المعنى قل لعبادي الذين اعترفوا بأني خالقهم وهم يعبدون الأصنام، يقولوا التي هي أحسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوّة. وقيل: المعنى وقل لعبادي المؤمنين إذا جادلوا الكفار في التوحيد، أن يقولوا الكلمة التي هي أحسن. كما قال: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[(١)]. وقال الحسن: هو أن يقول للكافر إذا تشطط: هداك الله! يرحمك الله! وهذا قبل أن أُمِروا بالجهاد. وقيل: المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه؛ وعلى هذا تكون الآية عامة في المؤمن والكافر، أي قل للجميع. والله أعلم. وقالت طائفة: أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصّةً، بحسن الأدب وإلانَة القول، وخفض الجناح وأطّراح نزغات الشيطان، وقد قال ﷺ: «وكونوا عباد الله إخواناً». وهذا أحسن، وتكون الآية محكمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي بالفساد وإلقاء العداوة والإغواء. وقد تقدم في آخر الأعراف[(١)] ويوسف[(٢)]. يقال: نزغ بيننا أي أفسد؛ قاله اليزيدي. وقال غيره النزغ الإغراء. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً﴾ أي شديد العداوة. وتقدم في البقرة[(٣)]. وفي الخبر «أن قوما جلسوا يذكرون الله عز وجل فجاء الشيطان ليقطع مجلسهم فمنعته الملائكة فجاء إلى قوم جلسوا قريباً منهم لا يذكرون الله فحرش بينهم فتخاصموا وتواثبوا فقال هؤلاء الذاكرون قوموا بنا نصلح بين إخواننا فقاموا وقطعوا مجلسهم وفرح بذلك الشيطان». فهذا من بعض عداوته.

---

(١) راجع ٧/ ٦٠ و ٣٤٧.

(٢) راجع ٩/ ٢٦٧.

(٣) راجع ٢/ ٢٠٩.

[٥٤] ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ هذا خطاب للمشركين، والمعنى: إن يشأ يوفقكم للإسلام فيرحمكم، أو يميتكم على الشرك فيعذبكم؛ قاله ابن جُريج. و «أعلم» بمعنى عليم، نحو قولهم: الله أكبر، بمعنى كبير. وقيل: الخطاب للمؤمنين؛ أي إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من كفار مكة، أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم؛ قاله الكلبي. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ أي وما وكلّناك في منعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم. وقيل: ما جعلناك كفيلا لهم تؤخذ بهم؛ قاله الكلبي. وقال الشاعر:

ذكرت أبا أرْوَى فبتّ كأنني ... بردّ الأمور الماضيات وكيل

أي كفيل.

[٥٥] ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ أعاد بعد أن قال: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ ليبيّن أنه خالقهم وأنه جعلهم مختلفين في أخلاقهم وصورهم وأحوالهم ومالهم؛ ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾(١). وكذا النبيّون فضّل بعضهم على بعض عن علم منه بحالهم. وقد مضى القول في هذا في «البقرة»(٢). ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ الزبور: كتاب ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود؛ وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد. أي كما آتينا داود الزبور فلا تنكروا أن يؤتى محمد القرآن. وهو في مُحاجّة اليهود.

[٥٦] ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾.

---

(١) راجع ١٨/ ٢١٣.
(٢) راجع ٣/ ١٦١ فما بعد.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ لما ابتليت قريش بالقَحْط وشكَوا إلى رسول الله ﷺ أنزل الله هذه الآية؛ أي ادعوا الذين تعبدون من دونه وزعمتم أنهم آلهة. وقال الحسن، يعني الملائكة وعيسى وعزيراً. ابن مسعود: يعني الجن. ﴿فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ أي القحط سبع سنين، على قول مقاتل. ﴿وَلاَ تَحْوِيلاً﴾ من الفقر إلى الغنى ومن السَّقم إلى الصحة.

[٥٧] ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ «أولَئِكَ» مبتدأ «الَّذِينَ» صفة «أُولَئِكَ» وضمير الصلة محذوف؛ أي يدعونهم. يعني أولئك المدعوّون. و ﴿يَبْتَغُونَ﴾ خبر. أو يكون حالاً، و «الَّذِينَ يَدْعُونَ» خبر؛ أي يدعون إليه عباداً [أو عباده][1] إلى عبادته. وقرأ ابن مسعود «تدعون» بالتاء على الخطاب. الباقون بالياء على الخبر. ولا خلاف في «يبتغون» أنه بالياء. وفي صحيح مسلم من كتاب التفسير عن عبد الله بن مسعود في قوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: نفر من الجن أسلموا وكانوا يُعبدون، فبقي الذين كانوا يعبدون على عبادتهم وقد أسلم النفر من الجن. في رواية قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون و [الإنس][2] الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون؛ فنزلت: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾. ومنه أيضاً أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائل العرب؛ ذكره الماوردي. وقال ابن عباس ومجاهد: عُزير وعيسى. و «يَبْتَغُونَ» يطلبون من الله الزلفة والقربة، ويتضرعون إلى الله تعالى في طلب الجنة، وهي الوسيلة. أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم. والهاء والميم في «رَبِّهِمْ» تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعاً. وأما «يَدْعُونَ» فعلى العابدين. «وَيَبْتَغُونَ» على المعبودين ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ ابتداء وخبر. ويجوز أن يكون «أَيُّهُمْ أَقْرَبُ»

(١) من جـ و و.	(٢) زيادة عن صحيح مسلم.

بدلاً من الضمير في ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ ، والمعنى يبتغي أيهم أقرب الوسيلة إلى الله. ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ أي مَخُوفاً لا أمان لأحد منه ؛ فينبغي أن يُحذر منه ويُخاف . وقال سهل بن عبد الله : الرجاء والخوف زمانان على الإنسان ، فإذا استويا استقامت أحواله ، وإن رجح أحدهما بطل الآخر.

[٥٨] ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي مخربوها. ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً﴾ قال مقاتل: أما الصالحة فبالموت، وأما الطالحة فبالعذاب. وقال ابن مسعود: إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذن الله في هلاكهم. فقيل: المعنى وإن من قرية ظالمة؛ يقوي ذلك قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[1]. أي فليتق المشركون، فإنه ما من قرية كافرة إلا سيحل بها العذاب. ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي في اللوح. ﴿مَسْطُوراً﴾ أي مكتوباً. والسطر: الخط والكتابة وهو في الأصل مصدر. والسَّطَرُ بِالتَّحرِيكِ، مثله. قال جرير:

مـن شـاء بـايعتـه مـالـي وخُلْعَتَـهُ ما تُكْمِلِ التَّيْمُ[2] في ديوانهم سَطَرَا

الخلعة «بضم الخاء»: خيار المال. والسطر جمع أسطار؛ مثل سبب وأسباب، ثم يجمع على أساطير. وجمع السطر أسطر وسطور؛ مثل أفلس وفلوس. والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ.

[٥٩] ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ .

(١) راجع ١٣/ ٣٥١.
(٢) في ديوان جرير: «ما تكمل الخلج».

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ في الكلام حذف، والتقدير: وما منعنا أن نرسل بالآيات التي اقترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما فُعل بمن كان قبلهم. قال معناه قتادة وابن جريج وغيرهما. فأخّر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمناً. وقد تقدم في «الأنعام»[1] وغيرها أنهم طلبوا أن يحوّل الله لهم الصَّفَا ذهباً وتُتَنحّى الجبال عنهم، فنزل جبريل وقال: «إن شئت كان ما سأل قومك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا وإن شئت استأنيت بهم». فقال «لا، بل أستأن بهم». و «أن» الأولى في محل نصب بوقوع المنع عليهم، و «أن» الثانية في محل رفع. والباء في «بِالآيَاتِ» زائدة. ومجاز الكلام: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين، والله تعالى لا يكون ممنوعاً عن شيء؛ فالمعنى المبالغة في أنه لا يفعل، فكأنه قد منع عنه. ثم بيّن ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمن بها فقال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي آية دالّةٌ مضيئة نَيّرة على صدق صالح، وعلى قدرة الله تعالى. وقد تقدّم[2] ذلك. ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي ظلموا بتكذيبها. وقيل: جحدوا بها وكفروا أنها من عند الله فاستأصلهم الله بالعذاب. ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً﴾ فيه خمسة أقوال: الأوّل ـ العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذّبين. الثاني ـ أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي. الثالث ـ أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهل ثم إلى مشيب، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك؛ وهذا قول أحمد بن حنبل رضي الله عنه. الرابع ـ القرآن. الخامس ـ الموت الذريع[3]؛ قاله الحسن.

[٦٠] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

(١) راجع ٦/٣٨٧.
(٢) راجع ٧/٢٣٨ و ٩/٦٠.
(٣) أي السريع الفاش لا يكاد الناس يتدافنون.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ قال ابن عباس: الناس هنا أهل مكة، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم؛ أي أن الله سيهلكهم. وذكره بلفظ الماضي لتحقق كونه. وعنى بهذا الإهلاك الموعود ما جرى يوم بدر ويوم الفتح. وقيل: معنى: ﴿أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي أحاطت قدرته بهم، فهم في قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته؛ قاله مجاهد وابن أبي نَجيح. وقال الكلبي: المعنى أحاط علمه بالناس. وقيل: المراد عصمته من الناس أن يقتلوه حتى يبلّغ رسالة ربه؛ أي وما أرسلناك عليهم حفيظاً، بل عليك التبليغ، فبلغ بجدّك فإنا نعصمك منهم ونحفظك، فلا تَهَبْهم، وامض لما آمرك به من تبليغ الرسالة. فقدرتنا محيطة بالكل؛ قال معناه الحسن وعروة وقتادة وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ لما بيّن أن إنزال آيات القرآن تتضمن التخويف ضَمّ إليه ذكر آية الإسراء، وهي المذكورة في صدر السورة. وفي البخاري والترمذي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال هي رؤيا عَيْن أُرِيها النبي ﷺ ليلة أسْرِيَ به إلى بيت المقدس. قال: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ هي شجرة الزقوم. قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث صحيح. وبقول ابن عباس قالت عائشة ومعاوية والحسن ومجاهد وقَتادة وسعيد بن جُبير والضحاك وابن أبي نَجيح وابن زيد. وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي ﷺ أنه أُسْرِيَ به. وقيل: كانت رؤيا نوم. وهذه الآية تقضي بفساده؛ وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها، وما كان أحد لينكرها. وعن ابن عباس قال: الرؤيا التي في هذه الآية هي رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة في سنة الحُدَيْبِيَة، فَرُدّ فافتتن المسلمون لذلك، فنزلت الآية، فلما كان العام المقبل دخلها، وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾[1]. وفي هذا التأويل ضعف؛ لأن السورة مكية وتلك الرؤيا كانت بالمدينة. وقال في رواية ثالثة: إنه عليه السلام رأى في المنام بني مروان يَنْزُون

(١) راجع ١٦/٢٨٩.

على منبره نَزْو القردَة؛ فساءه ذلك فقيل: إنما هي الدنيا أعطوها، فسُرِّيَ عنه، وما كان له بمكة منبر ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة. وهذا التأويل الثالث قاله أيضاً سهل بن سعد رضي الله عنه. قال سهل: إنما هذه الرؤيا هي أن رسول الله ﷺ كان يرى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة، فاغتم لذلك، وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات ﷺ. فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من تملكهم وصعودهم يجعلها الله فتنة للناس وامتحاناً. وقرأ الحسن بن علي في خطبته في شأن بيعته لمعاوية: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1]. قال ابن عطية: وفي هذا التأويل نظر، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ﴾ فيه تقديم وتأخير، أي ما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس. وفتنتُها أنهم لما خُوِّفوا بها قال أبو جهل استهزاء: هذا محمد يتوعّدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر والنارُ تأكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر والزبد، ثم أمر أبو جهل جارية فأحضرت تمراً وزبداً وقال لأصحابه: تزقّموا. وقد قيل: إن القائل ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ٱبن الزِّبَعْرَى حيث قال: كثّر الله من الزقوم في داركم؛ فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن. وجائز أن يقول كلاهما ذلك. فافتتن أيضاً لهذه المقالة بعض الضعفاء؛ فأخبر الله تعالى نبيّه عليه السلام أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزقوم فتنة واختباراً لِيَكْفر من سبق عليه الكفر ويصدّق من سبق له الإيمان. كما روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قيل له صبيحة الإسراء: إن صاحبك يزعم أنه جاء البارحة من بيت المقدس! فقال: إن كان قال ذلك فقد صدق. فقيل له: أتصدقه قبل أن تسمع منه؟ فقال: أين عقولكم؟ أنا أصدقه بخبر السماء؛ فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعد منها بكثير.

(١) راجع ١١/ ٣٥٠.

قلت: ذكر هذا الخبر أبن إسحاق، ونصه: «قال كان من الحديث فيما بلغني عن مسراه ﷺ عن عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخُدْري وعائشة ومعاوية بن أبي سفيان والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزُّهْري وقَتادة وغيرهم من أهل العلم وأمّ هانىء بنت أبي طالب، ما اجتمع في هذا الحديث، كُلٌّ يحدث عن بعض ما ذكر من أمره حين أسري به ﷺ ، وكان في مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله عز وجل في قدرته وسلطانه، فيه عبرة لأولي الألباب، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق وكان من أمر الله تعالى على يقين؛ فأسرى به ﷺ كيف شاء وكما شاء ليُرِيَه من آياته ما أراد، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التي يصنع بها ما يريد. وكان عبد الله بن مسعود فيما بلغني عنه يقول: أُتِيَ رَسول الله ﷺ بالبراق ـ وهو الدابة التي كانت تُحمل عليها الأنبياء قبله تضع حافرها في منتهى طرفها ـ فحمل عليها؛ ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض، حتى أنتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جُمعوا له فصلّى بهم ثم أُتِيَ بثلاثة آنية: إناء فيه لبن وإناء فيه خمر؛ وإناء فيه ماء. قال: فقال رسول الله ﷺ : «فسمعت قائلاً يقول حين عُرضت عليّ إن أخذ الماء فغَرِق وغَرِقت أمته، وإن أخذ الخمر فغَوَى وَغَوتْ أمته وإن أخذ اللبن فهُدِي وهُدِيَتْ أمته قال فأخذت إناء اللبن فشربت فقال لي جبريل هُدِيتَ وهُدِيتْ أمتك يا محمد».

قال ابن اسحاق: وحدثت عن الحسن أنه قال قال رسول الله : «بينما أنا قائم في الحِجر جاءني جبريل عليه السلام فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئاً ثم عُدت لمضجَعي فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئاً فعدت لمضجَعِي فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلست فأخذ بعضدي فقمت معه فخرج إلى باب المسجد فإذا دابة أبيضُ بين البغل والحمار في فخذيه جناحان يَحْفِز بهما رجليه يضع حافره في منتهى طَرْفه فحملني عليه ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته».

قال ابن إسحاق: وحُدِّثت عن قتادة أنه قال: حُدثت أن رسول الله ﷺ قال: «لما دنوت منه لأركبه شَمَس[١] فوضع جبريل يده على مَعْرَفَته ثم قال ألا تستحي يا بُراق مما تصنع فوالله ما ركبك عبدٌ لله قبل محمد أكرم عليه منه قال فاستحيا حتى ارفضّ عَرَقا ثم قَرّ حتى ركبته.

قال الحسن في حديثه: فمضى رسول الله ﷺ ومضى معه [جبريل] حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء، فأمّهم رسول الله ﷺ فصلّى بهم ثم أُتِيَ بإناءين: في أحدهما خمر وفي الآخر لبن، قال: فأخذ رسول الله ﷺ وسلم إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر. قال: فقال له جبريل: هُديت الفِطْرة وهُدِيت أمّتُك وحُرّمت عليكم الخمر. ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة، فلما أصبح غَدَا على قريش فأخبرهم الخبر؛ فقال أكثر الناس: هذا والله الأمر البَيّن؟ والله إن العير لتطّرد شهراً من مكة إلى الشأم، مدبرةً شهراً ومقبلةً شهراً، فيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة! قال: فارتد كثير ممن كان أسلم؛ وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا: هل لك يا أبا بكر في صاحبك! يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس، وصلّى فيه ورجع إلى مكة. قال فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إنكم تكذبون عليه. فقالوا: بلى، ها هو ذا في المسجد يحدّث به الناس. فقال أبو بكر: والله إن كان قاله لقد صدق فما يعجّبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه. ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، أحدّثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: «نعم» قال: يا نبي الله، فصفه لي فإني قد جئته؟ فقال الحسن: فقال رسول الله ﷺ: «رفع لي حتى نظرت إليه» فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر رضي الله عنه: صدقت، أشهد أنك رسول الله كلما

---

(١) شمست الدابة والفرس تشمس: شردت وجمحت ومنعت ظهرها.

وصف له منه شيئاً قال: صدقت، أشهد أنك رسول الله. قال: حتى إذا انتهى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «وأنت يا أبا بكر الصديق» فيومئذ سماه الصديق. قال الحسن: وأنزل الله تعالى فيمن ارتدّ عن الإسلام لذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾. فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله ﷺ وما دخل فيه من حديث قتادة. وذكر باقي الإسراء عمن تقدم في السيرة. وقال ابن عباس: هذه الشجرة بنو أمية، وأن النبي ﷺ نفى الحَكَم. وهذا قول ضعيف محدَث والسورة مكية، فيبعد هذا التأويل؛ إلا أن تكون هذه الآية مدنية، ولم يثبت ذلك. وقد قالت عائشة لمروان: لعن الله أباك وأنت في صلبه فأنت بعض[1] من لعنة الله. ثم قال: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ ولم يجز في القرآن لعن هذه الشجرة، ولكن الله لعن الكفار وهم آكلوها. والمعنى: والشجرة الملعونة في القرآن آكلوها. ويمكن أن يكون هذا على قول العرب لكل طعام مكروه ضار: ملعون. وقال ابن عباس: الشجرة المعلونة هي هذه الشجرة التي تلتوي على الشجر فتقتله، يعني الكَشُوث. ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي بالزّقوم. ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف إلا الكفر.

[٦١] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾.

[٦٢] ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآِدَمَ﴾ تقدم ذكر كَوْنِ الشيطان عدوّ الإنسان، فانجرّ الكلام إلى ذكر آدم. والمعنى: اذكر بتمادي هؤلاء المشركين وعتوّهم على ربهم قصة إبليس حين عصى ربه وأبى السجود، وقال ما قال، وهو ما أخبر الله تعالى في قوله تعالى:

---

(١) هذه عبارة الفخر الرازي. والذي في الأصول: «فأنت قطظ من لعنة الله». والصواب ما في النهاية: فأنت فضض من لعنة الله. أي قطعة منها.

﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ أي من طين. وهذا استفهام إنكار. وقد تقدم القول في خلق آدم في «البقرة، والأنعام»[1] مستوفًى. ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ﴾ أي قال إبليس. والكاف توكيد للمخاطبة. ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أي فضّلته عليَّ. ورأى جوهر النار خيراً من جوهر الطين ولم يعلم أن الجواهر متماثلة. وقد تقدم هذا في الأعراف[1]. و «هذا» نصب بأرأيت. «الذي» نعته. والإكرام: اسم جامع لكل ما يحمد. وفي الكلام حذف تقديره: أخبرني عن هذا الذي فضلته عليّ، لم فضلته وقد خلقتني من نار وخلقته من طين؟ فحذف لعلم السامع. وقيل: لا حاجة إلى تقدير الحذف؛ أي أترى هذا الذي كرمته عليّ لأفعلن به كذا وكذا. ومعنى: ﴿لأَحْتَنِكَنَّ﴾ في قول ابن عباس: لأستولين عليهم. وقاله الفراء. مجاهد: لأحتوِيَنّهم. ابن زيد: لأضلنهم. والمعنى متقارب؛ أي لأستأصلنّ ذريته بالإغواء والإضلال، ولأجتاحنَّهم. وروي عن العرب: احْتَنَكَ الجراد الزرع إذا ذهب به كلّه. وقيل: معناه لأسوقنهم حيث شئت وأقودنّهم حيث أردت. من قولهم: حنكت الفرس أحنِكه وأحنُكه حنكاً إذا جعلت في فيه الرّسن. وكذلك احتنكه. والقول الأول قريب من هذا؛ لأنه إنما يأتي على الزرع بالحَنَك. وقال الشاعر:

أشكوا إليك سنَةً قد أجحفت ... جهداً إلى جهدٍ بنا وأضعفت

واحتنكت أموالنا واجتلفت[2]

﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ يعني المعصومين، وهم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ وإنما قال إبليس ذلك ظناً، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾[3] أو علم من طبع البشر تركّب الشهوة فيهم، أو بنى على قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾[1]. وقال الحسن: ظن ذلك لأنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عَزْماً.

[٦٣] ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾.

---

(١) راجع ١/٢٧٩ و ١٦١ و ٧/١٦٨ و ١٧١.
(٢) أي أذهبت. (٣) راجع ١٤/٢٩١.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ﴾ هذا أمر إهانة؛ أي اجهد جهدك فقد أنظرناك. ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ﴾ أي أطاعك من ذرية آدم. ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً﴾ أي وافراً؛ عن مجاهد وغيره. وهو نصب على المصدر، يقال: وفَرته أفِرهُ وَفْراً، ووَفَر المالُ بنفسه يَفِر وفوراً فهو وافر؛ فهو لازم ومتعدّ.

[٦٤] ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ أي استزلّ واستخِفّ وأصله القطع. ومنه تفزّزَ الثوب إذا انقطع[1]. والمعنى استزِلّه بقطعك إياه عن الحق. واستفزّه الخوفُ أي استخفه. وقعد مُسْتَوْفِزاً أي غير مطمئن. «وَاسْتَفْزِزْ» أمر تعجيز، أي أنت لا تقدر على إضلال أحد، وليس لك على أحد سلطان فافعل ما شئت.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿بِصَوْتِكَ﴾ وصوتُه كلُّ داع يدعو إلى معصية الله تعالى؛ عن ابن عباس. مجاهد: الغناء والمزامير واللهو. الضحاك: صوت المزمار. وكان آدم عليه السلام أسكن أولاد هابيل أعلى الجبال، وولد قابيل أسفله، وفيهم بنات حسان، فزَمَر اللعين فلم يتمالكوا أن انحدروا فزَنَوْا؛ ذكره الغزنويّ. وقيل: «بِصَوْتِكَ» بوسوستك.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أصل الإجلاب السوقُ بجلبة من السائق؛ يقال: أجلب إجلاباً. والجَلَب والجَلَبة: الأصوات؛ تقول منه: جلّبوا بالتشديد. وجَلَب الشيء يجلِبه ويجلُبه جلَباً وجَلْبا. وجلبت الشيء إلى نفسي وأجتلبته بمعنًى. وأجلب على العدو إجلاباً؛ أي جمّع عليهم. فالمعنى أجمِع عليهم كلما تقدر عليه من مكايدك.

---

(١) لم نجد في كتب اللغة «تفزز الثوب» بزايين بهذا المعنى، وإنما هو «تفزر» بزاي ثم راء. فليلاحظ.

وقال أكثر المفسرين: يريد كل راكب وماشٍ في معصية الله تعالى. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس، فما كان من راكب وماشٍ يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ورجّالته. وروى سعيد بن جُبير ومجاهد عن ابن عباس قال: كل خيل سارت في معصية الله، وكل رِجْل مَشَتْ في معصية الله، وكلّ مال أصيب من حرام، وكلّ ولد بَغِيّة فهو للشيطان. والرَّجْل جمع راجل؛ مثلُ صَحْب وصاحب. وقرأ حفص «ورَجِلك» بكسر الجيم وهما لغتان؛ يقال: رَجْل ورَجِل بمعنى راجل. وقرأ عكرمة وقتادة «ورجالك» على الجمع.

الرابعة ـ ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ﴾ أي اجعل لنفسك شركة في ذلك. فشركته في الأموال إنفاقها في معصية الله؛ قاله الحسن. وقيل: هي التي أصابوها من غير حِلّها؛ قاله مجاهد. ابن عباس: ما كانوا يحرّمونه من البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحام. وقاله قتادة. الضحاك: ما كانوا يذبحونه لآلهتهم. والأولاد قيل: هم أولاد الزنى؛ قاله مجاهد والضحاك وعبد الله بن عباس. وعنه أيضاً: هو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم من الجرائم. وعنه أيضاً: هو تسميتهم عبد الحارث وعبد العُزَّى وعبد اللاّت وعبد الشمس ونحوه. وقيل: هو صِبغة أولادهم في الكفر حتى هوّدوهم ونصّروهم، كصنيع النصارى بأولادهم بالغمس في الماء الذي لهم؛ قاله قتادة. وقول خامس ـ روي عن مجاهد قال: إذا جامع الرجل ولم يُسَمِّ انطوى الجانّ على إحْلِيله فجامع معه، فذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾[١] وسيأتي. وروي من حديث عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «إن فيكم مُغَرِّبين» قلت: يا رسول الله، وما المغرّبون؟ قال: «الذين يشترك فيهم الجن». رواه الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول). قال الهَرَوِيّ: سموا مغرِّبين لأنه دخل فيهم عرق غريب. قال الترمذي الحكيم: فللجن مساماة[٢] بابن آدم في الأمور والاختلاط؛ فمنهم من يتزوّج فيهم، وكانت بِلْقِيس ملكة سَبَأ أحد أبويها من الجن. وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

---

(١) راجع ١٧/ ١٨٠ و ١٨٨.

(٢) المساماة: المباراة والمفاخرة. مسألة التزاوج بين الإنس والجن لا يقرها العلم. محققه.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي مَنّهم الأماني الكاذبة، وأنه لا قيامة ولا حساب، وأنه إن كان حساب وجنة ونار فأنتم أوْلى بالجنة من غيركم. يقوّيه قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلاَّ غُرُوراً﴾[١] أي باطلاً. وقيل: «وَعِدْهُمْ» أي عِدهم النُّصرة على من أرادهم بسوء. وهذا الأمر للشيطان تهدّد ووعيد له. وقيل: استخفاف به وبمن أتبعه.

السادسة ـ في الآية ما يدلّ على تحريم المزامير والغناء واللّهو؛ لقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ﴾ على قول مجاهد. وما كان من صوت الشيطان أو فعلِه وما يستحسنه فواجب التنزه عنه. وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوت زمّارة فوضع أصبعيه في أذنيه، وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول: يا نافع! أتسمع؟ فأقول نعم؛ فمضى حتى قلت له لا، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق وقال: رأيت رسول الله ﷺ سمع [صوت] زمّارة راع فصنع مثل هذا. قال علماؤنا: إذا كان هذا فعلهم في حق صوت لا يخرج عن الاعتدال، فكيف بغناء أهل هذا الزمان وزمرهم. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «لقمان»[٢] إن شاء الله تعالى.

[٦٥] ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ قال ابن عباس: هم المؤمنون. وقد تقدّم الكلام فيه[٣]. ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ أي عاصماً من القبول من إبليس، وحافظاً من كيده وسوء مكره.

[٦٦] ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾.

---

(١) راجع ٥/ ١٢٠.
(٢) راجع ١٤/ ٥١ فما بعد.
(٣) راجع ص ٢٨ من هذا الجزء.

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ الإزجاء: السوق؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً﴾[١]. وقال الشاعر[٢]:

يا أيها الراكب المُزْجي مطيّتَه سائل بني أسَد ما هذه الصَّوْتُ

وإزجاء الفلك: سوقه بالريح اللينة. والفلك هنا جمع، وقد تقدم[٣]. والبحر الماء الكثير عذباً كان أو ملحاً، وقد غلب هذا الاسم على المشهور[٤]. وهذه الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده؛ أي ربكم الذي أنعم عليكم بكذا وكذا فلا تشركوا به شيئاً. ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي في التجارات. وقد تقدم[٣]. ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾.

[٦٧] ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ «الضُّرُّ» لفظ يعم خوف الغرق والإمساك عن الجَرْي، وأهوال حالاته اضطرابه وتموّجه. ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلاَّ إِيَّاهُ﴾ «ضَلَّ» معناه تَلِف وفُقِد؛ وهي عبارة تحقيرٍ لمن يدَّعي إلٰهاً من دون الله. والمعنى في هذه الآية: أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأن لها فضلاً، وكلّ واحد منهم بالفطرة يعلم علماً لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام، فوقّفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل. ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي عن الإخلاص. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ الإنسان هنا الكافر. وقيل: وطبع الإنسان كفوراً للنعم إلا مَن عصمه الله؛ فالإنسان لفظ الجنس.

[٦٨] ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾.

---

(١) راجع ١٢/٢٨٧ فما بعد.
(٢) هو رويشد بن كثير الطائي؛ كما في اللسان.
(٣) راجع ٢/١٩٥، و ٤١٣.
(٤) كذا في الأصول، أي البحر الملح.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ بيّن أنه قادر على هلاكهم في البر وإنْ سَلِموا من البحر. والخَسْف: أن تنهار الأرض بالشيء؛ يقال: بئر خسِيف إذا انهدم أصلها. وعين خاسف أي غارت حدقتها في الرأس. وعَيْنٌ من الماء خاسفة أي غار ماؤها. وخَسَفت الشمس أي غابت[1] عن الأرض. وقال أبو عمرو: والخسيف البئر التي تحفر في الحجارة فلا ينقطع ماؤها كثرةً. والجمع خُسُف. وجانب البر: ناحية الأرض؛ وسماه جانباً لأنه يصير بعد الخسف جانباً. وأيضاً فإن البحر جانب والبرّ جانب. وقيل: إنهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البر، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر، فحذّرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر. ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ يعني ريحاً شديدة، وهي التي تَرْمِي بالحصباء، وهي الحصى الصغار؛ قاله أبو عبيدة والقُتَبِيّ. وقال قتادة: يعني حجارة من السماء تَحصِبهم، كما فعل بقوم لوط. ويقال للسحابة التي ترمي بالبَرَد: حاصب، وللريح التي تحمل التراب والحصباء حاصب وحَصِبة أيضاً. قال لبِيد:

جرّت عليها أن خَوَتْ من أهلها أذيالَها كلُّ عَصُوفٍ حَصِبه

وقال الفرزدق:

مستقبلين شَمَال الشام يضربنا بحاصب كنَدِيف القطن منثور

﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ أي حافظاً ونصيراً يمنعكم من بأس الله.

[٦٩] ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ يعني في البحر. ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ﴾ القاصف: الريح الشديدة التي تَكْسر بشدة؛ من قَصَف الشيء يَقْصِفه؛ أي كسره بشدة. والقصف: الكسر؛ يقال: قصفت الريح السفينة. وريح قاصف:

---

(١) أولى أن يقال: غاب نورها.

شديدة. ورعد قاصف: شديد الصوت. يقال: قَصَف الرعدُ وغيرُه قصِيفاً. والقَصِيف: هشيم الشّجر. والتقصّف التكسر. والتقصف أيضاً: اللهو واللعب، يقال: إنها مُوَلّدة. ﴿فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي بكفركم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو، «نَخْسِفَ بِكم» «أَوْ نُرْسِلَ عَلَيْكُمْ» «أن نعيدكم» «فَنُرْسِلَ عَلَيْكُمْ» «فنُغرِقكم» بالنون في الخمسة على التعظيم، ولقوله: «علينا» الباقون بالياء؛ لقوله في الآية قبل: «إياه». وقرأ أبو جعفر وشيبة ورُوَيس ومجاهد «فتغرِقكم» بالتاء نعتاً للريح. وعن الحسن وقتادة «فيغرِّقكم» بالياء مع التشديد في الراء. وقرأ أبو جعفر «الرياح» هنا وفي كل القرآن. وقيل: إن القاصف المهلكة في البر، والعاصف المغرقة في البحر؛ حكاه الماورديّ. وقوله: ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ قال مجاهد: ثائراً. النحاس: وهو من الثأر. وكذلك يقال لكل من طلب بثأر أو غيره: تبيع وتابع؛ ومنه ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1] أي مطالبة.

[٧٠] ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل[2]:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الآية. لما ذكر من الترهيب ما ذكر بيّن النعمة عليهم أيضاً. «كَرَّمْنَا» تضعيف كرم؛ أي جعلنا لهم كرماً أي شرفاً وفضلاً. وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره. وتخصيصهم بما خصّهم به من المطاعم والمشارب والملابس، وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بني آدم؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب ويأكلون المركّبات من الأطعمة. وغاية كلّ حيوان يأكل لحماً نيئاً أو طعاماً غير

(١) راجع ٢/ ٢٤٤.
(٢) يلاحظ أن المسائل أربع.

مركّب. وحكى الطبريّ عن جماعة أن التفضيل هو أن يأكل بيده وسائر الحيوان بالفم. وروي عن ابن عباس؛ ذكره المهدويّ والنحاس؛ وهو قول الكلبيّ ومقاتل؛ ذكره الماورديّ. وقال الضحاك: كرّمهم بالنطق والتمييز. عطاء: كرّمهم بتعديل القامة وٱمتدادها. يمَان: بحسن الصورة. محمد بن كعب: بأن جعل محمداً ﷺ منهم. وقيل: أكرم الرجال باللّحى والنساء بالذوائب. وقال محمد بن جرير الطبريّ: بتسليطهم على سائر الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم. وقيل: بالكلام والخط. وقيل: بالفهم والتمييز. والصحيح الذي يعوّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله؛ إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بُعثت الرسل وأنزلت الكتب. فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء. وما تقدّم من الأقوال بعضه أقوى من بعض. وقد جعل الله في بعض الحيوان خصالاً يفضل بها ابن آدم أيضاً؛ كجري الفرس وسمعه وإبصاره، وقوّة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك. وإنما التكريم والتفضيل بالعقل كما بيناه. والله أعلم.

الثانية ـ قالت فرقة: هذه الآية تقتضي تفضيل الملائكة على الإنس والجن من حيث إنهم المستثنون في قوله تعالى: ﴿وَلاَ ٱلْمَلاَئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[1]. وهذا غير لازم من الآية، بل التفضيل فيها بين الإنس والجن؛ فإن هذه الآية إنما عدد الله فيها على بني آدم ما خصهم به من سائر الحيوان، والجن هو الكثير المفضول، والملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول، ولم تتعرض الآية لذكرهم، بل يحتمل أن الملائكة أفضل، ويحتمل العكس، ويحتمل التساوي، وعلى الجملة فالكلام لا ينتهي في هذه المسألة إلى القطع. وقد تحاشى قوم من الكلام في هذا كما تحاشوا من الكلام في تفضيل بعض الأنبياء على بعض؛ إذ في الخبر «لا تُخايروا بين الأنبياء ولا تفضّلوني على يونس بن مَتَّى». وهذا ليس بشيء؛ لوجود

(١) راجع ٦/٢٦.

النص في القرآن في التفضيل بين الأنبياء. وقد بيناه في «البقرة»[١] ومضى فيها الكلام في تفضيل الملائكة والمؤمن[٢].

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني لذيذ المطاعم والمشارب. قال مقاتل: السمن والعسل والزبد والتمر والحُلْوَى، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها. ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ أي على البهائم والدواب والوحش والطير بالغلبة والاستيلاء، والثواب والجزاء والحفظ والتمييز وإصابة الفِراسة.

الرابعة ـ هذه الآية تردّ ما روي عن عائشة رضي الله عنها، قالت قال رسول الله ﷺ: «اِخْرِموا أنفسكم طَيّب الطعام فإنما قوى الشيطان أن يجري في العروق منها». وبه يستدِلّ كثير من الصوفية في ترك أكل الطيبات، ولا أصل له؛ لأن القرآن يردّه، والسنة الثابتة بخلافه، على ما تقرّر في غير موضع. وقد حكى أبو حامد الطوسِيّ قال: كان سهل يقتات ورق النّبَق مدة، وأكل دُقاق ورق التبن ثلاث سنين. وذكر إبراهيم بن البنّا قال: صحبت ذا النُّون من إخميم إلى الإسكندرية، فلما كان وقت إفطاره أخرجت قرصاً ومِلْحاً كان معي، وقلت: هَلُمّ. فقال لي: ملحك مدقوق؟ قلت نعم. قال: لست تُفلح! فنظرت إلى مِزْوَده وإذا فيه قليل سَوِيقِ شعير يستفّ منه. وقال أبو يزيد: ما أكلت شيئاً مما يأكله بنو آدم أربعين سنة. قال علماؤنا: وهذا مما لا يجوز حمل النفس عليه؛ لأن الله تعالى أكرم الآدميّ بالحنطة وجعل قشورها لبهائمهم، فلا يصح مزاحمة الدواب في أكل التبن، وأما سَويق الشعير فإنه يورث القُولَنْج[٣]، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجريش فإنه ينحرف مِزاجه؛ لأن خبز الشعير بارد مجفف، والملح يابس قابض يضر الدّماغ والبصر. وإذا مالت النفس إلى ما يصلحها فمُنعت فقد قووِمت حكمة الباريء سبحانه بردّها، ثم يؤثر ذلك في البدن، فكان هذا الفعل مخالفاً للشرع والعقل. ومعلوم أن البدن

---

(١) راجع ٣/٢٦١. (٢) راجع ١/٢٨٩.

(٣) القولنج: مرض معوي مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح، معرّب.

مطيّة الآدميّ، ومتى لم يرفَق بالمطيّة لم تُبلِّغ. وروي عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبداً وعسلاً وخبزَ حُوّارَى، فقيل له: هذا كله؟ فقال: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدِمنا صبرنا صبر الرجال. وكان الثوري يأكل اللحم والعنب والفالوذج[١] ثم يقوم إلى الصلاة. ومثل هذا عن السلف كثير. وقد تقدم منه ما يكفي في المائدة[٢] والأعراف[٣] وغيرهما. والأول غُلُوٌّ في الدِّين إن صح عنهم. ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾[٤].

[٧١] ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ روى الترمذِيّ عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويُمَدّ له في جسمه ستون ذراعاً، ويُبَيّض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيَرَوْنه من بعيد فيقولون اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول أبشروا لكل منكم مثلُ هذا ـ قال ـ وأما الكافر فيسوّد وجهه ويمدّ له في جسمه ستون ذراعاً على صورة آدم ويلبس تاجاً فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من شر هذا! اللهم لا تأتنا بهذا. قال: فيأتيهم فيقولون اللهم أخزه. فيقول أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. ونظير هذا قوله: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٥]. والكتاب يسمى إماماً؛ لأنه يُرجع إليه في تعرّف أعمالهم. وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك: ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ أي بكتابهم، أي بكتاب كلّ إنسان منهم الذي فيه عمله؛ دليله ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾. وقال ابن زيد: بالكتاب المنزل عليهم. أي يدعى كل إنسان

(١) الفالوذج: حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل. وفيه لغات (عن الألفاظ الفارسية).
(٢) راجع ٦/ ٢٦٠.
(٣) راجع ٧/ ١٩٥.
(٤) راجع ١٧/ ٢٦٢ فما بعد.
(٥) راجع ١٦/ ١٧٤.

بكتابه الذي كان يتلوه؛ فيدعى أهل التوراة بالتوراة، وأهل القرآن بالقرآن؛ فيقال: يا أهل القرآن، ماذا عملتم، هل امتثلتم أوامره هل اجتنبتم نواهيه! وهكذا. وقال مجاهد: ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ بنبيّهم، والإمام من يؤتَمّ به. فيقال: هاتوا متّبِعِي إبراهيم عليه السلام، هاتوا متّبعي موسى عليه السلام، هاتوا متبعي الشيطان، هاتوا متبعي الأصنام. فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم، ويقوم أهل الباطل فيأخذون كتابهم بشمالهم. وقاله قتادة. وقال عليّ رضي الله عنه: بإمام عصرهم. وروي عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ فقال: «كلٌّ يدعى بإمام زمانهم وكتابِ رَبِّهم وسنّةِ نبيّهم فيقول هاتوا متبعي إبراهيم هاتوا متبعي موسى هاتوا متبعي عيسى هاتوا متبعي محمد ـ عليهم أفضل الصلوات والسلام ـ فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم ويقول هاتوا متبعي الشيطان هاتوا متبعي رؤساء الضلالة إمامَ هدًى وإمامَ ضلالة». وقال الحسن وأبو العالية: «بِإمامِهِم» أي بأعمالهم. وقاله ابن عباس فيقال: أين الراضوان بالمقدور، أين الصابرون عن المحذور. وقيل: بمذاهبهم، فيُدْعَوْن بمن كانوا يأتمون به في الدنيا: يا حنفيّ، يا شافعيّ، يا معتزليّ، يا قدرِيّ، ونحوه؛ فيتبعونه في خير أو شر أو على حق أو باطل، وهذا معنى قول أبي عبيدة. وقد تقدّم. وقال أبو هريرة: يدعى أهل الصدقة من باب الصدقة، وأهل الجهاد من باب الجهاد. . . ، الحديث بطوله. أبو سهل: يقال أين فلان المصلّي والصوّام، وعكسه الدَّفاف[1] والنمام. وقال محمد بن كعب: «بِإِمَامِهِمْ» بأمهاتهم. وإمام جمع آمّ. قالت الحكماء: وفي ذلك ثلاثة أوجه من الحكمة؛ أحدها ـ لأجل عيسى. والثاني ـ إظهار لشرف الحسن والحسين. والثالث ـ لئلا يفتضح أولاد الزنى.

قلت: وفي هذا القول نظر؛ فإن في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأوّلين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فيقال هذه غَدْرة فلان بن فلان» خرّجه مسلم والبخاري. فقوله: «هذه غَدْرة فلان بن فلان»

---

(١) الدفاف: الضارب بالدف. وفي الأصول: «الزفاف» بالزاي المعجمة.

دليلٌ على أن الناس يُدْعَوْن في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وهذا يردّ على من قال: إنما يُدْعَوْن بأسماء أمهاتهم لأن في ذلك سَتْراً على آبائهم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ هذا يقوّي قول من قال: «بإمامِهم» بكتابهم. ويقوّيه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[١]. ﴿فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ الفتيل الذي في شق النواة. وقد مضى في «النساء»[٢].

[٧٢] ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ أي في الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق. ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ﴾ أي في أمر الآخرة ﴿أَعْمَى﴾. وقال عكرمة: جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية فقال: اقرءوا ما قبلها. ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ[٣] - إلى - تَفْضِيلاً﴾. قال ابن عباس: من كان في هذه النعم والآيات التي رأى أعمى فهو عن الآخرة التي لم يعاين أعمى وأضل سبيلا. وقيل: المعنى من عمي عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى. وقيل: المعنى من كان في الدنيا التي أمهِل فيها وفُسّح له ووُعِد بقبول التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى. وقال الحسن: من كان في هذه الدنيا كافراً ضالاً فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا. وقيل: من كان في الدنيا أعمى عن حجج الله بعثه الله يوم القيامة أعمى؛ كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[٤] الآيات. وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾. وقيل: المعنى في قوله: ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾ في جميع الأقوال: أشدّ عمًى؛ لأنه من عَمَى القلب، ولا يقال مثله في عَمَى العين. قال الخليل وسيبويه: لأنه خِلقة بمنزلة

---

(١) راجع ١٥/١١ فما بعد.
(٢) راجع ٥/٢٤٨.
(٣) راجع ص ٢٩٠ فما بعد من هذا الجزء.
(٤) راجع ١١/٢٥٧ فما بعد.

اليد والرِّجل، فلم يقل ما أعماه كما لا يقال ما أيداه. الأخفش: لم يقل فيه ذلك لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف، وأصله أعمى[1]. وقد أجاز بعض النحويين ما أعماه وما أعشاه؛ لأن فعله عَمِي وعَشِي. وقال الفراء: حدثني بالشأم شيخ بصري أنه سمع العرب تقول: ما أسود شعره. قال الشاعر:

ما في المعالي لكم ظل ولا ثمر وفي المخازي لكم أشباح أشياخ
أما الملوك فأنت اليوم ألأمهم لؤما وأبيضهم سِربال طبّاخ

وأمال أبو بكر وحمزة والكسائيّ وخَلَف الحرفين «أعمى» و «أعمى» وفتح الباقون. وأمال أبو عمرو الأوّل وفتح الثاني. ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يعني أنه لا يجد طريقاً إلى الهداية.

[٧٣] ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾.

قال سعيد بن جبير: كان النبيّ ﷺ يستلم الحجر الأسود في طوافه، فمنعته قريش وقالوا: لا ندعك تستلم حتى تُلِمّ بآلهتنا. فحدّث نفسه وقال: «ما عليّ أن ألِمّ بها بعد أن يَدَعُوني أستلم الحجر والله يعلم أني لها كاره» فأبى الله تعالى ذلك وأنزل عليه هذه الآية؛ قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت في وفد ثَقيف، أتوا النبيّ ﷺ فسألوه شططاً وقالوا: متّعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يُهْدَى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وحَرِّم وادينا كما حرّمت مكة، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم؛ فَهَمّ رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآية. وقيل: هو قول أكابر قريش للنبيّ ﷺ: اطرد عنا هؤلاء السُّقّاط والموالي حتى نجلس معك ونسمع منك؛ فهمّ بذلك حتى نُهِي عنه. وقال قتادة: ذكر لنا أن قريشاً خلَوْا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخّمونه، ويسوّدونه ويقاربونه؛ فقالوا: إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس، وأنت سيِّدُنا يا سيّدَنا؛ وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون،

(١) كذا في الأصل: ولعل الحق: عمي؛ لأن فعله عمي كما قال نفطويه: يقال عمي عن رشده. ومنه يصاغ أفعل التفضيل.

ثم عصمه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى هذه الآية. ومعنى، ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ أي يزيلونك. يقال: فتنتُ الرجل عن رأيه إذا أزلته عما كان عليه؛ قاله الهَرَوِي. وقيل: يصرفونك، والمعنى واحد. ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي حكم القرآن؛ لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن. ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ أي لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك، وهو قول ثقيف: وحرّم وادِينا كما حرمت مكة، شجرها وطيرها ووحشها، فإن سألتك العرب لم خصّصتهم فقل الله أمرني بذلك حتى يكون عذراً لك. ﴿وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلا، أي والوك وصافوك؛ مأخوذ من الخلة (بالضم) وهي الصداقة لممايلته لهم. وقيل: ﴿لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ أي فقيراً. مأخوذ من الخَلّة (بفتح الخاء) وهي الفقر لحاجته إليهم.

[٧٤] ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾.

[٧٥] ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ أي على الحق وعصمناك من موافقتهم. ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ أي تميل. ﴿شَيْئاً قَلِيلاً﴾ أي ركونا قليلا. قال قتادة: لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام: «اللّهم لا تَكِلْني إلى نفسي طرفة عين». وقيل: ظاهر الخطاب للنبيّ ﷺ وباطنه إخبار عن ثقيف. والمعنى: وإن كادوا ليركنونك، أي كادوا يخبرون عنك بأنك مِلتَ إلى قولهم؛ فنسب فعلهم إليه مجازاً واتساعاً؛ كما تقول لرجل: كدت تقتل نفسك، أي كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت؛ ذكره المهدويّ. وقيل: ما كان منه هَمٌّ بالركون إليهم، بل المعنى: ولولا فضل الله عليك لكان منك مَيل إلى موافقتهم، ولكن تمّ فضل الله عليك فلم تفعل؛ ذكره القشيري. وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصوماً، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه.

وقوله: ﴿إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي لو ركنت لأذقناك مثلي عذاب الحياة في الدنيا ومثلي عذاب الممات في الآخرة؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وهذا غاية الوعيد. وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم. قال الله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾(١) وضعف الشيء مثله مرتين، وقد يكون الضِّعف النصيب؛ كقوله عز وجل: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي نصيب. وقد تقدّم في الأعراف(٢).

[٧٦] ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾.

هذه الآية قيل: إنها مدنية؛ حسبما تقدّم في أوّل السورة. قال ابن عباس حسَدت اليهود مقام النبيّ ﷺ بالمدينة فقالوا: إن الأنبياء إنما بعثوا بالشأم، فإن كنت نبياً فألحق بها؛ فإنك إن خرجت إليها صدقناك وآمنا بك؛ فوقع ذلك في قلبه لما يحب من إسلامهم، فرحَل من المدينة على مرحلة فأنزل الله هذه الآية. وقال عبد الرحمن بن غَنْم: غزا رسول الله ﷺ غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما نزل تبوك نزل ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ بعدما ختمت السورة، وأمر بالرجوع. وقيل: إنها مكية. قال مجاهد وقتادة: نزلت في همّ أهل مكة بإخراجه، ولو أخرجوه لما أمهلوا ولكن الله أمره بالهجرة فخرج، وهذا أصح؛ لأن السورة مكية، ولأن ما قبلها خبر عن أهل مكة، ولم يجر لليهود ذكر. وقوله: «مِن الأرضِ» يريد أرض مكة. كقوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾(٣) أي أرض مصر؛ دليله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾(٤) يعني مكة. معناه. همّ أهلها بإخراجه؛ فلهذا أضاف إليها(٥) وقال «أخرجتك». وقيل: همّ الكفار كلّهم أن يستخفوه من أرض العرب بتظاهرهم عليه فمنعه الله، ولو أخرجوه

(١) راجع ١٤/ ١٧٣.
(٢) راجع ٧/ ٢٠٥.
(٣) راجع ٩/ ٢٤١ فما بعد.
(٤) راجع ١٦/ ٢٣٥.
(٥) في الأصول: «إليهم» وهو تحريف.

من أرض العرب لم يُمْهَلُوا، وهو معنى قوله: ﴿وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾. وقرأ عطاء بن أبي رَباح «لا يلبثون» الباء مشددة. «خَلْفَكَ» نافع وابن كَثير وأبو بكر وأبو عمرو، ومعناه بعدك. وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائيّ «خلافك» واختاره أبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُون بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾[1] ومعناه أيضاً بعدك؛ قال الشاعر:

عَفَت الديار خلافهم فكأنما بسط الشّواطِبُ بينهن حَصِيرا

بسط البواسط؛ في الماورديّ. يقال: شطبت المرأة الجريد إذا شقته لتعمل منه الحصر. قال أبو عبيد: ثم تُلقيه الشاطبة إلى المُنَقِّية. وقيل: «خلفك» بمعنى بعدك. «وخلافك» بمعنى مخالفتك؛ ذكره ابن الأنباريّ. ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ أن المدّة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر؛ وهذا قول من ذَكر أنهم قريش. الثاني ـ ما بين ذلك وقتل بني قُريظة وجلاء بني النضير؛ وهذا قول من ذَكر أنهم اليهود.

[٧٧] ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي يعذَّبون كسنة من قد أرسلنا، فهو نصب بإضمار يعذبون؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل؛ قاله الفرّاء. وقيل: انتصب على معنى سننّا سنة من قد أرسلنا. وقيل: هو منصوب على تقدير حذف الكاف؛ التقدير لا يلبثون خلفك إلا قليلا كسنة من قد أرسلنا؛ فلا يوقف على هذا التقدير على قوله: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ ويوقف على الأول والثاني. ﴿قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾وقف حسن. ﴿وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ أي لا خُلف في وعدها.

[٧٨] ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾.

(١) راجع ٨/٢١٦.

فيه سبع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ لما ذكر مكايد المشركين أمر نبيّه عليه السلام بالصبر والمحافظة على الصلاة، وفيها طلب النصر على الأعداء. ومثله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾[1]. وتقدم القول في معنى إقامة الصلاة في أول سورة البقرة[2]. وهذه الآية بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة. واختلفت العلماء في الدلوك على قولين: أحدهما ـ أنه زوال الشمس عن كبِد السماء؛ قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علماء التابعين وغيرهم. الثاني ـ أن الدلوك هو الغروب؛ قاله عليّ وابن مسعود وأبيّ بن كعب، وروي عن ابن عباس. قال الماورديّ: من جعل الدُّلوك اسماً لغروبها فلأن الإنسان يدلك عينيه براحته لتبيّنها حالة المغيب، ومن جعله اسماً لزوالها فلأنه يدلك عينيه لشدة شعاعها. وقال أبو عبيد: دلوكها غروبها. ودلكَتْ بَراحِ يعني الشمس؛ أي غابت. وأنشد قُطْرب:

هـذا مُقـامُ قـدمـي رَبـاحِ ذَبَّـبَ حتـى دَلكـتْ بـراحِ

براح (بفتح الباء) على وزن حذَام وقطام ورقاش اسم من أسماء الشمس[3]. ورواه الفرّاء «بكسر الباء»[4] وهو جمع راحة وهي الكف؛ أي غابت وهو ينظر إليها وقد جعل كفه على حاجبه. ومنه قول العَجّاج:

والشمس قد كادت تكون دَنَفَا أدفعهـا بـالـراح كـي تَـزَحْلَفَـا

قال ابن الأعرابيّ: الزُّحلوفة مكان منحدر أملس، لأنهم يتزحلفون فيه. قال: والزَّحْلفة كالدحرجة والدفع؛ يقال: زحلفتُه فتَزَحْلَف. ويقال: دلكت الشمس إذا غابت. قال ذو الرُّمَّة:

مصابيح ليست باللواتي تقودها نجـومٌ ولا بـالآفـلات الـدوالِـك

---

(١) راجع ص ٦٤ من هذا الجزء.
(٢) راجع ١/ ١٦٤.
(٣) كذا في الأصول. والصواب عن أسماء النساء.
(٤) أي باء الجر.

قال ابن عطية: الدلوك هو الميل ـ في اللغة ـ فأوّل الدلوك هو الزوال وآخره هو الغروب. ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكا، لأنها في حالة ميل. فذكر الله تعالى الصلوات التي تكون في حالة الدلوك وعنده؛ فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب، ويصح أن تكون المغرب داخلة في غَسَق الليل. وقد ذهب قوم إلى أن الصلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب؛ لأن الله سبحانه علق وجوبها على الدلوك، وهذا دلوك كله، قاله الأوزاعيّ وأبو حنيفة في تفصيل. وأشار إليه مالك والشافعيّ في حالة الضرورة.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيلِ﴾ روى مالك عن ابن عباس قال: دلوك الشمس ميلها، وغسق الليل اجتماع الليل وظلمته. وقال أبو عبيدة: الغسق سواد الليل. قال ابن قَيْس الرّقيّات:

إن هــذا الليــل قــد غَسَقَــا ... واشتكيْــتُ الهَــمّ والأَرَقَــا

وقد قيل: غسق الليلِ مغيب الشفق. وقيل: إقبال ظلمته. قال زهير:

ظلّت تجود يداها وهي لاهية ... حتى إذا جنح الإظلام والغسق

يقال: غسق الليل غسوقا. والغَسَق اسم بفتح السين. وأصل الكلمة من السيلان؛ يقال: غَسَقت العين إذا سالت، تَغْسِق. وغَسَق الجرح غَسَقانا، أي سال منه ماء أصفر. وأغسق المؤذّن، أي أخر المغرب إلى غَسَق الليل. وحكى الفراء: غَسَق الليل وأغسق، وظلِم وأظلم، ودجا وأدجى، وغَبَس وأغبس وغَبِش وأغبش. وكان الربيع بن خُثَيم[1] يقول لمؤذنه في يوم غَيْم: أغسق أغسق. يقول: أخر المغرب حتى يَغسق الليل، وهو إظلامه.

الثالثة ـ اختلف العلماء في آخر وقت المغرب؛ فقيل: وقتها وقت واحد لا وقت لها إلا حين تحجب الشمس، وذلك بَيِّنٌ في إمامة جبريل؛ فإنه صلاها باليومين لوقت واحد وذلك غروب الشمس، وهو الظاهر من مذهب مالك عند أصحابه. وهو أحد قولي الشافعيّ في المشهور عنه أيضاً، وبه قال الثوري. وقال مالك في الموطأ: فإذا غاب الشفق فقد خرجْتَ من وقت المغرب ودخل وقت العشاء. وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والحسن

---

(١) هذا ضبط التقريب، والذي في الخلاصة: بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة وهذا هو المشهور.

ابن حَيّ وأحمد وإسحاق وأبو ثَور وداود؛ لأن وقت الغروب إلى الشفق غسق كله. ولحديث أبي موسى، وفيه: أن النبيّ ﷺ صلى بالسائل المغرب في اليوم الثاني فأخّر حتى كان عند سقوط الشفق؛ خرجه مسلم. قالوا: وهذا أولى من أخبار إمامة جبريل؛ لأنه متأخر بالمدينة وإمامة جبريل بمكة، والمتأخر أولى من فعله وأمره؛ لأنه ناسخ لما قبله. وزعم ابن العربي أن هذا القول هو المشهور من مذهب مالك، وقوله في موطّئه الذي أقرأه طول عمره وأملاه في حياته.

والنكتة في هذا أن الأحكام المتعلقة بالأسماء هل تتعلق بأوائلها أو بآخرها أو يرتبط الحكم بجميعها؟ والأقوى في النظر أن يرتبط الحكم بأوائلها لئلا يكون ذكرها لغواً فإذا ارتبط بأوائلها جرى بعد ذلك النظر في تعلقه بالكلّ إلى الآخر.

قلت القول بالتّوسعة أرجح. وقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث الأجلح بن عبد الله الكندي عن أبي الزبير عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ من مكة قريباً من غروب الشمس فلم يُصَلّ المغرب حتى أتى سَرِف، وذلك تسعة أميال. وأما القول بالنسخ فليس بالبيّن وإن كان التاريخ معلوماً؛ فإن الجمع ممكن. قال علماؤنا: تُحمل أحاديث جبريل على الأفضلية في وقت المغرب؛ ولذلك اتفقت الأمة فيها على تعجيلها والمبادرة إليها في حين غروب الشمس. قال ابن خُوَيْز مَنْدَاد: ولا نعلم أحداً من المسلمين تأخّر بإقامة المغرب في مسجد جماعة عن وقت غروب الشمس. وأحاديث التّوسعة تبين وقت الجواز، فيرتفع التعارض ويصح الجمع، وهو أولى من الترجيح باتفاق الأصوليين؛ لأن فيه إعمال كل واحد من الدليلين، والقول بالنسخ أو الترجيح فيه إسقاط أحدهما. والله أعلم.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ انتصب «قُرْآنَ» من وجهين: أحدهما أن يكون معطوفاً على الصلاة؛ المعنى: وأقم قرآن الفجر أي صلاة الصبح؛ قاله الفراء. وقال أهل البصرة: انتصب على الإغراء؛ أي فعليك بقرآن الفجر؛ قاله الزجاج. وعبّر عنها بالقرآن

خاصة دون غيرها من الصلوات؛ لأن القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلة مجهور بها حسبما هو مشهور مسطور؛ عن الزجاج أيضاً.

قلت: وقد استقرّ عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة في الصبح قدراً لا يضر بمن خلفه ـ يقرأ فيها بطوال المفصّل، ويليها في ذلك الظهر والجمعة ـ وتخفيف القراءة في المغرب وتوسطها في العصر والعشاء. وقد قيل في العصر: إنها تخفّف كالمغرب. وأما ما ورد في صحيح مسلم وغيره من الإطالة فيما استقرّ فيه التقصير، أو من التقصير فيما استقرّت فيه الإطالة؛ كقراءته في الفجر المعوذتين ـ كما رواه النسائيّ ـ وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور في المغرب، فمتروك بالعمل؛ ولإنكاره على معاذ التطويل حين أمّ قومه في العشاء فافتتح سورة البقرة. خرّجه الصحيح. وبأمره الأئمة بالتخفيف فقال: «أيها الناس إن منكم منفِّرين فأيكم أمّ الناس فليخفف فإن فيهم الصغير والكبير والمريض والسقيم والضعيف وذا الحاجة». وقال «فإذا صلّى أحدكم وحده فليطوّل ما شاء». كله مسطور في صحيح الحديث.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ دليل على أن لا صلاة إلا بقراءة؛ لأنه سَمَّى الصلاة قرآناً. وقد اختلف العلماء في القراءة في الصلاة فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والفَذّ في كل ركعة. وهو مشهور قول مالك. وعنه أيضاً أنها واجبة في جُلّ الصلاة. وهو قول إسحاق. وعنه أيضاً تجب في ركعة واحدة؛ قاله المغيرة وسُحْنُون. وعنه أن القراءة لا تجب في شيء من الصلاة. وهو أشذ الروايات عنه. وحكي عن مالك أيضاً أنها تجب في نصف الصلاة، وإليه ذهب الأوزاعيّ. وعن الأوزاعيّ أيضاً وأيوب أنها تجب على الإمام والفَذّ والمأموم على كل حال. وهو أحد قولي الشافعيّ. وقد مضى في (الفاتحة)[1] مستوفى.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ روى الترمذيّ عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ قال: «تشهده

(١) راجع ١/١١٧ فما بعد.

ملائكة الليل وملائكة النهار» هذا حديث حسن صحيح. ورواه عليّ بن مُسْهِر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبيّ ﷺ. وروى البخاريّ عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «فَضْلُ صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح». يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾. ولهذا المعنى يُبَكِّر بهذه الصلاة، فمن لم يبكر لم تشهد صلاته إلا إحدى الفئتين من الملائكة. ولهذا المعنى أيضاً قال مالك والشافعيّ: التغليس بالصبح أفضل. وقال أبو حنيفة: الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار، فإن فاته ذلك فالإسفار أولى من التغليس. وهذا مخالف لما كان عليه السلام يفعله من المداومة على التغليس، وأيضاً فإن فيه تفويت شهود ملائكة الليل. والله أعلم.

السابعة ـ استدلّ بعض العلماء بقوله ﷺ: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار» على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار.

قلت: وعلى هذا فلا تكون صلاة العصر أيضاً لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار؛ فإن في الصحيح عن النبيّ الفصيح عليه السلام فيما رواه أبو هريرة: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر» الحديث. ومعلوم أن صلاة العصر من النهار فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل وليس كذلك، وإنما هي من النهار كالعصر بدليل الصيام والأيمان، وهذا واضح.

[٧٩] ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿مِنَ اللَّيلِ﴾ «من» للتبعيض. والفاء في قوله: ﴿فَتَهَجَّدْ﴾ ناسقة على مضمر، أي قم فتهجد. ﴿بِهِ﴾ أي بالقرآن. والتَّهَجُّد من الهجود وهو من الأضداد. يقال: هجد نام، وهجد سهر؛ على الضد. قال الشاعر:

ألا زارَتْ وأهلُ مِنًى هجود ... وليت خيالها بمنًى يعود

آخر:

ألاَ طرقتنا والرفاق هجود ... فباتت بِعَلاَّت[١] النوال تجود

يعني نِياما. وهجد وتهجّد بمعنًى. وهجّدته أي أنمته، وهجّدته أي أيقظته. والتهجّد التيقظ بعد رَقْدة، فصار اسما للصلاة؛ لأنه ينتبه لها. فالتهجد القيام إلى الصلاة من النوم. قال معناه الأسود وعلقمة وعبد الرحمن بن الأسود وغيرهم. وروى إسماعيل بن إسحاق القاضي من حديث الحجاج بن عمر صاحب النبيّ ﷺ أنه قال: أيحسب أحدكم إذا قام من الليل كلّه أنه قد تهجد! إنما التهجد الصلاة بعد رَقْدة ثم الصلاة بعد رَقْدة ثم الصلاة بعد رقدة. كذلك كانت صلاة رسول الله ﷺ. وقيل: الهجود النوم. يقال: تهجد الرجل إذا سَهِر، وألقى الهجود وهو النوم. ويسمى من قام إلى الصلاة متهجداً؛ لأن المتهجد هو الذي يُلقي الهجود الذي هو النوم عن نفسه. وهذا الفعل جارٍ مجرى تحوّب وتحرّج وتأثم وتحنّث وتقذّر وتنجّس؛ إذا ألقى ذلك عن نفسه. ومثله قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[٢] معناه تندّمونَ؛ أي تطرحون الفكاهة عن أنفسكم؛ وهي انبساط النفوس وسرورها. يقال: رجل فكِه إذا كان كثير السرور والضحك. والمعنى في الآية: ووقتاً من الليل اُسْهر به في صلاة وقراءة.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ أي كرامة لك؛ قاله مقاتل. واختلف العلماء في تخصيص النبيّ ﷺ بالذكر دون أمته؛ فقيل: كانت صلاة الليل فريضة عليه لقوله: ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ أي فريضة زائدة على الفريضة الموظفة على الأمة.

قلت: وفي هذا التأويل بُعْدٌ لوجهين: أحدهما ـ تسمية الفرض بالنفل، وذلك مجاز لا حقيقة. الثاني ـ قوله ﷺ: «خمس صلوات فرضهن الله على العباد»، وقوله تعالى: «هن خمس وهن خمسون لا يُبَدَّلُ القولُ لَدَيَّ» وهذا نص، فكيف يقال: افترض عليه صلاة زائدة على الخمس، هذا ما لا يصح؛ وإن كان قد روي عنه عليه السلام:

---

(١) العلة (هنا): ما يتعلل به؛ مثل التعلة.
(٢) راجع ١٧/٢١٧.

«ثلاث عليّ فريضة ولأمتي تطوّع قيام الليل والوتر والسواك». وقيل: كانت صلاة الليل تطوعاً منه وكانت في الابتداء واجبة على الكل، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة؛ كما قالت عائشة، على ما يأتي مبيَّناً في سورة. «المُزَّمِّل»[١] إن شاء الله تعالى. وعلى هذا يكون الأمر بالتنفل على جهة الندب ويكون الخطاب للنبيّ ﷺ؛ لأنه مغفور له. فهو إذا تطوّع لما ليس بواجب عليه كان ذلك زيادة في الدرجات، وغيره من الأمة تطوّعهم كفارات وتدارك لخلل يقع في الفرض؛ قال معناه مجاهد وغيره. وقيل: عطية؛ لأن العبد لا ينال من السعادة عطاء أفضل من التوفيق في العبادة.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ اختلف في المقام المحمود على أربعة أقوال:

الأوّل ـ وهو أصحها ـ الشفاعة للناس يوم القيامة؛ قاله حُذيفة بن اليمان. وفي صحيح البخاري عن ابن عمر قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً[٢] كل أمة تتبع نبيها تقول: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبيّ ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقامَ المحمود. وفي صحيح مسلم عن أنس قال حدّثنا محمد ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له اشفع لذرّيتك فيقول لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقول لست لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله فيؤتى موسى فيقول لست لها ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته فيؤتى عيسى فيقول لست لها ولكن عليكم بمحمد ﷺ فأوتى فأقول أنا لها» وذكر الحديث. وروى الترمذيّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ سئل عنها قال: «هي الشفاعة» قال: هذا حديث حسن صحيح.

---

(١) راجع ١٩/ ٣٢ فما بعد.

(٢) جثا (جمع جثوة كخطوة وخطا) أي جماعات.

الرابعة ـ إذا ثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء عليهم السلام ، حتى ينتهي الأمر إلى نبيّنا محمد ﷺ فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف ليعجّل حسابهم ويراحوا من هول موقفهم ، وهي الخاصة به ﷺ ؛ ولأجل ذلك قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر». قال النقاش: لرسول الله ﷺ ثلاث شفاعات: العامة ، وشفاعة في السبق إلى الجنة ، وشفاعة في أهل الكبائر . ابن عطية : والمشهور أنهما شفاعتان فقط : العامة ، وشفاعة في إخراج المذنبين من النار. وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء . وقال القاضي أبو الفضل عياض : شفاعات نبينا ﷺ يوم القيامة خمس شفاعات : العامة . والثانية : في إدخال قوم الجنة دون حساب . الثالثة : في قوم من موحّدي أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم نبينا ﷺ، ومَن شاء الله أن يشفع ويدخلون الجنة. وهذه الشفاعة هي التي أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم الفاسدة، وهي الاستحقاق العقلي المبنيّ على التحسين والتقبيح. الرابعة: فيمن دخل النار من المذنبين فيخرجون بشفاعة نبينا ﷺ وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم المؤمنين. الخامسة: في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترفيعها، وهذه لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأوّل.

الخامسة ـ قال القاضي عياض: وعرف بالنقل المستفيض سؤالُ السلف الصالح لشفاعة النبيّ ﷺ ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يلتفت لقول من قال: إنه يكره أن تسأل الله أن يرزقك شفاعة النبيّ ﷺ؛ لأنها لا تكون إلا للمذنبين، فإنها قد تكون كما قدّمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات. ثم كل عاقل معترف بالتقصير محتاج إلى العفو غير معتدٍّ بعمله مشفق أن يكون من الهالكين، ويلزم هذا القائل ألا يدعو بالمغفرة والرحمة لأنها لأصحاب الذنوب أيضاً، وهذا كله خلاف ما عُرف من دعاء السلف والخلف؛ روى البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً ـ ﷺ ـ الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدتّه حلّت له شفاعتي يوم القيامة».

القول الثاني ـ أن المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة.

قلت: وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأوّل؛ فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع. روى الترمذي عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبيّ يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي» الحديث.

القول الثالث ـ ما حكاه الطبري عن فرقة، منها مجاهد، أنها قالت: المقام المحمود هو أن يُجلس الله تعالى محمداً ﷺ معه على كرسيه؛ وروت في ذلك حديثاً. وعَضَد الطبري جواز ذلك بشطط من القول، وهو لا يخرج إلا على تلطف في المعنى، وفيه بُعْدٌ. ولا يُنْكَر مع ذلك أن يروَى، والعلم يتأوله. وذكر النقاش عن أبي داود السِّجَسْتانيّ أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا مُتَّهم، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا، من أنكر جوازه على تأويله. قال أبو عمر: ومجاهد وإن كان أحد الأئمة يتأوّل القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم: أحدهما هذا والثاني في تأويل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(١) قال: تنتظر الثواب؛ ليس من النظر.

قلت: ذكر هذا في باب ابنُ شهاب في حديث التنزيل. وروي عن مجاهد أيضاً في هذه الآية قال: يُجلسه على العرش. وهذا تأويل غير مستحيل؛ لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلَّها والعرشَ قائماً بذاته، ثم خلق الأشياء من غير حاجة إليها، بل إظهاراً لقدرته وحكمته، وليُعرف وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بكل أفعاله المحكمة، وخلق لنفسه عرشاً استوى عليه كما شاء من غير أن صار له مماساً، أو كان العرش له مكاناً. قيل: هو الآن على الصفة التي كان عليها من قبل أن يخلق المكان والزمان؛ فعلى هذا القول سواء في الجواز أقعد محمد على العرش أو على الأرض؛ لأن استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التي تشغل العرش، بل هو مستوٍ على عرشه

(١) راجع ١٩/ ١٠٥.

كما أخبر عن نفسه بلا كيفٍ. وليس إقعاده محمداً على العرش موجباً له صفة الربوبية أو مُخرجاً له عن صفة العبودية، بل هو رفع لمحله وتشريف له على خلقه. وأما قوله في الأخبار: «معه» فهو بمنزلة قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾[١]، و ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ﴾[٢]، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣] ونحو ذلك. كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والحُظْوة والدرجة الرفيعة، لا إلى المكان.

الرابع ـ إخراجه من النار بشفاعته من يخرج؛ قاله جابر بن عبد الله. ذكره مسلم. وقد ذكرناه في (كتاب التذكرة) والله الموفق.

السادسة ـ اختلف العلماء في كون القيام بالليل سبباً للمقام المحمود على قولين: أحدهما ـ أن الباريء تعالى يجعل ما شاء من فعله سبباً لفضله من غير معرفة بوجه الحكمة فيه، أو بمعرفة وجه الحكمة. الثاني ـ أن قيام الليل فيه الخلوة مع الباريء والمناجاة دون الناس، فأعطى الخلوة به ومناجاته في قيامه وهو المقام المحمود. ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم، فأجلّهم فيه درجة محمدٌ ﷺ؛ فإنه يعطى ما لا يُعطى أحد ويشفع ما لا يشفع أحد. و «عَسَى» من الله عز وجل واجبة. و «مقاماً» نصب على الظرف. أي في مقام أو إلى مقام. وذكر الطبري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي». فالمقام الموضع الذي يقوم فيه الإنسان للأمور الجليلة كالمقامات بين يدي الملوك.

[٨٠] ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾.

قيل: المعنى أمتني إماتة صدق، وابعثني يوم القيامة مبعث صدق؛ ليتصل بقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾. كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو ليُنْجز له

(١) راجع ٧/ ٣٥٦.
(٢) راجع ١٨/ ٢٠٢.
(٣) راجع ١٣/ ٣٦٤.

الوعد. وقيل: أدخلني في المأمور وأخرجني من المنهيّ. وقيل: علّمه ما يدعو به في صلاته وغيرها من إخراجه من بين المشركين وإدخاله موضع الأمن؛ فأخرجه من مكة وصيره إلى المدينة. وهذا المعنى رواه الترمذي عن ابن عباس قال: كان النبيّ ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيرا﴾ قال: هذا حديث حسن صحيح. وقال الضحاك: هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح آمناً. أبو سهل: حين رجع من تَبُوك وقد قال المنافقون: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾[1] يعني إدخال عز وإخراج نصر إلى مكة. وقيل: المعنى أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوّة مدخل صدق وأخرجني منه مخرج صدق إذا أَمَتَّنِي؛ قال معناه مجاهد. والمدخل والمخرج (بضم الميم) بمعنى الإدخال والإخراج؛ كقوله: ﴿أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً﴾[2] أي إنزالاً لا أرى فيه ما أكره. وهي قراءة العامة. وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم «مدخل» و «مخرج» بفتح الميمين بمعنى الدخول والخروج؛ فالأوّل رباعي وهذا ثلاثي. وقال ابن عباس: أدخلني القبر مدخل صدق عند الموت وأخرجني مخرج صدق عند البعث. وقيل: أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق؛ أي لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه؛ فإن ذا الوجهين لا يكون وجيهاً عندك. وقيل: الآية عامة في كل ما يُتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال، ويُنتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة. فهي دعاء، ومعناه: رب أصلح لي وِرْدِي وصَدَرِي في كل الأمور. وقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ قال الشعبيّ وعكرمة: أي حجة ثابتة. وذهب الحسن إلى أنه العز والنصر وإظهار دينه على الدين كله. قال: فوعده الله لَيَنْزِعنّ مُلك فارس والروم وغيرها فيجعله له.

[٨١] ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾.

---

(١) راجع ١٨/١٢٩.

(٢) راجع ١٢/١١٩.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - روى البخاريّ والترمذيّ عن ابن مسعود قال: دخل النبيّ ﷺ مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون نُصُباً؛ فجعل النبيّ ﷺ يطعنها بمخصرة[١] في يده - وربما قال: بعود - ويقول: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾. ﴿جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾[٢] لفظ الترمذيّ. وقال: هذا حديث حسن صحيح. وكذا في حديث مسلم «نُصُباً». وفي رواية صنما. قال علماؤنا: إنما كانت بهذا العدد لأنهم كانوا يعظِّمون في يوم صنما ويخصون أعظمها بيومين. وقوله: «فجعل يطعنها بعود في يده» يقال: إنها كانت مثبتة بالرَّصاص وأنه كلما طعن منها صنماً في وجهه خرّ لقفاه، أو في قفاه خرّ لوجهه. وكان يقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» حكاه أبو عمر والقاضي عِياض. وقال القشيريّ: فما بقي منها صنم إلا خرّ لوجهه، ثم أَمَر بها فكسرت.

الثانية - في هذه الآية دليل على كسر نصب المشركين وجميع الأوثان إذ غُلب عليهم، ويدخل بالمعنى كسر آلة الباطل كله، وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالطنابير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى. قال ابن المنذر: وفي معنى الأصنام الصُّوَرُ المتَّخَذة من المَدَر والخشب وشبهها، وكل ما يتخذه الناس مما لا منفعة فيه إلا اللهو المنهيّ عنه. ولا يجوز بيع شيء منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص، إذا غُيِّرت عما هي عليه وصارت نُقرا[٣] أو قطعاً فيجوز بيعها والشِّراء بها. قال المهلّب: وما كسر من آلات الباطل وكان في حبسها بعد كسرها منفعةٌ فصاحبها أولى بها مكسورة؛ إلا أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المال. وقد تقدّم حرق ابن عمر رضي الله عنه[٤]. وقد همّ النبيّ ﷺ بتحريق دور من تخلف عن صلاة الجماعة. وهذا أصل في العقوبة في المال مع قوله عليه السلام في الناقة التي لعنتها صاحبتها:

---

(١) ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب وقد يتكيء عليه.
(٢) راجع ١٤/٣١٣.
(٣) النقرة: السبيكة.
(٤) الذي تقدم لابن عمر أنه أفسد على الأولاد أدوات اللعب. راجع ٨/ ٣٤٠.

«دعوها فإنها ملعونة» فأزال ملكها عنها تأديباً لصاحبتها، وعقوبة لها فيما دعت عليه بما دعت به. وقد أراق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لَبَناً شِيب بماء على صاحبه.

الثالثة ـ ما ذكرنا من تفسير الآية ينظر إلى قوله ﷺ: «والله لينزلنّ عيسى ابن مريم حكماً عادلاً فَلَيَكسِرنّ الصليب وَلَيَقْتُلَنّ الخنزير وَلَيَضعَنّ الجِزْية ولتتْركَن القِلاصُ[1] فلا يُسعى عليها» الحديث. خرجه الصحيحان. ومن هذا الباب هتك النبيّ ﷺ الستر الذي فيه الصور، وذلك أيضاً دليل على إفساد الصور وآلات الملاهي كما ذكرنا. وهذا كله يحظر المنع من اتخاذها ويوجب التغيير على صاحبها. إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم؛ وحسبك! وسيأتي هذا المعنى في «النمل»[2] إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي الإسلام. وقيل: القرآن؛ قاله مجاهد: وقيل: الجهاد. ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ قيل: الشرك. وقيل: الشيطان؛ قاله مجاهد. والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة، فيكون التفسير جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه. ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾: بطل الباطل. ومن هذا زهوق النفس وهو بطلانها. يقال: زَهقت نفسه تَزهَق زهوقاً، وأزهقتها. ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ أي لابقاء له، والحق الذي يثبت.

[٨٢] ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ قرأ الجمهور بالنون. وقرأ مجاهد «ويُنْزِل» بالياء خفيفة[3]، ورواها المروزيّ عن حفص. و «مِن» لابتداء الغاية، ويصح أن تكون لبيان الجنس؛ كأنه قال: وننزل ما فيه شفاء من القرآن. وفي الخبر: «من لم يَسْتَشْفِ بالقرآن

---

(١) القلاص (بكسر القاف جمع القلوص بفتحها) وهي الناقة الشابة.
(٢) راجع ١٣/ ٢٢١.
(٣) كذا في الأصول: ولعل: ونون خفيفة.

فلا شفاه الله». وأنكر بعض المتأولين أن تكون «مِن» للتبعيض؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه أن بعضه لاشفاء فيه. ابن عطية: وليس يلزمه هذا، بل يصح أن تكون للتبعيض بحسب أن إنزاله إنما هو مبعَّض؛ فكأنه قال: وننزل من القرآن شيئاً شفاء؛ ما فيه كله شفاء.

الثانية ـ اختلف العلماء في كونه شفاء على قولين: أحدهما ـ أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الرّيب، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى. الثاني ـ شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوّذ ونحوه. وقد روى الأئمة ـ واللفظ للدَّارَقُطْنِيّ ـ عن أبي سعيد الخُدْريّ قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سَرِيّة ثلاثين راكباً قال: فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يُضيفونا فأبَوْا؛ قال: فلُدِغ سيد الحيّ؛ فأتونا فقالوا؛ فيكم أحد يَرْقى من العقرب؟ في رواية ابن قَتّة: إن الملك يموت. قال: قلت أنا نعم، ولكن لا أفعل حتى تعطونا. فقالوا: فإنا نعطيكم ثلاثين شاة. قال: فقرأت عليه. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سبع مرات فبرأ. في رواية سليمان بن قتة عن أبي سعيد: فأفاق وبرأ. فبعث إلينا بالنُّزُل وبعث إلينا بالشاء، فأكلنا الطعام أنا وأصحابي وأبَوْا أن يأكلوا من الغنم، حتى أتينا رسول الله ﷺ فأخبرته الخبر فقال: «وما يدريك أنها رقية»؟ قلت: يا رسول الله، شيء ألقي في روعي . قال: «كلوا وأطعمونا من الغنم» خرجه في كتاب السنن. وخرّج في (كتاب المديح)[1] من حديث السَّرِي بن يحيى قال: حدثني المعتمر بن سليمان عن ليث بن أبي سليم عن الحسن عن أبي أُمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينفع بإذن الله تعالى من البرص والجنون والجذام والبطن والسُّلّ والحُمَّى والنَّفْس أن تكتب بزعفران أو بمِشق ـ يعني المَغْرة ـ أعوذ بكلمات الله التامة وأسمائه كلّها عامةً من شر السّامة والعامة ومن شر العين اللاّمة ومن شر حاسد إذا حسد ومن أبي فَروة وما ولد». كذا قال، ولم يقل من شر أبي قِترة[2]. العين اللامة: التي تصيب بسوء. تقول أُعِيذه من كل هامة لامّة. وأما قوله:

---

(١) في بعض الأصول: «المذبح» ولم نوفق لتصويبه.

(٢) أبو قترة (بكسر القاف وسكون التاء): كنية إبليس.

أعيذه من حادثات اللّمة فيقال: هو الدهر. ويقال: الشدة. والسامة: الخاصة. يقال: كيف السامة والعامة. والسامة السم. ومن أبي فروة وما ولد. وقال: ثلاثة وثلاثون من الملائكة أتوا ربّهم عز وجل فقالوا: وَصَبٌ بأرضنا. فقال: خذوا تربة من أرضكم فامسحوا نواصيَكم. أو قال: نواصيكم[١] رقية محمد ﷺ لا أفلح من كتمها أبداً أو أخذ عليها صَفَدا»[٢]. ثم كتب فاتحة الكتاب وأربع آيات من أول البقرة، والآية التي فيها تصريف الرياح وآية الكرسي والآيتين اللتين بعدها، وخواتيم سورة البقرة من موضع ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخرها، وعشرا من أوّل «آل عمران» وعشرا من آخرها، وأوّل آية من النساء، وأوّل آية من المائدة، وأوّل آية من الأنعام، وأوّل آية من الأعراف، والآية التي في الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[٣] حتى تختم الآية؛ والآية التي في «يونس» من موضع ﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤]، والآية التي في طه ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[٥]، وعشراً من أوّل الصافات؛ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمعوذتين. تكتب في إناء نظيف ثم تغسل ثلاث مرات بماء نظيف ثم يحثو منه الوجع ثلاث حَثَوات ثم يتوضأ منه كوضوئه للصلاة ويتوضأ قبل وضوئه للصلاة حتى يكون على طهر قبل أن يتوضأ به ثم يصب على رأسه وصدره وظهره ولا يستنجي به ثم يصلي ركعتين ثم يستشفي الله عز وجل؛ يفعل ذلك ثلاثة أيام، قدر ما يكتب في كل يوم كتاباً. في رواية: ومن شر أبي قِتْرة وما ولد. وقال: «فأمسحوا نواصيكم»[٦] ولم يشك. وروى البخاري عن عائشة أن النبيّ ﷺ كان يَنفِث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوِّذات فلما ثقل كنت أنفِث عليه بهن وأمسح بيد نفسه لبركتها. فسألت[٧] الزهري كيف كان ينفِث؟ قال: كان يَنفِث على يديه ثم يمسح بهما وجهه. وروى مالك عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه

---

(١) في جـ: بوصبكم: أي بوجعكم. وتكون رقية منصوبة على الإغراء.

(٢) الصفد: العطاء.

(٣) راجع ٧/ ٢١٨.

(٤) راجع ٨/ ٣٦٧.

(٥) راجع ١١/ ٢٢١ فما بعد.

(٦) في جـ: بوصبكم.

(٧) السائل هو عروة بن الزبير راوي الحديث.

المعوِّذتين وتَفَل أو نَفَث. قال أبو بكر بن الأنباري: قال اللغويون تفسير «نفث» نفخ نفخاً ليس معه ريق. ومعنى «تَفَل» نفخ نفخاً معه ريق. قال الشاعر:

فـإن يَبْـرأ فلـم أنفِـث عليـه وإن يُفْقـد فحـقٌّ لـه الفُقـود

وقال ذو الرُّمَّة:

ومِن جَوْف ماءٍ عَرْمَض الحوَلِ فوقه متى يَحْسُ منه مائحُ القوم يَتْفُلِ[١]

أراد ينفخ بريق. وسيأتي ما للعلماء في النفث في سورة الفلق[٢] إن شاء الله تعالى.

الثالثة - روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يكره الرُّقى إلا بالمعوِّذات. قال الطبري: وهذا حديث لا يجوز الاحتجاج بمثله في الدِّين؛ إذ في نقلته من لا يُعرف. ولو كان صحيحاً لكان إما غلطاً وإما منسوخاً؛ لقوله عليه السلام في الفاتحة «ما أدراك أنها رُقية»؟ وإذا جاز الرقى بالمعوذتين وهما سورتان من القرآن كانت الرقية بسائر القرآن مثلهما في الجواز إذ كله قرآن. وروي عنه عليه السلام أنه قال: «شفاء أمتي في ثلاثٍ، آية[٣] من كتاب الله أو لعقة من عسل أو شرطة من محجم». وقال رجاء الغَنَوِيّ: ومن لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له.

الرابعة - واختلف العلماء في النُّشرة، وهي أن يكتب شيئاً من أسماء الله أو من القرآن ثم يغسله بالماء ثم يمسح به المريض أو يسقيه، فأجازها سعيد بن المسيِّب. قيل له: الرجل يؤخذ عن امرأته أيُحَلّ عنه ويُنْشر؟ قال: لا بأس به، وما ينفع لم يُنه عنه. ولم ير مجاهد أن تكتب آيات من القرآن ثم تغسل ثم يسقاه صاحب الفزع. وكانت عائشة تقرأ بالمعوِّذتين في إناء ثم تأمر أن يُصب على المريض. وقال المازَرِيّ أبو عبد الله: النُّشرة أمر معروف عند أهل التعزيم؛ وسُمّيت بذلك لأنها تنشر عن صاحبها أي تَحُلّ. ومنعها الحسن وإبراهيم النَّخَعِيّ، قال النَّخعيّ: أخاف أن يصيبه بلاء؛ وكأنه ذهب إلى أنه ما محي[٤] به القرآن فهو

---

(١) العرمض: الخضرة التي تعلوا الماء، وهي الرمض والعلق والطحلب. والمائح (بالهمز): الذي ينزل البئر فيملأ الدلو. والماتح (بالتاء): الذي يجذب الدلو.

(٢) راجع ٢٠/٢٥٧ فما بعد.

(٣) لم نقف على هذه الرواية، والمشهورة كما في البخاري وغيره: «شفاء أمتي في ثلاث شرطة محجم أو شربة عسل أو كية نار...»، الحديث.

(٤) كذا في جـ، وفي ا وحـ وو وي: يجيء.

إلى أن يعقب بلاء أقرب منه إلى أن يفيد شفاء. وقال الحسن: سألت أنساً فقال: ذكروا عن النبيّ ﷺ أنها من الشيطان. وقد روى أبو داود من حديث جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عن النُّشْرة فقال: «هي من عمل الشيطان». قال ٱبن عبد البر: وهذه آثار لينة ولها وجوه محتملة، وقد قيل: إن هذا محمول على ما إذا كانت خارجة عما في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، وعن المداواة المعروفة. والنشرة من جنس الطب فهي غسالة شيء له فضل، فهي كوضوء رسول الله ﷺ. وقال ﷺ: «لا بأس بالرُّقَى ما لم يكن فيه شرك ومن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل».

قلت: قد ذكرنا النص في النشرة مرفوعاً وأن ذلك لا يكون إلا من كتاب الله فليعتمد عليه.

الخامسة ـ قال مالك: لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله عز وجل على أعناق المرضى على وجه التبرك بها إذا لم يرِد معلقها بتعليقها مدافعة العين. وهذا معناه قبل أن ينزل به شيء من العين. وعلى هذا القول جماعة أهل العلم، لا يجوز عندهم أن يعلق على الصحيح من البهائم أو بني آدم شيء من العلائق خوف نزول العين، وكل ما يعلق بعد نزول البلاء من أسماء الله عز وجل وكتابه رجاء الفرج والبرء من الله تعالى، فهو كالرُّقَى المباح الذي وردت السنة بإباحته من العين وغيرها. وقد روى عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: «إذا فَزِع أحدكم في نومه فليقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وسوء عقابه ومن شر الشياطين وأن يَحْضُرون». وكان عبد الله يعلّمها ولده من أدرك منهم، ومن لم يدرك كتبها وعلقها عليه. فإن قيل: فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «من علق شيئاً وُكِل إليه»، ورأى ٱبن مسعود على أم ولده تميمةً مربوطة فجبَذَها جَبْذا شديدا فقطعها وقال: إن آل ٱبن مسعود لأغنياءُ عن الشِّرك، ثم قال: إن التمائم والرقى والتِّوَلَة من الشرك. قيل: ما التِّوَلَة؟ قال: ما تحبّبت به لزوجها. وروي عن عقبة بن عامر الجهني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من علق تميمة فلا أتم الله له

ومن علق وَدَعة فلا وَدَعَ الله له قلباً». قال الخليل بن أحمد: التميمة قِلادة فيها عُوَذ، والوَدَعة خرز. وقال أبو عمر: التميمة في كلام العرب القِلادة، ومعناه عند أهل العلم ما علق في الأعناق من القلائد خشية العين أو غيرها [من أنواع البلاء وكأن المعنى في الحديث من يعلق خشية ما عسى][1] أن ينزل أو لا ينزل قبل أن ينزل، فلا أتمّ الله عليه صحته وعافيته، ومن تعلّق وَدَعَة ـ وهي مثلها في المعنى ـ فلا ودَع الله له؛ أي فلا بارك الله له ما هو فيه من العافية. والله أعلم. وهذا كله تحذير مما كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التمائم والقلائد، ويظنون أنها تقيهم وتصرِف عنهم البلاء، وذلك لا يصرفه إلا الله عز وجل، وهو المعافي والمبتلي، لا شريك له. فنهاهم رسول الله ﷺ عما كانوا يصنعون من ذلك في جاهليتهم. وعن عائشة قالت: ما تعلق بعد نزول البلاء فليس من التمائم. وقد كره بعض أهل العلم تعليق التميمة على كل حال قبل نزول البلاء وبعده. والقول الأوّل أصح في الأثر والنظر إن شاء الله تعالى. وما روي عن ابن مسعود يجوز أن يريد بما كره تعليقه غير القرآن أشياء مأخوذة عن العرافين والكُهّان؛ إذ الاستشفاء بالقرآن معلّقاً وغير معلق لا يكون شِرْكا، وقوله عليه السلام: «من علّق شيئاً وُكِل إليه» فمن علّق القرآن ينبغي أن يتولاه الله ولا يَكله إلى غيره؛ لأنه تعالى هو المرغوب إليه والمتوكّل عليه في الاستشفاء بالقرآن. وسئل ابن المسيَّب عن التعويذ أيعلّق؟ قال: إذا كان في قصبة أو رقعة يحرز فلا بأس به. وهذا على أن المكتوب قرآن. وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأساً أن يعلّق الرجل الشيءَ من كتاب الله إذا وضعه عند الجماع وعند الغائط. ورخص أبو جعفر محمد بن عليّ في التعويذ يعلّق على الصبيان. وكان ابن سِيرين لا يرى بأساً بالشيء من القرآن يعلّقه الإنسان.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تفريج الكروب وتطهير العيوب وتكفير الذنوب مع ما تفضل به تعالى من الثواب في تلاوته؛ كما روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف بل أَلِفٌ حرف ولامٌ حرفٌ ومِيمٌ حرفٌ». قال هذا حديث حسن صحيح غريب. وقد تقدّم. ﴿وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾ لتكذيبهم. قال

(١) من ي.

قتادة: ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، ثم قرأ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. ونظير هذه الآية قوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[1]. وقيل: شفاء في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان.

[٨٣] ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أي هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خَسارا صفتهم الإعراضِ عن تدبر آيات الله والكفران لنعمه. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. ومعنى ﴿نَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أي تكبر وتباعد. وناء مقلوب منه؛ والمعنى: بَعُد عن القيام بحقوق الله عز وجل؛ يقال: نأى الشيء أي بعد. ونأيته ونأيت عنه بمعنًى، أي بَعُدت. وأَنْأيته فأنتأى؛ أي أبعدته فبَعُد. وتناءَوْا تباعدوا. والمُنْتأى؛ الموضع البعيد.

قال النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مُدْرِكي وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسعُ

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان «ناء» مثل باع، الهمزة مؤخرة، وهو على طريقة القلب من نأى؛ كما يقال: راء ورأى. وقيل: هو من النوء وهو النهوض والقيام. وقد يقال أيضاً للوقوع والجلوس: نوء؛ وهو من الأضداد. وقرىء «ونئى» بفتح النون وكسر الهمزة. والعامة «نأى» في وزن رأى. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُساً﴾ أي إذا ناله شدة من فقر أو سقم أو بؤس يئس وقنط؛ لأنه لا يثق بفضل الله تعالى.

[٨٤] ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

---

(١) راجع ١٥/٣٦٨.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قال ابن عباس: ناحيته. وقاله الضحاك. مجاهد: طبيعته. وعنه: حِدته. ابن زيد: على دينه. الحسن وقتادة: نيته. مقاتل: جِبلته. الفراء: على طريقته ومذهبه الذي جُبِل عليه. وقيل: قل كلٌّ يعمل على ما هو أشكل عنده وأوْلى بالصواب في اعتقاده. وقيل: هو مأخوذ من الشكل؛ يقال: لستَ على شَكْلِي ولا شاكلتي. قال الشاعر:

كل آمرىء يشبهه فعله ... ما يفعل المرء فهو أهله

فالشَّكل هو المثل والنظير والضرب. كقوله تعالى: ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾[1]. والشِّكل (بكسر الشين): الهيئة. يقال: جارية حسنة الشِّكل. وهذه الأقوال كلّها متقاربة. والمعنى: أن كل أحد يعمل على ما يشاكل أصله وأخلاقه التي أَلِفَها، وهذا ذمٌّ للكافر ومدح للمؤمن. والآية والتي قبلها نزلتا في الوليد بن المغيرة؛ ذكره المهدوِيّ. ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ أي بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كل واحد منهم. وقيل: «أَهْدَى سَبِيلا» أي أسرع قبولا. وقيل: أحسن دينا. وحكي أن الصحابة رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان ولا يشاكل بالرب إلا الغفران. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حم. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾[1] قدم غفران الذنوب على قبول التوبة، وفي هذا إشارة للمؤمنين. وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[2]. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه:

---

(١) راجع ١٥/ ٢٢٠ فما بعد وص ٢٨٩.

(٢) راجع ص ٣٤ من هذا الجزء.

قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[١].

قلت: وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[٢].

[٨٥] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

روى البخاريّ ومسلم والترمذي عن عبد الله قال: بينا أنا مع النبيّ ﷺ في حَرْث وهو متّكىء على عسِيب إذ مَرّ اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال: ما رابكم[٣] إليه؟ وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سلوه. فسألوه عن الروح فأمسك النبيّ ﷺ فلم يردّ عليهم شيئاً؛ فعلمتُ أنه يوحىٰ إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ لفظ البخاريّ. وفي مسلم. فأسكتَ النبيُّ ﷺ. وفيه: وما أوتوا. وقد ٱختلف الناس في الروح المسؤول عنه، أيّ الروح هو؟ فقيل: هو جبريل؛ قاله قتادة. قال: وكان ابن عباس يكتمه. وقيل هو عيسى. وقيل: القرآن، على ما يأتي بيانه في آخر الشُّورَى[٤]. وقال عليّ بن أبي طالب: هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف لسان؛ في كل لسان سبعون ألف لغة، يسبح الله تعالى بكل تلك اللغات، يخلق الله تعالى من كل تسبيحة مَلَكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة. ذكره الطبريّ. قال ابن عطية: وما أظن القول يصحّ عن عليّ رضي الله عنه.

قلت: أسند البيهقي أخبرنا أبو زكريا عن أبي إسحاق أخبرنا أبو الحسن الطرائفي حدّثنا عثمان بن سعيد حدّثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن

(١) راجع ١٥/ ٢٦٧.
(٢) راجع ٧/ ٢٩ فما بعد.
(٣) أي ما دعاكم إلى سؤال تخشون عاقبته بأن يستقبلكم بشيء تكرهونه.
(٤) راجع ١٦/ ٥٤ فما بعد.

عباس في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ يقول: الروح مَلَك. وبإسناده عن معاوية بن صالح حدّثني أبو هِران (بكسر الهاء) يزيد بن سمُرة عمن حدّثه عن عليّ بن أبي طالب أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ قال: هو مَلَك من الملائكة له سبعون ألف وجه... الحديث بلفظه ومعناه. وروى عطاء عن ابن عباس قال: الروح مَلَك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه، يسبح الله إلى يوم القيامة؛ ذكره النحاس. وعنه: جند من جنود الله لهم أيد وأرجل يأكلون الطعام؛ ذكره الغَزْنَوِيّ. وقال الخطابي: وقال بعضهم، هو ملك من الملائكة بصفة وضعوها من عظم الخلقة. وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد. وقال أهل النظر منهم: إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه في بدن الإنسان، وكيف آمتزاجه بالجسم وآتصال الحياة به، وهذا شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل. وقال أبو صالح: الروح خلق كخلق بني آدم وليسوا ببني آدم، لهم أيد وأرجل. والصحيح الإبهام لقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ دليلٌ[1] على خلق الروح أي هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى، مُبْهِماً له وتاركاً تفصيله؛ ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن عِلم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها. وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى. وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ آختلف فيمن خوطب بذلك؛ فقالت فرقة: السائلون فقط. وقال قوم: المراد اليهود بجملتهم. وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود «وما أوتوا» ورواها عن النبيّ ﷺ. وقالت فرقة: المراد العالَم كله. وهو الصحيح، وعليه قراءة الجمهور «وَمَا أُوتِيتُمْ». وقد قالت اليهود للنبيّ ﷺ: كيف لم نُؤت من العلم إلا قليلا وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فعارضهم رسول الله ﷺ بعلم الله فغُلِبوا. وقد نص رسول الله ﷺ بقوله في بعض الأحاديث: «كُلاًّ» يعني أن المراد بـ«ـما أوتيتم» جميع

(١) أي هو المنفرد بخلق الروح والعالم بسره لا يدركه أحد من الناس.

العالم. وذلك أن يهود قالت له: نحن عنيت أم قومك؟ فقال: «كُلاًّ». وفي هذا المعنى نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾[1]. حكى ذلك الطّبريّ رحمه الله! وقد قيل: إن السائلين عن الروح هم قريش، قالت لهم اليهود: سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن أخبركم عن اثنين وأمسك عن واحدة فهو نبيّ؛ فأخبرهم خبر أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين على ما يأتي. وقال في الروح: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي من الأمر الذي لا يعلمه إلا الله. ذكره المهدويّ وغيره من المفسرين عن ابن عباس.

[٨٦] ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾.

[٨٧] ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن. أي كما قَدَرنا على إنزاله نقدِر على إذهابه حتى ينساه الخلق. ويتّصل هذا بقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي ولو شئت أن أذهب بذلك القليل لقَدَرت عليه. ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِه عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ أي ناصراً يردّه عليك. ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك؛ فهو استثناء ليس من الأوّل. وقيل: إلا أن يرحمك ربّك فلا يذهب به. ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾ إذ جعلك سيد ولد آدم، وأعطاك المقام المحمود وهذا الكتاب العزيز. وقال عبد الله بن مسعود: أوّل ما تَفْقِدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، وأن هذا القرآن كأنه قد نُزِع منكم، تُصبِحون يوماً وما معكم منه شيء. فقال رجل: كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن! وقد ثبّتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا، نعلّمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة! قال: يُسرى به في ليلة فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب، فتصبح الناس كالبهائم. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية. أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه قال: أخبرنا أبو الأحْوص عن عبد العزيز بن رُفيع عن

---

(١) راجع ١٤/٧٦.

شدّاد بن مَعْقِل قال قال عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ: إن هذا القرآن الذي بين أظهركم يوشك أن يُنزع منكم. قال: قلت كيف ينزع منا وقد أثبته الله في قلوبنا وثبتناه في مصاحفنا! قال يُسرى عليه في ليلة واحدة فينزع ما في القلوب ويذهب ما في المصاحف ويصبح الناس منه فقراء. ثم قرأ: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وهذا إسناد صحيح. وعن ابن عمر: لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دويّ كدويّ النحل، فيقول الله ما بالك. فيقول: يا رب منك خرجت وإليك أعود، أتلى فلا يُعمل بي، أُتلَى ولا يعمل بي.

قلت: قد جاء معنى هذا مرفوعاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة. قال حذيفة قال رسول الله ﷺ: «يدرس الإسلام كما يدرس وَشْيُ الثوب حتى لا يُدْرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة فيُسرى على كتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى منه في الأرض آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله. وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة». قال له صِلة[1]: ما تغني عنهم لا إله إلا الله! وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؛ فأعرض عنه حذيفة؛ ثم ردّدها ثلاثاً، كل ذلك يُعرِض عنه حذيفة. ثم أقبل عليه حذيفة فقال: يا صلة! تنجيهم من النار، ثلاثاً. خرجه ابن ماجه في السنن. وقال عبد الله بن عمر: خرج النبيّ ﷺ وهو معصوب الرأس من وجع فضحك، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس ما هذه الكتب التي تكتبون أكتاب غير كتاب الله يوشِك أن يغضب الله لكتابه فلا يَدَع ورقاً ولا قلباً إلا أخذ منه» قالوا: يا رسول الله، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذ؟ قال: «من أراد الله به خيراً أبقى في قلبه لا إله إلا الله» ذكره الثعلبي والغَزْنَويّ وغيرهما في التفسير.

[٨٨] ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

(١) هو صلة بن زفر العبسي، أحد رجال سند الحديث.

أي عويناً ونصيراً؛ مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعر فيقيمونه. نزلت حين قال الكفار: لو نشاء لقلنا مثل هذا؛ فأكذبهم الله تعالى. وقد مضى القول في إعجاز القرآن في أوّل الكتاب[1]: والحمد لله. و ﴿لاَ يَأْتُونَ﴾ جواب القسم في «لئن» وقد يجزم على إرادة الشرط. قال الشاعر:

لئن كان ما حُدّثتِه اليوم صادقاً أقِم[2] في نهار القَيظ للشمس بادِياً

[٨٩] ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي وجهنا القول فيه بكل مثل يجب به الاعتبار؛ من الآيات والعبر والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهي وأقاصيص الأوّلين، والجنة والنار والقيامة. ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ يريد أهل مكة، بيّن لهم الحقَّ وفتح لهم وأمهلهم حتى تبيّن لهم أنه الحق، فأبَوْا إلا الكفر وقت تبيّن الحق. قال المهدويّ: ولا حجة للقدريّ في قولهم: لا يقال أبى إلا لمن أبَى فِعْل ما هو قادر عليه؛ لأن الكافر وإن كان غير قادر على الإيمان بحكم الله عليه بالإعراض عنه وطبعه على قلبه، فقد كان قادراً وقت الفسحة والمهلة على طلب الحق وتمييزه من الباطل.

[٩٠] ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾.

[٩١] ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾.

[٩٢] ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾.

[٩٣] ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

---

(١) راجع ١/٦٩.

(٢) رواية خزانة الأدب في الشاهد الرابع والثلاثين بعد التسعمائة: «أصم في نهار القيظ...» الخ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ الآية نزلت في رؤساء قريش مثل عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبي سفيان والنضر بن الحارث، وأبي جهل وعبد الله بن أبي أميّة، وأميّة بن خلف وأبي البَخْتَرِيّ، والوليد بن المغيرة وغيرهم. وذلك أنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن ولم يرضوا به معجزة، اجتمعوا ـ فيما ذكر ابن إسحاق وغيره ـ بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد ـ ﷺ ـ فكلموه وخاصموه حتى تُعْذَرُوا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك فأتهم، فجاءهم رسول الله ﷺ وهو يظن أن قد بدَا لهم فيما كلمهم فيه بَدْو، وكان رسول الله ﷺ حريصاً يحبّ رشدهم ويَعِزّ عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم فقالوا له: يا محمد! إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعِبْت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام وفرّقت الجماعة، فما بَقِيَ أمر قبيح إلاّ قد جئتَه فيما بيننا وبينك، أو كما قالوا له. فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئيًا تراه قد غَلب عليك ـ وكانوا يسمّون التابع من الجن رِئيًا ـ فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نُبرِئك منه أو نُعذِر فيك. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكنّ الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلّغتكم رسالات ربي ونصحتُ لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» أو كما قال ﷺ. قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقلّ ماء ولا أشدّ عيشاً منا، فَسَلْ لنا ربّك الذي بعثك بما بعثك به، فليسيِّر

عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، ولْيَبْسُط لنا بلادنا وليخْرِق لنا فيها أنهاراً كأنهار الشأم، وليبعث لنا مَن مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قُصَيّ بن كلاب؛ فإنه كان شيخَ صِدْقٍ فنسألهم عما تقول، أحقّ هو أم باطل، فإن صدّقوك وصنعت ما سألناك صدّقناك، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولاً كما تقول. فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه: «ما بهذا بُعثت إليكم إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثني به وقد بلّغتكم ما أرسلتُ به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك! سَلْ ربك أن يبعث معك مَلَكا يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك، واسأله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عمّا نراك تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرِف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ـ أو كما قال ـ فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» قالوا: فأسقِطِ السماء علينا كِسَفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل؛ فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. قال فقال رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فعل. قالوا: يا محمد، أفما علِم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدّم إليك فيعلمك بما تراجعنا به، ويخبرك[1] ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟ إنه قد بلغنا أنك إنما يعلّمك هذا رجل من اليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبِيلاً. فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ، قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، هو لعاتكةَ بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد! عرض عليك

---

(١) في جـ: بما.

قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول؛ ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل! ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل! ثم سألوك أن تعجّل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل! ـ أو كما قال له ـ فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلَّماً، ثم تَرْقَى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصَكٍّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وأَيْمُ اللَّهِ لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك! ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزِيناً آسِفاً لِما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولِمَا رأى من مباعدتهم إياه؛ كلّه لفظ ابن إسحاق. وذكر الواحديّ عن عكرمة عن ابن عباس: فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾. «يَنْبُوعاً» يعني العيون؛ عن مجاهد. وهي يفعول، من نَبَع يَنْبَع. وقرأ عاصم وحمزة والكسائيّ «تَفْجُرَ لنا» مخففة؛ واختاره أبو حاتم لأن الينبوع واحد. ولم يختلفوا في تفجّر الأنهار أنه مشدّد. قال أبو عبيد: والأولى مثلها. قال أبو حاتم. ليست مثلها؛ لأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد، والثانية بعدها الأنهار وهي جمع، والتشديد يدلّ على التكثير. أجيب بأن «يَنْبُوعاً» وإن كان واحداً فالمراد به الجمع؛ كما قال مجاهد. الينبوع عين الماء والجمع الينابيع. وقرأ قتادة «أو يكون لك جنة». ﴿خِلاَلَهَا﴾ أي وسطها. ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ﴾ قراءة العامة. وقرأ مجاهد «أو يسقط السماء» على إسناد الفعل إلى السماء. ﴿كِسَفاً﴾ قطعاً؛ عن ابن عباس وغيره. والكِسف (بفتح السين) جمع كِسفة، وهي قراءة نافع وابن عامر وعاصم. الباقون «كِسفا» بإسكان السين. قال الأخفش: من قرأ كسْفاً من السماء جعله واحداً، ومن قرأ كِسَفاً جعله جمعاً. قال المهدويّ: ومن أسكن السين جاز أن يكون جمع كِسْفة وجاز أن يكون مصدراً؛ من كسفت الشيء إذا غطيته. فكأنهم قالوا: أسقطها طبقاً علينا. وقال الجوهرِيّ: الكِسْفة القطعة من الشيء؛ يقال: أعطني كسْفة من ثوبك، والجمع كِسْف وكِسَف. ويقال: الكِسْف والكِسْفة واحد.

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي معاينة؛ عن قتادة وابن جريج. وقال الضحاك وابن عباس: كفيلا. قال مقاتل: شهيداً. مجاهد: هو جمع القبيلة؛ أي بأصناف الملائكة قبيلةً قبيلةً. وقيل: ضمناء يضمنون لنا إتيانك به. ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ من زُخْرُفٍ﴾ أي من ذهب؛ عن ابن عباس وغيره. وأصله الزينة. والمُزَخْرَف المزيَّن. وزخارف الماء طرائقه. وقال مجاهد: كنت لا أدري ما الزُّخرُف حتى رأيته في قراءة ابن مسعود «بيتٌ مِن ذَهَبٍ» أي نحن لا ننقاد لك مع هذا الفقر الذي نرى. ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ أي تصعد؛ يقال: رَقِيت في السُّلَّم أرقَى رَقْياً وَرُقِيًّا إذا صعِدت. وارتقيت مثله. ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي من أجل رُقِيِّك، وهو مصدر؛ نحو مضى يمضي مُضِيًّا، وهوى يهوي هُوِيًّا، كذلك رقى يرقى رُقِيًّا. ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾ أي كتاباً من الله تعالى إلى كل رجل منا؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾[1]. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وقرأ أهل مكة والشام «قال سبحان ربي» يعني النبيّ ﷺ؛ أي قال ذلك تنزيهاً لِلَّه عز وجل عن أن يعجز عن شيء وعن أن يُعترض عليه في فعل. وقيل: هذا كله تعجب عن فرط كفرهم واقتراحاتهم. الباقون «قل» على أمر؛ أي قل لهم يا محمد ﴿هَلْ كُنْتُ﴾ أي ما أنا ﴿إلاَّ بَشَراً رَسُولاً﴾ أتبع ما يوحَى إليّ من ربّي، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التي ليست في قدرة البشر، فهل سمعتم أحداً من البشر أتى بهذه الآيات! وقال بعض الملحدين: ليس هذا جواباً مقنعاً، وغَلِطوا؛ لأنه أجابهم فقال: إنما أنا بشر لا أقدر على شيء مما سألتموني، وليس لي أن أتخيّر على ربي، ولم تكن الرسل قَبْلي يأتون أممهم بكل ما يريدونه ويبغونه، وسبيلي سبيلهم، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوّتهم، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل، ولوجب لكل إنسان أن يقول: لا أُومِن حتى أوتى بآية خلاف ما طلب غيري. وهذا يئول إلى أن يكون التدبير إلى الناس، وإنما التدبير إلى الله تعالى.

---

(١) راجع ١٩/٨٨.

[٩٤] ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ يعني الرسل والكتب من عند الله بالدعاء إليه. ﴿إِلاَّ أَنْ قَالُوا﴾ جهلا منهم. ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ أي الله أجل من أن يكون رسوله من البشر. فبيّن الله تعالى فرط عنادهم لأنهم قالوا: أنت مثلنا فلا يلزمنا الانقياد، وغفلوا عن المعجزة. فـ «أَنْ» الأولى في محل نصب بإسقاط حرف الخفض. و «أن» الثانية في محل رفع بـ «منع» أي وما منع الناس من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا قولهم أبعث الله بشراً رسولاً.

[٩٥] ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾.

أعلم الله تعالى أن المَلَك إنما يُرسل إلى الملائكة؛ لأنه لو أرسل ملَكاً إلى الآدميّين لم يقدروا أن يروه على الهيئة التي خُلق عليها، وإنما أقدر الأنبياء على ذلك وخلَق فيهم ما يقدرون به؛ ليكون ذلك آية لهم ومعجزة. وقد تقدّم في «الأنعام» نظير هذه الآية؛ وهو قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾[1] وقد تقدّم الكلام فيه[1].

[٩٦] ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾.

يروى أن كفار قريش قالوا حين سمعوا قوله: ﴿هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً﴾: فمن يشهد لك أنك رسول الله؟ فنزل: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيرا﴾.

---

(١) راجع ٦/ ٣٩٣.

[٩٧] ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ أي لو هداهم الله لاهتدوا. ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي لا يهديهم أحد. ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم؛ من قول العرب: قدِم القوم على وجوههم إذا أسرعوا. الثاني ـ أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه. وهذا هو الصحيح؛ لحديث أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، الذين يحشرون على وجوههم، أيحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: «أليس الذي أمشاه على الرجلين قادراً على أن يُمْشِيَه على وجهه يوم القيامة»: قال قتادة حين بلغه: بَلَى وعِزّةِ رَبِّنا. أخرجه البخاريّ ومسلم. وحسبك. ﴿عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا﴾ قال ابن عباس والحسن: أي عُمْيٌ عمّا يسرّهم، بُكْمٌ عن التكلم بحجة، صُمٌّ عما ينفعهم؛ وعلى هذا القول حواسهم باقية على ما كانت عليه. وقيل: إنهم يحشرون على الصفة التي وصفهم الله بها؛ ليكون ذلك زيادة في عذابهم، ثم يخلق ذلك لهم في النار، فأبصروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾(١)، وتكلموا؛ لقوله تعالى: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾(٢)، وسمعوا؛ لقوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾(٢). وقال مقاتل بن سليمان: إذا قيل لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾(٣) صاروا عُمْياً لا يبصرون صُمًّا لا يسمعون بُكْماً لا يفقهون. وقيل: عموا حين دخلوا النار لشدّة سوادها، وانقطع كلامهم حين قيل لهم: «اخسئوا فيها ولا تكلمون». وذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئاً. ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مستقرُّهم ومقامهم. ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي سكنت؛ عن الضحاك

---

(١) راجع ١١/ ٣.

(٢) راجع ١٣/ ٧.

(٣) راجع ١٢/ ١٥٣.

وغيره. مجاهد طفئت. يقال: خبت النار تخبو خبوا أي طفئت، وأخبيتُها أنا. ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ أي ناراً تتلهب. وسكون التهابها من غير نقصان في آلامهم ولا تخفيف عنهم من عذابهم. وقيل: إذا أرادت أن تَخْبُو. كقوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ﴾[1].

[٩٨] ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾.

[٩٩] ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي ذلك العذاب جزاء كفرهم. ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً﴾ أي تراباً. ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى فقال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ قيل: في الكلام تقديم وتأخير، أي أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض، وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم. والأجل: مدّة قيامهم في الدنيا ثم موتهم، وذلك ما لا شك فيه إذ هو مشاهد. وقيل: هو جواب قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾. وقيل: هو يوم القيامة. ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً﴾ أي المشركون إلا جحوداً بذلك الأجل وبآيات الله. وقيل: ذلك الأجل هو وقت البعث، ولا ينبغي أن يُشَكَّ فيه.

[١٠٠] ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

---

(١) راجع ص ٢٦٩ من هذا الجزء.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أي خزائن الأرزاق. وقيل: خزائن النعم، وهذا أعم. ﴿إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ﴾ من البخل، وهو جواب قولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ حتى نتوسّع في المعيشة. أي لو توسعتم لبخِلتم أيضاً. وقيل: المعنى لو ملك أحد المخلوقين خزائن الله لما جاد بها كجود الله تعالى؛ لأمرين: أحدهما ـ أنه لا بد أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته. الثاني ـ أنه يخاف الفقر ويخشى العدم. والله تعالى يتعالى في وجوده عن هاتين الحالتين. والإنفاق في هذه الآية بمعنى الفقر؛ قاله ابن عباس وقتادة. وحكى أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم وأقتر إذ قلّ ماله. ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً﴾ أي بخيلاً مضيّقاً. يقال: قَتَر على عياله يَقْتِر ويَقْتُر قَتْراً وقُتُوراً إذا ضيق عليهم في النفقة، وكذلك التقتير والإقتار، ثلاث لغات. واختلف في هذه الآية على قولين: أحدهما ـ أنها نزلت في المشركين خاصّة؛ قاله الحسن. والثاني ـ أنها عامة، وهو قول الجمهور؛ وذكره الماورديّ.

[١٠١] ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ اختلف في هذه الآيات؛ فقيل: هي بمعنى آيات الكتاب؛ كما روى الترمذيّ والنسائيّ عن صَفوان بن عَسّال المُراديّ أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبيّ نسأله؛ فقال: لا تقل له نبيّ فإنه إن سمعنا كان له أربعة أعين؛ فأتيا النبيّ ﷺ فسألاه عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا تَسْرِقوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببريء إلى السلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تَفِرّوا من الزحف ـ شك شعبة ـ وعليكم [يا معشر] اليهود خاصة ألا تعدوا في السبت» فقبّلا يديه ورجليه وقالا: نشهد أنك نبيّ. قال:

«فما يمنعكما أن تُسلما» قالا: إن داود دعا الله ألا يزال في ذريته نبيّ وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وقد مضى في البقرة[١]. وقيل: الآيات بمعنى المعجزات والدلالات. قال ابن عباس والضحاك: الآيات التسع العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم؛ آيات مفصَّلات. وقال الحسن والشعبيّ: الخمس المذكورة في «الأعراف»[٢]؛ يعنيان الطوفان وما عطف عليه، واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات. وروي نحوه عن الحسن؛ إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة، وجعل التاسعة تلقّف العصا ما يأفكون. وعن مالك كذلك؛ إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات: البحر والجبل. وقال محمد بن كعب: هي الخمس التي في «الأعراف» والبحر والعصا والحجر والطمس على أموالهم. وقد تقدّم شرح هذه الآيات مستوفًى والحمد لله. ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ أي سلهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات، حسبما تقدّم بيانه في يونس[٣]. وهذا سؤال استفهام ليعرف اليهود صحة ما يقول محمد ﷺ. ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾ أي ساحراً بغرائب أفعالك: قاله الفراء وأبو عبيدة. فوضع المفعول موضع الفاعل؛ كما تقول: هذا مشؤوم وميمون، أي شائم ويامن. وقيل مخدوعاً. وقيل: مغلوباً؛ قاله مقاتل. وقيل: غير هذا؛ وقد تقدّم. وعن ابن عباس وأبي نَهِيك أنهما قرأا: «فَسَالَ بَني إسرائيل» على الخبر؛ أي سأل موسى فرعونَ أن يخلي بني إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه.

[١٠٢] ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاَءِ﴾ يعني الآيات التسع. و «أَنْزَلَ» بمعنى أوجد. ﴿إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ أي دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته.

---

(١) راجع ١/٤٣٩.
(٢) راجع ٧/٢٦٧.
(٣) راجع ٨/ ٣٧٣ فما بعد.

وقراءة العامة «علِمتَ» بفتح التاء، خطاباً لفرعون. وقرأ الكسائي بضم التاء، وهي قراءة عليّ [بن أبي طالب][١] رضي الله عنه؛ وقال: واللهِ ما علم عدوّ الله ولكن موسى هو الذي علم، فبلغت ابنَ عباس فقال: إنها «لقد علمتَ»، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾[٢]. ونسب فرعون إلى العناد. وقال أبو عبيد: والمأخوذ به عندنا فتح التاء، وهو الأصح للمعنى الذي احتج به ابن عباس؛ ولأن موسى لا يحتج بقوله: علمت أنا، وهو الرسول الداعي، ولو كان مع هذا كلّه تصح به القراءة عن عليّ لكانت حجة، ولكن لا تثبت عنه، إنما هي عن كُلثوم المرادِيّ وهو مجهول لا يعرف، ولا نعلم أحداً قرأ بها غير الكسائي. وقيل: إنما أضاف موسى إلى فرعون العلم بهذه المعجزات؛ لأن فرعون قد علم مقدار ما يتهيأ للسحرة فعله، وأن مثل ما فعل موسى لا يتهيأ لساحر، وأنه لا يقدر على فعله إلا من يفعل الأجسام ويملك السموات والأرض. وقال مجاهد: دخل موسى على فرعون في يوم شاتٍ وعليه قطيفة له، فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان، فرأى فرعون جانبي البيت بين فُقْمَيْهَا، ففزع وأحدث في قطيفته. [الفقم بالضم[٣] اللحى، وفي الحديث «من حفظ ما بين فقميه» أي ما بين لحييه]. ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ الظن هنا بمعنى التحقيق. والثبور: الهلاك والخسران أيضاً. قال الكُمَيْت:

ورأتْ قُضاعـةُ فـي الأيـا ... مِـن رأيَ مَثْبُـو وثـابِـر

أي مخسور وخاسر، يعني في انتسابها إلى اليمن. وقيل: ملعوناً. رواه المِنْهال عن سعيد ابن جُبير عن ابن عباس. وقاله أبان بن تَغْلِب. وأنشد:

يا قومنا لا تَرُوموا حَرْبَنَا سَفَهاً ... إنّ السَّفـاه وإن البَغْـيَ مثبـورُ

أي ملعون. وقال ميمون بن مِهران عن ابن عباس: «مثبوراً» ناقص العقل. ونظر المأمون رجلاً فقال له: يا مثبور؛ فسئل عنه قال: قال الرشيد قال المنصور لرجل: مثبور؛ فسألته فقال: حدثني ميمون بن مِهران... فذكره وقال قتادة: هالكاً. وعنه أيضاً والحسن

---

(١) من جـ. (٢) راجع ١٣/١٥٦ فما بعد. (٣) من جـ وي. في النهاية: بالضم والفتح ـ اللحى. تمام الحديث «ورجليه دخل الجنة» يريد من حفظ لسانه وفرجه.

ومجاهد: مهلَكا. والثبور: الهلاك؛ يقال: ثبر الله العدو ثبوراً أهلكه. وقيل: ممنوعاً من الخير. حكى أهل اللغة: ما ثبرك عن كذا أي ما منعك منه. وثبره الله يَثْبُره [ويُثْبِّره لغتان][1]. قال ٱبن الزِّبَعْرى:

إذْ أُجارِي الشيطان في سنَنَ الغَـ ـيّ ومـن مـال مَيْلَـه مثبـور

الضحاك: «مثبوراً» مسحوراً. ردّ عليه مثل ما قال له بٱختلاف اللفظ. وقال ابن زيد: «مثبوراً» مخبولاً لا عقل له.

[١٠٣] ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾.

[١٠٤] ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي أراد فرعون أن يخرج موسى وبني إسرائيل من أرض مصر [إما][2] بالقتل أو بالإبعاد، فأهلكه الله عز وجل. ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد إغراقه. ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ٱسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ أي أرض الشام ومصر. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أي القيامة. ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ أي من قبوركم مختلطين من كل موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون، ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيله وحَيّه. وقال ابن عباس وقتادة: جئنا بكم جميعاً من جهات شتّى. والمعنى واحد. قال الجوهري: واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى؛ يقال: جاء القوم بلَفّهم ولفِيفهم، أي وأخلاطهم. وقوله تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ أي مجتمعين مختلطين. وطعام لَفِيف إذا كان مخلوطاً من جنسين فصاعداً. وفلان لفيف فلان أي صديقه. قال الأصمعي: اللفيف جمعٌ وليس له واحد، وهو مثل الجميع. والمعنى: أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر، مختلطين لا يتعارفون. وقال الكلبي: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ يعني مجيء عيسى عليه السلام من السماء.

---

(١) من جـ وو وي.
(٢) من جـ. وفي ي: إما بالقتل وإما بالإبعاد.

[١٠٥] ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ هذا متصل بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن. والكناية ترجع إلى القرآن. ووجه التكرير في قوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ يجوز أن يكون معنى الأوّل: أوجبنا إنزاله بالحق. ومعنى الثاني: ونزل وفيه الحق؛ كقوله: خرج بثيابه، أي وعليه ثيابه. وقيل: الباء في: «وبالحق» الأوّل بمعنى مع، أي مع الحق؛ كقولك: ركب الأمير بسيفه أي مع سيفه. ﴿وبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي بمحمد ﷺ، أي نزل عليه؛ كما تقول: نزلت بزيد. وقيل: يجوز أن يكون المعنى وبالحق قدرنا أن ينزل، وكذلك نزل.

[١٠٦] ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ مذهب سيبويه أن «قرآناً» منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر. وقرأ جمهور الناس: «فَرَقناه» بتخفيف الراء، ومعناه بيناه وأوضحناه، وفرقنا فيه بين الحق والباطل؛ قاله الحسن. وقال ابن عباس: فصّلناه. وقرأ ابن عباس وعليّ وابن مسعود وأُبيّ بن كعب وقتادة وأبو رجاء والشَّعْبِيّ «فرّقناه» بالتشديد، أي أنزلناه شيئاً بعد شيء لا جملة واحدة؛ إلا أن في قراءة ابن مسعود وأُبيّ «فرقناه عليك».

واختلف في كم نزل القرآن من المدّة؛ فقيل: في خمس وعشرين سنة. ابن عباس: في ثلاث وعشرين. أنس: في عشرين. وهذا بحسب الخلاف في سن رسول الله ﷺ، ولا خلاف أنه نزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة. وقد مضى هذا في «البقرة»[١]. ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ أي تطاوُل في المدّة شيئاً بعد شيء. ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود، أي أنزلناه آية آية وسورةً سورة. وأمّا على القول الأوّل فيكون «عَلَى مُكْث» أي على ترسّل في التلاوة وترتيل؛ قاله مجاهد وابن عباس وابن جريج. فيعطي القارىء القراءة حقّها من

(١) راجع ٢/٢٩٧.

ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحين ولا تطريب مؤد[١] إلى تغيير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان فإن ذلك حرام على ما تقدم أوّل[٢] الكتاب. وأجمع القرّاء على ضم الميم من «مُكْث» إلا ابن محيصِن فإنه قرأ «مكث» بفتح الميم. ويقال. مَكْث ومُكْث ومِكْث؛ ثلاث لغات. قال مالك: ﴿على مُكْث﴾ على تثبّت وترسُّلٍ[٣].

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاه تَنْزِيلاً﴾ مبالغة وتأكيد بالمصدر للمعنى المتقدم، أي أنزلناه نَجْماً بعد نجم[٤]؛ ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا.

[١٠٧] ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا﴾ يعني القرآن. وهذا من الله عز وجل على وجه التبكيت لهم والتهديد لا على وجه التخيير. ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل نزول القرآن وخروج النبيّ ﷺ، وهم مؤمنو أهل الكتاب؛ في قول ابن جريج وغيره. قال ابن جريج: معنى ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ كتابهم. وقيل: القرآن. ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً﴾ وقيل: هم قوم من ولد إسماعيل تمسّكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبيّ عليه السلام، منهم زيد بن عمرو بن نُفَيل وورقة بن نَوْفل. وعلى هذا ليس يريد أوتوا الكتاب بل يريد أوتوا علم الدِّين. وقال الحسن: الذين أوتوا العلم أمة محمد ﷺ. وقال مجاهد: إنّهم ناس من اليهود؛ وهو أظهر لقوله: ﴿مِن قَبْلِه﴾. ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ يعني القرآن في قول مجاهد. كانوا إذا سمعوا ما أنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾. وقيل: كانوا إذا تلَوْا كتابهم وما أنزل عليه من القرآن خشعوا وسجدوا وسبحوا، وقالوا: هذا هو المذكور في التوراة، وهذه صفته، ووعد الله به واقع لا محالة، وجنحوا إلى الإسلام؛ فنزلت الآية فيهم. وقالت فرقة: المراد بالذين أوتوا العلم من قبله

(١) في الأصول: «المؤدي».
(٢) راجع ١/٢٧.
(٣) في جـ: ترتيل.
(٤) أي نزل آية آية وسورة سورة.

محمدٌ ﷺ، والضمير في «قبله» عائد على القرآن حسب الضمير في قوله ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ﴾. وقيل: الضميران لمحمد ﷺ، وآستأنف ذكر القرآن في قوله: ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾.

[١٠٨] ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾.

دليل على جواز التسبيح في السجود. وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في سجوده وركوعه «سبحانك اللهم [ربنا][(١)] وبحمدك اللهم أغفر لي».

[١٠٩] ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم. وحقّ لكل من توسّم بالعلم وحصل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويَذِل. وفي مسند الدّارِميّ أبي محمد عن التَّيْمِيّ قال: من أوتي من العلم ما لم يبكّه لخليق ألا يكون أوتي علماً؛ لأن الله تعالى نعت العلماء، ثم تلا هذه الآية. ذكره الطبري أيضاً. والأذقان جمع ذقن، وهو مجتمع اللَّحْيين. وقال الحسن: الأذقان عبارة عن اللحى؛ أي يضعونها على الأرض في حال السجود، وهو غاية التواضع. واللام بمعنى على؛ تقول: سقط لِفِيه أي على فيه. وقال ابن عباس: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي للوجوه، وإنما خص الأذقان بالذكر لأن الذقن أقرب شيء من وجه الإنسان. قال ابن خُوَيْزمَنْدَاد: ولا يجوز السجود على الذقن؛ لأن الذقن ها هنا عبارة عن الوجه، وقد يعبّر بالشيء عما جاوره وببعضه عن جميعه؛ فيقال: خر لوجهه ساجداً وإن كان لم يسجد على خدّه ولا عينه. ألا ترى إلى قوله:

فخرّ صَرِيعاً لليدين ولِلفَم

فإنما أراد: خر صريعاً على وجهه ويديه.

---

(١) من جـ وي.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿يَبْكُونَ﴾ دليل على جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالى، أو على معصيته في دين الله، وأن ذلك لا يقطعها ولا يضرها. ذكر ابن المبارك عن حَمّاد بن سلمة عن ثابت البُنَانِيّ عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال: أتيت النبيّ ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزِيز كأزيز المِرجل من البكاء. وفي كِتاب أبي داود: وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء.

الثالثة ـ واختلف الفقهاء في الأنين؛ فقال مالك: الأنين لا يقطع الصلاة للمريض، وأكرهه للصحيح؛ وبه قال الثوري. وروى ابن الحَكَم عن مالك: التنحنُح والأنين والنفخ لا يقطع الصلاة. وقال ابن القاسم؛ يقطع. وقال الشافعيّ: إن كان له حروف تسمع وتُفهم يقطع الصلاة. وقال أبو حنيفة: إن كان من خوف الله لم يقطع، وإن كان من وجع قطع. وروي عن أبي يوسف أن صلاته في ذلك كلّه تامةٌ؛ لأنه لا يخلو مريض ولا ضعيف من أنين.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ تقدّم القول في الخشوع في «البقرة»[(1)] ويأتي.

[١١٠] ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا اللَّهَ أَوِ ٱدْعُـوا الرَّحْمَنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ سبب نزول هذه الآية أن المشركين سمعوا رسول الله ﷺ يدعو «يا ألله يا رحمن» فقالـوا: كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد وهو يدعو إلهين؛ قاله ابن عباس. وقال مكحول: تهجد رسول الله ﷺ ليلة فقال في دعائه: «يا رحمن يا رحيم» فسمعه رجل

---

(١) راجع ١/ ٣٧٤، و ١٢/ ١٠٣.

من المشركين، وكان باليمامة رجل يسمى الرحمن، فقال ذلك السامع: ما بال محمد يدعو رحمان اليمامة. فنزلت الآية مبينة أنهما اسمان لمسمًّى واحد؛ فإن دعوتموه بالله فهو ذاك، وإن دعوتموه بالرحمن فهو ذاك. وقيل: كانوا يكتبون في صدر الكتب: باسمك اللهم؛ فنزلت ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[1] فكتب رسول الله ﷺ «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال المشركون: هذا الرحيم نعرفه فما الرحمن؛ فنزلت الآية. وقيل: إن اليهود قالت: ما لنا لا نسمع في القرآن اسماً هو في التوراة كثير. يعنون الرحمن؛ فنزلت الآية. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «أيًّا مَنْ تَدْعُو فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» أي التي تقتضي أفضل الأوصاف وأشرف المعاني. وحسنُ الأسماء إنما يتوجه بتحسين الشرع؛ لإطلاقها والنص عليها. وانضاف إلى ذلك أنها تقتضي معاني حساناً شريفة، وهي بتوقيف لا يصح وضع أسم الله بنظر إلا بتوقيف من القرآن أو الحديث أو الإجماع. حسبما بيناه في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى).

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ اختلفوا في سبب نزولها على خمسة أقوال:

الأوّل ـ ما روى ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: نزلت ورسول الله ﷺ مُتَوارٍ بمكة، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سَبُّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به؛ فقال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ﴾ فيسمع المشركون قراءتك. ﴿وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك. أسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر. ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ قال: يقول بين الجهر والمخافتة؛ أخرجه البخاريّ ومسلم والترمذيّ وغيرهم. واللفظ لمسلم. والمخافتة: خفض الصوت والسكون؛ يقال للميت إذا بَرَد: خفت. قال الشاعر:

لم يبق إلا نَفَس خافت ومُقْلَةٌ إنسانها باهت
رَثَى لها الشامت مما بها يا وَيْحَ من يَرْثِي له الشّامت

(١) راجع ١٣/١٩١ فما بعد.

الثاني ـ ما رواه مسلم أيضاً عن عائشة في قوله عز وجل: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾ قالت: أنزل هذا في الدعاء.

الثالث ـ قال ابن سيرين : كان الأعراب يجهرون بتشهدهم فنزلت الآية في ذلك.

قلت: وعلى هذا فتكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد، وقد قال ابن مسعود: من السنة أن تخفي التشهد؛ ذكره ابن المنذر.

الرابع ـ ما روي عن ابن سيرين أيضاً أن أبا بكر رضي الله عنه كان يُسِر قراءته، وكان عمر يجهر بها، فقيل لهما في ذلك؛ فقال أبو بكر: إنما أناجي ربي، وهو يعلم حاجتي إليه. وقال عمر: أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوسْنَان؛ فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر: ارفع قليلا، وقيل لعمر: اخفض أنت قليلا؛ ذكره الطبري وغيره.

الخامس ـ ما روي عن ابن عباس أيضاً أن معناها ولا تجهر بصلاة النهار، ولا تخافت بصلاة الليل؛ ذكره يحيى بن سلام والزهراويّ. فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة في النوافل والفرائض، فأما النوافل فالمصلّي مخيّر في الجهر والسر في الليل والنهار، وكذلك روي عن النبي ﷺ أنه كان يفعل الأمرين جميعاً وأما الفرائض فحكمها في القراءة معلوم ليلاً ونهاراً.

وقول سادس ـ قال الحسن: يقول الله لا ترائي بصلاتك تحسّنها في العلانية ولا تسيئها في السر. وقال ابن عباس: لا تصلّ مرائياً للناس ولا تدعها مخافة الناس.

الثانية ـ عبّر تعالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبر بالقراءة عن الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر؛ لأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود فهي من جملة أجزائها؛ فعبر بالجزء عن الجملة وبالجملة عن الجزء على عادة العرب في المجاز وهو كثير؛ ومنه الحديث الصحيح: «قسَمتُ الصلاة بيني وبين عبدي» أي قراءة الفاتحة على ما تقدّم.

[١١١] ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذاً: عزير وعيسى والملائكة ذرية[1] الله سبحانه؛ تعالى الله عن أقوالهم! ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ لأنه واحد لا شريك له في ملكه ولا في عبادته. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ قال مجاهد: المعنى لم يحالف أحداً ولا ابتغى نصر أحد؛ أي لم يكن له ناصر يجيره من الذل فيكون مدافعاً. وقال الكلبي: لم يكن له وليّ من اليهود والنصارى؛ لأنهم أذل الناس، رداً لقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه. وقال الحسن بن الفضل: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ يعني لم يُذَلّ فيحتاج إلي وَلِيّ ولا ناصر لعزته وكبريائه. ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي عظّمه عظمة تامة. ويقال: أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر؛ أي صفه بأنه أكبر من كل شيء قال الشاعر:

رأيتُ اللّه أكبر كل شيء … محاولة وأكثرهم جنوداً

وكان النبيّ ﷺ إذا دخل في الصلاة قال: «الله أكبر» وقد تقدّم أوّل[2] الكتاب. وقال عمر بن الخطاب: قول العبد الله أكبر خير من الدنيا وما فيها. وهذه الآية هي خاتمة التوراة. روى مُطَرِّف عن عبد الله بن كعب قال: افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام وختمت بخاتمة هذه السورة. وفي الخبر أنها آية العز؛ رواه معاذ بن جبل عن النبيّ ﷺ. وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان النبيّ ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي﴾ الآية. وقال عبد الحميد بن واصل: سمعت عن النبيّ ﷺ أنه قال: «من قرأ وقل الحمد لله الآية كتب الله له من الأجر مثل الأرض والجبال لأن الله تعالى يقول فيمن زعم أن له ولداً ﴿تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتَخِر الجبال هَدًّا﴾. وجاء في الخبر أن النبيّ ﷺ أمر رجلاً شكا إليه بالدَّين بأن يقرأ ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ ـ إلى آخر السورة ثم يقول ـ توكلت على الحي الذي لا يموت؛ ثلاث مرات.

تمت سورة الإسراء، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده.

(١) في جـ: تنزيه الله.

(٢) راجع ١/ ١٧٥.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الكهف

وهي مكية في قول جميع المفسرين. وروي عن فرقة أن أوّل السورة نزل بالمدينة إلى قوله: ﴿جُرزاً﴾، والأوّل أصح. وروي في فضلها من حديث أنس أنه قال: من قرأ بها أُعْطِيَ نوراً بين السماء والأرضِ ووُقِيَ بها فتنة القبر. وقال إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة: إن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدُلّكم على سورة شيّعها سبعون ألف مَلَك مَلأ عِظَمُها ما بين السماء والأرض لتاليها مثل ذلك». قالوا: بلى يا رسول الله؟ قال: «سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفِر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطِي نوراً يبلغ السماء ووُقِيَ فتنة الدجال» ذكره الثعلبِيّ والمهدوِي أيضاً بمعناه. وفي مسند الدارِمي عن أبي سعيد الخُدْرِي قال: من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق. وفي صحيح مسلم عن أبي الدَّرْداء أن نبيّ الله ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف عُصم من الدجال». وفي رواية «من آخر الكهف». وفي مسلم أيضاً من حديث النواس بن سِمْعان «فمن أدركه ـ يعني الدجال ـ فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف». وذكره الثعلبي. قال: سَمُرة بن جُنْدُب قال النبي ﷺ: «من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حِفْظاً لم تضره فتنة الدجال». ومن قرأ السورة كلها دخل الجنة.

[١] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾.

[٢] ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾.

[٣] ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً﴾ ذكر ابن إسحاق أن قريشاً بعثوا النضر بن الحارث وعُقبة بن أبي مُعَيْط إلى أحبار يهود وقالوا لهما:

سَلاهم عن محمد وصِفَا لهم صِفَتَه وأخبراهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأوّل، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء؛ فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهما أحبار يهود: سَلُوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل، فرَوْا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل، ما كان أمرهم؛ فإنه قد كان لهم حديثٌ عجب. وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نَبَؤه. وسلوه عن الروح، ما هي؛ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبيّ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيط حتى قدما مكة على قريش فقالا: يا معشر قريش! قد جئناكم بفَصْل ما بينكم وبين محمد ـ ﷺ ـ قد أمَرَنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمَرُونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبيّ، وإن لم يفعل[1] فالرجل متقوّل، فَرَوْا فيه رأيكم. فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن فِتية ذهبوا في الدهر الأوّل، قد كانت لهم قصة عجب، وعن رجل كان طوّافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟ قال: فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم بما سألتم عنه غداً» ولم يستثن[2]. فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ فيما يزعمون خمس عشرة ليلة، لا يُحدِث الله إليه في ذلك وحيا ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف[3] أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة ليلة، وقد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه؛ وحتى أحزنَ رسولَ الله ﷺ مكثُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفِتية، والرجلِ الطواف والروح. قال ابن إسحاق: فذُكر لي أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «لقد احتبستَ عني

(١) في جـ: يخبركم.

(٢) أي لم يقل ـ ﷺ ـ إن شاء الله.

(٣) أرجف القوم: خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن وفي جـ: أوجف وهو الاضطراب، ولعله وهم من الناسخ.

يا جبريل حتى سُؤت ظنًّا» فقال له جبريل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[١]. فافتتح السورة تبارك وتعالى بحمده، وذِكْر نبوّة رسوله ﷺ لما أنكروا عليه من ذلك فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ يعني محمداً، إنك رسول مِنّي، أي تحقيق لما سألوا عنه من نبوّتك. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً﴾ أي معتدِلاً لا اختلاف فيه. ﴿لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ﴾ أي عاجل عقوبته في الدنيا، وعذاباً أليماً في الآخرة، أي من عند ربك الذي بعثك رسولاً ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ أي دار الخلد لا يموتون فيها، الذين صدّقوك بما جئت به مما كذّبك به غيرهم، وعمِلوا بما أمرتهم به من الأعمال. ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ يعني قريشاً في قولهم: إنا نعبد الملائكة وهي بنات الله. ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ﴾ الذين أعظموا فراقهم وعَيْب دينهم. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي لقولهم إن الملائكة بنات الله. ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً. فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لم يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجوه منهم، أي لا تفعل. قال ابن هشام: ﴿بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ أي مُهْلك نفسك؛ فيما حدّثني أبو عبيدة. قال ذو الرمّة:

ألا أيّهذا الباخِعُ الوَجْدُ نفسه　　　بشيء نَحْته عن يَدَيْه المقَادِرُ

وجمعها باخعونِ وبَخَعة. وهذا البيت في قصيدة[٢] له. وتقول العرب: قد بخَعْتُ له نُصْحِي ونَفْسي، أي جَهَدت له. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ قال ابن إسحاق: أي أيّهم أتبع لأمري وأعمل بطاعتي. ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾ أي الأرض، وإن ما عليها لفانٍ وزائل، وإن المرجع إليّ فأجْزي كلاًّ بعمله؛ فلا تأس ولا يَحْزُنْك ما ترى وتسمع فيها. قال ابن هشام: الصّعيد وجه الأرض، وجمعه صُعُد. قال ذو الرُّمة يصف ظَبْياً صغيراً:

---

(١) راجع ١١/١٢٨.

(٢) مطلعها:

لميــة أطـــلال بحـــزوي دوائـــر　　　عفتهـا السـوافي بعـدنـا والمـواطـر

كأنه بالضُّحَا تَرمي الصعيدَ به دبّابةٌ في عِظام الرأس خُرْطوم[١]

وهذا البيت في قصيدة له[٢]. والصعيد أيضاً: الطريق، وقد جاء في الحديث: «إياكم والقعود على الصُّعُدات» يريد الطرق. والجُرز: الأرض التي لا تنبت شيئاً، وجمعها أجراز. ويقال: سَنَةٌ جُرُز وسِنون أجراز؛ وهي التي لا يكون فيها مطر. وتكون فيها جدوبة ويبس وشدّة. قال ذو الرمّة يصف إبلا:

طَوَى النحز والإجراز ما في بطونها فما بقيت إلا الضلوع الجراشِعُ[٣]

قال ابن إسحاق: ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه عنه من شأن الفِتية فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيم كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ أي قد كان من آياتي فيما وضعت على العباد من حجتي ما هو أعجب من ذلك. قال ابن هشام: والرقيم الكتاب الذي رُقِم بخبرهم، وجمعه رُقُم. قال العجاج:

ومُسْتَقَرُّ المصحف المُرَقَّمِ

وهذا البيت في أُرْجوزة[٤] له. قال ابن إسحاق: ثم قال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً. فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾. ثم قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي بصدق الخبر ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى. وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾ أي لم يشركوا بي كما أشركتم بي ما ليس لكم به علم. قال ابن هشام: والشَّطَطُ الغُلُوّ ومجاوزة الحق. قال أعشى [بني][٥] قيس بن ثعلبة:

أتنتهون ولا يَنْهَى ذَوِي شَطَطٍ كالطعن يذهبُ فيه الزَّيتُ والفُتُلُ

---

(١) يعني بالدبابة: الخمر. والخرطوم: الخمر وصفوتها.

(٢) مطلعها:

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم

(٣) النحز: الضرب والدفع. والجراشع: الغلاظ؛ الواحد جرشع. (٤) مطلعها:

يا دار سلمى يا اسلمى ثم اسلمى بسمسم أو عن يمين سمسم

(٥) من جـ.

وهذا البيت في قصيدة[١] له. قال ابن إسحاق: ﴿هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾. قال ابن إسحاق: أي بحجة بالغة. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً. وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً. وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾. قال ابن هشام تزاور تميل؛ وهو من الزَّوَر. وقال أبو الزحف الكُلَيْبيّ[٢] يصف بلداً:

جَذْب[٣] المُنَدَّى عن هَوانا أَزْوَرُ   يُنْضِي المطايا خِمْسُه العَشَنْزَرُ

وهذان[٤] البيتان في أرجوزة له. و ﴿تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ تجاوزهم وتتركهم عن شمالها. قال ذو الرمة:

إلى ظُعُنٍ يَقْرِضن أقواز مشرفٍ   شِمالا وعن أيمانهن الفوارِس[٥]

وهذا البيت في قصيدة[٦] له. والفَجْوة: السّعة، وجمعها الفِجاء. قال الشاعر:

ألبسْتَ قومك مَخْزاة ومنقصةً   حتى أُبِيحُوا وحَلُّوا فَجْوة الدار

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي في الحجة على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب ممن أمر هؤلاء بمسألتك عنهم في صدق نبوّتك بتحقيق الخبر عنهم. ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّه فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّا مُرْشِداً. وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ

---

(١) مطلعها:

ودّع هريرة إن الركب مرتحل   وهل تطيق وداعا أيها الرجل

(٢) في اللسان مادة «سمهدر» أنه أبو الزحف الكليني. واستدرك عليه مصحح اللسان بقوله: «قوله الكليني نسبة لكلين كأمير بلدة بالري». ومما يقوي أنه الكليبي (بالباء) ما ذكره ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء أنه أبو الزحف بن عطاء بن الخطفي بن عم جرير الشاعر. ومن البين أن جرير من بني كليب.

(٣) قبله:

ودون ليلى بلد سمهدر

وبلد سمهدر: بعيد مضلة واسع. والمندّى: حيث يرتع ساعة من النهار. والأزور: الطريق المعوج. وأنضى البعير: هزله بكثرة السير. والخمس (بكسر السين) من أظماء الإبل، أن ترعى ثلاثة أيام وترد اليوم الرابع. والعشنزر: الشديد.

(٤) يعني بالبيتين هنا شطري الرجز.

(٥) القوز (بالفتح): العالي من الرمل كأنه جبل. والفوارس: رمال بالدهناء.

(٦) مطلعها:

ألـم تسـأل اليـوم الرسـوم الـدوارس   بحزوي وهل تدري القفار البسابس

الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قال ابن هشام: الوصيد الباب. قال العبسي واسمه عبد بن وهب[١]:

بـأرضٍ فَـلاةٍ لا يُسَـدُّ وصِيـدهـا   عليّ ومعروفِي بها غير منكرِ

وهذا البيت في أبيات له. والوصيد أيضاً الفناء، وجمعه وصائد ووُصُد ووُصْدان. ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً ـ إلى قوله ـ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ أهل السلطان والملك منهم. ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً. سَيَقُولُونَ﴾ يعني أحبار اليهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم. ﴿ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي لا تكابرهم. ﴿إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ فإنهم لا علم لهم بهم. ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا. إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾ أي لا تقولنّ لشيء سألوك عنه كما قلت في هذا إني مخبركم غداً، واستثن مشيئة الله، واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لخبر ما سألتموني عنه رَشَداً، فإنك لا تدري ما أنا صانع في ذلك. ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ أي سيقولون ذلك. ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ أي لم يخف عليه شيء مما سألوك عنه.

قلت: هذا ما وقع في السيرة من خبر أصحاب الكهف ذكرناه على نَسَقه[٢]. ويأتي خبر ذي القرنين، ثم نعود إلى أوّل السورة فنقول:

قد تقدّم معنى الحمد لله. وزعم الأخفش والكسائيّ والفرّاء وأبو عبيد وجمهور المتأوّلين أن في أوّل هذه السورة تقديماً وتأخيراً، وأن المعنى: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قَيِّماً ولم يجعل له عوجاً. و « قَيِّماً » نصب على الحال. وقال قتادة: الكلام على سياقه من غير تقديم ولا تأخير، ومعناه: ولم يجعل له عوجاً ولكن جعلناه قَيِّماً. وقول الضحاك فيه حُسْن وأن

---

(١) في سيرة ابن هشام: «عبيد بن وهب».

(٢) راجع سيرة ابن هشام ص ١٩٢ طبع أوروبا ١/ ٣٢١ طبع مطبعة الحلبي.

المعنى: مستقيم[١]، أي مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فساد ولا تناقض. وقيل: «قيما» على الكتب السابقة يصدّقها. وقيل: «قَيِّماً» بالحجج أبداً. «عِوَجاً» مفعول به؛ والعِوَج (بكسر العين) في الدِّين والرأي والأمر والطريق. وبفتحها في الأجسام كالخشب والجدار؛ وقد تقدّم[٢]. وليس في القرآن عِوج، أي عيب، أي ليس متناقضاً مختلفاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافاً كَثِيراً﴾[٣] وقيل: أي لم يجعله مخلوقاً؛ كما روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾[٤] قال: غير مخلوق. وقال مقاتل: «عِوجاً» اختلافاً. قال الشاعر:

أدوم بـودِّي للصـديـق تكـرُّمـاً ... ولا خير فيمن كان في الودّ أعْوَجَا

﴿لِيُنْذِرَ بَأساً شَدِيداً﴾ أي لينذر محمد أو القرآن. وفيه إضمار، أي لينذر الكافرين عقاب الله. وهذا العذاب الشديد قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة. ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ أي من عنده. وقرأ أبو بكر عن عاصم «من لدنه» بإسكان الدال وإشمامها الضم وكسر النون، والهاء موصولة بياء. الباقون «لَدُنْهُ» بضم الدال وإسكان النون وضم الهاء. قال الجوهري: وفي «لَدُنْ» ثلاث لغات: لَدُن، ولَدَى، ولَدُ. وقال:

مِن لَدُ لِحْيَيْه إلى مُنْحُوره[٥]

المُنْحُور لغة في المَنْحَر.

قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم. ﴿أَجْرَاً حَسَناً﴾ وهي الجنة. ﴿مَاكِثِينَ﴾ دائمين. ﴿فِيهِ أَبَداً﴾ لا إلى غاية. وإن حملتَ التبشير على البيان لم يحتج إلى الباء في بـ «أن». والأجر الحسن: الثواب العظيم الذي يؤدي إلى الجنة.

---

(١) أي معنى قوله «قيما». (٢) راجع ٤/ ١٥٤. (٣) راجع ٥/ ٢٨٨.

(٤) راجع ١٥/ ٢٥٢. (٥) هذا عجز بيت لغيلان بن حريث. وصدره كما في اللسان:

يستوعب البوعين من جريره

والمنحور (بالحاء المهملة وضم الميم) لغة في النحر، وهو الصدر. وقد وردت هذه الكلمة في الأصول وصحاح الجوهري واللسان مادة «نخر، ولدن» بالخاء المعجمة، وهو الأنف. وقد استدرك عليه ابن بري فقال: وصواب إنشاده كما أنشده سيبويه «إلى منحوره» بالحاء. وصف الشاعر بعيراً أو فرساً بطول العنق، فجعله يستوعب من حبله الذي يوثق به مقدار باعين فيما بين لحييه ونحره: والبوع: الباع. والجرير: الحبل.

[٤] ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾.

[٥] ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ وهم اليهود، قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله وقريش قالت: الملائكة بنات الله. فالإنذار في أوّل السورة عام، وهذا خاص فيمن قال لله ولد. ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ «من» صلة، أي ما لهم بذلك القول علم؛ لأنهم مقلدة قالوه بغير دليل. ﴿وَلاَ لِآبَائِهِمْ﴾ أي أسلافهم. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ «كلمة» نصب على البيان؛ أي كبرت تلك الكلمة كلمة. وقرأ الحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق «كلمة» بالرفع؛ أي عظمت كلمة؛ يعني قولهم اتخذ الله ولداً. وعلى هذه القراءة فلا حاجة إلى إضمار. يقال: كبر الشيء إذا عظم. وكبر الرجل إذا أسنّ. ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ في موضع الصّفة. ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً﴾ أي ما يقولون إلا كذباً.

[٦] ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾ «باخع» أي مهلك وقاتل؛ وقد تقدّم. ﴿آثَارِهِمْ﴾ جمع أثر، ويقال: إثر. والمعنى: على أثر تولّيهم وإعراضهم عنك. ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي القرآن. ﴿أَسَفاً﴾ أي حزناً وغضباً على كفرهم؛ وانتصب على التفسير.

[٧] ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ «ما» و «زِينَةً» مفعولان. والزينة كل ما على وجه الأرض، فهو عموم؛ لأنه دال على بارئه. وقال ابن جُبير عن ابن عباس: أراد بالزينة الرجال؛ قاله مجاهد. وروى عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاء والأمراء. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ قال: العلماء زينة الأرض. وقالت فرقة: أراد النعم والملابس والثمار والخضرة والمياه، ونحو هذا مما فيه زينة، ولم يدخل فيه الجبال الصُّمّ وكل ما لا زينة فيه كالحيّات والعقارب. والقول بالعموم أوْلى، وأن كل ما على الأرض فيه زينة من جهة خلقه وصنعه وإحكامه. والآية بسط في التسلية؛ أي لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلها؛ فمنهم من يتدبر ويؤمن، ومنهم من يكفر، ثم يوم القيامة بين أيديهم فلا يعظُمنّ عليك كفرهم فإنا نجازيهم.

الثانية - معنى هذه الآية ينظر إلى قول النبيّ ﷺ: «إن الدنيا خضرة حُلوة والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون»(١). وقوله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من زهرة الدنيا» قال: وما زهرة الدنيا؟ قال: «بركات الأرض» خرجهما مسلم وغيره من حديث أبي سعيد الخدريّ. والمعنى: أن الدنيا مستطابة في ذوقها معجبة في منظرها كالثمر المُسْتَحْلَى المُعْجِب المرأى؛ فابتلى الله بها عباده لينظر أيّهم أحسن عملاً. أي من أزهد فيها وأترك لها؛ ولا سبيل للعباد إلى بغضة ما زيّنه الله إلا [أن] يعينه على ذلك. ولهذا كان عمر يقول فيما ذكر البخاري: اللّهمّ إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيّنته لنا، اللَّهُمَّ إني أسألك أن أنفقه في حقه. فدعا الله أن يعينه على إنفاقه في حقه. وهذا معنى قوله عليه السلام: «فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف(٢) نفس كان كالذي يأكل ولا يشبع» وهكذا هو المكثر من الدنيا لا يقنع بما يحصل له منها بل همّته جمعها؛ وذلك لعدم الفهم عن الله تعالى ورسوله؛ فإن الفتنة معها حاصلةٌ وعدم السلامة غالبة، وقد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وأقنعه

(١) الحديث كما في كشف الخفا: «الدنيا خضرة.... فناظر كيف...» رواه مسلم.

(٢) أي يتطلع إليه وطمع فيه.

الله بما آتاه. وقال ابن عطية: كان أبي رضي الله عنه يقول في قوله: «أحسن عملاً»: أحسن العمل أخذٌ بحق وإنفاق في حق مع الإيمان، وأداء الفرائض واجتناب المحارم والإكثارِ من المندوب إليه.

قلت: هذا قول حسن، وجيز في ألفاظه بليغ في معناه، وقد جمعه النبيّ ﷺ في لفظ واحد وهو قوله لسفيان بن عبد الله الثَّقَفِيّ لما قال: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ـ في رواية: غيرك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» خرّجه مسلم. وقال سفيان الثوريّ: «أَحْسَنُ عَمَلاً» أزهدهم فيها. وكذلك قال أبو عصام العسقلاني: «أحسن عملاً» أتركُ لها. وقد اختلفت عبارات العلماء في الزهد؛ فقال قوم: قصر الأمل وليس بأكل الخشن ولبس العباء؛ قاله سفيان الثَّوْرِيّ. قال علماؤنا: وصدق رضي الله عنه! فإن من قَصُر أملُه لم يتأنّق في المطعومات ولا يتفنّن في الملبوسات، وأخذ من الدنيا ما تيسر، واجتزأ منها بما يُبَلِّغ. وقال قوم: بُغْضُ المحمدة وحُبّ الثناء. وهو قول الأوزاعِيّ ومن ذهب إليه. وقال قوم: ترك الدنيا كلها هو الزهد؛ أحَبَّ تَرْكَها أم كَرِه. وهو قول فُضيل. وعن بشر بن الحارث قال: حُبُّ الدنيا حبُّ لقاء الناس، والزهدُ في الدنيا الزهد في لقاء الناس. وعن الفضيل أيضاً: علامة الزهد في الدنيا الزهد في الناس. وقال قوم: لا يكون الزاهد زاهداً حتى يكون ترك الدنيا أحب إليه من أخذها؛ قاله إبراهيم بن أدهم. وقال قوم: الزهد أن تزهد في الدنيا بقلبك؛ قاله ابن المبارك. وقالت فرقة: الزهد حبّ الموت. والقول الأوّل يعم هذه الأقوال بالمعنى فهو أولى.

[٨] ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾.

تقدّم(١) بيانه. وقال أبو سهل: تراباً لا نبات به؛ كأنه قُطع نباته. والجَرْز: القطع؛ ومنه سنة جُرُز(٢). قال الراجز:

قد جَرَفتهنّ السُّنُونُ الأَجْراز

(١) ص ٣٤٨ من هذا الجزء.

(٢) في جـ: وسيف جراز. وفي اللسان: سيف جراز بالضم قاطع.

والأرض الجُرُز التي لا نبات فيها ولا شيء من عمارة وغيرها؛ كأنه قطع وأزيل. يعني يوم القيامة، فإن الأرض تكون مستوية لا مستتر فيها. النحاس: والجرز في اللغة الأرض التي لا نبات بها. قال الكسائي: يقال جَرِزَت الأرض تَجْرَز، وجرزها القوم يَجْرُزونها إذا أكلوا كل ما جاء فيها من النبات والزرع فهي مجروزة وجُرُز[١].

[٩] ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾.

مذهب سيبويه أن «أم» إذا جاءت دون أن يتقدّمها ألف استفهام أنها بمعنى بل وألف الاستفهام، وهي المنقطعة. وقيل: «أم» عطف على معنى الاستفهام في «لعلك»، أو بمعنى ألف الاستفهام على الإنكار. قال الطبري: وهو تقرير للنبيّ ﷺ على حسابه أن أصحاب الكهف كانوا عجباً، بمعنى إنكار ذلك عليه؛ أي لا يعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشيع؛ هذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن إسحاق. والخطاب للنبيّ ﷺ، وذلك أن المشركين سألوه عن فِتْية فُقدوا، وعن ذي القرنين وعن الروح، وأبطأ الوَحْي على ما تقدّم. فلما نزل قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: أحسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً؟ أي ليسوا بعجب من آياتنا، بل في آياتنا ما هو أعجب من خبرهم. الكلبي: خَلْقُ السموات والأرض أعجب من خبرهم. الضحاك: ما أطلعتك عليه من الغيب أعجب. الجُنيد: شأنك في الإسراء أعجب. الماورديّ: معنى الكلام النفي؛ أي ما حسبت لولا إخبارنا. أبو سهل: استفهام تقرير؛ أي أحسبت ذلك فإنهم عجب. والكهف: النَّقْب المتّسع في الجبل؛ وما لم يتّسع فهو غار. وحكى النقاش عن أنس بن مالك أنه قال: الكهف الجبل؛ وهذا غير شهير في اللغة.

واختلف الناس في الرَّقِيم؛ فقال ابن عباس: كل شيء في القرآن أعلمه إلا أربعة: غِسْلين وحنَان والأوّاه والرقيم. وسئل مرة عن الرقيم فقال: زعم كعب أنها قرية خرجوا

---

(١) في الكلمة أربع لغات: جُرُز، جُرْز، جَرُز، جَرَز.

منها. وقال مجاهد: الرقيم وادٍ. وقال السدّي: الرقيم الصخرة التي كانت على الكهف. وقال ابن زيد: الرقيم كتاب غَمّ الله علينا أمره، ولم يشرح لنا قصته. وقالت فرقة: الرقيم كتاب في لوح من نُحاس. وقال ابن عباس: في لوح من رصاص كتب فيه القوم الكفارُ الذين فرّ الفتية منهم قصتهم وجعلوها تاريخاً لهم، ذكروا وقت فقدهم، وكم كانوا، وبين[1] من كانوا. وكذا قال الفراء، قال: الرقيم لوح من رصاص كتب فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم وممن هربوا. قال ابن عطية: ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوماً مؤرّخين للحوادث، وذلك من نُبْل المملكة؛ وهو أمر مفيد. وهذه الأقوال مأخوذة من الرقم؛ ومنه «كتاب مرقوم»[2]. ومنه الأرقم لتخطيطه. ومنه رَقْمة الوادي، أي مكان جري الماء وانعطافه. وما روي عن ابن عباس ليس بمتناقض؛ لأن القول الأوّل إنما سمعه من كعب، والقول الثاني يجوز أن يكون عرف الرقيم بعده. وروى عنه سعيد بن جُبير قال: ذكر ابن عباس أصحاب الكهف فقال: إن الفتية فقِدوا فطلبهم أهلوهم فلم يجدوهم فرفع ذلك إلى الملك فقال: ليكونن لهم نبأ، وأحضر لوحاً من الرصاص فكتب فيه أسماءهم وجعله في خزانته؛ فذلك اللوح هو الرقيم. وقيل: إن مؤمِنَيْن كانا في بيت الملك فكتبا شأن الفتية وأسماءهم وأنسابهم في لوح من رصاص ثم جعلاه في تابوت من نحاس وجعلاه في البنيان؛ فالله أعلم. وعن ابن عباس أيضاً: الرقيم كتاب مرقوم كان عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام. وقال النقاش عن قَتادة: الرقيم دراهمهم. وقال أنس بن مالك والشَّعْبيّ: الرقيم كلبهم. وقال عكرمة: الرقيم الدواة. وقيل: الرقيم اللوح من الذهب تحت الجدار الذي أقامه الخضر. وقيل: الرقيم أصحاب الغار الذي انطبق عليهم؛ فذكر كلٌّ واحد منهم أصلح عمله.

قلت: وفي هذا خبر معروف أخرجه الصحيحان[3]، وإليه نحا البخاري. وقال قوم: أخبر الله عن أصحاب الكهف، ولم يخبر عن أصحاب الرقيم بشيء. وقال الضحاك: الرقيم بلدة بالروم فيها غار فيه أحد وعشرون نفساً كأنهم نيام على هيئة أصحاب الكهف، فعلى هذا هم

---

(١) في جـ: وبنى من كانوا.

(٢) راجع ١٩/ ٢٥٤.

(٣) راجع صحيح مسلم ٨/ ٨٩ طبع الاستانة. وشرح القسطلاني على صحيح البخاري ٤/ ٢١٧، ٥/ ٥٠٩ و ٩/ ٥ طبع بولاق.

فِتْية آخرون جرى لهم ما جرى لأصحاب الكهف. والله أعلم. وقيل: الرقيم وادٍ دون فلسطين فيه الكهف؛ مأخوذ من رَقْمة الوادي وهي موضع الماء؛ يقال: عليك بالرَّقْمة ودع الضَّفّة؛ ذكره الغزنوي. قال ابن عطية: وبالشام على ما سمعت به من ناس كثير [كهف] فيه موتى، يزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ومعهم كلبٌ رِمّة. وبالأندلس في جهة غَرْناطة بقرب قرية تسمى لَوْشه كهف فيه موتى ومعهم كلبٌ رمّة، وأكثرهم قد تجرّد لحمه وبعضهم متماسك، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم أثارة[1]. ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف، دخلتُ إليهم ورأيتُهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجد، وقريب منهم بناء رُومي يسمى الرقيم، كأنه قصر مُخْلِق قد بقي بعض جدرانه، وهو في فلاة من الأرض خَربة، وبأعلى غرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينة دَقْيوس، وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها.

قلت: ما ذكر من رؤيته لهم بالأندلس فإنما هم غيرهم؛ لأن الله تعالى يقول في حق أصحاب الكهف: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾. وقد قال ابن عباس لمعاوية لما أراد رؤيتهم: قد منع الله من هو خير منك عن ذلك؛ وسيأتي في آخر القصة. وقال مجاهد في قوله: ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ قال: هم عَجَبٌ. كذا روى ابن جُريج عنه؛ يذهب إلى أنه ليس بإنكار على النبيّ ﷺ أن يكون عنده أنهم عَجَب. وروى ابن نجيح عنه قال: يقول ليس بأعجب آياتنا.

[١٠] ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ روي أنهم قوم من أبناء أشراف مدينة دقيوس الملك الكافر، [يقال فيه: دقليوس][2] ويقال فيه: دقنيوس. وروي أنهم كانوا

---

(١) الأثارة: البقية. (٢) من جـ.

مطوَّقين مسوّرين بالذهب ذوي[١] ذوائب، وهم من الروم واتبعوا دين عيسى. وقيل: كانوا قبل عيسى، والله أعلم. وقال ابن عباس: إن ملكاً من الملوك يقال له: دقيانوس ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لها: أُفَسُوس. وقيل: هي طَرَسوس وكان بعد زمن عيسى عليه السلام فأمر بعبادة الأصنام فدعا أهلها إلى عبادة الأصنام، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله سراً، فرفع خبرهم إلى الملك وخافوه فهربوا ليلاً، ومروا براع معه كلب فتبعهم فآووا إلى الكهف فتبعهم الملك إلى فم الغار، فوجد أثر دخولهم ولم يجد أثر خروجهم، فدخلوا فأعمى الله أبصارهم فلم يروا شيئاً؛ فقال الملك: سُدُّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً. وروى مجاهد عن ابن عباس أيضاً أن هؤلاء الفتية كانوا في دين ملك يعبد الأصنام ويذبح لها ويكفر بالله، وقد تابعه على ذلك أهل المدينة، فوقع للفتية علم من بعد الحواريين ـ حسبما ذكر النقاش، أو من مؤمني الأمم قبلهم ـ فآمنوا بالله ورأوا ببصائرهم قبيح فعل الناس، فأخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة الله؛ فرفع أمرهم إلى الملك، وقيل له: إنهم قد فارقوا دينك واستخفُّوا آلهتك وكفروا بها، فاستحضرهم الملك إلى مجلسه[٢] وأمرهم باتباع دينه والذبح لآلهته، وتوعدهم على فراق ذلك بالقتل؛ فقالوا له فيما روي: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ـ إلى قوله ـ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾. وروي أنهم قالوا نحو هذا الكلام وليس به، فقال لهم الملك: إنكم شبان أغمار لا عقول لكم، وأنا لا أعجل بكم بل أستأنِي فاذهبوا إلى منازلكم ودبروا رأيكم وارجعوا إلى أمري، وضرب لهم في ذلك أجلاً، ثم إنه سافر خلال الأجل فتشاور الفِتية في الهروب بأديانهم، فقال لهم أحدهم: إني أعرف كهفاً في جبل كذا، كان أبي يُدخل فيه غنمه فَلْنذهب فَلْنَختفِ فيه حتى يفتح الله لنا؛ فخرجوا فيما روي يلعبون بالصولجان والكرة، وهم يدحرجونها إلى نحو طريقهم لئلا يشعر الناس بهم. وروي أنهم كانوا مُثقفين فحضر عيد خرجوا إليه فركبوا في جملة الناس، ثم أخذوا باللعِب بالصَّوْلَجان والكُرَة حتى خَلَصوا بذلك. وروى وهب بن منبّه: أن أول أمرهم إنما كان حواريّ لعيسى ابن مريم جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولها، فأجّر نفسه من صاحب الحمام وكان يعمل فيه، فرأى صاحب الحمام في أعماله بركة عظيمة،

---

(١) في جـ هامش: حتى رؤوسهم.
(٢) في جـ: في مجلسه.

فألقى إليه بكل أمره، وعرف ذلك الرجلَ فتيانٌ من [أهل][١] المدينة فعرفهم الله تعالى فآمنوا به واتبعوه على دينه، واشتهرت خلطتهم به؛ فأتى يوماً إلى ذلك الحمام ولد الملك بامرأة أراد الخلوة[٢] بها فنهاه ذلك الحوارِيّ فانتهى، ثم جاء مرة أخرى فنهاه فشتمه، وأمضى عزمه في دخول الحمام مع البَغِيّ، فدخل فماتا فيه جميعاً؛ فاتُّهِم ذلك الحواريّ وأصحابه بقتلهما، ففروا جميعاً حتى دخلوا الكهف. وقيل في خروجهم غير هذا.

وأما الكلب فروي أنه كان كلبَ صيد لهم، وروي أنهم وجدوا في طريقهم راعياً له كلب فاتبعهم الراعي على رأيهم وذهب الكلب معهم؛ قاله ابن عباس. واسم الكلب حمران وقيل: قطمير.

وأما أسماء أهل الكهف فأعجمية، والسند في معرفتها واه. والذي ذكره الطبري هي هذه: مكسلمينا وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومحسيميلنينا ويمليخا، وهو الذي مضى بالوَرِق إلى المدينة عند بعثهم من رقدتهم، ومرطوس وكشوطوش وديموس ويطونس وبيرونس. قال مقاتل: وكان الكلب لمكسلمينا، وكان أسنَّهم وصاحبَ غنم.

الثانية ـ هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة. وقد خرج النبيّ ﷺ فارًّا بدينه، وكذلك أصحابه، وجلس في الغار حسبما تقدم[٣] في سورة «النحل». وقد نص الله تعالى على ذلك في «براءة» وقد تقدم[٤]. وهجروا أوطانهم وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين. فسُكْنَى الجبال ودخول الغِيران، والعزلة عن الخلق والانفراد بالخالق، وجواز الفرار من الظالم هي سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء. وقد فضّل رسول الله ﷺ العزلة، وفضّلها جماعة من العلماء ولا سيما عند ظهور الفتن وفساد الناس، وقد نص الله تعالى عليها في كتابه فقال: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾.

---

(١) من جـ.
(٢) في جـ: الدخول بها.
(٣) في جـ: ما قدمناه. راجع ص ١٥٩ من هذا الجزء.
(٤) راجع ٨/ ١٤٣ وما بعدها.

قال العلماء: الاعتزال عن الناس يكون مرّة في الجبال والشِّعاب، ومرة في السواحل والرِّباط ومرة في البيوت؛ وقد جاء في الخبر: «إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكُفّ لسانك» ولم يخصّ موضعاً من موضع. وقد جعلت طائفة من العلماء العزلَة اعتزالَ الشر وأهله بقلبك وعملك، إن كنت بين أظهرهم. وقال ابن المبارك في تفسير العزلة: أن تكون مع القوم فإذا خاضوا في ذكر الله فخض معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت. وروى البغوي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم». وروي عن النبي ﷺ قال: «نعم صوامع المؤمنين بيوتهم» من مراسيل الحسن وغيره. وقال عقبة بن عامر لرسول الله ﷺ: ما النجاة يا رسول الله؟ فقال: «يا عقبة أمسك عليك لسانك ولْيَسَعْكَ بيتُك وابْك على خطيئتك». وقال ﷺ: «يأتي على الناس زمان يكون خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شَعَفَ الجبال ومواقع القطر يفِرّ بدينه من الفتن». خرجه البخاري. وذكر علي بن سعد عن الحسن بن واقد قال قال رسول الله ﷺ: «إذا كانت سنة ثمانين ومائة فقد حلّت لأمتي العزبة والعزلة والترهّب في رؤوس الجبال». وذكر أيضاً علي بن سعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دِين دِينُه إلا مَن فَرّ بدينه من شاهق إلى شاهق أو حِجر[1] إلى حجر فإذا كان ذلك لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله فإذا كان ذلك حلّت العُزْبة». قالوا: يا رسول الله، كيف تَحِلّ العزبة وأنت تأمرنا بالتزويج؟ قال: «إذا كان ذلك كان فساد الرجل على يدي أبويه فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي زوجته فإن لم تكن له زوجة كان هلاكه على يدي ولده فإن لم يكن له ولد كان هلاكه على يدي القرابات والجيران». قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «يُعيِّرونه بضيق المعيشة ويكلفونه ما لا يطيق فعند ذلك يورد نفسه الموارد التي يهلك فيها».

(١) الحجر: الموضع. وكل ما حجرته من حائط فهو حِجر.

قلت: أحوال الناس في هذا الباب تختلف، فرُبّ رجلٍ تكون له قوّة على سكنى الكهوف والغِيران في الجبال، وهي أرفع الأحوال لأنها الحالة التي أختارها الله لنبيه ﷺ في بداية أمره، ونص عليها في كتابه مخبراً عن الفتية، فقال: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ ٱللَّهَ فَأْوُوا إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾[1]. ورُبّ رجل تكون العزلة له في بيته أخف عليه وأسهل؛ وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم. ورُبّ رجلٍ متوسّط بينهما فيكون له من القوّة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم، فهو معهم في الظاهر ومخالف لهم في الباطن. وذكر ابن المبارك حدّثنا وهيب بن الوَرْد قال: جاء رجل إلى وهب بن منبّه فقال: إن الناس وقعوا فيما فيه وقعوا! وقد حدّثت نفسي ألا أخالطهم. فقال: لا تفعل! إنه لا بدّ لك من الناس، ولا بدّ لهم منك، ولك إليهم حوائج، ولهم إليك حوائج، ولكن كن فيهم أصم سميعاً، أعمى بصيراً، سَكوتاً نَطُوقاً. وقد قيل: إن كل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معنى الجبال والشِّعاب؛ مثل الاعتكاف في المساجد، ولزوم السواحل للرّباط والذكر، ولزوم البيوت فراراً عن شرور الناس. وإنما جاءت الأحاديث بذكر الشِّعاب والجبال واتباع الغنم ـ والله أعلم ـ لأن ذلك هو الأغلب في المواضع التي يُعتزل فيها؛ فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معناه؛ كما ذكرنا، والله الموفق وبه العصمة. وروى عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَعْجَب[2] ربُّك من راعي غنم في رأس شَظِيّة[3] الجبل يؤذن بالصلاة ويصلي فيقول الله عز وجل انظروا إلى عبدي يؤذن ويقيم الصلاة يخاف مني قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة». خرجه النسائي.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ لما فروا ممن يطلبهم اشتغلوا بالدعاء ولجئوا إلى الله تعالى فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي مغفرة ورزقاً. ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ توفيقاً للرشاد. وقال ابن عباس: مخرجاً من الغار في سلامة. وقيل: صواباً. ومن هذا المعنى أنه عليه السلام كان إذا حزبه[4] أمر فزع إلى الصلاة.

---

(١) راجع ص ٣٦٧ من هذا الجزء. (٢) يعجب: كيسمع؛ أي يرضى منه ويثيبه.

(٣) الشظية (بفتح الشين وكسر الظاء): قطعة مرتفعة في رأس الجبل.

(٤) أي إذا نزل به مهم أو أصابه غم. وفي الأصول: «إذا أحزنه» والتصويب عن كتب الحديث.

[١١] ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾.

عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم. وهذه من فصيحات القرآن التي أقرّت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله. قال الزجاج: أي منعناهم عن أن يسمعوا؛ لأن النائم إذا سمع انتبه. وقال ابن عباس: ضربنا على آذانهم بالنوم؛ أي سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها. وقيل: المعنى. ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أي فاستجبنا دعائهم، وصرفنا عنهم شرّ قومهم، وأنمناهم. والمعنى كله متقارب. وقال قُطْرب: هذا كقول العرب ضرب الأمير على يد الرعيّة إذا منعهم الفساد، وضرب السيد على يد عبده المأذون له في التجارة إذا منعه من التصرف. قال الأسود بن يَعْفُر وكان ضريراً:

ومن الحوادث لا أَبا لك أنني ضُرِبتْ عليّ الأرضُ بالأسدادِ[1]

وأما تخصيص الآذان بالذكر فلأنها الجارحة التي منها عظم فساد النوم، وقلّما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه، ولا يُستحكم نوم إلا من تَعَطُّل السمع. ومن ذِكْر الأذن في النوم قوله ﷺ: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه» خرّجه الصحيح، أشار عليه السلام إلى رجل طويل النوم، لا يقوم الليل. و «عَدَداً» نعت للسنين؛ أي معدودة، والقصد به العبارة عن التكثير؛ لأن القليل لا يحتاج إلى عدد لأنه قد عُرِف. والعدّ المصدر، والعدد اسم المعدود كالنَّفَض والخَبَط. وقال أبو عبيدة: «عَدَداً» نصب على المصدر. ثم قال قوم: بيّن الله تعالى عدد تلك السنين من بعدُ فقال: ﴿وَلَبِثُوا في كَهْفِهِمْ ثَلَثمِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعاً﴾.

[١٢] ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي من بعد نومهم. ويقال لمن أُحْيِيَ أو أقيم من نومه: مبعوث؛ لأنه كان ممنوعاً من الانبعاث والتصرف.

(١) واحد الأسداد: سدّ، وهو ذهاب البصر، يقول: سدّت عليّ الطريق، أي عميت عليّ مذاهبي.

قوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى ﴾ « لِنَعْلَمَ » عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ومشاهدته؛ وهذا على نحو كلام العرب، أي لنعلم ذلك موجوداً، وإلا فقد كان الله تعالى علم أيّ الحزبين أحصى الأمد. وقرأ الزُّهْرِيّ «ليعلم» بالياء. والحزبان الفريقان. والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليلا. والحزب الثاني أهل المدينة الذين بُعث الفِتْية على عهدهم، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية . وهذا قول الجمهور من المفسرين . وقالت فرقة: هما حزبان من الكافرين ، اختلفا في مدّة أصحاب الكهف . وقيل : هما حزبان من المؤمنين. وقيل غير ذلك مما لا يرتبط بألفاظ الآية. و «أَحْصَى» فعل ماض. و «أَمَداً» نصب على المفعول به ؛ قاله أبو عليّ . وقال الفرّاء : نصب على التمييز . وقال الزجاج : نصب على الظرف، أي أيّ الحزبين أحصى للبثهم في الأمد، والأمد الغاية. وقال مجاهد: «أَمَدًا» معناه عدداً، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب. وقال الطبري: أَمَداً منصوب بـ «لبثوا». ابن عطية: وهذا غير مُتّجه، وأما من قال إنه نصب على التفسير فيلحقه من الاختلال أن أفعل لا يكون من فعل رباعي إلا في الشاذ، و «أَحْصَى» فعل رباعي. وقد يحتج له بأن يقال: إن أفعل في الرباعي قد كثر؛ كقولك: ما أعطاه للمال وآتاه للخير. وقال في صفة حوضه ﷺ: «ماؤه أبيض من اللبن». وقال عمر بن الخطاب: فهو لما سواها أضيع.

[١٣] ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ لما اقتضى قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى﴾ اختلافاً وقع في أمد الفتْية، عقب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم بالحق الذي وقع. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ أي شباب وأحداث حكم لهم بالفتوّة حين آمنوا بلا واسطة؛ كذلك قال أهل اللسان: رأس الفتوّة الإيمان. وقال الجُنيد: الفتوّة بذل النّدَى وكفُّ الأذى وترك الشكوى. وقيل: الفُتوّة اجتناب المحارم واستعجال المكارم. وقيل غير هذا. وهذا القول حسن جداً؛ لأنه يعمّ بالمعنى جميع ما قيل في الفتوّة.

قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدَى﴾ أي يسّرناهم للعمل الصالح؛ من الانقطاع إلى الله تعالى، ومباعدة الناس، والزهد في الدنيا. وهذه زيادة على الإيمان. وقال السُّدِّي: زادهم هُدًى بكلب الراعي حين طردوه ورجموه مخافةَ أن يَنْبَح عليهم ويُنَبِّه بهم؛ فرفع الكلب يديه إلى السماء كالداعي فأنطقه الله، فقال: يا قوم! لم تطردونني، لم ترجمونني! لم تضربونني! فوالله لقد عرفت الله قبل أن تعرفوه بأربعين سنة؛ فزادهم الله بذلك هدى.

[١٤] ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ عبارة عن شدّة عزمٍ وقُوّة صبرٍ، أعطاها الله لهم حتى قالوا بين يدي الكفار: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إذًا شَطَطاً﴾. ولما كان الفزع وخَوَر النفس يشبِه بالتناسب الانحلال حَسُن في شدة النفس وقوة التصميم أن يُشْبِه الرّبط؛ ومنه يقال: فلان رابط الجأش، إذا كان لا تَفْرَق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها. ومنه الرّبط على قلب أمّ موسى. وقولُه تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ وتقدّم[١].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ يحتمل ثلاثة معان: أحدها ـ أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدي الملك الكافر ـ كما تقدّم، وهو مَقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه، ورفضوا في ذات الله هيبته. والمعنى الثاني فيما قيل: إنهم أولاد عظماء تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد؛ فقال أسنُّهم: إني أجد في نفسي أن ربّي ربُّ السموات والأرض؛ فقالوا: ونحن كذلك نجد في أنفسنا. فقاموا جميعاً فقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إلهاً لَقَدْ قُلْنَا إذًا شَطَطاً﴾.

---

(١) راجع ٧/ ٣٧١.

أي لئن دعَوْنا إلٰهاً غيره فقد قلنا إذا جَوْراً ومحالا. والمعنى الثالث ـ أن يُعَبَّر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة الناس؛ كما تقول: قام فلان إلى أمر كذا إذا عزم عليه بغاية الجدّ.

الثانية ـ قال ابن عطية: تعلقت الصوفية في القيام والقول بقوله: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

قلت: وهذا تعلّقٌ غير صحيح! هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروا لما أولاهم من نَعْمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم؛ وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء. أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام! وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان؛ هيهات! بينهما والله ما بين الأرض والسماء. ثم هذا حرام عند جماعة العلماء، على ما يأتي بيانه في سورة لقمان إن شاء الله تعالى[1]. وقد تقدّم في «سبحان» عند قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾[2] ما فيه كفاية. وقد قال الإمام أبو بكر الطَّرَسوسيّ وسئل عن مذهب الصوفية فقال: وأما الرقص والتواجد فأوّل من أحدثه أصحاب السّامِرِيّ؛ لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خُوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعُبّاد العجل، على ما يأتي.

[١٥] ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ أي قال بعضهم لبعض: هؤلاء قومنا، أي أهل عصرنا وبلدنا، عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة. ﴿لَوْلَا﴾ أي هلا. ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي بحجة على عبادتهم الصنم. وقيل: «عَلَيْهِمْ» راجع إلى الآلهة؛ أي هلا أقاموا بيّنة على الأصنام في كونها آلهة؛ فقولهم: «لَوْلَا» تحضيض بمعنى التعجيز، وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يلتفت إلى دعواهم.

---

(١) راجع ١٤/٦٩ فما بعد. (٢) راجع ص ٢٦٠ من هذا الجزء.

[١٦] ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ قيل: هو من قول الله لهم. أي وإذ اعتزلتموهم فأوُوا إلى الكهف. وقيل: هو من قول رئيسهم تمليخا؛ فيما ذكر ابن عطية. وقال الغَزْنَويّ: رئيسهم مكسلمينا، قال لهم ذلك؛ أي إذ اعتزلتموهم واعتزلتم ما يعبدون. ثم استثنى وقال ﴿إِلاَّ ٱللَّهَ﴾ أي إنكم لم تتركوا عبادته؛ فهو استثناء منقطع. قال ابن عطية: وهذا على تقدير إن الذين فرّ أهلُ الكهف منهم لا يعرفون الله، ولا علم لهم به؛ وإنما يعتقدون الأصنام في ألوهيتهم فقط. وإن فرضنا أنهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل لكنهم يشركون أصنامهم معه في العبادة فالاستثناء متصل؛ لأن الاعتزال وقع في كل ما يعبد الكفار إلا في جهة الله. وفي مصحف عبد الله بن مسعود ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾. قال قتادة هذا تفسيرها.

قلت: ويدلّ على هذا ما ذكره أبو نعيم الحافظ عن عطاء الخراسانيّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ ٱللَّهَ﴾ قال: كان فِتية من قوم يعبدون الله ويعبدون معه آلهة فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله.

ابن عطية: فعلى ما قال قتادة تكون «إلاّ» بمنزلة غير، و «ما» من قوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ ٱللَّهَ﴾ في موضع نصب، عطفاً على الضمير في قوله: ﴿ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾. ومُضَمَّن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض: إذا فارقْنا الكفار وانفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوى ونتكلْ على الله؛ فإنه سيبسط لنا رحمته، وينشرها علينا، ويهيّىء لنا من أمرنا مِرْفَقاً. وهذا كله دعاء بحسب الدنيا، وعلى ثقة كانوا من الله في أمر آخرتهم. وقال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه: كان أصحاب الكهف صياقلة[١]، واسم الكهف حيوم. ﴿مِرْفَقاً﴾ قرىء بكسر الميم وفتحها، وهو ما يرتفق به. وكذلك مِرْفَق الإنسان ومَرْفِقه؛ ومنهم من يجعل «المرفق» بفتح الميم [وكسر الفاء من الأمر، والمرفق من الإنسان، وقد قيل: المرفق بفتح الميم][٢] الموضع كالمسجد، وهما لغتان.

---

(١) صياقلة: شحّاذو السيوف. (٢) من جـ.

[١٧] ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ ﴾.

[١٨] ﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي ترى أيها المخاطَب الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم. والمعنى: إنك لو رأيتهم لرأيتهم كذا؛ لا أنّ المخاطب رآهم على التحقيق. و «تَزَاوَرُ» تتنحّى وتميل؛ من الازورار. والزَّوْر المَيل. والأزور في العين المائل النظر إلى ناحية، ويستعمل في غير العين؛ كما قال ٱبن أبي ربيعة:

وجَنْبِي خِيفةَ القوم أزْوَرُ(١)

ومن اللفظة قول عنترة:

فٱزورّ من وَقْع القَنَا بلبَانه(٢)

وفي حديث غَزْوة مُؤْتة أن رسول الله ﷺ رأى في سرير عبد الله بن رواحة ازورار عن سرير جعفر وزيد بن حارثة. وقرأ أهل الحَرَمَيْن وأبو عمرو «تزّاور» بإدغام التاء في الزاي، والأصل «تتزاور». وقرأ عاصم وحمزة والكسائي «تَزَاوَرُ» مخففة الزاي.

(١) والبيت بتمامه كما في ديوانه:

وخفض عني الصوت أقبلت مشية الـ ... ـحباب وشخص خشية الحي أزور

والحباب (بالضم): الحية. وقبل هذا البيت:

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت ... مصابيح شبت بالعشاء وأنؤر
وغاب قمير كنت أهوى غيوبه ... وروّح رعيان ونوّم سمر

(٢) وتمامه:

وشكا إليّ بعبرة وتحمحم

واللبان (بالفتح): الصدر. والتحمحم: صوت مقطع ليس بالصهيل.

وقرأ ابن عامر: «تَزْوَرُّ» مثل تحمر. وحكى الفراء: «تزوارّ» مثل تحمار؛ كلُّها بمعنًى واحد. ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ قرأ الجمهور بالتاء على معنى تتركهم؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: تدعهم. النحاس: وهذا معروف في اللغة، حكى البصريون أنه يقال: قرضه يقرضه إذا تركه؛ والمعنى: أنهم كانوا لا تصيبهم شمس ألبتة كرامة لهم؛ وهو قول ابن عباس. يعني أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين، أي يمين الكهف، وإذا غربت تمرّ بهم ذات الشمال، أي شمال الكهف، فلا تصيبهم في ابتداء النهار ولا في آخر النهار. وكان كهفهم مستقبل بنات نَعْش في أرض الروم، فكانت الشمس تميل عنهم طالعةً وغاربة وجارية لا تبلغهم لتؤذيهم بحرّها، وتغيّر ألوانهم وتُبْلِي ثيابهم. وقد قيل: إنه كان لكهفهم حاجب من جهة الجنوب، وحاجب من جهة الدَّبور وهم في زاويته. وذهب الزجاج إلى أن فعل الشمس كان آية من الله، دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك. وقرأت فرقة «يقرضهم» بالياء من القرض وهو القطع، أي يقطعهم الكهف بظلّه من ضوء الشمس. وقيل: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي يصيبهم يسير منها، مأخوذ من قُراضة الذهب والفضة، أي تعطيهم الشمس اليسير من شعاعها. وقالوا: كان في مَسِّها لهم بالعَشِيّ إصلاح لأجسادهم. وعلى الجملة فالآية في ذلك أن الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفته لا إلى كهف آخر يتأذَّوْن فيه بانبساط الشمس عليهم في معظم النهار. وعلى هذا فيمكن أن يكون صرف الشمس عنهم بإظلال غمام أو سبب آخر. والمقصود بيان حفظهم عن تطرّق البلاء وتغيّر الأبدان والألوان إليهم، والتأذّي بحر أو برد. ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي من الكهف. والفجوة المتّسع، وجمعها فجوات وفِجَاء؛ مثل رَكْوة ورِكاء ورَكَوات. وقال الشاعر:

ونحن ملأنا كل واد وفجوة رجالا وخيلا غير مِيل[1] ولا عزل

أي كانوا بحيث يصيبهم نسيم الهواء. ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ لطف بهم، وهذا يقوّي قول الزجاج. وقال أهل التفسير: كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون؛ فكذلك كان الرائي يحسبهم أيقاظاً. وقيل: ﴿تَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ لكثرة تقلّبهم كالمستيقظ في مضجعه. و (أيقاظا)

---

(١) ميل: جمع أميل وهو الجبان. وله معان.

جمع يقظ ويقظان، وهو المنتبه. ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ كقولهم: وهم ركوع وسجود وقعود؛ فوصف الجمع بالمصدر. ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قال ابن عباس: لئلا تأكل الأرض لحومهم. قال أبو هريرة: كان لهم في كل عام تقليبتان. وقيل: في كل سنة مرة. وقال مجاهد: في كل سبع سنين مرة. وقالت فرقة: إنما قُلبوا في التسع الأواخر، وأما في الثلثمائة فلا. وظاهر كلام المفسرين أن التقليب كان من فعل الله، ويجوز أن يكون من مَلَك بأمر الله، فيضاف إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ﴾ قال عمرو بن دينار: إن مما أخذ على العقرب ألا تضر[(١)] أحداً [قال][(٢)] في ليله أو في نهاره: صلى[(٣)] الله على نوح. وإن مما أخذ على الكلب ألا يضر من حَمَل عليه [إذا قال][(٢)]: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾.

أكثر المفسرين على أنه كلب حقيقةً، وكان لصيد أحدهم أو لزرعه أو غنمه؛ على ما قال مقاتل. واختُلف في لونه اختلافاً كثيراً، ذكره الثعلبيّ. تحصيله: أيَّ لون ذكرتَ أصبت؛ حتى قيل: لون الحجر. وقيل: لون السماء. واختلف أيضاً في اسمه، فعن عليّ: ريان. ابن عباس: قِطمِير. الأوزاعي: مشير[(٤)]. عبد الله بن سَلَام: بسيط. كعب: صهيا. وهب: نقيا. وقيل: قطفير[(٥)]؛ ذكره الثعلبي. وكان اقتناء الكلب جائزاً في وقتهم، كما هو عندنا اليوم جائز في شرعنا. وقال ابن عباس: هربوا ليلاً، وكانوا سبعة فمرّوا براع معه كلب فاتبعهم على دينهم. وقال كعب: مرّوا بكلب فنبح لهم فطردوه فعاد فطردوه مراراً، فقام الكلب على رجليه ورفع يديه إلى السماء كهيئة الداعي، فنطق فقال: لا تخافوا مني! أنا أحِبّ أحبّاء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم.

الثانية ـ ورد في الصحيح عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ قال: «من اقتنى كلباً إلا كلبَ صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان». وروي في الصحيح أيضاً عن

---

(١) في جـ: ألا تضرب.
(٢) زيادة من كتاب حياة الحيوان.
(٣) في حياة الحيوان: «سلام على نوح».
(٤) في جـ: تبر.
(٥) من جـ.

أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من اتخذ كلباً إلا كلبَ ماشية أو صيد أو زرع انتُقِص من أجره كل يوم قيراط». قال الزهري: وذُكر لابن عمر قول أبي هريرة فقال: يرحم الله أبا هريرة! كان صاحبَ زرع. فقد دلّت السنة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية. وجعل النقص في أجر من اقتناها على غير ذلك من المنفعة؛ إما لترويع الكلب المسلمين وتشويشه عليهم بنباحه، أو لمنع دخول الملائكة البيت، أو لنجاسته، على ما يراه الشافعي، أو لاقتحام النهي عن اتخاذ ما لا منفعة فيه؛ والله أعلم. وقال في إحدى الروايتين «قيراطان» وفي الأخرى «قيراط». وذلك يحتمل أن يكون في نوعين من الكلاب أحدهما أشدّ أذى من الآخر، كالأسود الذي أمر عليه السلام بقتله؛ ولم يدخله في الاستثناء حين نهى عن قتلها كما هو منصوص في حديث جابر؛ أخرجه الصحيح وقال: «عليكم بالأسود البَهيم ذي النقطتين فإنه شيطان». ويحتمل أن يكون ذلك لاختلاف المواضع، فيكون ممسكه بالمدينة مثلاً أو بمكة ينقص قيراطان وبغيرها قيراط. وأما المباح اتخاذه فلا ينقص؛ كالفرس والهِرّة. والله أعلم.

الثالثة ـ وكلب الماشية المباح اتخاذه عند مالك هو الذي يسرح معها، لا الذي يحفظها في الدار من السراق. وكلب الزرع هو الذي يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السرّاق. وقد أجاز غير مالك اتخاذها لسراق الماشية والزرع. وقد تقدّم في «المائدة»[1] من أحكام الكلاب ما فيه كفاية، والحمد لله.

الرابعة ـ قال ابن عطية: وحدّثني أبي رضي الله عنه قال سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على مِنبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة: إن مَن أحبّ أهل الخير نال من بركتهم؛ كلبٌ أحبّ أهل فضلٍ وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله.

قلت: إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين

---

(١) راجع ٦/ ٦٥.

المحبين للأولياء والصالحين! بل في هذا تسلية وأُنْس للمؤمنين المقصّرين عن درجات الكمال، المحبين للنبيّ ﷺ وآله خير آل. روى الصحيح عن أنس بن مالك قال: بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلقِينَا رجل عند سدّة المسجد فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «ما أعددتَ لها» قال: فكأنّ الرجل ٱستكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددت لها كثيرَ صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحِب الله ورسوله. قال: «فأنت مع من أحببت». في رواية قال أنس بن مالك: فما فرِحنا بعد الإسلام فرحاً أشدّ من قول النبيّ ﷺ: «فأنت مع من أحببت». قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم.

قلت: وهذا الذي تمسّك به أنس يشمل من المسلمين كلّ ذي نفس، فلذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين، كلبٌ أحبَّ قوماً فذكره الله معهم! فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام، وحُبّ النبيّ ﷺ، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[(١)].

وقالت فرقة: لم يكن كلباً حقيقة، وإنما كان أحدَهم، وكان قد قعد عند باب الغار طليعةً لهم؛ . . .[(٢)] كما سمي النجم التابع للجوزاء كلباً؛ لأنه منها كالكلب من الإنسان؛ ويقال له: كلب الجبّار[(٣)] قال ابن عطية: فَسُمِّي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع أمَا إنّ هذا القول يُضعّفه ذكر بسط الذراعين فإنها في العرف من صفة الكلب حقيقة؛ ومنه قول النبيّ ﷺ: « ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب ». وقد حكى أبو عمر المطرّز في كتاب اليواقيت

---

(١) راجع ص ٢٩٣ من هذا الجزء.

(٢) في بعض نسخ الأصل بعد قوله «طليعة لهم»: «قال ابن عطية: فسمي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضوع» ونراها غير لازمة. والذي في حياة الحيوان للدميري في اسم الكلب: «وقالت فرقة: كان أحدهم وكان قد قعد عند باب الغار طليعة لهم؛ فسمي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع من الناس كما سمي النجم التابع للجوزاء كلباً لأنه منها كالكلب من الإنسان، وهذا القول يضعفه...» الخ.

(٣) الجبار: اسم الجوزاء.

أنه قرىء «وكالبهم باسط ذراعيه بالوصيد». فيحتمل أن يريد بالكالب هذا الرجل على ما روي؛ إذ بسط الذراعين واللصوقُ بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هي هيئة الريبة المستخفي بنفسه. ويحتمل أن يريد بالكالب الكلب وقرأ جعفر بن محمد الصادق «وكالبهم» يعني صاحب الكلب.

قوله تعالى: ﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضيّ؛ لأنها حكاية حال لم يقصد الإخبار عن فعل الكلب. والذراع من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى. ثم قيل: بسط ذراعيه لطول المدّة. وقيل: نام الكلب، وكان ذلك من الآيات. وقيل: نام مفتوح العين. والوصِيد: الفِناء. قاله ابن عباس ومجاهد وابن جُبَير، أي فِناء الكهف، والجمع وصائد ووُصُد. وقيل: الباب. وقاله ابن عباس أيضاً. وأنشد:

بأرض فضاءٍ لا يُسَدّ وصِيدُها ... عليّ ومعروفي بها غير منكر

وقد تقدم. وقال عطاء: عتبة الباب، والباب الموصد هو المغلق. وقد أوصدت الباب وآصدته أي أغلقته. والوصيد النبات المتقارب الأصول، فهو مشترك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قرأ الجمهور بكسر الواو. والأعمش ويحيى بن وَثَّاب بضمها. ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً﴾ أي لو أشرفت عليهم لهربت منهم. ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ أي لما حفهم الله تعالى من الرُّعب واكتنفهم من الهيبة. وقيل: لوحشة مكانهم؛ وكأنهم آواهم الله إلى هذا المكان الوَحْش[١] في الظاهر لينفر الناس عنهم. وقيل: كان الناس محجوبين عنهم بالرعب، لا يَجْسُر أحد منهم على الدنوّ إليهم. وقيل: الفرار منهم لطول شعورهم وأظفارهم؛ وذكره المهدوِيّ والنحاس والزجاج والقشيري. وهذا بعيد؛ لأنهم لما استيقظوا قال بعضهم لبعض: لبثنا يوماً أو بعض يوم. ودلّ هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها؛ إلا أن يقال: إنما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم. قال[٢] ابن عطية: والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم

(١) مكان وحش: خال.
(٢) في جـ: قاله ابن عطية.

آيةً، فلم يُبْلَ لهم ثوب ولم تغيَّر صفة، ولم يُنكِر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهمّ. وقرأ نافع وابن كثير وابن عباس وأهل مكة والمدينة. «لَمُلِّئْتَ مِنْهُمْ» بتشديد اللام على تضعيف المبالغة؛ أي ملئت ثم ملئت. وقرأ الباقون «لملئت» بالتخفيف، والتخفيف أشهر في اللغة. وقد جاء التثقيل في قول المُخَبَّل السعديّ:

وإذ فَتَكَ النُّعمان بالناس مُحْرِماً فملِّىء من كعب بن عوف سلاسله

وقرأ الجمهور «رُعْباً» بإسكان العين. وقرأ بضمها أبو جعفر. قال أبو حاتم: هما لغتان. و «فِرَاراً» نصب على الحال و «رُعْباً» مفعول ثان أو تمييز.

[١٩] ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾.

[٢٠] ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ البعث: التحريك عن سكون. والمعنى: كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدًى وقلّبناهم بعثناهم أيضاً؛ أي أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئاتهم في ثيابهم وأحوالهم. قال الشاعر:

وفِتْيَانِ صِدْقٍ قد بعثْتُ بسُحْرَةٍ فقاموا جميعاً بين عاثٍ ونَشْوانِ(١)

أي أيقظت. واللام في قوله: «لِيَتَسَاءَلُوا» لام الصيرورة وهي لام العاقبة، كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فبعثُهم لم يكن لأجل تساؤلهم.

---

(١) البيت لامرىء القيس. والسحرة (بالضم): السحر. وقيل: أعلى السحر. وقيل: هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك أنهم دخلوه غُدْوةً وبعثهم الله في آخر النهار؛ فقال رئيسهم تَمليخا أو مكسلمينا: الله أعلم بالمدّة.

قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى ـ قال ابن عباس: كانت ورقهم كأخفاف الرُّبع[١]؛ ذكره النحاس، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائيّ وحفص عن عاصم «بورِقكم» بكسر الراء. وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم «بوَرْقكم» بسكون الراء، حذفوا الكسرة لثقلها، وهما لغتان. وقرأ الزجاج. «بوِرْقكم» بكسر الواو وسكون الراء. ويروى أنهم انتبهوا جياعاً، وأن المبعوث هو تمليخا، كان أصغرهم؛ فيما ذكر الغَزْنويّ. والمدينة: أَفْسُوس ويقال: هي طَرَسوس، وكان اسمها في الجاهلية أفسوس؛ فلما جاء الإسلام سموها طرسوس. وقال ابن عباس: كان معهم دراهم عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾ قال ابن عباس: أحلّ ذبيحةً؛ لأن أهل بلدهم كانوا يذبحون على اسم الصنم: وكان فيهم قوم يُخفون إيمانَهم. ابن عباس: كان عامّتهم مَجُوساً. وقيل: ﴿أَزْكَى طَعَامَاً﴾ أي أكثر بركة. قيل: إنهم أمروه أن يشتري ما يُظن أنه طعام اثنين أو ثلاثة لئلا يُطّلع عليهم، ثم إذا طُبخ كفى جماعة؛ ولهذا قيل: ذلك الطعام الأرز. وقيل: كان زبيباً. وقيل: تمراً؛ فالله أعلم. وقيل: «أزكى» أطيب. وقيل: أرخص. ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ أي بقُوت. ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي في دخول المدينة وشراء الطعام. ﴿وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾ أي لا يخبرنّ. وقيل: إن ظُهِر عليه فلا يوقعنّ إخوانه فيما وقع فيه. ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ قال الزجاج: معناه بالحجارة، وهو أخبث القتل. وقيل: يرموكم بالسَّبّ والشتم؛ والأوّل أصح، لأنه كان عازماً على قتلهم كما تقدّم في قَصصهم. والرجم فيما سلف هي كانت على ما ذكر قبله [عقوبة][٢] مخالفة دين الناس، إذ هي أشْفَى لجملة أهل ذلك الدِّين من حيث إنهم يشتركون فيها.

---

(١) الربع (كمضر): الفصيل ينتج في الربيع.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

الثالثة ـ في هذه البِعْثة بالوَرِق دليل على الوكالة وصحتها. وقد وكل علي بن أبي طالب أخاه عَقيلا عند عثمان رضي الله عنهما؛ ولا خلاف فيها في الجملة. والوكالة معروفة في الجاهلية والإسلام؛ ألا ترى إلى عبد الرحمن بن عَوف كيف وكّل أميّة بن خلف بأهله وحاشيته بمكة؛ أي يحفظهم، وأمية مشرك، والتزم عبد الرحمن لأمية مَن حَفِظ حاشيته بالمدينة مثل ذلك مجازاةً لصنعه. روى البخاريّ عن عبد الرحمن بن عوف قال: كاتبت أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صاغِيتي بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة؛ فلما ذكرت الرحمن؛ قال: لا أعرف الرحمن! كاتِبْني بأسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته عبد عمرو. . . وذكر الحديث. قال الأصمعي: صاغية الرجل الذين يميلون إليه ويأتونه؛ وهو مأخوذ من صغا يَصْغُو ويَصْغَى إذا مال، وكلّ مائل إلى الشيء أو معه فقد صغا إليه وأصغى؛ من كتاب الأفعال.

الرابعة ـ الوكالة عقدُ نيابةٍ، أذِن الله سبحانه فيه للحاجة إليه وقيام المصلحة في ذلك، إذ ليس كل أحد يقدر على تناول أموره إلا بمعونة من غيره أو بترفّه فيستنيب من يُريحه.

وقد استدل علماؤنا على صحتها بآيات من الكتاب، منها هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾[(١)] وقوله: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾[(٢)]. وأما من السنة فأحاديث كثيرة؛ منها حديث عروة البارِقِيّ، وقد تقدّم في آخر الأنعام[(٣)]. روى جابر بن عبد الله قال: أردت الخروج إلى خَيْبَر فأتيت رسول الله ﷺ فقلت له: إني أردت الخروج إلى خيبر؛ فقال: «إذا أتيتَ وكيلي فخذ منه خمسة عشر وَسْقاً فإن ٱبتغى منك آيةً فضع يدك على تَرْقُوَته»[(٤)] خرجه أبو داود. والأحاديث كثيرة في المعنى، وفي إجماع الأمة على جوازها كفاية.

الخامسة ـ الوكالة جائزة في كل حق تجوز النيابة فيه، فلو وكّل الغاصبُ لم يجز، وكان هو الوكيل؛ لأن كل محرَّم فعله لا تجوز النيابة فيه.

السادسة ـ في هذه الآية نُكْتة بديعة، وهي أن الوكالة إنما كانت مع التَّقِيّة خوف أن يشعر بهم أحدٌ لما كانوا عليه من خوف على أنفسهم. وجواز توكيل ذوي العذر متّفَق

---

(١) راجع ٨/ ١٧٧. (٢) راجع ٩/ ٢٥٨.
(٣) راجع ٧/ ١٥٦. (٤) الترقوة: العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق.

عليه؛ فأما من لا عذر له فالجمهور على جوازها. وقال أبو حنيفة وسُحْنون: لا تجوز. قال ابن العربي: وكأن سُحْنون تلقّفه من أسَد بن الفُرات فحكم به أيام قضائه، ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت؛ إنصافاً منهم وإذلالاً لهم، وهو الحق؛ فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل.

قلت: هذا حسن؛ فأما أهل الدين والفضل فلهم أن يوكّلوا وإن كانوا حاضرين أصحّاء. والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما خرّجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال: كان لرجل على النبيّ ﷺ سِنّ من الإبل فجاء يتقاضاه فقال: «أعطوه» فطلبوا له سِنّه فلم يجدوا إلا سِنًّا فوقها؛ فقال: «أعطوه» فقال: أوْفَيْتَنِي أوفى الله لك. قال النبيّ ﷺ: «إن خيركم أحسنُكم قضاء». لفظ البخاري. فدلّ هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن؛ فإن النبيّ ﷺ أمر أصحابه أن يُعطوا عنه السنّ التي كانت عليه؛ وذلك توكيل منه لهم على ذلك، ولم يكن النبيّ ﷺ مريضاً ولا مسافراً. وهذا يردّ قول أبي حنيفة وسُحْنون في قولهما: أنه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه؛ وهذا الحديث خلاف قولهما.

السابعة ـ قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: تضمّنت هذه الآية جواز الشركة لأن الورِق كان لجميعهم. وتضمنت جواز الوكالة لأنهم بَعثوا من وكّلوه بالشراء. وتضمّنت جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم معاً، وإن كان بعضهم أكثرَ أكْلاً من الآخر؛ ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ حسبما تقدم بيانه في «البقرة»[1]. ولهذا قال أصحابنا في المسكين يُتصدّق عليه فيخلطه بطعام لغنيّ ثم يأكل معه: إن ذلك جائز. وقد قالوا في المضارِب يَخلط طعامه بطعام غيره ثم يأكل معه: إن ذلك جائز. وقد كان رسول الله ﷺ وكّل من اشترى له أضْحية. قال ابن العربي: ليس في الآية دليل على ذلك؛ لأنه يحتمل أن يكون كل واحد منهم قد أعطاه منفرداً فلا يكون فيه اشتراك. ولا مُعَوَّل في هذه المسألة

(١) راجع ٣/ ٦٢.

إلا على حديثين: أحدهما - أن ابن عمر مَرّ بقوم يأكلون تمراً فقال: نهى رسول الله ﷺ على الاقتران إلا أن يستأذن الرجل أخاه. الثاني - حديث أبي عبيدة في جيش الخَبَط[(١)]. وهذا دون الأول في الظهور؛ لأنه يحتمل أن يكون أبو عبيدة يعطيهم كفافاً من ذلك القوت ولا يجمعهم عليه.

قلت: ومما يدلّ على خلاف هذا من الكتاب قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾[(٢)] على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

[٢١] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أطلعنا عليهم وأظهرناهم. و «أعثر» تعدية عَثَر بالهمزة، وأصل العِثار في القدم. ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني الأمة المسلمة الذين بُعث أهل الكهف على عهدهم. وذلك أن دقيانوس مات ومضت قرون وَمَلَك أهل تلك الدار رجلٌ صالح، فاختلف أهل بلده في الحشر وبعث الأجساد من القبور، فشكّ في ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا: إنما تحشر الأرواح والجسد تأكله الأرض. وقال بعضهم: تبعث الروح والجسد جميعاً؛ فكبُر ذلك على الملك وبقي حيران لا يدري كيف يتبيّن أمره لهم، حتى لبس المُسُوح وقعد على الرَّماد وتضرّع إلى الله تعالى في حجة وبيان، فأعثر الله على أهل الكهف؛ فيقال: إنهم لما بعثوا أحدهم بوَرِقهم إلى المدينة ليأتيهم برزق منها ٱستُنكِر شخصه وٱستُنكرت دراهمه[(٣)] لبعد العهد، فحُمل إلى المَلك وكان صالحاً قد آمن وآمن من معه، فلما

(١) سموا جيش الخبط لأنهم خرجوا في سرية إلى أرض جهينة فأصابهم جوع فأكلوا الخبط، فسموا به وهو خبط ورق العضاة من الطلح ونحوه وهو إسقاط ورقه بالخبط.

(٢) راجع ١٢/٣١٧.

(٣) في جـ: ورقه.

نظر إليه قال: لعل هذا من الفتية الذي خرجوا على عهد دِقيانوس الملك، فقد كنت أدعو الله أن يُرِيَنيهم، وسأل الفتى فأخبره؛ فسُرّ الملك بذلك وقال: لعل الله قد بعث لكم آية، فلْنَسِرْ إلى الكهف معه، فركب مع أهل المدينة إليهم، فلما دنَوْا إلى الكهف قال تمليخا: أنا أدخل عليهم لئلا يَرْعَبوا فدخل عليهم فأعلمهم بالأمر وأن الأمة أمّةُ إسلام، فرُوِي أنهم سُرّوا بذلك وخرجوا إلى الملك وعظّموه وعظّمهم ثم رجعوا إلى كهفهم. وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدّثهم تمليخا ميتة الحق، على ما يأتي. ورجع من كان شكّ في بَعْث الأجساد إلى اليقين. فهذا معنى: ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي ليعلم الملك ورعيته أن القيامة حق والبعث حق. ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾. وإنما استدلوا بذلك الواحد على خبرهم وهابوا الدخول عليهم فقال الملك: ابنوا عليهم بنياناً؛ فقال الذين هم على دين الفتية: اتخذوا عليهم مسجداً. وروي أن طائفة كافرة قالت: نبني بيعة أو مضيفا[1]، فمانعهم المسلمون وقالوا لنتخذَنّ عليهم مسجدا. وروي أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيَّبين. وروي عن عبد الله بن عمر[2] أن الله تعالى أعمى على الناس حينئذ أثرهم وحجبهم عنهم، فلذلك دعا [الملك][3] إلى بناء البنيان ليكون مَعْلَماً لهم. وقيل: إن الملك أراد أن يدفنهم في صندوق من ذهب فأتاه آتٍ منهم في المنام فقال: أردت أن تجعلنا في صندوق من ذهب فلا تفعل؛ فإنا من التراب خُلقنا وإليه نعود، فدَعْنا.

وتنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة؛ فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها، إلى غير ذلك مما تضمّنته السنة من النهي عنه ممنوع لا يجوز؛ لما روى أبو داود والترمذيّ عن ابن عباس قال: لعن رسول الله ﷺ زوّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج. قال الترمذيّ: وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة حديث ابن عباس حديث حسن. وروى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وأمّ سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ أولئك إذا كان فيهم

---

(١) في جـ وحاشية الجمل عن القرطبي: مصنعا.

(٢) في جـ: «عن عبيد بن عمير».

(٣) من الجمل عن المصنف.

الرجل الصالح فمات بَنَوْا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصور أولئك شرارُ الخلق عند الله تعالى يوم القيامة». لفظ مسلم. قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد. وروى الأئمة عن أبي مَرْثَد الغَنَوِيّ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تصلّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها» لفظ مسلم. أي لا تتخذوها قبلة فتصلّوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى، فيؤدي إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام. فحذّر النبيّ ﷺ عن مثل ذلك، وسَدَّ الذرائعَ المؤدية إلى ذلك فقال: «اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد». وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بن عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طَفِق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتمّ[١] بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك[٢]: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا[٣]. وروى مسلم عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يُجَصّص القبر وأن يُقعد عليه وأن يُبنى عليه. وخرّجه أبو داود والترمذي أيضاً عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن تجصص القبور وأن يكتب عليها وأن يُبنى عليها وأن توطأ. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وروى الصحيح عن أبي الهَيّاج الأسدي قال قال لي عليّ بن أبي طالب: ألا[٤] أبعَثُك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «ألاّ تَدَع تمثالاً إلا طَمَسته ولا قبراً مُشْرِفاً إلا سوّيته - في رواية - ولا صورة إلا طمستها. وأخرجه أبو داود والترمذيّ. قال علماؤنا: ظاهره منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون لاطئة[٥]. وقد قال به بعض أهل العلم. وذهب الجمهور إلى أنّ هذا الارتفاع المأمور بإزالته هو ما زاد على التسنيم، ويبقى للقبر ما يعرف به ويحترم، وذلك صفة قبر نبينا محمد ﷺ وقبرِ صاحبيه رضي الله عنهما - على ما ذكر مالك في الموطأ - وقبر أبينا آدم ﷺ؛ على ما رواه الدَّارَقُطْنِيّ

---

(١) قوله: «إذا اغتم» أي تسخن بالخميصة وأخذ بنفسه من شدة الحر.

(٢) أي في حالة الطرح والكشف.

(٣) أي يحذر أمته أن يصنعوا بقبره مثل صنيع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم.

(٤) قوله «ألا» بتشديد اللام للتحضيض. وقيل: بفتحها للتنبيه.

(٥) لاطئة: لاصقة بالأرض.

من حديث ابن عباس. وأما تعلية البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعله تفخيماً وتعظيماً فذلك يهدم ويزال؛ فإن فيه استعمال زينة الدنيا في أوّل منازل الآخرة، وتشبُّهاً بمن كان يعظّم القبور ويعبدها. وباعتبار هذه المعاني وظاهر النهي ينبغي أن يقال: هو حرام. والتسنيم في القبر: ارتفاعه قدر شبر؛ مأخوذ من سنام البعير. ويُرَشّ عليه بالماء لئلا ينتثر بالريح. وقال الشافعيّ: لا بأس أن يطيّن القبر. وقال أبو حنيفة: لا يُجَصّص القبر ولا يطيّن ولا يرفع عليه بناء فيسقط. ولا بأس بوضع الأحجار لتكون علامة؛ لما رواه أبو بكر الأثرم قال: حدّثنا مُسدّد حدّثنا نوح بن دُرّاج عن أبان بن تغْلِب عن جعفر بن محمد قال: كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تزور قبر حمزة بن عبد المطلب كل جمعة وعلّمته بصخرة؛ ذكره أبو عمر.

وأما الجائزة ـ فالدفن في التابوت؛ وهو جائز لا سيما في الأرض الرّخْوة. وروي أن دانيال صلوات الله عليه كان في تابوت من حجر، وأن يوسف عليه السلام أوصى بأن يتخذ له تابوت من زجاج ويلقى في رَكِيّة[1] مخافة أن يُعبد، وبقي كذلك إلى زمان موسى صلوات الله عليهم أجمعين؛ فدلّته عليه عجوز فرفعه ووضعه في حظيرة إسحاق عليه السلام. وفي الصحيح عن سعد بن أبي وَقّاص أنه قال في مرضه الذي هلك فيه: اتخذوا لي لَحْداً وانصبوا عليّ اللّبِن نَصْباً؛ كما صنع برسول الله ﷺ. اللَّحْد: هو أن يشقّ في الأرض ثم يُحفر قبر آخر في جانب الشق من جانب القبلة إن كانت الأرض صُلْبة يُدخَل فيه الميت ويُسَدّ عليه باللّبن. وهو أفضل عندنا من الشق؛ لأنه الذي اختاره الله تعالى لرسوله ﷺ. وبه قال أبو حنيفة قال: السنة اللّحد. وقال الشافعي: الشق. ويكره الآجُرّ في اللحد. وقال الشافعي: لا بأس به لأنه نوع من الحجر. وكرهه أبو حنيفة وأصحابه؛ لأن الآجُر لإحكام البناء، والقبر وما فيه للبِلَى فلا يليق به الإحكام وعلى هذا يسوّى بين الحجر والآجُر وقيل: إن الآجر أثر النار فيكره تفاؤلا؛ فعلى هذا يفرق بين الحجر والآجر. قالوا: ويستحب اللَّبِن والقَصَب لما روي أنه وضع على قبر النبي ﷺ حُزْمة من قصب. وحكي عن الشيخ الإمام

(١) الركية: البئر.

أبي بكر محمد بن الفضل الحنفيّ رحمه الله أنه جوّز اتخاذ التابوت في بلادهم لرخاوة الأرض. وقال: لو اتُّخذ تابوت من حديد فلا بأس به؛ لكن ينبغي أن يفرش فيه التراب وتطيّن الطبقة العليا مما يلي الميت، ويُجعل اللّبن الخفيف على يمين الميت ويساره ليصير بمنزلة اللحد.

قلت: ومن هذا المعنى جَعْل القطيفة في قبر النبي ﷺ؛ فإن المدينة سَبِخة[١]، قال شُقْران: أنا والله طرحت القطيفة تحت رسول الله ﷺ في القبر. قال أبو عيسى الترمذي: حديث شقران حديث حسن [صحيح][٢] غريب.

[٢٢] ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الضمير في «سَيَقُولُونَ» يراد به أهل التوراة ومعاصري محمد ﷺ. وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص. وقيل: المراد به النصارى؛ فإن قوماً منهم حضروا النبي ﷺ من نَجْران فجرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليَعْقُوبيّة: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. وقالت النَّسْطورية: كانوا خمسة سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعة ثامنهم كلبهم. وقيل: هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبي ﷺ عن أصحاب الكهف. الواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ طريق النحويين أنها واو عطف دخلت في آخر إخبارٍ عن عددهم؛ لتفصّل أمرهم، وتدلّ على أن هذا غاية[٣] ما قيل، ولو سقطت لصح الكلام. وقالت فرقة منها ابن خَالَوَيْه: هي واو الثمانية. وحكى الثعلبي عن أبي بكر بن عَيّاش أن قريشاً كانت تقول في عددها ستة سبعة وثمانية؛ فتدخل الواو في الثمانية. وحكى نحوه القَفّال، فقال:

---

(١) أرض سبخة: ذات ملح ونز.
(٢) من جـ.
(٣) في جـ: نهاية.

إن قوماً قالوا العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة، فإذا احتيج إلى الزيادة عليها استؤنف خبر آخر بإدخال الواو، كقوله: ﴿التَّائِبُونَ العابِدُونَ ـ ثم قال ـ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ﴾(١). يدلّ عليه أنه لما ذكر أبواب جهنم ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾(٢) بلا واو، ولما ذكر الجنة قال: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بالواو. وقال: ﴿خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ﴾(٣) ثم قال: ﴿وَأَبْكَاراً﴾ فالسبعة نهاية العدد عندهم كالعشرة الآن عندنا. قال القُشيري أبو نصر: ومثل هذا الكلام تحكُّم، ومن أين السبعة نهاية عندهم! ثم هو منقوض بقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾(٤) ولم يذكر الاسم الثامن بالواو. وقال قوم ممن صار إلى أن عددهم سبعة: إنما ذكر الواو في قوله: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ﴾ لينبّه على أن هذا العدد هو الحق، وأنه مباين للأعداد الأُخَر التي قال فيها أهل الكتاب؛ ولهذا قال تعالى في الجملتين المتقدّمتين: ﴿رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾ ولم يذكره في الجملة الثالثة ولم يقدح فيها بشيء؛ فكأنه قال لنبيّه هم سبعة وثامنهم كلبهم. والرجم: القول بالظن؛ يقال لكل ما يُخرص: رَجَم فيه ومرجوم ومُرَجَّم؛ كما قال:

وما الحرب إلا ما علمتم وذُقْتُمُ ... وما هو عنها بالحديث المُرَجَّم(٥)

قلت: وقد ذكر الماوردي والغَزْنَويّ: وقال ابن جريج ومحمد بن إسحاق كانوا ثمانية، وجعلا قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي صاحب كلبهم. وهذا مما يقوّي طريق النحويين في الواو، وأنها كما قالوا. وقال القُشَيريّ: لم يذكر الواو في قوله: رابعهم سادسهم، ولو كان بالعكس لكان جائزاً، فطلبُ الحكمة والعلّة في مثل هذه الواو تكلّفٌ بعيد، وهو كقوله في موضع آخر: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾(٦). وفي موضع آخر: ﴿إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ. ذِكْرَى﴾(٧).

قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ أمر الله تعالى نبيه عليه السلام في هذه الآية أن يردّ علم عدّتهم إليه عز وجل. ثم أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل. والمراد به قوم من

---

(١) راجع ٨/٢٦٩. (٢) راجع ١٥/٢٨٤. (٣) راجع ١٨/١٩٣.
(٤) راجع ١٨/٤٥. (٥) البيت من معلقة زهير. (٦) راجع ص ٣ من هذا الجزء.
(٧) راجع ١٣/١٤٠.

أهل الكتاب؛ في قول عطاء. وكان ابن عباس يقول: أنا من ذلك القليل، كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، ثمّ ذكر السبعة بأسمائهم، والكلب اسمه قطمير كلب أنمر، فوق القَلَطِيّ[١] ودون الكرديّ. وقال محمد بن سعيد بن المُسَيِّب: هو كلب صيني. والصحيح أنه زُبيري. وقال: ما بقي بنيسابور محدّث إلا كتب عني هذا الحديث إلا من لم يقدر له. قال: وكتبه أبو عمرو الحِيريّ عني.

قوله تعالى: ﴿فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً﴾ أي لا تجادل في أصحاب الكهف إلا بما أوحيناه إليك؛ وهو ردّ علم عدتهم إلى الله تعالى. وقيل: معنى المراء الظاهر أن تقول: ليس كما تقولون، ونحو هذا، ولا تحتج على أمر مقدّر في ذلك. وفي هذا دليل على أن الله تعالى لم يبيّن لأحد عددهم فلهذا قال: ﴿إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً﴾ أي ذاهباً؛ كما قال:

وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها[٢]

ولم يبح له في هذه الآية أن يماري؛ ولكن قوله: ﴿إِلاَّ مِرَاءً﴾ استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب. سميت مراجعته لهم مِراء ثم قيد بأنه ظاهر؛ ففارق المراء الحقيقي المذموم. والضمير في قوله: «فِيهِم» عائد على أهل الكهف. وفي قوله: «مِنْهُمْ» عائد على أهل الكتاب المعارضين. وقوله: ﴿فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ﴾ يعني في عدتهم؛ وحذفت العدّة لدلالة ظاهر القول عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ روي أنه عليه السلام سأل نصارى نجران عنهم فنُهِيَ عن السؤال. وفي هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم.

[٢٣] ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) القلطي (كعربي): القصير من الناس والسنانير والكلاب. قال الدميري: «والقلطي: كلب صيني».

(٢) هذا عجز بيت لأبي ذؤيب. وصدره:

وعيَّرها الواشون أني أحبها

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً. إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ قال العلماء: عاتب الله تعالى نبيّه عليه السلام على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفِتية وذي القرنين: غداً أخبركم بجواب أسئلتكم؛ ولم يستثن في ذلك. فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً حتى شقّ ذلك عليه وأرْجَف الكفارُ به، فنزلت عليه هذه السورة مفرّجة. وأمِر في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور إني أفعل غداً كذا وكذا، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل حتى لا يكون محقّقاً لحكم الخبر؛ فإنه إذا قال: لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذباً، وإذا قال لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محقّقاً للمخبر عنه. واللام في قوله: «لِشَيْءٍ» بِمنزلة في، أو كأنه قال لأجل شيء.

الثانية ـ قال ابن عطية: وتكلّم الناس في هذه الآية في الاستثناء في اليمين، والآية ليست في الأيمان وإنما هي في سُنّة الاستثناء في غير اليمين. وقوله: ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ في الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويحسّنه الإيجاز؛ تقديره: إلا أن تقول إلا أن يشاء الله؛ أو إلا أن تقول إن شاء الله. فالمعنى: إلا أن تذكر مشيئة الله؛ فليس ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ من القول الذي نُهِي عنه.

قلت: ما اختاره ابن عطية وارتضاه هو قول الكسائيّ والفَرّاء والأخفش. قال البصريون: المعنى إلا بمشيئة الله. فإذا قال الإنسان أنا أفعل هذا إن شاء الله فمعناه بمشيئة الله. قال ابن عطية: وقالت فرقة: ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء من قوله: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ﴾. قال: وهذا قول حكاه الطبري ورُدّ عليه، وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألاّ يُحكَى. وقد تقدّم القول في الاستثناء في اليمين وحكمه في «المائدة»[1].

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فيه مسألة واحدة، وهو الأمر بالذكر بعد النسيان ـ واختلف في الذكر المأمور به؛ فقيل: هو قوله: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾. قال محمد الكوفي المفسر: إنها بألفاظها مما أمِر أن يقولها كل

(١) راجع ٦/ ٢٦٤.

من لم يستثن، وإنها كفارة لنسيان الاستثناء. وقال الجمهور: هو دعاء مأمور به دون هذا التخصيص. وقيل: هو قوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ الذي كان نَسِيَه عند يمينه. حُكِيَ عن ابن عباس أنه إن نسي الاستثناء ثم ذَكَر ولو بعد سنة لم يحنث إن كان حالفاً. وهو قول مجاهد. وحكى إسماعيل بن إسحاق ذلك عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قال: يستثني إذا ذكره. الحسن: ما دام في مجلس الذكر. ابن عباس: سنتين؛ ذكره الغزنويّ قال: فيحمل على تدارك التبرُّك بالاستثناء للتخلّص عن الإثم. فأما الاستثناء المفيد[١] حكما فلا يصح إلا متّصلا. السُّدِّي: أي كل صلاة نسيها إذا ذكرها[٢]. وقيل: استثن بأسمه لئلا تنسى. وقيل: أذكره متى ما نسيته. وقيل: إذا نسيت شيئاً فاذكره يُذَكِّرْكَه. وقيل: أذكره إذا نسيت غيره أو نسيت نفسك؛ فذلك حقيقة الذكر. وهذه الآية مخاطبة للنبيّ ﷺ، وهي استفتاح كلام على الأصح، وليست من الاستثناء في اليمين بشيء، وهي بعدُ تعمّ جميع أمته؛ لأنه حكم يتردّد في الناس لكثرة وقوعه. والله الموفق.

[٢٥] ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾.

هذا خبر من الله تعالى عن مدّة لبثهم. وفي قراءة ابن مسعود «وقالوا لبثوا». قال الطبري: إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدّة بعد الإعثار عليهم إلى مدّة النبيّ ﷺ، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين، فأخبر الله تعالى نبيه أن هذه المدّة في كونهم نياماً، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر. فأمر الله تعالى أن يردّ علم ذلك إليه. قال ابن عطية: فقوله على هذا «لَبِثُوا» الأوّل يريد في نوم الكهف، و «لَبِثُوا» الثاني يريد بعد الإعثار[٣] إلى مدة محمد ﷺ، أو إلى وقت عدمهم بالبَلاء. مجاهد: إلى وقت نزول القرآن. الضحاك: إلى أن ماتوا. وقال بعضهم: إنه لما قال: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ لم يدر الناس أهي ساعات أم أيام أم جُمَع أم شهور أم أعوام. واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمر الله تعالى برد العلم إليه في التسع، فهي على هذا مبهمة. وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنها أعوام، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعد عيسى

(١) في ي وهـ جـ: المغير.
(٢) في ي: أي صل صلاة نسيتها إذا ذكرتها.
(٣) في جـ: بعد الانتشار.

بيسير وقد بقيت من الحواريين بقية. وقيل: غير هذا على ما يأتي. قال القشَيْريّ: لا يفهم من التسع تسع ليال وتسع ساعات لسبق[1] ذكر السنين؛ كما تقول: عندي مائة درهم وخمسة والمفهوم منه خمس دراهم. وقال أبو علي: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ أي ازدادوا لبث تسع؛ فحذف. وقال الضحاك: لما نزلت: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَمِائَةٍ﴾ قالوا سنين أم شهور أم جمع أم أيام؛ فأنزل الله عز وجل: «سِنِينَ». وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية بحساب الأيام[2]؛ فلما كان الإخبار هنا للنبيّ العربي ذكرت التسع؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية، وهذه الزيادة هي ما بين الحسابين. ونحوه ذكر الغزنوي. أي باختلاف سنِي الشمس والقمر؛ لأنه يتفاوت في كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة سنة فيكون في ثلثمائة تسع سنين. وقرأ الجمهور «ثَلَٰثَمِائَةٍ سِنِينَ» بتنوين مائة ونصب سنين، على التقديم والتأخير؛ أي سنين ثلثمائة فقدم الصفة على الموصوف، فتكون «سنين» على هذا بدلاً أو عطف بيان. وقيل: على التفسير والتمييز. و «سِنِينَ» في موضع سنة. وقرأ حمزة والكسائي بإضافة مائة إلى سنين، وترك التنوين؛ كأنهم جعلوا سنين بمنزلة سنة إذ المعنى بهما واحد. قال أبو عليّ: هذه الأعداد التي تضاف في المشهور إلى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى الجموع. وفي مصحف عبد الله «ثلثمائة سنة». وقرأ الضحاك «ثلثمائة سنون» بالواو. وقرأ أبو عمرو بخلاف «تَسْعاً» بفتح التاء. وقرأ الجمهور بكسرها. وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة: التقدير ولبثوا في كهفهم سنين ثلثمائة.

[٢٦] ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ قيل: بعد موتهم إلى نزول القرآن فيهم، على قول مجاهد. أو إلى أن ماتوا؛ على قول الضحاك. أو إلى وقت تغيّرهم بالبِلى؛ على ما تقدم. وقيل: بما لبثوا في الكهف، وهي المدة التي ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادة ونقصاناً. أي لا يعلم علم ذلك إلا الله أو من علمه ذلك. ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

---

(١) في جـ وي: لنسق.
(٢) في ج وي: الأمم. ولعل هذا أوجه لأن الأمم لا تستعمل إلا الشمسية.

قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي ما أبصره وأسمعه. قال قتادة: لا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وهذه عبارات عن الإدراك. ويحتمل أن يكون المعنى «أَبْصِرْ بِهِ» أي بوَحْيِه وإرشاده هداك وحججك والحقّ من الأمور، وأسمع به العالم؛ فيكونان أمرين لا على وجه التعجب. وقيل: المعنى أبصرهم وأسمعهم ما قال الله فيهم. ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي لم يكن لأصحاب الكهف وَلِيّ يتولّى حفظهم دون الله. ويحتمل أن يعود الضمير في «لهم» على معاصري محمد ﷺ من الكفار. والمعنى: ما لهؤلاء المختلفين في مدة لُبثهم وَلِيّ دون الله يتولّى تدبير أمرهم؛ فكيف يكونون أعلَم منه، أو كيف يتعلمون من غير إعلامه إياهم.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ قرىء بالياء ورفع الكاف، على معنى الخبر عن الله تعالى. وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رجاء وقتادة والجحدريّ «ولا تشرِكْ» بالتاء من فوق وإسكان الكاف على جهة النبيّ ﷺ، ويكون قوله: «ولا تشرك» عطفاً على قوله: «أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ». وقرأ مجاهد «يشرِكْ» بالياء من تحت والجزم. قال يعقوب: لا أعرف وجهه.

مسألة ـ اختُلف في أصحاب الكهف هل ماتوا وفَنُوا، أو هم نيام وأجسادهم محفوظة؛ فروي عن ابن عباس أنه مرّ بالشأم في بعض غزواته مع ناس على موضع الكهف وجبله، فمشى الناس معه إليه فوجدوا عظاماً فقالوا: هذه عظام أهل الكهف. فقال لهم ابن عباس: أولئك قوم فَنُوا وعُدِموا منذ مدّة طويلة؛ فسمعه راهِبٌ فقال: ما كنت أحسِب أن أحداً من العرب يعرف هذا؛ فقيل له: هذا ابن عمّ نبينا ﷺ. وروت فرقة أن النبي ﷺ قال: «ليحجّنّ عيسى ابن مريم ومعه أصحاب الكهف فإنهم لم يحجّوا بعدُ». ذكره ابن عطية.

قلت: ومكتوب في التوراة والإنجيل أن عيسى ابن مريم عبدُ اللّه ورسولُه، وأنه يمر بالرَّوْحاء حاجًّا أو مُعْتَمِراً أو يجمع الله له ذلك فيجعل الله حوارِيّه أصحاب الكهف والرَّقيم، فيمرّون حُجّاجاً فإنهم لم يحجّوا ولم يموتوا. وقد ذكرنا هذا الخبر بكماله في كتاب «التذكرة». فعلى هذا هم نيام ولم يموتوا إلى يوم القيامة، بل يموتون قبيل الساعة.

[٢٧] ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَا أوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ قيل: هو من تمام قصة أصحاب الكهف؛ أي اتبع القرآن فلا مبدّل لكلمات الله ولا خُلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف. وقال الطبري: لا مغيِّر لما أوعد بكلماته أهلَ معاصيه والمخالفين لكتابه. ﴿وَلَنْ تَجِدَ﴾ أنت ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ إن لم تتبع القرآن وخالفته. ﴿مُلْتَحَداً﴾ أي ملجأ. وقيل: موئلا. وأصله الميل؛ ومن لجأت إليه فقد مِلْت إليه. قال القشيريّ أبو نصر عبد الرحيم: وهذا آخر قصة أصحاب الكهف. ولما غزا معاوية غزوة المضيق نحو الروم وكان معه ابن عباس فٱنتهى إلى الكهف الذي فيه أصحاب الكهف؛ فقال معاوية: لو كُشف لنا عن هؤلاء فننظر إليهم؛ فقال ابن عباس: قد منع الله من هو خير منك عن ذلك، فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً﴾ فقال: لا أنتهي حتى أعلم علمهم، وبعث قوماً لذلك؛ فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأخرجتهم؛ ذكره الثعلبي أيضاً وذكر أن النبيّ ﷺ سأل الله أن يريَه إياهم، فقال: إنك لن تراهم في دار الدنيا ولكن ٱبعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان؛ فقال النبيّ ﷺ لجبريل عليه السلام: كيف أبعثهم؟ فقال: ابسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الطرف الآخر عمر وعلى الثالث عثمان وعلى الرابع عليّ بن أبي طالب، ثم ٱدع الريح الرُّخاء المسخَّرة لسليمان فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك؛ ففعل فحملتهم الريح إلى باب الكهف، فقلعوا منه حجراً فحمل الكلب عليهم فلما رآهم حرك رأسه وبَصْبَص بذَنَبه وأومأ إليهم برأسه أن ٱدخلوا فدخلوا الكهف فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ فردّ الله على الفِتية أرواحهم فقاموا بأجمعهم وقالوا: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته؛ فقالوا لهم: معشَر الفِتْية، إن النبيّ محمد بن عبد الله ﷺ يقرأ عليكم السلام؛ فقالوا: وعلى محمد رسول الله السلامُ ما دامت السموات والأرض، وعليكم بما أبلغتم، وقبلوا

دينه وأسلموا، ثم قالوا: أقرئوا محمداً رسول الله منا السلام، وأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدي. فيقال: إن المهدي يسلم عليهم فيحييهم الله ثم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون حتى تقوم الساعة، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بما كان منهم، ثم ردّتهم الريح فقال النبيّ ﷺ: «كيف وجدتموهم»؟ فأخبروه الخبر، فقال النبيّ ﷺ: «اللَّهُم لا تفرّق بيني وبين أصحابي وأصهاري وأغفر لمن أحبّني وأحبّ أهل بيتي وخاصّتي وأصحابي». وقيل: إن أصحاب الكهف دخلوا الكهف قبل المسيح؛ فأخبر الله تعالى المسيح بخبرهم ثم بُعثوا في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وقيل: كانوا قبل موسى عليه السلام وأن موسى ذكرهم في التوراة؛ ولهذا سألت اليهود رسول الله ﷺ. وقيل: دخلوا الكهف بعد المسيح: فالله أعلم أيّ ذلك كان.

[٢٨] ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ هذا مثلُ قوله: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ في سورة «الأنعام»[١] وقد مضى الكلام فيه. وقال سَلْمان الفارسي رضي الله عنه: جاءت المؤلَّفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ: عُيينة بن حِصن والأقرع بن حابِس فقالوا: يا رسول الله؛ إنك لو جلست في صدر المجلس ونحّيت عنا هؤلاء وأرواح جِبَابِهم ـ يعنون سلمان وأبا ذرّ وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها ـ جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً. وَٱصْبِرْ

(١) راجع ٦/ ٤٣٢.

نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ - حتى بلغ - إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾. يتهدّدهم بالنار. فقام النبيّ ﷺ يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله قال: «الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المَحْيا ومعكم الممات». ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي طاعته. وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغُدْوَةِ[١] وَالْعَشِيِّ﴾ وحجتهم أنها في السواد بالواو. وقال أبو جعفر النحاس: وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو، ولا تكاد العرب تقول الغدوة لأنها معروفة. روي عن الحسن «ولا تعدّ[٢] عينيك عنهم» أي لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم من أبناء الدنيا طلباً لزينتها؛ حكاه اليزيدي. وقيل: لا تحتقرهم عيناك؛ كما يقال فلان تَنْبُو عنه العين؛ أي مستحقَرا.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي تتزين بمجالسة هؤلاء الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسك؛ ولم يُرِد النبي ﷺ أن يفعل ذلك، ولكنّ الله نهاه عن أن يفعله، وليس هذا بأكثر من قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٣]. وإن كان الله أعاذه من الشرك. و «تريد» فعل مضارع في موضع الحال؛ أي لا تعد عيناك مريدا؛ كقول أمرىء القيس:

فقلتُ لـه لا تبـكِ عَيْنُـك إنمـا نحـاول مُلْكـا أو نمـوتَ فنُعْـذَرا

وزعم بعضهم أن حق الكلام: لا تعد عينيك عنهم؛ لأن «تعد» متعد بنفسه. قيل له: والذي وردت به التلاوة من رفع العينين يؤول إلى معنى النصب فيهما، إذ كان لا تعد عيناك عنهم بمنزلة لا تنصرف عيناك عنهم، ومعنى لا تنصرف عيناك عنهم لا تصرف عينيك عنهم؛ فالفعل مسند إلى العينين وهو في الحقيقة موجّه إلى النبي ﷺ؛ كما قال تعالى:

---

(١) كذا في الأصول أراد: قرأ هؤلاء هنا وفي الأنعام «الغدوة».

(٢) في كتاب روح المعاني: «وقرأ الحسن (ولا تعد عينيك) بضم التاء وسكون العين وكسر الدال المخففة، من أعداه، ونصب العينين. وعنه وعن عيسى والأعمش أنهم قرءوا (ولا تعد عينيك) بضم التاء وفتح العين وتشديد الدال المكسورة، من عداه يعديه، ونصب العينين أيضاً.

(٣) راجع ١٥/ ٢٧٦.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾[1] فأسند الإعجاب إلى الأموال، والمعنى: لا تعجبك يا محمد أموالهم. ويزيدك وضوحاً قول الزجاج: إن المعنى لا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوي الهيئات والزينة. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ روى جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ قال: نزلت في أميَّة بن خلف الجُمَحِيّ، وذلك أنه دعا النبي ﷺ إلى أمر كرهه من تجرّد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ يعني من ختمنا على قلبه عن التوحيد. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ يعني الشرك. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ قيل: هو من التفريط الذي هو التقصير وتقديم العجز بترك الإيمان. وقيل: من الإفراط ومجاوزة الحدّ، وكان القوم قالوا: نحن أشراف مضر إن أسلمنا أسلم الناس؛ وكان هذا من التكبر والإفراط في القول. وقيل: «فُرُطاً» أي قدما في الشر؛ من قولهم: فَرَط منه أمر أي سبق. وقيل: معنى ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ وجدناه غافلاً؛ كما تقول: لقيت فلاناً فأحمدته؛ أي وجدته محموداً. وقال عمرو بن معد يكرب لبني الحارث بن كعب: والله لقد سألناكم فما أبخلناكم، وقاتلناكم فما أجبناكم: وهاجيناكم فما أفحمناكم؛ أي ما وجدناكم بخلاء ولا جبناء ولا مُفْحَمين. وقيل: نزلت، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ في عُيينة بن حِصن الفَزَارِي؛ ذكره عبد الرزاق، وحكاه النحاس عن سفيان الثَّوْري. والله أعلم.

[٢٩] ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ «الحقُّ» رفع على خبر الابتداء المضمر؛ أي قل هو الحق. وقيل: هو رفع على الابتداء، وخبره في قوله:

---

(١) راجع ٨/ ١٦٤.

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾. ومعنى الآية: قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيها الناس! مِن ربكم الحق فإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهدى والضلال، يهدي من يشاء فيؤمن، ويضل من يشاء فيكفر؛ ليس إليّ من ذلك شيء، فالله يؤتي الحق من يشاء وإن كان ضعيفاً، ويحرمه من يشاء وإن كان قوياً غنياً، ولست بطارد المؤمنين لهواكم؛ فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا. وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر، وإنما هو وعيد وتهديد. أي إن كفرتم فقد أعدّ لكم النار، وإن آمنتم فلكم الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي أعددنا. ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ أي للكافرين الجاحدين. ﴿نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ قال الجوهري: السَّرادِق واحد السُّرادِقات التي تمدّ فوق صَحن الدار. وكل بيت من كُرْسُف(١) فهو سرداق. قال رؤبة(٢):

يا حَكَمُ بنَ المنذر بن الجارُوذْ　　　سُـرادِقُ المجـد عليـك مَمْـدُوذْ

يقال: بيت مُسَرْدَق. وقال سلامة بن جندل يذكر أبرويز(٣) وقتله النعمان بن المنذر تحت أرجل الفِيَلَة:

هو المُدْخِل النعمانَ بيتاً سماؤه　　　صُدورُ الفيولِ بعد بَيْتٍ مُسَرْدَقِ

وقال ابن الأعرابي: «سُرَادِقُهَا» سورها. وعن ابن عباس: حائط من نار. الكلبي: عنق تخرج من النار فتحيط بالكفار كالحظيرة. القُتَبِيّ: السرادق الحُجْزة التي تكون حول الفسطاط. وقاله ابن عُزَيز. وقيل: هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الذي ذكره الله تعالى في سورة «والمراسلات» حيث يقول: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾(٤) وقوله: ﴿وظِل مِن يحموم﴾(٥) قاله قتادة. وقيل: إنه البحر المحيط بالدنيا. وروى يعلى بن أمية قال قال رسول الله ﷺ: «البحر هو جهنم ـ ثم تلا ـ ﴿ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ ـ

---

(١) الكرسف: القطن.　　(٢) كذا في الأصل واللسان، واستدرك عليه صاحب اللسان بأنه للكذاب الحرمازي، وتابعه على هذا سيبويه والأعلم الشنتمري. مدح الراجز أحد بني المنذر بن الجارود العبدي، وحكم هذا أحد ولاة البصرة لهشام بن عبد الملك. وسمى جده الجارود لأنه أغار على قوم فاكتسح أموالهم: فشبه بالسيل الذي يجرد ما مر به.

(٣) بفتح الواو وكسرها، ملك من ملوك الفرس.　　(٤) راجع ١٩/ ١٦٠.

(٥) راجع ١٧/ ٢١٢.

ثم قال ـ والله لا أدخلها أبداً ما دمت حيًّا ولا يصيبني منها قطرة» ذكره الماوردِيّ. وخرج ٱبن المبارك من حديث أبي سعيد الخُدْريّ عن النبيّ ﷺ قال: «لسرادق النار أربع جُدُر كُثُف[١] كل جدار مسيرة أربعين سنة». وخرجه أبو عيسى الترمذي، وقال فيه: حديث حسن صحيح غريب.

قلت: وهذا يدل على أن السُّرادق ما يعلو الكفار من دخان أو نار، وجُدرُه ما وُصف.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ قال ٱبن عباس: المهل ماء غليظ مثل دُرْدِيّ[٢] الزيت. مجاهد: القَيْح والدّم. الضحاك: ماء أسود، وإن جهنم لسوداء، وماؤها أسود وشجرها أسود وأهلها سُود. وقال أبو عبيدة: هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس وقزدير، فتموج بالغليان، فذلك المهل. ونحوه عن ٱبن مسعود. قال سعيد بن جُبير: هو الذي قد ٱنتهى حَرّه. وقال: المهل ضرب من القَطِران؛ يقال: مَهلت البعير فهو ممهول. وقيل: هو السّم. والمعنى في هذه الأقوال متقارب. وفي الترمذي عن النبيّ ﷺ في قوله: «كَالْمُهْل» قال: «كعَكَر الزيت فإذا قرّبه إلى وجهه سقطت فَرْوة وجهه» قال أبو عيسى: هذا حديث إنما نعرفه من حديث رِشْدين بن سعد ورِشْدين قد تُكُلِّم فيه من قبل حفظه. وخرج عن أبي أمَامة عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ﴾[٣] قال: «يقرّب إلى فيه فيكرهه فإذا أدْنِي منه شوَى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره. يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[٤] يقول: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ قال: حديث غريب.

قلت: وهذا يدلّ على صحة تلك الأقوال، وأنها مرادة، والله أعلم. وكذلك نص عليها أهل اللغة. في الصحاح «المهل» النحاس المُذاب. ٱبن الأعرابي: المهل المذاب من

---

(١) الكثف: جمع كثيف، وهو الثخين الغليظ.
(٢) الدّردي (بالضم): ما يبقى في الأسفل.
(٣) راجع ٩/٣٥١. (٤) راجع ١٦/٢٣٦.

الرصاص. وقال أبو عمرو. المهل دُرديّ الزيت. والمهل أيضاً القيح والصديد. وفي حديث أبي بكر: أدفنوني في ثوبيّ هذين فإنهما للمهل والتراب. و ﴿مُرْتَفَقًا﴾ قال مجاهد: معناه مجتمعاً؛ كأنه ذهب إلى معنى المرافقة. أبن عباس: منزلا. عطاء: مقرا. وقيل: مهادا. وقال القتَبيّ: مجلسا. والمعنى متقارب؛ وأصله من المتّكأ؛ يقال منه: أرتفقت أي أتكأت على المرفق. قال الشاعر:

قـالـت لـه وأرتفقـتْ ألاَ فتـى يسوق بالقوم غَزالاتِ الضُّحا[١]

ويقال: ارتفق الرجل إذا نام على مِرفقه لا يأتيه نوم. قال أبو ذؤيب الهُذَلِيّ:

نام الخَليّ وبِتُّ الليل مُرْتَفِقا[٢] كأنّ عَيْنِي فيها الصّاب مَذْبُوحُ

الصاب: عصارة شجر مرّ.

[٣٠] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

لما ذكر ما أعدّ للكافرين من الهوان ذكر أيضاً ما للمؤمنين من الثواب. وفي الكلام إضمار؛ أي لا نضيع أجر من أحسن منهم عملا، فأما من أحسن عملاً من غير المؤمنين فعمله محبط. و «عَمَلًا» نصب على التمييز، وإن شئت بإيقاع «أحسن» عليه. وقيل:

---

(١) غزالة الضحا وغزالاته: بعدما تنبسط الشمس وتضحى. وقيل: هو أول الضحا إلى مدّ النهار الأكبر حتى يمضي من النهار نحو من خمسه.

(٢) رواية الديوان: «مشتجراً» والمشتجر: الذي قد شجر نفسه ووضع يده تحت شجره على حنكه أو على فمه. والشجر: ما بين اللحيين. ومذبوح: مشقوق.

﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ كلام معترض، والخبر قوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ و «جَنَّاتُ عَدْنٍ» سُرَّةُ الجنة، أي وسطها وسائر الجنات مُحْدقَة بها. وذكرت بلفظ الجمع لسعتها؛ لأن كل بقعة منها تصلح أن تكون جنة. وقيل: العدن الإقامة، يقال: عدن بالمكان إذا أقام به. وعَدَنْت البلد توطنْته. وعَدَنَتِ الإبلُ بمكان كذا لزمته فلم تبرح منه؛ ومنه ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي جنات إقامة. ومنه سمي المعدن (بكسر الدال)؛ لأن الناس يقيمون فيه بالصيف والشتاء. ومركز كلّ شيء معدنه. والعادن: الناقة المقيمة في المراعي. وعَدنُ بلدٌ؛ قاله الجوهري. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ تقدّم في غير موضع[١]. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو جمع سِوار. قال سعيد بن جبير: على كل واحد منهم ثلاثة أسورة: واحد من ذهب، وواحد من ورق، وواحد من لؤلؤ.

قلت: هذا منصوص في القرآن، قال هنا: «مِنْ ذَهَبٍ» وقال في الحج[٢] وفاطر[٣] ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾ وفي الإنسان[٤] ﴿مِنْ فِضَّةٍ﴾. وقال أبو هريرة: سمعت خليلي ﷺ يقول: «تبلغ الحِلْية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» خرجه مسلم. وحكى الفرّاء: «يحلون» بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة؛ يقال: حَلِيت المرأة تَحْلَى فهي حالية إذا لبست الحَلْي. وحَلِيَ الشي بعيني يَحْلَى؛ ذكره النحاس. والسُّوار سوار المرأة: والجمع أسورة، وجمع الجمع أساورة. وقرىء: ﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾[٥] وقد يكون الجمع أساور. وقال الله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ قاله الجوهري. وقال عُزَيز: أساور جمع أسورة، وأسورة جمع سِوار وسُوار، وهو الذي يلبس في الذراع من ذهب، فإن كان من فضة فهو قُلْب وجمع قِلَبَة؛ فإن كان من قرن أو عاج فهي مَسَكة وجمعه مَسَك. قال النحاس: وحكى قُطرب في واحد الأساور إسوار، وقُطْرب صاحب شذوذ، قد تركه يعقوب وغيره فلم يذكره.

---

(١) راجع ١/ ٢٣٩.
(٢) راجع ١٢/ ٢٨.
(٣) راجع ١٤/ ٣٤٥.
(٤) راجع ١٩/ ١٤١.
(٥) راجع ١٦/ ١٠٠.

قلت: قد جاء في الصحاح و قال أبو عمرو بن العلاء: واحدها إسوار. وقال المفسرون: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتِّيجان جعل الله تعالى ذلك لأهل الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْرَاً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ السندس: الرقيق[1] النحيف، واحده سندسة؛ قاله الكسائي. والإستبرق: ما ثُخُن منه ـ عن عكرمة ـ وهو الحرير. قال الشاعر:

تـراهـنّ يلبسـن المشـاعـر مَـرّة وإستبرقُ الديباج طَوْراً لباسُهَا

فالإستبرق الديباج. ابن بحر: المنسوج بالذهب. القُتَبيّ: فارسي معرب. الجوهري: وتصغيره أُبَيْرِق. وقيل: هو استفعل من البريق. والصحيح أنه وفاق بين اللغتين؛ إذ ليس في القرآن ما ليس من لغة العرب، على ما تقدّم، والله أعلم.

وخص الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر؛ لأن البياض يبدّد النظر ويؤلم، والسواد يذَم، والخضرة بين البياض والسواد، وذلك يجمع الشعاع. والله أعلم. روى النسائيّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله، أخبرنا عن ثياب الجنة، أخَلْقٌ يُخلَق أم نسيج ينسج؟ فضحك بعض القوم. فقال لهم: «ممّ تضحكون من جاهل يسأل عالماً»؟ فجلس يسيرا أو قليلا فقال رسول الله ﷺ: «أين السائل عن ثياب الجنة»؟ فقال: ها هو ذا يا رسول الله؛ قال: «لا بل تشّقق عنها ثمر الجنة» قالها ثلاثاً. وقال أبو هريرة: دار المؤمن درّة مجوّفة في وسطها شجرة تنبت الحُلَل ويأخذ بأصبعه أو قال بأصبعيه سبعين حُلّة منظمة بالدرّ والمَرْجان. ذكره يحيى بن سلام في تفسيره وابن المبارك في رقائقه. وقد ذكرنا إسناده في كتاب التذكرة. وذكر في الحديث أنه يكون على كل واحد منهم الحلة لها وجهان لكل وجه لون، يتكلمان بصوت يستحسنه سامعه، يقول أحد الوجهين للآخر: أنا أكرم على وَلِيّ الله منك، أنا أَلِي جسده وأنت لا تلِي. ويقول الآخر: أنا أكرم على ولِيّ الله منك، أنا أبصر وجهه وأنت لا تبصر.

---

(١) الرقيق أي من الديباج.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ «الْأَرَائِكِ» جمع أرِيكة؛ وهي السرر في الحِجال[1]. وقيل: الفرش في الحِجال؛ قاله الزجاج. ابنِ عباس: هي الأسرّة من ذهب، وهي مكلّلة بالدّر والياقوت عليها الحِجال، الأريكة ما بين صنعاء إلى أيْلة وما بين عدن إلى الجابية. وأصل متكئين مُوْتَكئين، وكذلك اتكأ أصله أوتكأ، وأصل التُّكَأة وَكَأة؛ ومنه التوكّأ للتحامل على الشيء، فقلبت الواو تاء وأدغمت. ورجل وُكَأة كثير الاتّكاء. ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ يعني الجنات، عكس ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾. وقد تقدّم. ولو كان «نِعْمَتْ» لجاز لأنه أسم للجنة. وعلى هذا ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾. وروى البَرَاء بن عازِب أن أعرابياً قام إلى رسول الله ﷺ في حجة الوداع، والنبيّ ﷺ واقف بعرفات على ناقته العَضْباء فقال: إني رجل مسلم فأخبرني عن هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية؛ فقال رسول الله ﷺ: «ما أنت منهم ببعيد ولا هم ببعيد منك هم هؤلاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ فأعلِم قومك إن هذه الآية نزلت فيهم» ذكره الماورديّ، وأسنده النحاس في كتاب معاني القرآن، قال: حدّثنا أبو عبد الله أحمد بن عليّ بن سهل قال حدّثنا محمد بن حميد قال حدّثنا يحيى بن الضُّرَيْس عن زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن البراء بن عازِب قال: قام أعرابي. . . ؛ فذكره. وأسنده السُّهَيْلِي في كتاب الأعلام. وقد روينا جميع ذلك بالإجازة، والحمد لله.

[٣٢] ﴿ ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

[٣٣] ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

[٣٤] ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

---

(١) الحجال، جمع الحجلة (بفتحتين) كالقبة، وموضع يزين بالثياب والستور والأسرة للعروس.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين، وهو متصل بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾. واختلف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما؛ فقال الكلبي: نزلت في أخوين من أهل مكة مخزوميين، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، زوجُ أمّ سلمة قبل النبيّ ﷺ. والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد، وهما الأخوان المذكوران في سورة «الصافات» في قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾[1]، وَرِث كل واحد منهما أربعة آلاف دينار، فأنفق أحدهما ماله في سبيل الله وطلب من أخيه شيئاً فقال ما قال. . .؛ ذكره الثعلبيّ والقُشَيري. وقيل: نزلت في النبي ﷺ وأهل مكة. وقيل: هو مَثَل لجميع مَن آمن بالله وجميع مَن كفر. وقيل: هو مَثَل لعُيَيْنَة بن حِصْن وأصحابه مع سلمان وصُهيب وأصحابه؛ شبّههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا؛ في قول ابن عباس. وقال مقاتل: اسمه تمليخا. والآخر كافر واسمه قرطوش. وهم اللذان وصفهما الله تعالى في سورة «الصافات». وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرىء قال: اسم الخَيِّر منهما تمليخا، والآخر قرطوش، وأنهما كانا شريكين ثم اقتسما المال فصار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فاشترى المؤمن منهما عبيداً بألف وأعتقهم، وبالألف الثانية ثياباً فكسا العراة، وبالألف الثالثة طعاماً فأطعم الجُوّع، وبنى أيضاً مساجد، وفعل خيراً. وأما الآخر فنكح بماله نساء ذوات يسار، واشترى دواب وبقراً فاستنتجها فنَمت له نماء مُفْرِطاً، واتجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غِنًى؛ وأدركت الأوّلَ الحاجةُ، فأراد أن يستخدم[2] نفسه في جنة يخدمها فقال: لو ذهبت لشريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح بي، فجاءه فلم يكد يصل إليه من غِلَظ الحجاب، فلما دخل عليه وعرفه وسأله حاجته قال له: ألم أكن قاسمتك المال نصفين! فما صنعتَ بمالك؟ قال: اشتريت به من الله تعالى ما هو خير منه وأبقى. فقال: أئنك

(١) راجع ١٥/ ٨١ فما بعد.

(٢) في جـ وي: يستأجر.

لمن المصدّقين، ما أظن الساعة قائمة! وما أراك إلا سفيهاً، وما جزاؤك عندي على سفاهتك إلا الحرمان، أو ما ترى ما صنعتُ أنا بمالي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أني كَسَبْت وسفهت أنت، اخرج عني. ثم كان من قصة هذا الغنيّ ما ذكره الله تعالى في القرآن من الإحاطة بثمره وذهابها أصلا بما أرسل عليها من السماء من الحُسْبان. وقد ذكر الثعلبيّ هذه القصة بلفظ آخر، والمعنى متقارب. قال عطاء: كانا شريكين لهما ثمانية آلاف دينار. وقيل: ورِثاه من أبيهما وكانا أخوين فاْقتسماها، فاْشترى أحدهما أرضاً بألف دينار، فقال صاحبه: اللهم إن فلاناً قد اشترى أرضاً بألف دينار وإني اْشتريت منك أرضاً في الجنة بألف دينار فتصدَّق بها، ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار فقال: اللهم إن فلاناً بني دارا بألف دينار وإني أشتري منك دارا في الجنة بألف دينار، فتصدَّق [بألف[1] دينار]، ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال: اللهم إن فلاناً تزوج اْمرأة بألف دينار وإني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار، ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار، وإني أشتري منك خدماً ومتاعاً من الجنة بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار. ثم أصابته حاجة شديدة فقال: لَعلّ صاحبي ينالُني معروفه فأتاه فقال: ما فعل مالُك؟ فأخبره قصته فقال: وإنك لمن المصدّقين بهذا الحديث! والله لا أعطيك شيئاً! ثم قال له: أنت تعبد إله السماء، وأنا لا أعبد إلا صنماً؛ فقال صاحبه: والله لأعِظَنّه، فوعظه وذكّره وخوّفه. فقال: سِرْبنا نصطد السمك، فمن صاد أكثر فهو على حق؛ فقال له: يا أخي! إن الدنيا أحقر عند الله من أن يجعلها ثواباً لمحسن أو عقاباً لكافر. قال: فأكرهه على الخروج معه، فاْبتلاهما الله، فجعل الكافر يرمي شبكته ويسمي باْسم صنمه، فتطلع متدفّقة سمكاً. وجعل المؤمن يرمي شبكته ويسمي باسم الله فلا يطلُع له فيها شيء؛ فقال له: كيف ترى! أنا أكثر منك في الدنيا نصيباً ومنزلة ونَفَراً، كذلك أكون أفضل منك في الآخرة إن كان ما تقول بزعمك حقًّا. قال: فضَجّ الملك الموَكَّل بهما، فأمر الله تعالى جبريل أن يأخذه فيذهب به إلى الجنان فيريَه منازلِ المؤمن فيها، فلما رأى ما أعد الله له قال: وعزّتك لا يضره ما ناله من

(١) من جـ وي.

الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا؛ وأراه منازل الكافر في جهنم فقال: وعزّتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا. ثم إن الله تعالى تَوفّى المؤمن وأهلك الكافر بعذاب من عنده، فلما استقر المؤمن في الجنة ورأى ما أعدّ الله له أقبل هو وأصحابه يتساءلون، فقال: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾[1] الآية؛ فنادى منادٍ: يا أهل الجنة! هل أنتم مطَّلِعون فاَطّلع إلى جهنم فرآه في سواء الجحيم؛ فنزلت: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً﴾.

بيّن الله تعالى حال الأخوين في الدنيا في هذه السورة، وبيّن حالهم في الآخرة في سورة «الصافات» في قوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. يقول أئنك لمن المصدقين ـ إلى قوله ـ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾. قال ابن عطية: وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه في عجائب البلاد أن بحيرة تِنّيس كانت هاتين الجنتين، وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الآخر فأنفق في طاعة الله حتى عيّره الآخر، وجرت بينهما المحاورة فغرقها الله تعالى في ليلة، وإياها عنى بهذه الآية. وقد قيل: إن هذا مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة: وليس بخبر عن حال متقدمة، لتزهد في الدنيا وترغب في الآخرة. وجعله زجراً وإنذاراً؛ ذكره الماوردي. وسياق الآية يدلّ على خلاف هذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي أطفناهما من جوانبهما بنخل. والحِفاف الجانب، وجمعه أحِفّة؛ ويقال: حفّ القوم بفلان يَحُفُّون حَفًّا، أي طافوا به؛ ومنه ﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾[2]. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾ أي جعلنا حول الأعناب النخل، ووسط الأعناب الزرع. ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ﴾ أي كل واحدة من الجنتين ﴿آتَتْ أُكُلَهَا﴾ تامّاً، ولذلك لم يقل آتتا. واَختُلف في لفظ: «كِلْتا وكِلاَ» هل هو مفرد أو مثنى؛ فقال أهل البصرة: هو مفرد؛ لأن كِلا وكلتا في توكيد الاثنين نظير «كُلٍّ» في المجموع؛ وهو اسم مفرد غير مثنى؛ فإذا ولِي[3] اسماً ظاهراً كان في الرفع والنصب والخفض على حالة واحدة؛ تقول: رأيت كِلا الرجلين وجاءني كلا الرجلين ومررت بكلا الرجلين؛ فإذا اتصل بمضمر قلبت الألف ياء في موضع الجر والنصب، تقول:

---

(١) راجع ١٥/ ٨١ فما بعد. (٢) راجع ١٥/ ٢٨٤ فما بعد. (٣) كذا في الأصول والصحاح للجوهري وقد نقله عنه صاحب اللسان. وكان الأولى أن يقال: «فإذا وليه اسم ظاهر...».

رأيت كِلَيْهما ومررت بكليهما، كما تقول عليهما. وقال الفراء: هو مثنًى، وهو مأخوذ من كُلٍّ فخّففت اللام وزيدت الألف للتثنية. وكذلك كلتا للمؤنث، ولا يكونان إلا مضافين ولا يتكلم بواحد، ولو تكلم به لقيل: كِلْ وكِلْت وكِلان وكِلْتان. واحتج بقول الشاعر:

فِي كِلْتِ رجْليها سُلاَمى[1] واحدَهْ كِلتاهما مَقْرونةٌ بزائدهْ

أراد في إحدى رجليها فأفرد. وهذا القول ضعيف عند أهل البصرة؛ لأنه لو كان مثنى لوجب أن تكون ألفه في النصب والجرّ ياءً مع الاسم الظاهر، ولأن معنى «كِلا» مخالف لمعنى «كل» لأن «كُلًّا» للإحاطة و «كِلَا» يدلّ على شيء مخصوص، وأما هذا الشاعر فإنما حذف الألف للضرورة وقدّر أنها زائدة، وما يكون ضرورة لا يجوز أن يجعل حجة، فثبت أنه اسم مفرد كَمِعَى إلا أنه وُضع ليدلّ على التثنية، كما أن قولهم «نحن» اسم مفرد يدلّ على اثنين فما فوقهما، يدلّ على ذلك قول جرير:

كِلاَ يَوْمَيْ أمَامةَ يومَ صَدّ[2] وإن لم نأتها إلا لِمامَا

فأخبر عن «كلا» بيوم مفرد، كما أفرد الخبر بقوله: «آتت» ولو كان مثنى لقال آتتا، ويوماً. واختلف أيضاً في ألف «كلتا»؛ فقال سيبويه: ألف «كلتا» للتأنيث والتاء بدل من لام الفعل وهي واو والأصل كِلْوا، وإنما أبدلت تاء لأن في التاء علَم التأنيث، والألف في «كلتا» قد تصير ياء مع المضمر فتخرج عن علم التأنيث، فصار في إبدال الواو تاء تأكيدٌ للتأنيث. وقال أبو عمر الجَرْمِيّ: التاء ملحقة والألف لام الفعل، وتقديرها عنده: فِعْتَلٌ، ولو كان الأمر على ما زعم لقالوا في النسبة إليها كِلْتَوِيّ، فلما قالوا كِلَوِيّ وأسقطوا التاء دلّ على أنهم أجروها مجرى التاء في أخت إذا نسبت إليها قلت أخوِيّ، ذكره الجوهري. قال أبو جعفر النحاس: وأجاز النحويون في غير القرآن الحمل على المعنى، وأن تقول: كلتا الجنتين آتتا أكلهما؛ لأن المعنى المختار[3] كلتاهما آتتا. وأجاز الفراء: كلتا الجنتين آتى أكله، قال: لأن المعنى كل

(١) السلامى كحبارى: عظام الأصابع في اليد والقدم.

(٢) كذا في الأصول واللسان مادة «كلا». وفي ديوانه المطبوع: «يوم صدق». والبيت من قصيدة مطلعها:

ألاحي المنازل والخياما وسكنا طال فيها ما أقاما

(٣) في جـ: الجنتان كلتاهما.

الجنتين. قال: وفي قراءة عبد الله «كلّ الجنتين آتى أكله». والمعنى على هذا عند الفراء: كل شيء من الجنتين آتى أكله. والأُكُل (بضم الهمزة) ثمر النخل والشجر. وكل ما يؤكل فهو أكُل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دائِمٌ﴾ وقد تقدم[١]. ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ أي لم تنقص.

قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَراً﴾ أي أجرينا وشققنا وسط الجنتين بنهر. ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قرأ أبو جعفر وشَيْبة وعاصم ويعقوب وابن أبي إسحاق «ثَمَر» بفتح الثاء والميم، وكذلك قوله: «وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ» جمع ثمرة. قال الجوهري: الثمرة واحدة الثمر والثمرات، وجمع الثمر ثمار؛ مثل جبل وجبال. قال الفراء: وجمع الثمار ثُمُر؛ مثل كتاب وكتب، وجمع الثمر أثمار؛ مثل أعناق وعنق. والثمر أيضاً المال المُثَمَّر؛ يخفف ويثقّل. وقرأ أبو عمرو «وكان له ثُمْر» بضم الثاء وإسكان الميم، وفسره بأنواع المال. الباقون بضمهما في الحرفين. قال ابن عباس: ذهب وفضة وأموال. وقد مضى في «الأنعام»[٢] نحو هذا مبيّناً. وذكر النحاس: حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمران بن بكار قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي قال حدثنا شعيب بن إسحاق قال [أخبرنا][٣] هارون قال حدثني أبان عن ثعلب عن الأعمش أن الحجاج قال: لو سمعت أحداً يقرأ «وكان له ثُمُر» لقطعت لسانه؛ فقلت للأعمش: أتأخذ بذلك؟ فقال: لا! ولا نُعْمَةَ عَيْنٍ[٤]. فكان يقرأ: «ثُمُر» ويأخذه من جمع الثمر. قال النحاس: فالتقدير على هذا القول أنه جمع ثمرة على ثمار، ثم جمع ثمار على ثمر؛ وهو حسن في العربية إلا أن القول الأول أشبه والله أعلم؛ لأن قوله: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ يدلّ على أن له ثمراً.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي يراجعه في الكلام ويجاوبه. والمحاورة المجاوبة، والتحاوُر التجاوب. ويقال: كلمته فما أحار إليّ جواباً، ومارجع إليّ حَويرا ولا حَوِيرة ولا مَحُورة ولا حِوَاراً؛ أي ما ردّ جواباً. ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ النفر: الرهط وهو مادون العشرة. وأرادها هنا الأتباع والخدم والولد، حسبما تقدّم بيانه.

---

(١) راجع ٩/ ٣٢٤.

(٢) راجع ٧/ ٤٩. (٣) من جـ وفي ي: حدّثنا.

(٤) في هذه الكلمة اثنتا عشرة لغة: نعم عين ونعمة ونعام ونعيم (بفتحهن) ونعمى ونعامى ونعام ونعم ونعمة (بضمهن) ونعمة ونعام (بكسرها). وتنصب الكل بإضمار الفعل؛ أي أفعل ذلك إنعاماً لعينك وإكراماً.

[٣٥] ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

[٣٦] ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ قيل: أخذ بيد أخيه المؤمن يُطيف به فيها ويُريه إياها. ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي بكفره، وهو جملة في موضع الحال. ومن أدخل نفسه النار بكفره فهو ظالم لنفسه. ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾ أنكر فناء الدار. ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي لا أحسب البعث كائناً. ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي﴾ أي وإن كان بعث فكما أعطاني هذه النعم في الدنيا فسيعطيني أفضل منه لكرامتي عليه؛ وهو معنى قوله: ﴿لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾ وإنما قال ذلك لما دعاه أخوه إلى الإيمان بالحشر والنشر. وفي مصاحف مكة والمدينة والشام «منهما». وفي مصاحف أهل البصرة والكوفة «منها» على التوحيد، والتّثنية أولى؛ لأن الضمير أقرب إلى الجنتين.

[٣٧] ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ .

[٣٨] ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ﴾ يهوذا أو تمليخا؛ على الخلاف في اسمه. ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ وعظه وبيّن له أن ما اعترف به من هذه الأشياء التي لا ينكرها أحد أبدع من الإعادة. و ﴿سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ أي جعلك معتدل القامة والخَلْق، صحيح الأعضاء ذكراً. ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ كذا قرأه أبو عبد الرحمن السُّلَمِي وأبو العالية. وروي عن الكسائي «لكن هو الله» بمعنى لكن الأمر هو الله ربي، فأضمر اسمها فيها. وقرأ الباقون «لكنا» بإثبات الألف. قال الكسائي: فيه تقديم وتأخير،

تقديره: لكن الله هو ربي أنا، فحذفت الهمزة من «أنا» طلبا للخفة لكثرة الاستعمال وأدغمت إحدى النونين في الأخرى وحذفت ألف «أنا» في الوصل وأثبتت في الوقف. وقال النحاس: مذهب الكسائي والفرّاء والمازِنِيّ أن الأصل لكن أنا فألقيت حركة الهمزة على نون لكن وحذفت الهمزة وأدغمت النون في النون فالوقف عليها لكنا وهي ألف أنا لبيان الحركة. وقال أبو عبيد: الأصل لكن أنا، فحذفت الألف فالتقت نونان فجاء بالتشديد لذلك وأنشدنا الكسائي:

لَهِنّـكِ مـن عَبْسِيَّـة لَـوَسِيمَـةٌ على هَنَواتٍ كـاذب مـن يقـولهـا

أراد: لله إنك [لوسيمة][1]، فأسقط إحدى اللامين من «لله» وحذف الألف من إنك. وقال آخر فجاء به على الأصل:

وترمينني[2] بالطَّرْف أي أنت مذنب وتَقْلِينَنِـي لكـنّ إيّـاكِ لاَ أَقْلِـي

أي لكن أنا. وقال أبو حاتم: ورووا عن عاصم «لكنا هو الله ربي» وزعم أن هذا لحن، يعني إثبات الألف في الإدراج. قال الزجاج: إثبات الألف في «لكنا هو الله ربي» في الإدراج جيدٌ؛ لأنه قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عِوضاً. قال: وفي قراءة أُبَيّ «لكن أنا هو الله ربي». وقرأ ابن عامر والمَسِيلِيّ[3] عن نافع ورُويس عن يعقوب «لكنا» في حال الوقف والوصل معاً بإثبات الألف. وقال الشاعر:

أنـا سيـف العشيـرة فـاعـرفـونـي حُمَيْـداً قـد تَـذَرّيْـتُ السَّنـامـا

وقال الأعشى:

فكيـف أنـا وانْتحـال القـوافـي بعـد المشيـب كفـى ذاك عـارا

ولا خلاف في إثباتها في الوقف. ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ «هُوَ» ضمير القصة والشأن والأمر؛ كقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[4] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[5]. ﴿وَلاَ أُشْرِكُ

---

(١) من جـ وي. (٢) في جـ وي: ويرميني بالطرف أي أنت مذنب. ويقليني لكن إياه لا أقلي.
(٣) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد. وهذه النسبة إلى مسيلة (كسفينة) بلدة بالقطر الجزائري.
(٤) راجع ١١/ ٣٤٠.
(٥) راجع ٢/ ٢٤٤.

بِرَبِّي أَحَدًا﴾ دلّ مفهومه على أن الأخ الآخر كان مشركاً بالله تعالى يعبد غيره. ويحتمل أنه أراد لا أرى الغنى والفقر إلا منه، وأعلم أنه لو أراد أن يسلب صاحب الدنيا دنياه قدر عليه؛ وهو الذي آتاني الفقر. ويحتمل أنه أراد جحودك البعث مصيره إلى أن الله تعالى لا يقدر عليه، وهو تعجيز الرب سبحانه وتعالى، ومن عجزه سبحانه وتعالى شبهه بخلقه؛ فهو إشراك.

[٣٩] ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾.

[٤١] ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ أي بالقلب، وهو توبيخ ووصية من المؤمن للكافر وردّ عليه، إذ قال: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾ و «ما» في موضع رفع، تقديره: هذه الجنة هي ما شاء الله. وقال الزجاج والفراء: الأمر ما شاء الله، أو هو ما شاء الله؛ أي الأمر مشيئة الله تعالى. وقيل: الجواب مضمر، أي ما شاء الله كان، وما لا يشاء لا يكون. ﴿لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ أي ما اجتمع لك من المال فهو بقدرة الله تعالى وقوته لا بقدرتك وقوتك، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع.

الثانية ـ قال أشهب قال مالك: ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول هذا. وقال ابن وهب: قال لي حَفْص بن مَيْسَرة: رأيت على باب وهب بن منبّه مكتوباً «ما شاء الله لا قوّة إلا بالله». وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال لأبي هريرة: «ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة ـ أو قال كنز من كنوز الجنة» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله إذا قالها العبد قال الله عز وجل أسلم عبدي واستسلم» أخرجه مسلم

في صحيحه من حديث أبي موسى. وفيه: فقال «يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس ألا أدُلُّك على كلمة من كنز الجنة ـ في رواية على كنز من كنوز الجنة ـ» قلت: ما هي يا رسول الله؟ قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله». وعنه قال قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة أو قال كنز من كنوز الجنة» قلت: بلى؛ فقال «لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم». وروي أنه من دخل منزله أو خرج منه فقال: بآسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله تنافرت عنه الشياطين من بين يديه وأنزل الله تعالى عليه البركات. وقالت عائشة: إذا خرجَ الرجل من منزله فقال باسم الله قال المَلَك هُديت، وإذا قال ما شاء الله قال الملك كُفِيت، وإذا قال لا قوة إلا بالله قال المَلك وُقيت. خرجه الترمذيّ من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «من قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلاّ بالله يقال كُفيت ووُقيت وتنحى عنه الشيطان» هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. خرجه أبو داود أيضاً وزاد فيه ـ فقال له: «هُدِيت وكُفيت ووُقيت». وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «إذا خرج الرجل من باب بيته أو باب داره كان معه ملكان موكلان به فإذا قال باسم الله قالا هُديت وإذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله قالا وُقيت وإذا قال توكلت على الله قالا كُفيت قال فيلقاه قَرِيناه فيقولان ماذا تريدان من رجل قد هُدِي ووُقِي وكُفِي». وقال الحاكم أبو عبد الله في علوم الحديث: سئل محمد بن إسحاق بن خزيمة عن قول النبيّ ﷺ: «تحاجّت الجنة والنار فقالت هذه ـ يعني الجنة ـ يدخلني الضعفاء» مَن الضعيف؟ قال: الذي يبرىء نفسه من الحول والقوّة يعني في اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة. وقال أنس بن مالك قال النبيّ ﷺ: «من رأى شيئاً فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره عين». وقد قال قوم: ما من أحد قال ما شاء الله كان فأصابه شيء إلا رَضِيَ به. وروي أن من قال أربعاً أَمِنَ من أربع: من قال هذه أمِن من العَيْن، ومن قال حسبنا الله ونعم الوكيل أمِن من كيد الشيطان، ومن قال وأفوض أمري إلى الله أمن مكر الناس، ومن قال: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أمِن من الغَمّ.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً﴾ «إنْ» شرط «تَرَنِ» مجزوم به، والجواب ﴿فَعَسَى رَبِّي﴾ و «أنا» فاصلة لا موضع لها من الإعراب. ويجوز أن تكون في موضع نصب توكيداً للنون والياء. وقرأ عيسى بن عمر: «إن ترنِ أنا أقل منك» بالرفع؛ يجعل «أنا» مبتدأ و «أقل» خبره، والجملة في موضع المفعول الثاني، والمفعول الأول النون والياء، إلا أن الياء حذفت لأن الكسرة تدلّ عليها، وإثباتها جيّد بالغ وهو الأصل لأنها الاسم على الحقيقة. و ﴿فَعَسَى﴾ بمعنى لعلّ، أي فلعلّ ربي. ﴿أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ﴾ أي في الآخرة. وقيل: في الدنيا. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي على جنتك. ﴿حُسْبَاناً﴾ أي مرامي من السماء، واحدها حُسْبانة؛ قاله الأخفش والقُتَبِيّ وأبو عبيدة. وقال ابن الأعرابي: والحسبانة السحابة، والحسبانة الوِسادة، والحسبانة الصَّاعقة. وقال الجوهري: والحسبان. (بالضم): العذاب. وقال أبو زياد الكلابي: أصاب الأرض حسبان أي جراد. والحسبان أيضاً الحساب، قال الله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[(١)]. وقد فُسِّر الحُسْبان هنا بهذا. قال الزجاج: الحسبان من الحساب؛ أي يرسل عليها عذاب الحساب، وهو حساب ما اكتسبت يداك؛ فهو من باب حذف المضاف. والحسبان أيضاً: سهام قصار يرمى بها في طَلْق واحد، وكان من رَمْي الأكاسرة. والمرامي من السماء عذاب. ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ يعني أرضاً بيضاء لا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قدم، وهي أَضَرّ أرض بعد أن كانت جنة أنفع أرض؛ و «زلقا» تأكيد لوصف الصعيد؛ أي تزلّ عنها الأقدام لملاستها. يقال: مكان زَلَق (بالتحريك) أي دَحْض، وهو في الأصل مصدر قولك: زلِقت رجله تَزْلَق زَلَقا، وأزلقها غيره. والزلق أيضاً عجز الدابة. قال رُؤْبة:

كأنها حَقْباءُ بَلْقاء الزَّلَق

والمَزْلَقة والمُزْلَقة: الموضع الذي لا يثبت عليه قدم. وكذلك الزَّلاّقة. والزَّلْق الحَلْق، زَلَق رأسَه يَزْلِقُه زَلْقاً حلقه؛ قاله الجوهري. والزَّلَق المحلوق، كالنَّقْض والنَّقَض. وليس المراد

---

(١) راجع ١٧/ ١٥٢.

أنها تصير مزلقة، بل المراد أنها لا يبقى فيها نبات كالرأس إذا حُلق لا يبقى عليه شعر؛ قال القشيرِيّ. ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً﴾ أي غائراً ذاهباً، فتكون أعدمَ أرض للماء بعد أن كانت أوجدَ أرض للماء. والغَوْر مصدر وضع موضع الاسم، كما يقال: رجلٌ صَوْمٌ وفِطْرٌ وعَدْلٌ ورِضاً وفَضْلٌ وزَوْرٌ ونساءٌ نَوْحٌ؛ ويستوي فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع. قال عمرو بن كُلثوم:

تظَــلّ جيــاده نَــوْحــا عليــه مقلَّــدة أعنّتهــا صُفُــونــا

آخر:

هَـريقـي مـن دمـوعهمـا سجـامـاً ضُبـاع وجـاوبـي نـوحـاً قيـامـاً

أي نائحات. وقيل: أو يصبح ماؤها ذا غَوْر؛ فحذف المضاف؛ مثلُ ﴿واسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[1] ذكره النحاس. وقال الكسائي: ماءٌ غَوْرٌ. وقد غار الماء يَغُور غَوْراً وغُوُورا، أي سفل في الأرض، ويجوز الهمز لانضمام الواو. وغارت عينه تَغُور غَوْراً وغُؤُورا؛ دخلت في الرأس. وغارت تَغار لغة فيه. وقال:

أغارتْ عينُه أم لم تَغَارَا

وغارت الشمس تغور غِيارا، أي غربت. قال أبو ذؤيب:

هـل الـدهـر إلاّ ليلـة ونهـارُهـا وإلا طلوعُ الشمس ثم غيارها

﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾ أي لن تستطيع ردّ الماء الغائر، ولا تقدر عليه بحيلة. وقيل: فلن تستطيع طلب غيره بدلاً منه. وإلى هذا الحديث انتهت مناظرة أخيه وإنذاره.

[٤٢] ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ اسم ما لم يسم فاعله مضمر، وهو المصدر. ويجوز أن يكون المخفوض في موضع رفع. ومعنى «أُحِيطَ بِثَمَرِهِ» أي أهْلِك مالُه كله. وهذا أوّل ما حقق الله تعالى به إنذار أخيه. ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أي فأصبح الكافر يضرب إحدى

(١) راجع ٩/ ٢٤٥ فما بعد.

يديه على الأخرى ندماً ؛ لأن هذا يصدر من النادم. وقيل: يقلّب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق؛ وهذا لأن المِلك قد يعبَّر عنه باليد، من قولهم: في يده مال، أي في مِلكه مال . ودلّ قوله : « فَأَصْبَحَ » على أن هذا الإهلاك جرى بالليل؛ كقوله: ﴿فَطَافَ[١] عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ ويقال: أنفقت في هذه الدار كذا وأنفقت عليها. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي خالية قد سقط بعضها على بعض؛ مأخوذ من خَوَتِ النجوم تخوى خَيًّا أمْحَلَتْ، وذلك إذا سقطت ولم تُمْطر في نَوْئها. وأخْوَت مثله. وخوّت الدار خَواء أقْوَت، وكذلك إذا سقطت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾[٢] ويقال: ساقطة؛ كما يقال: فهي خاوية على عروشها أي ساقطة على سقوفها؛ فجمع عليه بين هلاك التمر والأصل، وهذا من أعظم الجوائح، مقابلةً على بَغْيه. ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾ أي يا ليتني عرفت نعم الله عليّ، وعرفت أنها كانت بقدرة الله ولم أكفر به. وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم.

[٤٣] ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ «فِئَةٌ» اسم «تَكُنْ» و «لَهُ» الخبر. «يَنْصُرُونَهُ» في موضع الصفة، أي فئة ناصرة. ويجوز أن يكون. «يَنْصُرُونَهُ» الخبر. والوجه الأوّل عند سيبويه أولى لأنه قد تقدّم «لَهُ». وأبو العباس يخالفه، ويحتج بقول الله عز وجل: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[٣]. وقد أجاز سيبويه الآخر. و «يَنْصُرُونَهُ» على معنى فئة ؛ لأن معناها أقوام، ولو كان على اللفظ لقال ولم تكن له فئة تنصره ؛ أي فرقة وجماعة يلتجىء إليهم. ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً﴾ أي ممتنعاً ؛ قاله قتادة. وقيل: مستردًّا بدل ما ذهب منه. وقد تقدم اشتقاق الفئة في «آل عمران»[٤]. والهاء عوض من الياء التي نقصت

---

(١) راجع ١٨/ ٢٣٨ فما بعد.
(٢) راجع ١٣/ ٢١٦ فما بعد.
(٣) راجع ٢٠/ ٣٤٤ فما بعد.
(٤) راجع ٤/ ٢٤.

من وسطه، أصله فِيءٌ مثل فِيع؛ لأنه من فاء، ويجمع على فِئون وفِئات، مثل شِيات ولِدَات ومئات. أي لم تكن له عشيرة يمنعونه من عذاب الله، وضلّ عنه مَن افتخر بهم من الخدم والولد.

[٤٤] ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ اختلف في العامل في قوله «هُنَالِكَ» وهو ظرف؛ فقيل: العامل فيه. ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ﴾ ولا كان هنالك؛ أي ما نُصر ولا انتصر هنالك، أي لما أصابه من العذاب. وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿مُنْتَصِراً﴾. والعامل في قوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ﴾، وتقديره على التقديم والتأخير: الولاية لله الحقُّ هنالك، أي في القيامة. وقرأ أبو عمرو والكسائي: «الحقُّ» بالرفع نعتاً للولاية. وقرأ أهل المدينة وحمزة «الْحَقِّ» بالخفض نعتاً لله عز وجل، والتقدير: لله ذي الحق. قال الزجاج: ويجوز «الحقَّ» بالنصب على المصدر والتوكيد؛ كما تقول: هذا لك حقاً. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي «الوِلاية» بكسر الواو، الباقون بفتحها، وهما بمعنى واحد كالرِّضاعة والرَّضاعة. وقيل: الولاية بالفتح من الموالاة؛ كقوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[١]. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٢]. وبالكسر يعني السلطان والقدرة والإمارة؛ كقوله: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾[٣] أي له الملك والحكم يومئذ، أي لا يردّ أمره إلى أحد؛ والملك في كل وقت لله ولكن تزول الدعاوى والتَّوَهّمات يوم القيامة. وقال أبو عبيد: إنها بفتح الواو للخالق، وبكسرها للمخلوق. ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً﴾ أي الله خير ثواباً في الدنيا والآخرة لمن آمن به، وليس ثَمّ غير يُرْجَى منه، ولكنه أراد في ظن الجهال؛ أي هو خير مَن يُرجى. ﴿وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ قرأ عاصم والأعمش وحمزة ويحيى «عُقْباً» ساكنة القاف، الباقون بضمها، وهما بمعنى واحد؛ أي هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به. يقال: هذا عاقبة أمر فلان وعقباه وعَقْبُه، أي آخره.

---

(١) راجع ٣/ ٢٨٢ فما بعد.
(٢) راجع ١٦/ ٢٣٤.
(٣) راجع ١٩/ ٢٤٧.

[٤٥] ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي صف لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين مَثَل الحياة الدنيا، أي شبهها. ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ أي بالماء. ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ حتى استوى. وقيل: إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء؛ لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر. وقد تقدّم هذا المعنى في «يونس»[1] مبيَّناً. وقالت الحكماء: إنما شبّه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتلّ كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدرٍ كان نافعاً مُنْبِتاً، وإذا جاوز المقدار كان ضارّاً مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفافُ منها ينفع وفضولها يضرّ. وفي حديث النبيّ ﷺ قال له رجل: يا رسول الله، إني أريد أن أكون من الفائزين؛ قال: «ذَرِ الدنيا وخُذ منها كالماء الراكد فإن القليل منها يكفي والكثير منها يُطغي». وفي صحيح مسلم عن النبيّ ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورُزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه». ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي النبات ﴿هَشِيماً﴾ أي متكسّراً من اليُبس متفتّتاً، يعني بانقطاع الماء عنه، فحذف ذلك إيجازاً لدلالة الكلام عليه. والهَشْم: كسر الشيء اليابس. والهشيم من النبات اليابس المتكسر، والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء. ومنه قولهم: ما فلانٌ إلا هشِيمة كَرْمٍ؛ إذا كان سَمْحاً. ورجل هَشِيم: ضعيف البدن. وتهشّم عليه فلان إذا تعطّف واهتشم

(١) راجع ٨/٣٢٦.

ما في ضرع الناقة إذا احتلبه. ويقال: هَشَمَ الثَّرِيد؛ ومنه سُمِّيَ هاشم بن عبد مناف واسمه عمرو، وفيه يقول عبد الله بن الزِّبَعْرى:

عَمْرُو العُلاَ هَشَم الثريدَ لقومه ورجالُ مكّةَ مُسْنِتُون عجافُ

وكان سبب ذلك أن قريشاً أصابتهم سِنون[1] ذهبن بالأموال فخرج هاشم إلى الشأم فأمر بخبز كثير فخبز له، فحمله في الغرائر على الإبل حتى وافى مكة، وهشم ذلك الخبز، يعني كسره وثَرَده، ونحر تلك الإبل، ثم أمر الطُّهاة فطبخوا، ثم كفا القدور على الجفان فأشبع أهل مكة؛ فكان ذلك أول الحِباء بعد السنة التي أصابتهم؛ فَسُمِّيَ بذلك هاشماً. ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ أي تفرقه؛ قاله أبو عبيدة: ابن قتيبة: تنسفه. ابن كَيْسان: تذهب به وتجيء. ابن عباس: تديره؛ والمعنى متقارب. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف: «تُذْريه الريح». قال الكسائي: وفي قراءة عبد الله «تُذريه». يقال: ذَرَتْه الريح تَذْرُوه ذَرْواً و [تَذرِيه] ذَرْيا وأذرته تُذْريه إذْراء إذا طارت به. وحكى الفراء: أذريت الرجل عن فرسه أي قلبته. وأنشد سيبويه والفراء:

فقلت لـه صَـوِّبْ ولا تَجهـدَنَّـهُ فيُذرِك[2] من أخرَى القَطاةِ فتَزْلَقِ

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ من الإنشاء والإفناء والإحياء، سبحانه!

[٤٦] ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ويجوز «زينتا» وهو خبر الابتداء في التّثنية والإفراد. وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن في المال جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوّة ودفعاً، فصارا زينة الحياة الدنيا، لكن معه قرينة الصفة للمال

(١) في جـ: سنوات.

(٢) في كتاب سيبويه: «فيذنك» وهي رواية أخرى في البيت. وقد نسبه سيبويه إلى عمرو بن عمار الطائي. ومعنى صوب: خذ القصد في السير وارفق بالفرس ولا تجهد. وأخرى القطاة: آخرها والقطاة: مقعد الردف. (أي مؤخر الظهر حيث يكون ردف الراكب) يقول هذا لغلامه وقد حمله على فرسه ليصيد له. (راجع الشنتمري على كتاب سيبويه).

والبنين؛ لأن المعنى: المال والبنون زينة هذه الحياة المحتقرة فلا تُتبعوها نفوسكم. وهو رَدٌّ على عُيينة بن حِصْن وأمثاله لما افتخروا بالغنى والشرف، فأخبر تعالى أن ما كان من زينة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى، كالهشيم حين ذرته الريح؛ إنما يبقى ما كان من زاد القبر وعُدد الآخرة. وكان يقال: لا تعقد قلبك مع المال لأنه فَيْءٌ ذاهب، ولا مع النساء لأنها اليوم معك وغداً مع غيرك، ولا مع السلطان لأنه اليوم لك وغداً لغيرك. ويكفي في هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أي ما يأتي به سَلْمان وصُهيب وفقراء المسلمين من الطاعات. ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً﴾ أي أفضل. ﴿وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ أي أفضل أملاً من ذي المال والبنين دون عمل صالح، وليس في زينة الدنيا خير، ولكنه خرج مخرج قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾[2]. وقيل: خير في التحقيق مما يظنّه الجهال أنه خير في ظنهم.

واختلف العلماء في ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾؛ فقال ابن عباس وابن جبير وأبو مَيْسرة وعمرو بن شُرَحْبيل: هي الصلوات الخمس. وعن ابن عباس أيضاً: أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة. وقاله ابن زيد ورجّحه الطَّبَري. وهو الصحيح إن شاء الله؛ لأن كل ما بقي ثوابه جاز أن يقال له هذا. وقال عليّ رضي الله عنه: الحرث حرثان فحرث الدنيا المال والبنون؛ وحرث الآخرة الباقيات الصالحات، وقد يجمعهن الله تعالى لأقوام. وقال الجمهور: هي الكلمات المأثور فضلها: سبحانَ الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم. خرّجه مالك في موطئه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيِّب أنه سمعه يقول في الباقيات الصالحات: إنها قول العبد الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله. أسنده النّسائيّ عن أبي سعيد الخُدْريّ أن رسول الله ﷺ

---

(١) راجع ١٨/ ١٤٠ فما بعد.
(٢) راجع ١٣/ ٢١ فما بعد.

قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات» قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: [المسألة. قيل وما هي يا رسول الله؟ قال[1]:] «التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوّة إلا بالله». صححه أبو محمد عبد الحق رحمه الله. وروى قتادة أن رسول الله ﷺ أخذ غُصْناً فخرطه حتى سقط ورقه وقال: «إن المسلم إذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تحاتّت خطاياه كما تحات هذا خذهنّ إليك أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن فإنهن من كنوز الجنة وصفايا الكلام وهن الباقيات الصالحات». ذكره الثعلبي، وخرجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: «عليك بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنهن يعني يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها». وأخرجه الترمذي من حديث الأعمش عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ مرّ بشجرة يابسة الورقة فضربها بعصاة فتناثر الورق فقال: «إن الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر لتساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة». قال: هذا حديث غريب، ولا نعرف للأعمش سماعاً من أنس، إلا أنه قد رآه ونظر إليه. وخرج الترمذي أيضاً عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «لقِيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسْرِيَ بي فقال يا محمد أقرىء أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التُّربة عذبة الماء وأنها قِيعان وأن غِراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» قال: حديث حسن غريب، خرّجه الماوردي بمعناه. وفيه ـ فقلت: وما غراس الجنة؟ قال: «لا حول ولا قوّة إلا بالله». وخرّج ابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ مرّ به وهو يغرس غرساً فقال: «يا أبا هريرة ما الذي تغرس»؟ قلت غِراساً. قال: «ألا أدُلّك على غِراس خير من هذا سبحان الله والحمد لله ولا إلـه إلا الله والله أكبر يُغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة». وقد قيل: إن الباقيات الصالحات هي النيات والهَمّات؛ لأن بها تقبل الأعمال وترفع؛ قاله الحسن. وقال عُبيد بن عُمير: هن البنات؛ يدلّ عليه أوائل الآية؛ قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ثم قال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ يعني البنات الصالحات هنّ عند الله لآبائهن خير ثواباً،

---

(١) من جـ وي.

وخير أملاً في الآخرة لمن أحسن إليهن؛ يدلّ عليه ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: دخلتْ عليّ امرأة مسكينة... الحديث، وقد ذكرناه في سورة النحل في قوله: ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ﴾ الآية[١]. وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لقد رأيت رجلاً من أمتي أمِر به إلى النار فتعلق به بناته وجعلن يصرخن ويقلن ربِّ إنه كان يحسن إلينا في الدنيا فرحمه الله بهن». وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾[٢] قال: أبدلهما منه ابنة فتزوّجها نبيّ فولدت له اثني عشر غلاماً كلهم أنبياء.

[٤٧] ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ قال بعض النحويين: التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسيّر الجبال. قال النحاس: وهذا غلط من أجل الواو. وقيل: المعنى وأذكر يوم نسير الجبال، أي نزيلها من أماكنها من على وجه الأرض، ونسيرها كما نسير السحاب؛ كما قال في آية أخرى. ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[٣]. ثم تكسر فتعود إلى الأرض؛ كما قال: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا. فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾[٤]. وقرأ ابن كثير والحسن وأبو عمرو وابن عامر «ويوم تُسَيَّر» بتاء مضمومة وفتح الياء. و «الجبال» رفعاً على الفعل المجهول. وقرأ ابن مُحَيْصِن ومجاهد «ويوم تَسير الجبال» بفتح التاء مخففاً من سار. «الجبال» رفعاً. دليل قراءة أبي عمرو ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾[٥]. ودليل قراءة ابن مُحَيْصِن «وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً»[٤]. واختار أبو عبيد القراءة الأولى « نسير » بالنون لقوله : « وَحَشَرْنَاهُمْ » . ومعنى « بَارِزَةً » ظاهرة، وليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان؛ أي قد أجتثت ثمارها وقلعت جبالها، وهدم بنيانها ، فهي بارزة ظاهرة . وعلى هذا القول أهل التفسير . وقيل : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي برز ما فيها من الكنوز والأموات؛ كما قال: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا

---

(١) راجع ص ١١٧ من هذا الجزء.
(٢) راجع ١١/ ٣٣ فما بعد.
(٣) راجع ١٣/ ٢٣٩.
(٤) راجع ١٧/ ١٩٤ فما بعد.
(٥) راجع ١٩/ ٢٢٥ فما بعد.

وَتَخَلَّتْ﴾(١) وقال: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(٢) وهذا قول عطاء. ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ أي إلى الموقف. ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ أي لم نترك؛ يقال: غادرت كذا أي تركته. قال عنترة:

غَــادَرْتُــه مُتَعَفِّــراً أوصــالُــه والقــومُ بيــن مُجَــرَّحٍ ومُجَــدَّلِ

أي تركته. والمغادرة الترك؛ ومنه الغَدْر؛ لأنه ترك الوفاء. وإنما سمي الغدير من الماء غديراً لأن الماء ذهب وتركه. ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها. يقول: حشرنا بَرّهم وفاجِرَهم وجنّهم وإنسهم.

[٤٨] ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ «صَفًّا» نصب على الحال. قال مقاتل: يعرضون صفًّا بعد صفٍّ كالصفوف في الصلاة، كل أمة وزمرة صفا؛ لا أنهم صفّ واحد. وقيل: جميعاً؛ كقوله: ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾(٣) أي جميعاً. وقيل: قياماً. وخرّج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مَنْده في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبيّ ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى ينادي يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون أَحْضِرُوا حجتكم ويسّروا جواباً فإنكم مسؤولون محاسبون. يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب».

قلت: هذا الحديث غاية في البيان في تفسير الآية، ولم يذكره كثير من المفسرين، وقد كتبناه في كتاب التذكرة، ومنه نقلناه والحمد لله.

﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي يقال لهم: لقد جئتمونا حفاة عراة، لا مالَ معكم ولا ولداً. وقيل: فرادَى؛ دليله قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(٤). وقد تقدم. وقال الزجاج: أي بعثناكم كما خلقناكم. ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ هذا خطاب لمنكري

(١) راجع ١٩/ ٢٦٧ فما بعد. (٢) راجع ٢٠/ ١٤٧.
(٣) راجع ١١/ ٢١٥ فما بعد. (٤) راجع ٧/ ٤٢.

البعث؛ أي زعمتم في الدنيا أن لن تُبعثوا وأن لن نجعل لكم موعداً للبعث. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة حُفاةً عُراة غُرْلاً» قلت: يا رسول الله! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض». «غُرْلاً» أي غير مختونين. وقد تقدم في «الأنعام»[1] بيانه.

[٤٩] ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ «الكتاب» اسم جنس، وفيه وجهان: أحدهما ـ أنها كتب الأعمال في أيدي العباد؛ قاله مقاتل. الثاني ـ أنه وضْع الحساب؛ قاله الكَلْبِيّ، فعبّر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة. والقول الأوّل أظهر؛ ذكره ابن المبارك قال: أخبرنا الحكم أو أبو الحكم ـ شكّ نُعيم ـ عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بني أسد قال قال عمر لكَعْب: ويحك يا كعب! حدِّثنا من حديث الآخرة؛ قال: نعم يا أمير المؤمنين! إذا كان يوم القيامة رُفع اللوح المحفوظ فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله ـ قال ـ ثم يؤتى بالصحف التي فيها أعمال العباد فتنثر حول العرش، وذلك قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ قال الأسدي: الصغيرة ما دون الشرك، والكبيرة الشرك، إلا أحصاها ـ قال كعب: ثم يدعى المؤمن فيُعطى كتابه بيمينه فينظر فيه فإذا حسناته بادِيات للناس وهو يقرأ سيئاته لكيلا يقول كانت لي حسنات فلم تذكر فأحب الله أن يريه عمله كلّه حتى إذا استنقص ما في الكتاب وجد في آخر

(١) راجع ٧/ ٤٢.

ذلك كلّه أنه مغفور وأنك من أهل الجنة؛ فعند ذلك يقبِل إلى أصحابه ثم يقول: ﴿هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ. إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾[١] ثم يدعى بالكافر فيعطى كتابه بشماله ثم يلف فيجعل من وراء ظهره ويُلْوَى عنقه؛ فذلك قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾[٢] فينظر في كتابه فإذا سيئاته باديات للناس وينظر في حسناته لكيلا يقول أفأثاب على السيئات. وكان الفضيل بن عِيَاض إذا قرأ هذه الآية يقول: يا ويلتاه! ضِجُّوا إلى الله تعالى من الصغائر قبل الكبائر. قال ابن عباس: الصغيرة التبسم، والكبيرة الضحك؛ يعني ما كان من ذلك في معصية الله عز وجل؛ ذكره الثعلبِيّ. وحكى الماوردِيّ عن ابن عباس أن الصغيرة الضحك.

قلت فيحتمل أن يكون صغيرة إذا لم يكن في معصية، فإن الضحك من المعصية رِضاً بها والرضا بالمعصية معصية، وعلى هذا تكون كبيرة، فيكون وجه الجمع هذا والله أعلم. أو يحمل الضحك فيما ذكر الماوردِيّ على التبسم، وقد قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا﴾[٣]. وقال سعيد بن جبير: إن الصغائر اللَّمَمُ كالمَسِيس والقُبَل، والكبيرة المواقعة والزِّنى. وقد مضى في «النساء»[٤] بيان هذا. قال قتادة: اشتكى القوم الإحصاء، وما اشتكى أحد ظلماً، فإياكم ومحقَّرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه. وقد مضى. ومعنى. «أَحْصَاهَا» عدّها وأحاط بها؛ وأضيف الإحصاء إلى الكتاب توسعاً. ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾ أي وجدوا إحصاء ما عملوا حاضراً. وقيل: وجدوا جزاء ما عملوا حاضراً. ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ أي لا يأخذ أحداً بُجْرم أحد، ولا يأخذه بما لم يعمله؛ قاله الضحاك. وقيل: لا ينقص طائعاً من ثوابه ولا يزيد عاصياً في عقابه.

[٥٠] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

(١) راجع ١٨/ ٢٦٨ فما بعد. (٢) راجع ١٩/ ٢٧٠.
(٣) راجع ١٣/ ١٧٥. (٤) راجع ٥/ ١٥٨.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ تقدم في «البقرة» هذا مستوفى[1]. قال أبو جعفر النحاس: وفي هذه الآية سؤال، يقال: ما معنى. ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ففي هذا قولان: أحدهما - وهو مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى أتاه الفسق لما أمِر فعصى، فكان سببَ الفسق أمْرُ ربه؛ كما تقول: أطعمته عن جوع. والقول الآخر - وهو مذهب محمد بن قُطْرب أن المعنى: ففسق عن ردّ أمر ربه. ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ وقّف عز وجل الكفرة على جهة التوبيخ بقوله: أفتتخذونه يا بني آدم وذرّيته أولياء وهم لكم عدوّ؛ أي أعداء، فهو اسم جنس. ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ أي بئس عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الله. أو بئس إبليس بدلاً عن الله. واختلف هل لإبليس ذرية من صلبه؛ فقال الشعبيّ: سألني رجل فقال هل لإبليس زوجة؟ فقلت: إن ذلك عُرْس لم أشهده، ثم ذكرت قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾ فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت نعم. وقال مجاهد: إن إبليس أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات؛ فهذا أصل ذريته. وقيل: إن الله تعالى خلق له في فخذه اليمنى ذكراً وفي اليسرى فرجاً؛ فهو ينكح هذا بهذا، فيخرج له كل يوم عشر بيضات، يخرج من كل بيضة سبعون شيطاناً وشيطانة، فهو يَخْرج وهو يطير، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم في بني آدم فتنة. وقال قوم: ليس له أولاد ولا ذرية، وذرّيته أعوانه من الشياطين. قال القشيري أبو نصر: والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس أتباعاً وذرّية، وأنهم يوسوسون إلى بني آدم وهم أعداؤهم، ولا يثبت عندنا كيفية في كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس، فيتوقف الأمر فيه على نقل صحيح.

قلت: الذي ثبت في هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين عن الإمام أبي بكر البَرْقاني أنه خرج في كتابه مسنداً عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من رواية عاصم عن أبي عثمان عن سلمان قال قال رسول الله ﷺ: «لا تكن

(١) راجع ١/٢٩١.

أوّلَ من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرّخ». وهذا يدلّ على أن للشيطان ذرّية من صلبه، والله أعلم. قال ابن عطية: وقوله «وذرّيته» ظاهر اللفظ يقتضي الموسوسين من الشياطين، الذين يأتون بالمنكر ويحملون على الباطل. وذكر الطبري وغيره أن مجاهداً قال: ذرية إبليس الشياطين، وكان يعدّهم زَلَنْبُور صاحب الأسواق، يضع رايته في كل سوق بين السماء والأرض، يجعل تلك الراية على حانوت أوّل من يفتح وآخر من يغلق. وثَبَر صاحب المصائب، يأمر بضرب الوجوه وشق الجيوب، والدعاءِ بالويل والحرب والأعور صاحب أبواب الزنى. ومسوط[1] صاحب الأخبار، يأتي بها فيلقيها في أفواه الناس فلا يجدون لها أصلاً. وداسم الذي إذا دخل الرجل بيته فلم يسلم ولم يذكر اسم الله بَصّرَه من المتاع ما لم يُرفع وما لم يُحسَن موضعه، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه. قال الأعمش: وإني ربما دخلت البيت فلم أذكر الله ولم أسلّم، فرأيت مطهرة فقلت: ارفعوا هذه! وخاصمتهم، ثم أذكر فأقول: داسم داسم! أعوذ بالله منه! زاد الثعلبي وغيره عن مجاهد: والأبيض، وهو الذي يوسوس للأنبياء. وصخر وهو الذي اختلس خاتم سليمان عليه السلام. والولهان وهو صاحب الطهارة يوسوس فيها. والأقيس وهو صاحب الصلاة يوسوس فيها. ومُرّة وهو صاحب المزامير وبه يُكْنى. والهفاف يكون بالصحاري يُضلّ الناس ويتيههم. ومنهم الغيلان. وحكى أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفي في كتاب اللؤلؤيّات عن مجاهد أن الهفاف هو صاحب الشراب، ولقوس صاحب التحريش، والأعور صاحب أبواب السلطان. قال وقال الدّارانِيّ: إن لإبليس شيطاناً يقال له المتقاضي، يتقاضى ابن آدم فيخبر بعمل كان عمله في السرّ منذ عشرين سنة، فيحدث به في العلانية. قال ابن عطية: وهذا وما جانسه مما لم يأت به سند صحيح، وقد طوّل النقاش في هذا المعنى وجلب حكايات تبعد عن الصحة، ولم يمرّ بي في هذا صحيح إلا ما في كتاب مسلم من أن للصلاة شيطاناً يسمى خُنْزب. وذكر الترمذي أن للوضوء شيطاناً يسمى الولهان.

قلت: أما ما ذُكر من التعيين في الاسم فصحيح؛ وأما أن له أتباعاً وأعواناً وجنوداً فمقطوع به، وقد ذكرنا الحديث الصحيح في أن له أولاداً من صلبه، كما قال مجاهد وغيره.

(١) في جـ: وشوط.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدّثهم بالحديث من الكذب فيتفرّقون فيقول الرجل منهم سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدّث. وفي مسند البَزّار عن سلمان الفارسي قال قال النبيّ ﷺ: «لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصِب رايته». وفي مسند أحمد بن حنبل قال: أنبأنا عبد الله بن المبارك قال حدّثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ عن أبي موسى الأشعري قال: إذا أصبح إبليس بثّ جنوده فيقول من أضل مسلماً ألبسته التاج قال فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلق زوجته، قال: يوشك أن يتزوّج. ويقول آخر: لم أزل بفلان حتى عَقّ؛ قال: يوشِك أن يَبَرّ. قال ويقول القائل: لم أزل بفلان حتى شَرِب؛ قال: أنت! قال ويقول: لم أزل بفلان حتى زنى؛ قال: أنت! قال ويقول: لم أزل بفلان حتى قتل؛ قال: أنت أنت! وفي صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلتُ كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئاً قال ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرّقت بينه وبين أهله قال فيدنيه أو قال فيلتزمه ويقول نعم أنت». وقد تقدّم. وسمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطي بثغر الإسكندرية يقول: إن شيطاناً يقال له البيضاوي يتمثّل للفقراء المواصلين(١) في الصيام فإذا استحكم منهم الجوع وأضر بأدمغتهم يكشف لهم عن ضياء ونور حتى يملأ عليهم البيوت فيظنون أنهم قد وصلوا وأن ذلك من الله وليس كما ظنوا.

حققه

إسحاق إبراهيم أطفيش

تم الجزء العاشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الحادي عشر، وأوّله قوله تعالى:

«ما أشهدتم خلق السموات والأرض»

---

(١) في جـ: المواظبين.

فهرس الجزء العاشر

تفسير سورة الحجر

تفسير سورة النحل

تفسير سورة الإسـراء

تفسير سورة الكهـف

□□□